AYMAN AL-OTOOM





أيمن العتوم

يسمعون حسيسها

رواية
NOVEL

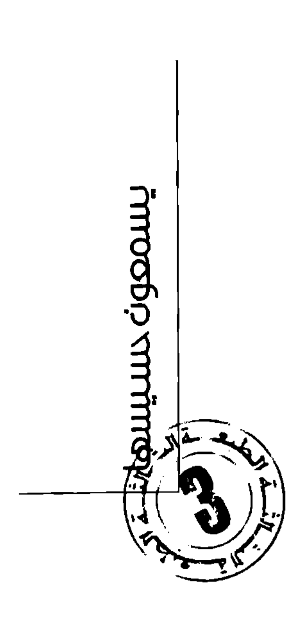
أيمن العتوم

يسمعون حسيسها

معايشات سجين تدمريّ
1980 - 1997






يسمعون حسيسها
الطبعة الثالثة
3

يسمعون حسيسها / رواية عربيّة
أيمن العتوم / مؤلّف من الأردنّ
الطبعة الثالثة، أيار 2013 ◆ ط1، تشرين الأوّل 2012 ◆ ط2، كانون الثاني 2013



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب: 9157، عمّان 11191 ـ الأردنّ،
هاتف 5605431 6 00962 / 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
محمد سيف ® عمّان ☎ 95297109 7 00962
لوحة الغلاف: **فيودور برونيكوف/ روسيا**
التنضيدّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **المطبعة الوطنيّة / عمّان، الأردنّ**

ISBN 978-614-419-301-3

الإهداء:

إلى ثوّار الحرّيّة . . . إلى الّذين يحملون مشاعل الانتصار . . . ويكتبون بدمائهم صفحة المجد والخلود . . . إلى الّذين يصنعون اليوم الفجرَ ، ويرفعونه على مآذن دمشق ، وينثرونه ورودًا في ساحات النّضال على تراب سوريّة الحبيبة . . .

إلى شهداء (تدمر) . . . أولئك الّذين جعلوا من أجسادهم جسرًا يعبره الأحرار من ضفّة قلوبهم إلى شطآن أوطانهم ، عبر أكثر من ثلاثين عامًا من التّضحيات الّتي لم تنقطع . . .

إلى الشّمس الطّالعة من هناك كي تملأ الكون بالنّور ، بعد عقودٍ من دياجير الظّلام القاتمة . . .

إلى الشهداء الّذين يرتقون اليوم في الثّورة السّوريّة المجيدة استبشارًا بنصرٍ من الله وفتحٍ قريب . . .

توضيح من صاحب هذه الحكايات:

كلّ ما رويتُه في هذه الصّفحات صادقٌ دون مُوارَبة ، حقيقيٌّ دون تَمْويه ، وهو ليس الحقيقةَ الكاملة ، فهو لا يُساوي أكثر من عُشرها . . . إنّها مشاهداتي ومُعايشاتي لأيّام قضيتُها داخل مهجع (٢٧) ومهجع (٣٤) في سجن تدمر مِمّا تذكّرتُهُ ، أمّا بقيّة المهاجع فقِصَصُها ليستْ أقلّ فظاعةً من هذه القصص الّتي رويتُها هنا . . .

هذه الصّفحة من التّاريخ ، هي صفحةٌ من كتابٍ لم يُؤلَّف فيه إلاّ القليل ، وهي دعوةٌ لكلّ الأحرار الّذين عاشوا من تاريخ بلدي ما عشتُهُ ويملكون قلمًا حُرًا أن يُسطّروا تجربتهم كما فعلتُ أنا ، فيضيفوا بذلك إلى كتاب التّاريخ صفحةً جديدة ، ثمّ يكتمل هذا الكتاب بمقدار ما يملك الأحرار من جرأة ومصداقيّة في رواية ما عايَشوه . . .

إنّها دعوةٌ لاكتمال الصّفحات ، ليس من أجلنا نحن الّذين خرجنا أحياء من تلك المقابر ، بل من أجل الّذين قضوا شُهداء وهم بعشرات الألوف إن لم يكونوا بالمئات ، ومن أجل المفقودين الّذين تنتظرهم أمّهاتهم عند كلّ شروق شمسٍ وعند كلّ غروبٍ ، ولا يعلم غير الله إنْ كانوا سيعودون يومًا أم سيُمعنونَ في الغياب!!

الطّبيب إياد أسعد

(١)
الصّفصاف والسَّرو

مثل أيّ طفلٍ في القرية ، نما عالَمي بين أشجارٍ ظليلة تحكي قصّة الذّاهبين ، وبين حقول مورقة تروي فصولاً من حياة الرّاحلين . . . كانت السّحب العابرة في الأيّام المُشمِسة ترفعني إليها عبرَ خيالاتي المُجنّحة . . . وكانت الفراشات في فصل الرّبيع تغطّي كلّ شيء بما في ذلك صفحة وجهي السّمراء ، وكانت النّحل تهب عسلها للرّائحين والغادين عن طِيب نَفْس ، ولا تطلب مقابلاً حتى ولو كانت مجرد كلمة شكرٍ عابرة ، وكانت الورود تزكم أنوف الطّيور بروائحها الشّذيّة ، قبل أن تعبق في أنوف البشر أنفسهم . . . وكنتُ أجد بين أشجار الصّفصاف والسّرو مساحة للرّكض السّاذج تعبيرًا عن انطلاقات عفويّة لا يملك طفلٌ في مثل سِنّي لها رَدًا . وفي الينبوع الصّغير الّذي يتفجّر من رأس الجبل ويهوي إلى الوادي كنتُ أجد فرصةً للاستحمام الّذي لا ينتظر دورًا ولا إذنًا من أحد . . . هل كانت هذه الجنّة؟! إذا كانت هذه كذلك فأين جهنّم إذًا؟! مَنْ يدري ماذا يستتر خلف الغد . . .؟!

مَنْ يتحكّم بماضيه ليصنع مستقبله؟! مَنْ يعلم موعد العاصفة القادمة لكي يقف على قارعة الطّريق فيتنحّى جانبًا ويسمح لها بالمرور قبل أن تقتلعه معها إلى الفضاءات الذّاهلة ، فيصبح نُثارةً في مهبّ الرّيح؟! لو كنتُ يومها أعرف قيمة القلم والورقة ، لرسمتُ غدي الحالِم بيدي قبل أن ترسمه كائنات خارج الإنسانيّة لا تعترف بالبشريّة

مُطلَقًا ، إنّها كائنات قادمة من الجحيم نفسه!! وحينما كنتُ أتلهّى بتعريف الجحيم وقراءة الآيات الّتي تُخبر عنه لم أكن لأفهمه إلاّ عندما صرتُ في قلبه تمامًا ، وصار هو في قلبي . لا أحد يعرف الجحيم أكثر منّا ؛ نحن الّذين كُنّا هُناك!!!

هل كانت أمّي تعرف ما يمكن أن يخبّئه القدر لطفل لاه مثلي؟! وهل كان أبي يُدرك أنّ الجحيم يُمكن أن يتشكّل في الحياة الدّنيا قبل الآخرة ، وأنّ على الأرض نموذجًا له يُعدّ حقيقيًا إذا ما عاشه المرء ، وتنقّل بين دَرَكاته؟! ولأنّه لا أحد يعلم الغيب ، فقد غرقتُ في لُجّ القدر ؛ ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوْءُ﴾!!

يا إله السّماء : كم ناديتك لكي لا تتركني مع الوحوش ، ثمّ لم يكن للوحوش الوالِغة في دمي أيُّ ارْعِواء!! يا إله السّماء السّابعة : كم ناجيتُك لكي تُبقي على ما تبقّى من كينونتي الّتي انتزعوها من تحت جلدي ثمّ تركتَهم يستمرّون في انتزاعي منّي حتّى لم أعد أنا . . . أنا!!! أيّ حكمة تتجلّى لي لكي أَعِيَها عنك يا ربٌّ ، والسّباع تَغِل في دمي ولا تكفّ عن شربي حتّى آخر قطرة من روحي!! يا ربّ السِّدرة : حكمتَك ؛ فإنّي لم يعد لي منّي شيءٌ أستبقيه ليوم الفهم الأكبر!! يا ربّ المُنتَهى : لو كان المُنتَهى أن أنتهي قبل أن أروي عن القادمين من الكوكب الآخر لضاعت الحكمة إذًا ؛ ولاختفى التّجلّي ، ولامّحى الفهم!! يا ربّ الوحوش والكائنات الغريبة والمخلوقات الّتي لا تُشبه البشر في شيء : ساعدني لكي أقول ما ينبغي قوله!! ساعدنِي لكي أنجح في قتل الخوف الّذي شرّش في أعماقي على مدى سبعة عشر عامًا!! ساعدني لكي تكفّ السّياط الّتي لا زلتُ أتخيّلها – بعد كلّ هذا العمر– تصطفق داخل رأسي صباح مساء ، ولا تَنِي عن نَهْشِ

خلاياي ، والفَتْك بعِظامي!!

***

طال شعرُ رأسي ، وتهدّل جزءٌ منه على كتفي ، كأيّ شابٍّ في السّبعينيّات كنتُ أجد في ذلك لذّة غامضة لا تحتاج إلى تفسير ، وكان بنطلون (الجينز) موضة العصر ، إضافةً إلى قميص (الكاروهات) ذي الياقة الواسعة الّتي تغطّي نصف الأكتاف ؛ ها أنذا مثل كلّ جيلي من الشّباب ، أجدُ في الحياة متعةً يمكن أن تُقتنص إذا ما غفل الحادي ، ونامت أعين الرّقباء . . . غير أنّ أبي سرعان ما قضى على كلّ ذلك بتشدّده الكارثيّ ؛ صار يُمسك بياقة القميص الواسعة ويشدّني منها حتّى أكاد أختنق ، ثمّ يعمد بعد ذلك إلى (الجينز) المعلّق خلف الباب فيُعمِل فيه المِقصّ ، وفي بِضْع لحظاتٍ يرميه على الأرض قِطَعًا مُمَزّقة ، ويصيح فيّ قبل أن يلطمني على وجهي :

- أنا مربّيك لَتْصير خنيث!!

- بَسْ هَيْ . . .

- خْراس يا ولد ، ولا تْبَسْبِسْلِي . . . يا ويلك إزا شِفتك مرّة تانية بها الهِبِّز المجنون تبعك!!

ويتركني أصحو رويدًا رويدًا على استبدادٍ يبدو أنّه موروث ، أو ربّما أوحتْ به حكومات لم تُبقِ على شيءٍ لم تستبدّ به!!

غير أنّ أبي الّذي أذاقني من العذاب صنوفًا يستحقّ اليوم منّي الرّحمة الوابلة لسببين ، سوف يتبيّنان لاحقًا .

في البكالوريا رفع أبي المسدّس في وجهي ، وصرخ بكلّ ثقة :

- إزا ما جبت المجموع إلّي بِفَوّتَكْ كلّيّة الطّبّ ، والله لفَضّي هالرّصاصات بْراسك!!

ومرّة ثانية ، وجدني أجلس تحت شجرة بلّوطٍ في تلك الأيّام ،

ولم تكن بين يدي كتب البكالوريا ، فأمسك بجذع شجرةٍ غليظٍ ، ثمّ رقى بجسده الّذي يزيد عن (١٢٠) كغم ، فقفز على ساقيَّ الممدودتين تحته حتّى كاد يكسرهما ، وصاح وهو يتميّز من الغيظ :

- قاعد مثْلِ الكلب هوني . . . هي كلّيّة الطّبّ بتستنّا كلاب متلك لَيْفوتُوّا!! مَ هيك يا كلب!! والله لَوَرْجيك!!

ولم تنفعني تأوّهاتي ، وصرخات آلامي ، بل سارع إلى كسر جذع آخر ، وراح يهوي به على وجهي ، فتخلّصتُ بالهروب ، ولولا نحول جسدي ، وسرعة ركضي لما نجوت منه وهو يعدو ورائي ولا يتوقّف عن ملاحقتي!!

ومرّة ثالثة طُردت من المدرسة بسبب شِجارٍ بيني وبين أحد الأساتذة ، الّذي أُحرِج أمام الطّلاّب من ردّي عليه ، فبعث بي إلى المدير ، فقرّر المدير حينئذٍ طردي لثلاثة أيّام ، ولمّا سمع أبي بذلك ، تناول سكّينًا كبيرًا من المطبخ ، وهُرِعَ باتّجاهي وهو يلوّح بها ، ويصيح :

- أنا باعتك عَ المَدرسة تا تنطرد مِنّا يا حَيَوان ، والله لإَدْبحكْ مِتِلْ ما بْتِنْدبح الجاجة . . .

وعندما كانت المفاجأة تتغوّل عليّ وتكاد تُسقطني لِما هالني من منظر أبي ، تسمّرتُ في البداية مكاني ، وقفز الدّم إلى عينيّ ، أمّا هو فتابع وهو يصيح على أمّي :

- هاتي الطُّشت يا حرمة ، والله لإَدْبَحُو دَبحْ . . .

ركضتُ باتّجاه الحقول وأنا أرتجف من الخوف ، واختبأت خلف الأشجار حتّى يهدأ أبي . . . وكنتُ أظلّ على خوفي هذا حتّى يهبط اللّيل ، ولا تكون لي من شفيع إلاّ أمّي الّتي كانت تُقبّل رِجلَيْ أبي لكي يسمح لي بالمبيت هذه المرّة ، وتحلف له أغلظ الأيمان أنّه لن يعودَ لمثلها!!

هربتُ من أبي إلى المسجد ، وكأنّما وجد أبي حرمةً في ملاحقتي إلى هناك ، أو اطمأنّ إلى نقاء بعض الشّيوخ الّذين يدرّسون فيه ، فكفّت العصا عن الهُويّ على رقبتي ، والسّكين عن الارتفاع في وجهي ، واستسلم أبي لقُدسيّة المكان!!

تنقّلتُ في البكالوريا بين المدرسة والمسجد ، ظلّ الشّيخ (منير) يغرس الفضائل والقِيمَ في نفوسنا ، حتّى نمت ثمرتُها مع الزّمن ، وفتحتُ عينيَّ على أفكارٍ جديدة لم تكن لولا الشّيخ (منير) لتحلّ فِيّ ، وسارعت لقاءاتي عددًا من الشّباب في المسجد إلى بلورتها في حقل القلب المفتوح لكلّ شيء!!

وكان أبي يعود من عمله ، فيبدأ بالصّراخ على أمّي سائلاً عنّي ، وحينَ تقول له : في المسجد ، يخور مثل ثورٍ ويسكتُ على مضض!!

في المدرسة كان زجاج النّوافذ لا يستقرّ في أماكنه أسبوعًا ، أُبتلِيت المدرسة بشبابٍ مُخرّبين ، يحطّمون الزّجاج ، ويحفرون خشب الأبواب ، ويقتلعون الألواح من أماكنها ، ويكسرون (لمبات) الغرف . ومرّة استفحل الأمر ، فاستغاث أستاذ الصّفّ بالمدير ، فهُرِعَ المدير إلينا ، ولمّا رأى الصّفّ على هذه الشّاكلة ، راح يصرخ :

- يا كلاب . . . إنتو قاعدين بْصِيْرِة . . .!! وْلا إنتا وْيّاه أبوك بْيِشتغل من الصّبح لَلْمسا مشان ربع ليرة تا يجيبلك دفتر . . .!! وْلا إنتا وْياه ليش بتكسْروا . . . وْلا لِبْغال ما بتساوي هيك . . . هو العلم ما إلو قيمة عَنْدكُنْ . . .؟!

رفعتُ يومها يدي ، مستأذنًا في الحديث ، فقال لي المدير :

- هاتْ لَشوف . . .

فقلتُ مستهزئًا :

- نِحْنا جيلَ الثّورة ؛ مَهيك بِتْقولو . . .؟! نِحْنا مين ربّانا هَيْ

التِّربايِة . .؟! إلّي بساووا هَيْ الشّغلة ؛ يعني بِكَسْروا وبِدَمْروا إنتو ربّيتوُّن على هيك شي . أمّا إلّي بربّينا تِرْباية صحيحة على حبّ الوطن ، وحبّ الوالدَين ، بيجي واحد منكن بيكتب فيه تقرير ، بتروحوا بتحطّوه بْمَكان ما حدا غير الله بْيَعْرف فيه . . . يا أستاذ إلّي كسّروا وعمْلوا هَيْ العمايل مِنكن ، شباب بلا أخلاق من فِلْم لَفِلْم ، ومن سُكْر لسكر ، ومن بِنْت لَبِنْت . . . إنتو إلّي لازِم توقفوُّنْ عند حَدُّنْ . . .!!

كان المدير يستمع إليّ وهو يستشيط غضبًا ، وعرف أنّني من جماعة الشّيخ (منير) ، فقال لي متحدّيًا :

– الطّالب إلّي بْتحكي عنّو من فِلم لَفِلْم ومن سُكْر لَسُكْر ومِن بِنْت لَبِنْت ، هادا طالب ثوريّ تقدّميّ ، هادا بْيِسْعى لبناء المجتمع العربيّ الاشتراكيّ الموحّد ، هادا طالب آثر المصلحة العامّة على مصلحتو الخاصّة . أمّا الطّالب إلّي كلّ وقتو للدّراسة والعلم ، وبْينجح بِالمَرتبة الأولى فهادا طالب أنانيّ ، ضرب المصلحة العامّة (مصلحة بناء المجتمع العربيّ الاشتراكيّ الموحّد بعرض الحائط) ، وعمل لَيْصير طبيبْ أو مهندسْ إيثارًا لَمصلحتو الشّخصيّة ، لَهيكْ الطّالب الثّوريّ يستحقّ أن تُقدِّم الدّولة له كلّ إمكانيّاتها ، أمّا الطّالب إلّي بْيُدْرس فهادا ما بْيِسْتاهِلْ أيّ مساعدة من الدّولة .

واستبدّ به الغضب أكثر ، فصار يصيح بي :

– ولا إنتا شو جايبك لهون؟! واحد مِتلك متخلّف رجعي لازم يكون هُنيك بالجبّانة (ونظر من نافذة الصّفّ إلى المقبرة الّتي تبعد عن المدرسة قليلاً) هُنيك مكانك الطّبيعيّ ؛ مقبور . . . والله لَنْحطّك قذيفة بْمَدفع ، ونضربك على إسرائيل حتّى نِخلَص مِنّك . . .!!

كانت تربية المسجد تبعث في النّفس يقينًا ، وطمأنينة ؛ تحميني من أبي من جهة ، وتُريني فساد نظريّات يتبنّاها واحدٌ مثل مديرنا في المدرسة . . . مرّت أيّام البكالوريا ، ويبدو أنّ المسدّس الّذي رفعه أبي في وجهي حثّني على أنْ أحصّل مجموعًا يؤهّلني لدراسة ما كان يتمنّاه لي . . . وهكذا صرتُ طالبًا في كليّة الطّبّ بجامعة دمشق!!

(٢)
الزّنزانة رقم (١١)

في الدّور الرّابع للمستشفى الّذي صرتُ أعمل فيه ، كنتُ أفحص بين يديّ طفلاً انتفخَ بطنُه لطول ما أصابه من إمساك ، اتّصل بي المدير ، وسألني بصوتٍ مرتبك فيما إذا كان مُمكنًا أن أوافيه إلى مكتبه للحديث في أمرٍ يخصّ العمل . عرفتُ حالاً ماذا ينتظرني ، فكتبتُ الدّواء - على عجلٍ - لأمّ الطّفل ، وسارعتُ بالوضوء ، وصلّيتُ ركعتين لم أدرِ ماذا قرأتُ فيهما ، ثمّ نزلتُ من الدّرج قاصِدًا المخرج الخلفيّ للمستشفى . لم تكنْ فرصة نجاحي في الهروب كبيرة ، ولكنّني حاولتُ . حينَ لفحتْني نسمةٌ حارّةٌ من نسمات أوائل شهر تمّوز أدركتُ أنّ اللهيبَ قادمٌ ، وأنّ لحظات الاستحمام تحت ماء الينبوع ولّتْ إلى غير رجعة .

من النّافذة بدا لي المشهد ساحة حربٍ حقيقيّة ، حوالي عشرين آليّةً عسكريّة كانت تطوّق المستشفى من جميع جهاته ، وأكثر من مئة عنصر أمنيّ مزوّدين بالرّشاشات والمسدّسات كانوا يتحلّقون على شكل دائرة مُحكمة تحيط بالمكان . لا أدري كيف قرّرتُ بسرعةٍ أن أهرب . . . أن أخترق النّقطة الأضعف تحصينًا في هذه الدّائرة ، وأُطلق ساقيَّ للرّيح ، لم أكنْ أملك غير بضع ثوانٍ لكي أنفّذ ما خطر ببالي لحظتها ، كان مِمّا لا شكّ فيه أنّ اقتحام المستشفى وشيك ، وأنّ القنابل ستغطّي فضاء الرّؤية في القريب العاجل . . . أخذتُ نَفَسًا عميقًا ، وهممتُ

بآية الصّبر والرّضا ، وحدّدتُ زاوية الهرب ، أمّا السّرعة فكان الخوف والتّوق إلى النّجاة كفيلَين بأن يجعلاها أعلى ما يُمكن . . .

ركضتُ باتّجاه الحرّيّة . . . باتّجاه النّجاة . . . باتّجاه الفراغ مدفوعًا بالخوف من الآتي . . . باتّجاه الحُلُم الّذي يوشِك أن يسودّ . . . باتّجاه الجنّة الضّائعة توجّسًا من الجحيم المُرتَقب . . . ثلاثون مترًا كانت كفيلة بأن تَلحَق بي ثلاثون رصاصةً خلالها . . . وفي باطن فخذ الرِّجل اليُسرى استقرّت رفيقة الدّرب الّتي ستتعايش معي سبعة عشر عامًا . . . سقطتُ . . . سال الدّم سخينًا . كان صياحهم عالِيًا . . . فجأةً صمتَ كلّ شيء . بما في ذلك قلبي!!

اختلط اللّيل بالنّهار ، تداخَلا ربّما ، سبق أحدهما الآخر . . . ماذا يعني اللّيل والنّهار لسجينٍ صارت كلّ خليّة فيه مرتهنةً للدّولة ، وهو لا يملك حتّى أن يسحب هواءَ الزّنزانة الخانق إلى صدره . . .؟! كان عليه أن يسترق ذلك ، لأنّه إنْ ضُبِطَ بالجُرم المشهود فسيحرّمون عليه هذا النَّفَس من أنْ يدخل إلى جوارحه ولو بالإكراه فيما بعد!!!

لا أدري كم مضى من الأيّام وأنا غائبٌ عن الوعي ، صحوتُ في غرفة معتمة إلاّ من لمبة ترتفع بتكاسلٍ على مكتبِ المحقّق ، كنتُ عاريًا إلاّ من (الشّيّالٍ) و(الشّورتٍ) . من خلفي عسكريّان ، ومن خلف المحقّق مثلهما ، حرّكتُ رجلي حركةً بسيطةً فندّتْ منّي آهةٌ عالية من الألم ، سارع أحد الّذين خلفي إلى لطمي بقبضة يده على رأسي ، وصاح :

- خْراسْ وْلا . . .!!!

تحسّستُ موضع الرّصاصة ، كان يبدو أنّهم عالجوا أثرها على عَجَل في هذا المكان الّذي لم أتبيّن ما هو إلى الآن ، بعض الشّاش يلفّ قدمي ، والألم ما زال ينخرها نخرًا ، بدا ألم لطمة العسكريّ الّذي خلفي مسحًا على الرّأس قِياسًا إلى ألم رِجلي . . . قال أحدهم :

- فاقْ سِيدي . . .!!

- طَمْشوه . . . طَمْشوه . . . وجيبوْه لَهُونْ . . .!!

وضع أحدهم الطّمّاشة على عينيّ ، أحسستُ بخشونتها ، شدّها من الخلف فضغطت على عينيّ بقوّة ، كدتُ أتأوّه ، فتذكّرتُ اللّطمة قبل قليل ، بلعتُها . . . قدّموني مترين من مكتب المحقّق ، وبقيت جاثِيًا على الأرض ، قال المحقّق :

- اسمك يا كلب . . .

(تباطأت قليلاً في الإجابة ، منّيتُ نفسي بأنّ السّؤال لا يقصدني . . . هوتْ لطمةٌ أقسى من سابقتها على رأسي من الخلف ، صاح بي الّذي لطمني) :

- اسمك يا شَر . . .

- إياد . . . إياد . .

- إياد أسعد . . . يا حيوان؟!

- نعم . . . نعم سيدي . . . إياد أسعد

- وْلا . . . شو علاقتك بالإخوان؟!

- ما لي علاقة يا سيدي . . .!!

- وبتكزِّب وْلا . . .

- والله ما إلي أيّ علاقة . . .!!

- وْلا . . . إنتا قائد بِالطّليعة . . . وما إلك علاقة . . . شلون صارت هَيْ . . . إعْتِرفْ أحسنْ لَكْ . . .

- على شُو إعْترف يا سيدي؟!

- وْلا . . . إنتا حكمك إعدام من هَلأّ . . . إزا رَحْ تعترف ممكن يصير مؤبّد .

(بقيت واجِمًا ، صدمتْني الجملة الأخيرة ، غاب عن بالي أنّ

الموت يُمكن أن يقدّم نفسه على يدي إنسان) كانت فترة صمتي كفيلة بأن تنصبّ عليّ بعدها حمم العذاب . . .

انهالت عليّ (كيبلات) الأسلاك المعدنيّة ، في الضّربة الأولى كان الجِلدُ طريًا ، غاص الكيبل في اللّحم ، ماشى دورة الدّم في عروق الظَّهر ، خرج وهو يرنّ ، وخرجتْ معه صرخة الرّعب من أعماقي ، حاولتُ أن أنهض ، فتتابعت اللّكمات والكيبلات من كلّ اتّجاه ، ترنّحتُ قبل أن أتماثل للوقوف . . . جاءني (كيبل) من الخلف حَزّ رأسي ، وتابع سيره إلى عينيّ . . . تلقّت الطّماشة الأثر . . . انزاحت عن عينيّ قليلاً ، مازلتُ في وعيي لكي ألمح وجه المحقّق ينظر إليّ وهو يُرجع ظهره إلى الخلف ويبدو منتشيًا بمنظري وأنا أتلوّى تحت السّياط . . . راح الدّم يسيل في شُعبٍ على ظهري وصدري ووجهي . . . تركوني بإشارةٍ من سيّدهم وعادوا إلى وقفتهم ، وهم يلهثون . عاودَ المحقّق السّؤال مرّة أخرى :

- وْلا . . . شو علاقتك بمحمود . . .
- مين محمود يا سيدي؟!
- وْلا . . . المسؤول عنّك بِالتّنظيم . . . محمود الفحّام وْلا . . .
- ما بعرفو يا سيدي . . . أقسم إنو ما بعرفو!!!
- مو ناوي تعترف يا ابن الشّـ . . .

ثمّ صمت المحقّق ، وبإشارة أخرى منه ، بدأت جولة أخرى من العذاب . . . هذه المرّة قال لهم أن ينزعوا الطّمّاشة عن عينيّ ، لا أدري لماذا؟! ربّما كان يريدني أن أرى أدوات العذاب فيُضاعف في أثره النّفسيّ عليّ . . . غير أنّ توقّع الضّربة دون أن تراها ربّما يكون أقسى من الضّربة نفسها!!!

جاؤوا بسلاسل من الحديد ، أمسك اثنان منهما بيديّ ، والآخران

برِجليّ ، قرّبا عظمتَي الكاحل من بعضهما ، وراحا يشدّان العظمتين ، كان الألم لا يوصَف ، اختلط العرق بالدّم ، ثمّ اختلطت بهما سيّالاتُ من الدّموع . وشكّل الثّلاثة مزيجًا حامِضًا ومالحًا وحُلوًا . . . لم يرحماني ؛ ربطا رِجليّ بالسّلسلة ، وشدّا على العظم ثانيَةً فأحسستُ أنّ عظم الكاحل قد تهتّك ، وتفتّت داخل الجلد ، لم يعبأ بصرخاتي الّتي ملأت المكان ، قيّد الآخران يديّ بالكلبْشات ، وسمعتُ أحدهما يقول :

- حُطّو بالدّولاب . . .

أمرني أحدهم : عُودْ بالأرض ، ضَهرَكْ وْإجْريك لَفُوق . أحضر الثّاني (دولاب الكاوتشوك) وغرسه في رِجليّ ورأسي ، صار الدّولاب دائرة تشدّ ظهري إلى رِجليّ المرفوعتين ، أمّا قفاي فهو على الأرض وبارتفاع رجليّ صارت أعضائي التّناسليّة صيدًا سهلاً لهم . وقف اثنان عند هاتين الرِّجلين ، ووقف الثّالث عند الرّأس ، وبدأت الحفلة المُرعِبة . انهمك اللّذان عند رِجليّ في ضربي عليهما بمواسير حديديّة ، كانت الماسورة الواحدة تهوي على الرِّجل فترضّها بثقلها ، وحين تنسحب صاعِدةً إلى الأعلى تخدش لحمَ باطن القدم بطرفها المُسنَّن ، ثمّ لا تلبث أن تهوي مرّة أخرى ، بدأ الدّم ينثعب ببطء ، ثمّ ما لبثت قدماي أن انفتح كامل الجِلد فيهما على القشرة الّتي تحتهما فصار الدّم يجري سيولاً . أمّا الّذي عند الرأس فأمسك (بكيبل) مجدول وراح يهوي به على رأسي المتورّمة من الحفلة الأولى ، حتّى إذا تعب تحوّل إلى الأمام ، وبدأ يضرب على الإليتَين ، ويتقصّد الخُصيتين ، فيتفاقم مستوى الألم إلى حدّ لا يوصَف . . . أمّا صرخاتي فلم تكنْ تعبيرًا عن هذا الألم بقَدْر ما كانت التِقاطًا للنَّفَس الّذي بدأ يتلاشى من صدري ، كنتُ أصرخ لأسحب الهواء إلى الدّاخل حتّى أحافظ على نَفَسي من

الاختناق، وأفرّغ طاقة العذاب في صوت الصّرخة نفسها . . .!!!

تخلّيتُ - في الجلدة المئتين رُبّما - عن سحب الهواء إلى الدّاخل، كنتُ أريد أن أستسلم، لا أريد مزيدًا من الحياة، بدا الموت في هذه اللّحظة أمنيةً عزيزة المنال، تمنّيت أن يخلّصني من هؤلاء الوحوش، تركتُ أنفاسي تتدحرج على حافّة المواسير والكيبلات، وقلتُ للموت أهلاً وسهلاً ومرحبًا . . . غير أنّ الجلاّدين توقّفوا في تلك اللّحظة . . . رجعوا إلى الوراء، وصاح المحقّق :

- خُودْ ابن الشّر . . خلّيه يفكّرِ عَ راحتو . . .

شحطوني إلى الزّنزانة الّتي تحمل الرّقم (١١)، تفاءلت بالرّقم، ودخلتُ كُتلةً من الجِراح، وكيسًا من الأوجاع الّتي لم أجرّبها في حياتي سابِقًا . قفز إلى ذهني أهلي : هل هناك مَنْ أخبرهم بما أنا فيه من العذاب؟! هل عرفوا أنّني اعتُقلت؟! وزوجتي الحامل هل تقبّلتْ سبب غيابي كلّ هذا الوقت؟!!

مضى يومٌ واحد، كانت استراحةً للجلاّدين وليست لي، إذ إنّهم جرّوني مرّة أخرى إلى الغرفة ذاتها :

هذه المرّة لم يضعوا الطّمّاشة على عيني، أبقوني جاثِيًا على البلاط أمام المحقّق، وأمروني ألاّ أرفع رأسي، وأن أضع يديّ خلف ظهري . بدت لهجة التّحقيق هذه المرّة مختلفة عن السّابق، خيطٌ من الودّ الماكر كان ينسلّ من بين شفاه المحقّق اللّعين :

- محمود اعترَف، إنّك كنت تستلم منّو القنابل . . .

- ما استلمتْ قنابل ولا بعرف محمود . . .

- إزا قُلتلنا وين مخبّي القنابل ودلّيتنا عليها بشرفي رَحْ تْرُوحِ اليوم . . .

- كيف بدّي دِلّك على شي ما بعرفو . . .

كنتُ عنيدًا؟! نعم . كنتُ أحاول أن أُثبت قدرتي على التّحمّل أمام نفسي؟! بلى . بدأتُ أستمتع باللّعبة ، صرتُ أحاول أن أبتلع كرة الألم النّحاسيّة عند الضّربة الأولى .

تتغيّر اللّهجات بحسب مستوى المعلومة ، وبحسب تجاوب السّجين مع المحقّق . الآن ارتفعت الوتيرة . صاح :

- مِتِلْ ما الله خلقك بدّك تخلق القنابل والسّلاح يا ابن العاهـ . . .

- الله خلق . . . ولا غيرو بْيُخلق . . .

- وإنتا بدّك تخلق السّلاح . . . أنا بعرف كيف خَلّيكْ تِخلقو . . .!!

تحلّق العساكر الأربعة حولي ، بطحني أحدهم على الأرض ، وراحوا يقفزون ببساطيرهم على بطني ، ويُخبّطون على صدري ، ويركلون رأسي . . . صار رأسي كرةً تتدحرج في ملعب البساطير يمينًا وشمالاً ، كان الرأس هو الجزء الأصعب المنفلت من المعادلة ، جسدي المُمَدّد على الأرض له أفضليّة الثّبات والاتّقاء ، أمّا رأسي فكان بندولاً متأرجِحًا ، كانت ضربة واحدة من (بوز) بسطار تساوي أربعين من مثيلاتها على بقيّة الجسد . يبقى الرّأس رأسًا حتّى في هذه المعادلة السّرياليّة الّتي أعيشها!!

صاح المحقّق بهم :

- هاتوا السّلّم .

شَبَحوني على السّلم ، وأوثقوا يديّ ورِجليّ بِحبال غليظة ، وشدّوها بإحكام ، حزّت الحبال في الرّسغين وفي الكاحلين وغاصت في الجلد . ثمّ تعاون الأربعة على رفع السّلّم على خازوق يخرج من أعلى الجدار المقابل للباب ، كان رأسي إلى الأسفل وقدماي إلى

الأعلى ، شدّ جسمي بثقله إلى الأسفل فغاصت حبال القدمين في اللحم عميقًا ، سال منهما ما تبقّى من دم على فخذيّ ، وتابعت مجاري الدّم على جسدي نزولها حتّى خالطت ًرأسي ، تجمّع الدّم هناك واشتبك مع شعر رأسي ، وصار يقطر قطرات متتابعة ، وينقّط على الأرض ، شكّل تنقيطه المتتابع خيطًا رفيعًا ماً لبث أن تكتّلت حوله قطرات أخرى ممتزجةً مع العرق والدّموع وسالتْ على بلاط الغرفة . . .
اقترب منّي المحقّق ووقف عند رأسي ، وركلني ببسطاره هو الآخر ، أصابت الرّكلة خدّي وطرفًا من عينيّ ، صرختُ بأعلى ما أستطيع ، واصطكّت أسناني من الوجع . . . تركني ألتقطُ أنفاسي لبرهةٍ ثمّ أقعى عند وجهي ، هزّ رأسه بأسفٍ ، وقال :

- إعْترِف . . وأنا هون مٍوجود . . . إزا طلعت وتركتك مع هَدول الأربعة . . . رح يْمَوْتوك . . . إزا اعترفت هَلّْأ أنا بحميك . . . بس إزا طْلعت ما بِضْمِنلك شي . . .

- ما عندي شي إِعْترف عليه . .

- ولك يا ابني يا إمّا بْتِنْعِدم إزا ما بْتِتْعاون ، أو بْتِنْحكم سنة أو سنتين وتطلع بَعْدَا . . . ولك يا ابني هَيْ السّياسة ما بْتِعرف شو بصير . . . بكره بْتِتْغيّر الأمور . . . وممكن تِطلع مِنّا . . . فاعترف أحسنْ لَكْ . . .

- يا سيدي . . . عَ شُو بدّي إعترف . . .؟!!!

- مَوْتُوه يا شباب .

استعدتُ وعيي في الزّنزانة . رفعت المودّة شِراعها . هناك دائمًا ألفة من نوع ما يُمكن أن تنشأ بين الإنسان والمكان .

اصطفقّت في دماغي أصوات العصافير القادمة من الجهة الشّمالية لجبال القرية ، بدأت تعلو رويدًا رويدًا حتّى ملأت عليّ

كياني ، تمايلتُ على إيقاعها الجميل ، ورقص قلبي فرحًا لأنغامها . حطّ أحدها على كتفي وبدأ يمسح بظاهر جناحه ما سال من دم على وجهي ، تركته يفعل ما يحلو له ، و حاولتُ أن أغفو قليلاً بين يدَيه ، نبّهتْني جِراحٌ أخرى في قدميّ ، كانت قدماي قد تشقّقتا حتّى صار باطنها أخاديد ، بعض هذه الأخاديد بان عن عضل مُشوّه ، وآخر بان عن عظم أبيض لامع يميل إلى الزّرقة قليلاً . . . تمنّيتُ لو أنّ الفراشات الّتي ملأت وجهي ذات الصّباح الربيعيّ البهيّ في البلدة أن تأتي لتملأ بياض عِظامي ، قالت لي العصافير : إنّ الفراشات حاولت أن تأتي ، ولكنّ الجلاّدين أوقفوها على باب السّجن ، وحظروا عليها الدّخول إليك . . . ساءلتُها ، وأنتِ أيّتها العصافير ألم يحظر الجلاّدون عليك الدّخول مثلها ، كيف وصلتِ إلى هنا ، أجابت :

- نحن قلب الحرّيّة ، ولا توجد قوّة في الأرض يمكن أن تصادرها . . . قد تُصادر الجسد ، لكنّ انحباس الجسد ليس شكلاً من أشكال العبوديّة . . . ونحن الشّمس ، من يستطيع أن يمنع الشّمس من التّسلّل عبر النّوافذ والشّقوق . . .؟!!

ناداني أبي من قعر الجبّ : ألم أكن أنا أولى بإطلاق الرّصاص عليك من هؤلاء المجرمين؟! ألم يكنْ من حقّي أن أكسر قدميك بدل أن يفعل هؤلاء القتلة بك هذا؟!

أمّا أمّي فلا زالت دعواتها تلفّني بضباب شفيف من الطّمأنينة . . . إذا كانت أمّي قادرةً فيما مضى على حمايتي من أبي ، فلا بدّ أنّها اليوم قادرةٌ على حمايتي من الأب الأكبر ، من السّلطة الّتي تعدّ نفسها أبًا لكلّ النّاس ، وأنّها تملك كلّ ما يملكون ، وحقّها في التّصرّف بتفاصيل حياتهم أكبر من حقّهم هم أنفسهم . .!!!

(٣)
شَياطِينُ الجَحيمِ

الزّنزانة الّتي استقرّ فيها ما تبقّى من جسدي في اليوم الرّابع أو الخامس أو السّادس لا أدري ، هي عبارة عن قبر مرفوع الغِطاء . كانت الزّنزانة بعرض (٧٠) أو (٨٠) سم وبطول مترين ، وبارتفاع مترين ، تكاد جوانبها تضيق عن عرض الجسد ، لك أن تبسط جسدك فيها دون يديك ، أمّا يداك فيجب أن تبقيا فوق صدرك لأنّ المكان - فيزيائيًا - لا يتّسع لهما ممدودتين على الجوانب ، أمّا إذا نِمت على شقّك الأيمن ، فحينئذٍ يمكن أن تحظى ساقاك ببعض التّكوّر البسيط لمحاولَة النّوم . وما الفِراش والغِطاء والشّراب؟! كان في الزّنزانة بطّانيّة واحدة ، و(كوز) بحجم الكفّ مملوءٌ بالماء . فيما بعد ظلّ هذا الكوز ملازِمًا لي عامًا كاملاً ؛ كنتُ أشربُ فيه وأبول فيه ، وأنظّف جروحي فيه . كان الجلاّد يفتح باب الزّنزانة في اليوم مرّتين للتّغوّط ، أمّا البول ففي الكوز داخل الزّنزانة بعد أن تشرب ماءه الصّديد .

نزعتُ الشّريط الأبيض على طرف البطّانية بأسناني ، وصنعتُ منه عدّة ضمّادات ، بلّلتُها بماء الكوز ، ورحتُ أعالجُ جروحي وحروقي . كان الجرح الأصعب جرح الرّصاصة ، أزلتُ عن فخذي الضّمادة الّتي اشتبك فيها اللّون الأحمر بالأصفر ، وأعدتُ نقبَ الجُرح ، وأنا أشدّ على أسناني من الوجع ، ويتقاطر العرق من جبهتي حارًا إلى ذقني مع كلّ نَقْبة ، تمنيت أن يكون لديّ سكّين أو سيخ من الحديد لأُخرجَ به

الرّصاصة ، لكنّها أمنية هاربة في زمنٍ مقبوض فيه عليّ من كلّ اتّجاه ، حاولتُ أن أخفف التهاب الجرح بمسحٍ ما تخثّر فوقه من الدّم ، وما تهيّج حوله من أنسجة ، وربطتُه بضمّاداتي الجديدة . مدّدتُ جسدي بصعوبة على الأرض ، وتمتمتُ ببعض الأدعية ، ونمتُ على حلم الخلاص . . .!!

خبطات عاليات على الباب ، وصياح وهياج الدّاخلين أفزعني من نومي ، ولمّا لم أستطع المشي ، أمسك عسكريّان بكتفيّ ، وجرّوني مثل كلب إلى الخارج ، تهدّلت خلفي ساقاي ، وتأرجحت قدماي وهما تضربان مع الشّحط بإسمنت الأرض ، كانت المسافة بين الزّنزانة وغرفة التّحقيق تقرب من (١٠٠) متر ، خلالها تجرّحت قدماي واختلط فيهما أبيض الأرض مع أحمر الدّم . . . حافظتُ على نَفَسي منتظمًا ، وأرحت كامل جسدي على ساعِدَي العسكريّين ، وسمعت صوت لهاثهما ، وارتحت على أنّني أتخفّف من عبء جسدي ولو قليلاً .

قال المحقّق :

- ولا إنتا ما بدّكِ تعترف . . .

- عَ شُو بِدّي إعْترف . . . ما عندي شي . .

- وْلا . . . مو محمود الفحّام لحالو اعترف عليك . . . كمشنا هيثم رشيد كمان . . . هو اللّخْري اعْترف عليك . . . وْلا كم قنبلة مْخبّي قدّام البيت . . .؟!

- لا محمود . . . ولا هيثم . . . ولا قنابل . . . يا سيدي أنا طبيب على باب الله بِشْتِغِل مْن الصّبح لَلْمسا بالمستشفى . . . شو بدّي بوجع الرّاس . . . قنابل ما قنابل . . . وإخوان ما إخوان . . . وعندي طفل عَ الطّريق بِدّي أمّنّلو رغيف خبز يا سيدي . . .

- ولا . . . لا تعملّي فِيَّا سَهْيان . . . إزا ما بتعترف بِنْتِفْلك لحيتك بْإِيدي وْلا . . .

- . . . . . .!!!

- كَلْبشوه يا شباب . . .

وبدأ نتف اللّحية ، كان ينتف بأظافره الطّويلة عشر شعرات ، ثمّ يُتبِعها بلطمةٍ على الوجه ، ظلّ ما يقرب من ساعتين وهو ينتف لحيتي حتّى شوّه وجهي بالكامل ، ونزّ بعض الدّم من بعض منابت الشّعر ، وظلّت بعض الشّعرات ناتئة في المنظر المُذلّ ، فأمر عساكره بالقدّاحة ، وصاح وهو يُزبِد :

- والله لحرقلك وِجَّكْ يا ابن الشّـ . . . .

وقرّب القدّاحة المشتعلة من أسفل ذقني ، وتراقص ضوؤُها على صفحة وجهه البغيض ، فبدا شيطانًا من الشّياطين الخارجة من الجحيم . . . حرّكت رأسي يمينًا وشمالاً لأتّقي اللّهب ، فسارع عسكريّان بتثبيت وجهي ، ومارس الشّاذّ هوايته الكاملة في حرق وجهي وما تبقّى فيه من شعرات . . . ورحتُ أصرخُ وهو يبتسم ، ويفترّ فمه عن أنياب صفراء ، ويبدو أنّ صراخي كان يُصيبه بالنّشوة ، الّتي لم تبلغ ذروتها إلاّ بعد أن فاحت رائحة الشّواط جرّاء حرق الشّعرات ، ومع كلّ صرخة ، كان يهمهم بضحكة ليقطعها انتظارًا لصرخةٍ أخرى مماثلةٍ منّي . . .!!

رمى القدّاحة في زاوية الغرفة ، وزعق في وجه العساكر الأربعة الموجودين فيها ، وخرج ، لتخلو منه الغرفة لساعتين . خلالهما لم يأتِ أحدٌ من الجلاّدين بحركة ، كان حريق اللّحية قد فاقم من حدّة عطشي ، صرتُ أحوّل العرق النّازل من جبهتي بلساني مُحاولاً إدخاله إلى فمي لعلّني أشربه . . . غير أنّه كان مالحًا ، فلا تزيدني ملوحته إلاّ

توقًا كبيرًا إلى رَشْفةِ ماءٍ واحدةٍ باردة . كانت رشفة الماء في تلك اللّحظة تُعادل عمرًا بأكمله ، كنتُ مستعداً للتّضحية بكلّ شيءٍ في سبيل الحصول عليها . دخل ثانية ، تربّع على كرسيّه ، وقال وهو يُرجع جذعه إلى الخلف ، وينكش أسنانه ، ويتجشّأ من طول أكلٍ وشُرب :

– ها . . . فكرت وْلا . . . قرّرت تعترف وْلا . . .

– بدّي مَيْ . . . عطشان . . .

– إزا بتعترف . . . إلك مَيْ بوز . . . ها . . . شو رأيك؟!

– ماشي . . . ماشي . . . رح إعْترف . . .

– جيبلو مَيْ من البرّاد . . . خَلِّيًّا بُوزْ . . .

غاب أحد العساكر ، ثمّ عاد ، تناول المحقّق الكأس منه ، وقرفص حتّى صار وجهه في وجهي ، كانت الكأس (بَيْضاءَ لَذَّةٍ للشّارِبينَ) ، سال الحَباب منها على أطرافها لشدّة برودتها ، وترقرق الماء الصّافي في داخلها كأنّه من ماء الكوثر لا من ماء الدّنيا . . . وارتجف جسدي للمنظر ، وارتعشت روحي العطشى لِما ترى ، وهَمَمْتُ أن أقول كلّ ما أعرف ، وأعترف عن كلّ من أعرف . . . كانت الكأس في تلك اللحظة تساوي كلّ هذا ، وكان ألم انتظارها ، والتّلوّع أمامها أصعب من كلّ الآلام السّابقة التّي واجهتُها . . . أتكون نهايتي في رشفة الماء هذه؟!! أأصمد أمام براكين العذاب السّابقة ، وأتهاوى أمام كأسٍ واحدةٍ تستقرّ بين أصابع هذا الجلاّد الانتهازيّ البغيض؟!

قرّبها أكثر من أنفي ؛ شممتُ فيها رائحة الحياة ، وصعدت من أطرافها سُحُب الرّيّ فلفحت وجهي ، كان تمّوز في منتصفه ، ولا شيء ينتصر على تمّوز غير الماء البارد على عطشٍ لائح . . .!! أمّا لساني فَيَبِسَ حتّى كأنّه قطعة خشب ، تيبّس في البداية طَرفُه الأمامي فلم أعد أحسّ به ، ثمّ انتقل الخدر واليباس إلى بقيّة أطرافه فصار قطعة ميّتةً

في فمي تحتاج إلى قطرة ماءٍ واحدةٍ لتنتعش وتعود إلى الحياة من جديد!!

تركني صريع خيالاتي وهواجسي ، وكرّر من جديد :

- اعتراف واحد ، وماء بارد . شو رأيك؟!

طوّحتُ رأسي في الفراغ المُمكن عدّة مرّات فتراشق رذاذ العرق والدّم على وجهي ، ونالَه نصيبٌ منه ، فأحس أنّه رفضٌ من جهتي ، مسح الرّذاذ عن وجهه ، وتراجع إلى الخلف ، ورمى الكأس على أحد الجدران فانكسرت وسال ماء الحياة منها على ذلك الجدار مهدورًا ، وصاح في حنقٍ شديد :

- أنا بعرفً كيف خلّيك تِعْترف يا ابن القَحْـ . . .

صاح بالعساكر :

- هاتوا الخوازيق والعِصي . . . والله لَتْموت اليوم بين إِيدَيّ . . .

تفرقع العساكر كأنّ نارًا لسعت جوانبهم ، وغابوا من جوف الغرفة ، وعادوا بعد قليل وفي أيديهم مجموعة من العصيّ والخوازيق ، وضعوها على المكتب أمام المحقّق ، ومنحني المحقّق فرصةً كاملة للتّعرّف على هذه الأدوات الجديدة من التّعذيب ، قرّبها منّي وهو يعرضها عليّ واحِدةً واحِدةً . . . وقال بلهجة التّحدّي :

- هلّقْ رح نبلّش . . .

وضع عصا خشنةٍ طولها حوالي (٦٠) سم ، مُحيطها فيه نتوءات بارزة ، كأنّها مشطٌ من حديد ، وراح يلفّها على شعر رأسي الطّويل ، وفي كلّ لفّة كانت العصا تُحكم تشبّثها بهذا الشّعر وتقترب من فروة الرّأس ، والمحقّق يُتابع لفّها ، حتّى إذا صار عدد اللّفات أكثر من عشرين لفّة ، وصارت العصا نفسها ملاصقة لفروة الرّأس ، أوقف جلاّدين عند طرفيها ، وقال :

- تعترف ولا إِسْلَخْ فروة راسك . .
- . . . . .!!

أشار إلى العساكر بيده ، أمسك كلّ عسكريّ بطرفٍ من أطراف العصا ، وأحكم قبضة يده حولها ، ثمّ شدّا بكامل قوّتهما معًا الطّرّفين بحركة مُفاجئة وسريعة ، فانخلع الشّعر ، وكادت فروة الرّأس تطير معه ، أحسستُ بوهج حارقٌ يلفّ أعلى رأسي ، وشعرتُ بعينيّ ترتفعان إلى الأعلى وتضيقان وكأنّهما في طريقهما إلى الانفِجار ، ابتعلت هواء الغرفة كاملاً في جوفي من الصّدمة ، ولكنّه انحبس هناك ورفض أن يخرج ، كاد أن يُغمَى عليه ، وفي لحظةٍ انبجس الهواء من الدّاخل وخرجت معه صرخةٌ مضغوطة ، صرّت كأنّها صرير ألف مُعذّبٍ . انخمد جسمي ، شعرتُ به يتراخى ، لاحظ المحقّق ذلك ، فأشار إلى العساكر فبادروا بإلقاء دلو من الماء البارد على وجهي حتّى لا أفقد الوعي . . . تلقّيتُ الماء ، ابتلعتُ بعضه فأعادني إلى الحياة من جديد ، وابترد ببعضها الباقي الحريق الّذي شبّ في فروة رأسي ، فتحتُ عينيّ على كامل اتّساعهما ، وأخذت أشهق وأزفر بتتابع . . .

كان واضِحًا أنّ المحقّق يريد أن يذهب بي إلى أقصى درجات التّعذيب ، وفي الوقت نفسه يريدني ألاّ أفقد الوعي ، إذا فقدتُ الوعي فمعنى ذلك أنّني انتصرتُ ولم أعترف وارتحت من العذاب ولو إلى حين . . . هو يريد المعلومة بأيّ ثمن إلاّ فقدان الوعي . . . المعلومة الّتي تقوده إلى بقيّة أعضاء التّنظيم . . .!!

بدأتُ أتماثل للثّبات أكثر مِمّا مضى ، وبدأ هو يفقد أعصابه ، وبدأت أولى هزائمه ؛ انقضّ عليّ كثورٍ هائج ، كان يخور وهو يسبّ ويقذف بالشّتائم في كلّ اتّجاه ، جثا خلفي ، وركن كوعي إلى كتفه القاسية ، وأمسك بأصابعي وأرجعها إلى الخلف بكلّ ما فيه من غيظٍ

وحنق ، فانكسرت الوُسطى مثل قَرْن فول أخضر ، سمعتُ طَقْطَقَتَها ، قبل أن أصرخ بكلّ ما فيّ من طاقة . . . كان الألم فظيعًا ، بدا أنّني لم أعتد الألم ولم أتصالح معه بعد كلّ هذه الحفلات المتتابعة ، كان الألم كلّ مرّة سيّد اللّحظة ، يأتي بكامل أبّهته ويأخذ نصيبه من روحي ومن خلاياي!!

جلسِ المحقّق إلى الكرسيّ مرّة أخرى ، وبدا أنّ الوقت يعمل في غير صالحه ، وأنّ سادَته يريدون منّي المعلومة بأسرع وقت ، قبل أن ينفّذ الآخرون هجماتهم على الجيش والمواقع الأمنيّة ، اقترب منّي وجرّب لهجةً جديدة :

- يا ابني . . . ساعِدنا لَنْساعدك . . .

- حاضر (قلت بكلّ ثقةٍ وأسى) .

- طيّب . . . مين معك غير محمود وهيثم . . .

- أقسم لك سيدي ما بعرف هَدُول الاتنين . . .!!

- طيّب . . . أنا رح إحكي مجموعة أسماء . . . بَسْ تْقلّي وين ممكن يكونوا متِواجدين . . .

لم أحرّك ساكِنًا . ظللتُ أحاول أن أبتلع ألمي ، وأتجرّع مراراتي ، وأذهل قليلاً عن واقعي . فتح درج مكتبه ، رمى بها إلى أحد الجلاّدين ، وقال له :

- ابدأ بأظافر اليد اليمنى . . .

كانت يداي مُقيّدتين خلف ظهري ، أمسك الجلاّد (بالكمّاشة) وشدّ بها على ظفر الإبهام ، وصار ينزعه ببطء إلى الخارج ، كان الوجع مَهولاً ، قررتُ أن أسقط في وادي الغياب ، كتمتُ نَفَسي إلى أقصى زمنٍ مُمكن ، وشددتُ على أسناني بكلّ ما أوتيت من قوّة ، وأطبقت فميَ إطباقًا تامًا . . . وسقطتُ كما أردت . . .!!

(٤)
لا يُمكن أنْ يسجنوا الشّمسَ

استيقظتُ فجرًا ، بدت السّماء من شقّ الباب كأنّها تتخلّى عن سوادها لأزرقها الفاتح ، كانت ليلة أمس قد قدّمتني إلى الموت الّذي رفضني ؛ هل يكون الموت متواطئًا مع الجلاّدين؟!!

مَنْ يُنقذني من الجحيم الَّذي أعيشه!! لِمَ كلّ هذا الّذي يفعلونه ، يقولون إنّ كتائب الطّليعة تُخطّط لاغتيال الرّئيس . ما شأني أنا والرّئيس؟!! تكفيني لقمةٌ هانئة في مساءات العمل ، وزوجة أسكن إليها ، وأولادٌ يقفزون من حولي . . . لو كنتُ أدرك أنّ الدّروس الّتي تتلمذتُ فيها على يدي الشّيخ (منير) في المسجد ستفعل كلّ هذا بي لاخترتُ أهونَ الشّرَّين . . . قنابل؟! وأسلحة ورشّاشات؟! وفي بيتي أنا؟! هل جُنّ الإخوان ليورّطوني في شيءٍ كهذا؟! أم جُنّ المُحقّق ليتّهمني بتهمة كبيرةٍ وخطيرة كهذه؟!! ثمّ ما هذا الرّتل من الأسماء الّتي يعرضها عليّ؟! صحيح أنّ بعضها أعرفه ، ولكنّ أكثرها سمعتُ أنّها قُتلت ، أو اختفت عن الوجود . وحده محمود الفحّام كان طبيبًا مثلي في المستشفى الّذي عملنا فيه معًا لمدّة عام ، وكنتُ أعرف أنّه من الإخوان المسلمين ، وأنّ له أتباعًا ينشطون مثله ، ولكنّه منذ عامين ترك المستشفى ، ولم يعد له أثر ، اختفى كما لو كان طيفًا في سماء ، وذاب في الغياب كما لو كان ملحًا في ماء ، كلّ الدّائرة المغلقة حوله لا تعرف أين هو؟! لا بدّ أنّهم اعتقلوه ويُحاولون ابتزازي لأعترف عليه!! إذا كان

معتقلاً لديهم فليدلّهم هو على بقيّة أعضاء التّنظيم . أنا أريد أن أعود إلى أهلي وزوجتي ، أريد أن أعيش مواطنًا عاديًا أقتات من عملي في مهنةٍ شريفة ، هذه المهنة الّتي بذل لها والدي الفقير كلّ ما يملك حتّى يُقال : إنّ ابنه صار (حكيمًا)!!

قمتُ إلى (كوز) الماء ، توضّأت بنصفه ، وأبقيت على نصفه الآخر لوقت الشّدّة ، نحن الآن في الثلث الثّاني من تمّوز عام ١٩٨٠ ، ولا بدّ أن أُبقي في هذه الحرارة المرتفعة ، وهذه الزّنزانة القبر ، الضّاغطة عليّ من كلّ جهة ، لا بد أن أُبقي على ما يُبقي على الرّوح داخل أسوار الجسد . صلّيتُ الفجر ، وقرأتُ بـ (يس) في الرّكعتين ، وقرّرت أن تكون (يس) رفيقتي حتّى أخرج من هذه المحنة الصّعبة!! فقرأتها بعد الصّلاة ثلاث مرّات .

شقّ العسكريّ باب الزّنزانة ، وصرّ قفلها من الخارج ، تدفّق شلاّل الضّياء عبر الجزء المفتوح من الباب ، مُعلنًا ولادة يوم جديد ؛ كلّ موتٍ سابقٍ في ليلٍ دامس لا بُدّ له من حياةٍ آتية في صُبحٍ مُشرِق ، بهذا خاطبتُ نفسي وأنا أنتشي للنّور القادمِ من السّماء ، حَمدتُ الله أنّ البشر لا يُمكن أن يسجنوا الشّمس ؛ لو كانوا يستطيعون فكم من النّاس سيكون قدرهم أن يعيشوا في الظّلام والموت ، الشّمس هبة الله ولا سلطان لأحدٍ عليها إلاّ هو . وضع العسكريّ - وهو يشتم ويلعن - صحنًا فيه ربع رغيفٍ خبز يابس ، وثلاث حبّات زيتون سوداء ، قبّلتُ كِسرة الخبز شاكِرًا أنعُمَ الله ، والتهمتُ ما وفد إليّ في أقلّ من دقيقة . نمتُ طويلاً ليلة أمس ممّا مكّن جسمي أن يرتاح من العناء قليلاً .

أدرتُ بصري في الزّنزانة ، لم يكن لها من نافذةٍ في الأعلى ؛ كانت مُصمتة ، وحدها شقوق الباب من كافّة جوانبه مكّنت أشعّة الشّمس من التّسلّل ، بابها يُفتَح للدّاخل وليس للخارج ، صُمِّمت

كذلك حتّى يكون الضّيق على نزيلها أكثر ، وإذا فتحه العسكريّ بقوّة كعادته ، وكان السّجين نائمًا ولم ينتبه فإنّ حافّته ستُطبِق على بطن السّجين مُسبّبةً له ألمًا في المعدة قاسيًا ، عدا أنّ العسكريّ يصحبه إذا فتح الباب أمران : سيلٌ من الشتائم المُخجلة ، وعدد من الرّكلات والصّفعات الشّديدة!!

لم يكن من فارق كبير بين أكلي ، وبين فتح باب الزّنزانة من جديد ، ليقتادني اثنان مُكلبشًَ اليدين خلف الظّهر إلى غرفة جديدة . لم يكن المحقّق القديم ، كان آخر جديدًا ، طُوالاً ، ضخم الجثّةً ، قاسي النّظرات ، رخيم الصّوت أجشّه ، وكانت راحة كفّه تساوي ثلاثة أضعاف راحة كفّي ، حجمًا وسماكةً . استقبلني بنظرةٍ فاحصة ، وأشار بيده للعساكر فرموني في منتصف الغرفة ، الغرفة أوسع من سابقتها ، ولم أكن فيها وحدي ، كان هناك رجل يرتمي في إحدى الزّوايا . انهال عليه خمسة عساكر يضربونه أمامي بأرجلهم وهِراواتهم وكيبلاتهم وبساطيرهم ، وهو يتلوّى ويصرخ تحت التّعذيب ، كان المحقّق يريد أن يُريني مشهد العذاب أمامي لعلّي أرتعب ، وأعترف بكلّ شيء . توقّف الجلاّدون فجأة ، وتوجّه المحقّق نحو الضّحيّة وشدّه من رأسه ، وأمر زبانيته أنّ يُنهضوه ، ويُلجئوه إلى الجدار ، أمسك المُحقّق بيده الغليظة رأس الضّحيّة من عند جبهته وراح بكلّ ما يملك من قوّة يخبط رأسه في الجدار ، والضّحيّة تصيح ، وتنهمر الدّماء لتغطّي الوجه ، وتحتقن عند المحجرين ، وفي لحظة فارقة يبدو أنّ المُعذَّب قرّر فيها أن يُنهي حياته ، رأيتُهُ يفتح فمه بأقصى ما يستطيع لنشاهد ما يفعل جميعًا ، ثمّ يحرّك لسانه بطريقة خاصّة إلى طرف أسنانه حركتين اثنتين وفي الثّالثة سقطت السّنّ الجانبيّة في فمه ، ابتلعها على الفور ، وتأكّد أنّها صارت في معدته من خلال سحب ريقه إلى الدّاخل ، وفي أقل من

دقيقة كانت الضّحيّة تُزبِد، وتقع على الأرض، وفي لمح البصر كان قد فارق الحياة. هزّه المُحقّق فلم يحرّك ساكِنًا، صاح على أحد الزّبانية أن يُنادي طبيب المُعتقل، هُرع الطّبيب، جسّ عِرقه، ثمّ فتح فمه، وتناول جزءاً من لعابه، وهتف بالمحقّق:

- انتحر يا سيدي... انتحر...

- شلون انتحر...

- بالسّمّ... يا سيديّ... كان في فمه بقايا سمّ.

عرفتُ أنا حينها، أنّ تلك السّنّ لم تكن حقيقيّة، وإنّما كانت مادّة سُمّيّة مُركّبة في الفكّ لتبدو كأنّها سِنّ طبيعيّة... حزنتُ عليه وفي الوقت نفسه فرحتُ له. أمّا حزني فلانتحاره، وأمّا فرحي فلخلاصه من العذاب. أمّا أنا فلا أنتحر (هتفتُ في أعماقي)، إذا أرادوا أن يقضوا عليّ، فليفعلوا ذلك بأنفسهم!!

صاح المحقّق بالطّبيب وبعسكريّ آخر أن يحملاه ويرمياه خارج الغرفة، ويَشطُبا اسمه من قائمة المعتقلين، ثمّ توجّه نحوي وخاطبني:

- مين بتشوف بمنامك؟!

فاجأني السّؤال فلم أستطع الإجابة. فكرّر وهو يشدّ على الأحرف:

- مين بتشوف بمنامك... مين بتشتري مِنّو سفط البيض... بدّك كُلّْنْ تِعترف عليهُنْ يا ابن الشّـ..

- جارنا الدّكنجي... بشوفو بالمنام وبالحقيقة سيدي...

- وْلا بتستهبل... يا ابن الـ...

جيبوه... قال ذلك للعساكر، (فَتْشوا أسنانه أوّل). دار أحدهم بهراوة غليظة في فمي، وراح يحرّكها هنا وهناك... أوقفوني كما أوقفوا الضّحيّة قبل قليل، توجّه الثّور نحوي، مدّ كفّه، رأيتُها كفّ

غوريلاّ بشاعةً وحجمًا ، أمسك جبهتي ، قدّمها باتّجاهه أوّلاً ثمّ هوى بها إلى الجدار بأسرع ما يستطيع . . . شعرتُ أنّ كسرًا في جمجمتي قد انشقّ ، صحتُ من أخمص قدميّ حتّى أنفي :

- القنابل . . .

- إيوه يا ابن الـ . . . (وهوى برأسي باتّجاه الحائط مرّة أخرى ، فازداد طول الشّقّ)

- والرشّاشات . . . (بصوت أقلّ ارتفاعًا)

- إيوه يا ابن الـ . . . (وهوى برأسي باتّجاه الحائط مرّة ثالثة ، فامتدّ الشِّقّ حتّى كاد يُتمّ دورته حول جمجمتي)

- بساحة البيت تحت شجرة الجُو . . . (ولم أكمل . . . شعرتُ أنّ جناحًا خفيًا امتدّ من تحتي . . . ارتخى جسدي بكامله فوقه . . . ورحتُ في غيبوبةٍ طويلة)!!

(٥)
المَسلخُ العَسكريّ

صحوتُ في المستشفى العسكريّ بحَرَسْتا بعد شهرين من تلك الحادثة ، كانت رجلاي مُقيّدتين بسلاسل طويلة إلى أطراف السّرير ، وبَرْبِيشان ينطلقان من جسدي ، أحدهما كان في عضوي من أجل البول ، والثّاني كان في ظاهر كفّي من أجل (الجلوكوز) لكي أبقى على قيد الحياة .

ميّزتُ في البداية اثنين من العساكر يقفون برشّاشاتهم خارج الغرفة ، رأيتهم من خلال الزّجاج ، وثالثٌ في الدّاخل عند الباب للطّوارئ . تحسّستُ رأسي بيدي الحُرّة ، فلمستُ الشّاش يُغطّيها من الأعلى بالكامل ، سمعتُ العساكر يتخاطبون باللاّسلكي : صحي يا سيدي . . . صحي . .

بعد دقائق جاء الطّبيب ومعه الممرّضة ، كشف الطّبيب عن صدري ، تراجعت الممرّضة إلى الوراء ، وغطّت فمها بيدها ، وهي تُنغض رأسها متفاجأة من هول ما سطّر الزّبانية على جسدي بسياطهم من الألم والعذاب ، وضع السّمّاعة في أنحاء مختلفة من صدري ، ثمّ قلبني على ظهري ، في هذه اللّحظة لم تتمالك الممرّضة نفسها ، سمعتُها تصيح ، وتتجشّأ ، ثمّ تناهى إلى سمعي وَقْعُ خطواتها وهي تُسرع مبتعدةً فَزِعَةً مِمّا رأت . أعادني الطّبيب مرّة أخرى مقلوبًا على ظهري ، تناول دفتر المريض وسطّر فوقه بعض الأدوية ، وغاب في الممرّ الطّويل .

كان المستشفى العسكريّ يغصّ بالمسلوخين من أمثالي ، في ذلك العام فُرّغ المستشفى من مرضاه الحقيقيّين ، وخُصّص لضحايا التّعذيب القادمين من (فرع الخطيب) أو (فرع الأمن الدّاخليّ) كما كانوا يسمّونه آنذاك . كان بهو القاعة الّتي مكثتُ فيها شهرين غائبًا عن الوعي يعجّ بالضّحايا الآخرين ، وكانت نظرةٌ واحدة من مكان مُشرف كفيلة بأن تجعلك تعتقد أنّ هؤلاء الضّحايا الموجودين هنا هم ضحايا حروب فتّاكة بين جيشَين وبلدَين ، وليس ضحايا تعذيب الدّولة لمواطنيها ، مَنْ كان يتخيّل يومها : أنّ الدّولة تأكل أبناءها ؛ هل كانت الدّولةُ القِطّةَ المرعوبةَ ونحنُ صِغارَها؟!!

لم تمرّ دقائق حتّى هُرِع إليّ طاقم من الأطبّاء والممرّضين يزيد عن (درزينة) ، وكلّهم يتهافت على تطبيبي ، وإزالة آلامي ، وكان من ضمنهم مدير المستشفى ذاته!! (ما الّذي حدث؟!) هتفتُ في سرّي ، واضحٌ أنّ التّعليمات من الضّبّاط قد جاءتهم للاعتناء بصحّتي بشكلٍ كامل ، كانوا يومها حريصين على حياتي حِرصهم على حياة الرّئيس نفسه ؛ إنّهم يعتقدون أنّه ما زال في جعبتي الكثير من المعلومات الّتي يجب أن يستخرجوها ، ولذلك كان فرحهم باستيقاظي بعد ستّين يومًا من الغياب الكامل فرحًا غير مبالغ فيه . لقد تزايدت عمليّات الإخوان ضدّ الدّولة ، وهم لا يريدون أن يتكرّر حادث المدفعية ، أو حادث جامعة حلب ، أو غيرهما . وحدها المعلومات المختبئة في تلافيف أدمغة معتقلي الإخوان المسلمين هي الكفيلة بإيقاف تدفّق العمليّات الّتي بدأت تهزّ ثقة الجيش بمنتسبيه ، والدّولة بنفسها . أظنّهم كانوا يتحسّرون قائلين : ليتنا نخترع جِهازًا يستطيع أن يقرأ أفكار الإخوان ، أو يكشف عنها بمجرّد تمريره على أدمغتهم؟! ويزدادون حسرةً حين يظنّون أنّه ما من وسيلة إلاّ التّعذيب لاستخراج تلك الكنوز؟! ولكنّ التّعذيب

قد يُودي بحياتهم ، والأسف ليس على حياتهم ، فإنّهم كانوا يتمنّون أن ننسحق جميعًا في لحظةٍ واحدة ، ولكنّ الأسف على المعلومات الّتي تموت بموت صاحبها!!!!

ولأنّني طبيب ، فقد كنتُ أعرف ما ينبغي عليّ فعله ، وكنتُ أستطيع أن أقدّر حالتي الصّحّيّة ومستوى خطورتها ؛ أردتُ أن أرى كيس البول ، مددتُ يدي الحرّة بين فخذي واستخرجت الكيس ، رفعته قليلاً على مدى الضّوء فتبيّن لي أنّني خلال هذه المدّة كاملةً كنتُ أبول دمًا ، كلّ الكدَمات والأنسجة المُتهتّكة يمصُّها الجسم ، ويطرحها عن طريق البول ، علاوةً على النّزيف الدّاخلي جرّاء التّعذيب الّذي كان يُمارَس على المعدة . عرفتُ أنّ حالتي حرجة ، ولكنّ لطف الله غالب ، وباهتمامهم المتنامي بي ربّما أتماثل للشّفاء التّامّ في أسابيع!!

أزالوا بربيش (الجلوكوز) عن يدي ، وصار بإمكاني أن آكل وأمضغ الطّعام ، ركّزوا كثيرًا على السّوائل ، والشّوربات ، والبروتينات ، كانوا يريدون لجسمي أن يتعافى بأسرع صورة . ألفتُ المكان بعد أن توجّستُ منه ، فتحتُ عينيّ على كلّ بوصة فيه ، وبدا منظر العساكر الّذي يحرسون كلّ سرير جزءًا من المشهد الطّبيعيّ!!

قمتُ لأصلّي ، صار بإمكاني أن أجلس في الخطوة الأولى على جانب السّرير ، وفي الثّانية استطعت الوقوف واستقبال القبلة ، بدأتُ بالتّكبيرة ، ولم أكد أفرغ من الفاتحة ، حتّى هُرِعَ إليّ العسكريّ حاملاً بندقيّته ، رماني على السّرير ، وانهال (بِسِنجة) البارودة على قدميّ المريضتين أصلاً ، وراح يضربني بحقدٍ واضح ، يبدو أنّه بالغَ في تطبيق الأوامر بمنعي من الصّلاة ، ولم ينتبه إلى أنّهم يريدونني مُعافًى عمّا قريب . صاح بي وأنا ممدّد على السرير :

- وْلا . . . شو عَمِ تْساوي وْلا . . .

- عَمْ صَلّي!!
- إصحا تْصلّي ولا .
- ليش بَتَا؟!
- الصَّلا ممنوعة . . . إخوان مسلمين إنتا وْلا؟!!!
- الصَّلا ممنوعة؟!! طيّب رئيس الجمهوريّة تبعك بصلّي!!
- وْلا : رئيس الجمهوريّة تبعي بصلّي مشان يِضَحّكْ عَ الشّعب .
أكملتُ صلاتي في سِرّي . . . وأويتُ إلى (رَبْوَةٍ ذاتِ قَرَارٍ وَمَعِين)!!

بعد أيّام قلائل اكتظّ المستشفى بالمعتقلين ، كانت أحوالهم يُرثَى لها ، أنا الّذي عشتُ صنوفًا من العذاب لا تُعدّ ولا تُحصَى رثيتُ لهم . وفي أعماقي انهمرتْ دموعٌ حاولتُ مرارًا أن أتخطّاها فلم أستطع . . . شعورٌ المهانة والذّلّ تفاقم في أعماقي وأنا محتجزٌ مثل ذئبٍ جريح على فرشة سريرٍ يتجاوز وزنه الـ (٥٠٠) كغم ، بدونا هنا - نحن المُرتَهنين - في هذا المستشفى حيوانات مُقيّدة بالجنازير والسّلاسل تُقاد إلى أقفاصها . كان سريري في بدايةٍ الأسرّة المنتشرة ، وكان قريبًا من المدخل الرّئيسيّ مِمّا مكّنني أن أتابع كلّ مسلوخ ومذبوح ومجروح مَجلوبٍ إلى هنا . أحد هذه المشاهد انطبع في ذاكرتي حتّى بعد أنْ غادرتُ هذا المكان إلى الجحيم بعد سنتين وشهر من البقاء في (فرع الخطيب) المشهود . . . . كانوا قد أتوا بهم من ساحة العبّاسيّين بعد اشتباكٍ دمويّ ، ثلاثة من المعتقلين قد جُرّدوا من كامل ملابسهم ، كانوا عُراةً تمامًا وكلّ محاشمهم مكشوفة ، كلّ واحدٍ منهم رُبطت يداه مع بعضهما بجنزير ، ورِجلاه كذلك بجنزير آخر ، ووسطه بجنزير طويل إلى السّرير الّذي يجلس فوقه ، وجنزير رابع يجمع بين ثلاثتهم كأنّهم قرود أو وحوش غابٍ يُخشى فرارهم ، أو انقضاضهم على سجّانيهم . . .

ظلّوا واقفين على الباب فترةً من الزّمن ، قبل أن يُتابِعوا سيرهم . أراد أحدهم التبوّل ، فأمره أحد العساكر أن يفعل ذلك في القنّينة الّتي أعطيت له من أجل هذا الغرض ، فقام على طوله وتبوّل فيها ، ثمّ انسحب ثلاثتهم بأسرّتهم ، وسِيقوا إلى الحمّامات ، أمره العسكريّ أن ينزل من على السّرير بالقنّينة ، ويتّجه نحو الحمّام ليفرّغها هناك ، وكان يمشي وراءه ويصوّب فوهة بندقيّته على رأسه من الخلف . صاح به أن يعود خلال عشر ثوانٍ حتّى لا يختلي بنفسه ولو داخل الحمّام ، وعاد السّجين بعدها إلى سريره ، ومضت قافلة اللّحوم البشريّة إلى أماكنها المرسومة لها مُخلّفة في حلقي غُصّة لم أزدردْها إلى اليوم!!

بدأ جسمي يتعافَى ، ظلّت صلاة الرّئيس المسخرة ترّن في بالي ، ضحكتُ يومها من كلام العسكريّ ملء شدقيّ ، مرّ زمنٌ طويل لم تنفرج فيه أساريري مثلما انفرجت في ذلك اليوم ، قلتُ في نفسي : ما دام هناك مجالٌ للسّخرية في الواقع المرّ ، وما دام هناك اقتناصٌ للفرصة ، فلأفعلها اليوم . نويتُ أن أقوم اللّيل بجانب السّرير في غفلة من الجلاّدين ، انتظرتُ حتّى اقترب الهزيع الأخير من اللّيل ، وخِلتُ أنّ مَنْ يحرسني قد غفل عن المراقبة الحثيثة ، وأسند ظهره إلى الجدار ، وانزلق معه ، وأقعى على إليتَيه ، مسندًا رأسه إلى قائم بندقيّته . وقفتُ مثل شبح على أطراف أصابعي ، وكبّرتُ للصّلاة ، كان قِنطارٌ من الخوف يتمشّى في جوارحي لحظتها ، وكانت كرةٌ من التّوجّس طُليت بنُحاس الحذر ترتطم بقَمَعة رأسي ، ومع ذلك قدرت أن أقرأ الفاتحة دون أن أُخطِئ فيها ، وبدأت بقوله تعالى : (سَأَلَ سَائِلٌ بِـ . . .) وانعقد لساني هناك ، وكرّرتُ الآية عشرين مرّة ، قبل أن أفلح في إتمامها على الوجه الصّحيح . وفي الرّكعة الثّانية كانت الطّمأنينة قد تمدّدت فوق غِشاء القلب ، خاصّة أنّ أحدًا من الحُرّاس لم يقطع عليّ خلوتي ، ولم

يُباغتْني (بسِنجة) بندقيّته . رفعتُ صوتي قليلاً ، وأنا أقرأ : (من المؤمنين . . .) لم أكد أنهي هاتين الكلمتين ، حتّى سمعتُ صوتًا خلفي يُكمِل : (صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) أكمل العسكريّ الآية ، ولم يفعل شيئًا ، تراجع بعد ذلك إلى مكانه ، فانداحت في قلبي موجةٌ من السّرور والسّكينة ، أكملتُ صلاتي كما أشتهي ، وعدتُ بعدها إلى السّرير ، اقترب منّي العسكريّ ذاته ، وسألني عن اسمي ، فقلتُ له :

- إياد .

- إنتا الدّكتور إياد أسعد .

- إي . . إيْ . .

- أنا كنت مع المجموعة إلّي فتّشتْ بيتك مشان القنابل والسّلاح . . . ما لقينا بيّتك شِي . . . طْمّن . . . لا تخاف . . . خلّيك ثابت . . .

لم أشكّ لحظةً أنّ الّذي خاطبني قبل قليل ليس عسكريًا من جلاّدي النّظام ، بل اعتقدتُ أنّه ملاك بعثه الله من السّماء ، لكي يزيد من صمودي ، ويرتقي بي إلى جبال التّحدّي . . . الصّمود في التّحقيق يحمل إمكانيّة الإفراج ولو بعد حين ؛ هذا ما كنتُ أمنّي فيه نفسي .

كانت الدّوريّات الّتي تتشكّل من أجل حراسة كلّ معتقلٍ في المستشفى تتكوّن من ثلاثٍ ، كلّ دوريّة فيها (٨) عناصر ، وتحرس المعتقل طوال (٨) ساعات ، وبذلك يبقى المريض المُعتقل تحت عيون الحُرّاس طوال اللّيل والنّهار . كانت التّعليمات تقضي بألاّ يقترب أيّ حارس من المرضى ، ولا أن يتكلّم معه ، ومن يفعل ذلك كان يُجلَد ويُهان كما كان يُفعل بالمعتقلين تمامًا ، وربّما يتمّ ذلك علنًا وأمام بقيّة

زملائه من عناصر العسكر حتّى يكون عبرةً للآخرين . وحده رئيس الدّوريّة مُخوّل بالكلام مع السّجين المريض .

دخل رئيس الدّوريّة مرّة عليّ بصحبة ممرّضتين شابّتين ، وكانتا غايةً في الجمال ، ووقف أمامي يُداعِبهما ، ويضحك معهما ، ويقبّل واحدةً ، ثمّ ينتقل إلى أخرى ، وهما تتغنّجان بين يديه ، وتتمايلان فوق ذراعيه ، وتتثنّيان على صدره ، فوجّه الضّابط كلامه لي :

– شو رأيك بعطيك وحده منُّنْ ، بس تعترف . حِلْوِه ما؟! ما أحسن لو عَطِيناك وحده تْبَوّسًا وِتْبَوْسَكْ . . . نِحْنا ما طالبين شي . . . بس حْكيلنا كم اسم . . . وخلّي أحلا وحده كل يوم تِجِي عندك . . . شو رأيك؟!!

قلتُ له بكلّ هدوء وتريّث :

– بالله عليك شي مرّة شفت الخَرا نازل . . . ونازلْ معُو دودة . . . أنا مستعدّ طُول هَيْ الدّودة وْإلْعب مَعَا وبَوّسَا على إنّي بَوّس وحده من هدول التّنتين . . . هَيْ الدّودة إلّي طلّعتها مِنِ الخَرا أشرف مِن ها الممرّضة إلّي بين إديك . . .

نظر إليّ وقد ارتفع حاجباه ، وتغضّن وجهه من التّقزّز :

– تْفُوه عليك وعلى ها الحكي . . . ما خطر ببالك إلاّ ها التّشبيه . . . لعنة الله عليك شُو قرف . . .

أمّا الممرّضتان فصار وجههما بالألوان ، واكتظّت تعابيرهما بالغضب والاشمئزاز ، وولّتا هارِبتَين .

في نهاية تشرين الأوّل من عام ١٩٨٠ ، حملوني مع مجموعة من معتقلي المستشفى الّذين تماثلوا للشّفاء ، وطاروا بنا – دون سابق إنذار – إلى فرع الخطيب لاستكمال التّحقيق ، فَكَشْفُ مخطّط الإخوان المسلمين للقضاء على رئيس الجمهوريّة لا ينتظر مزيدًا من الوقت!!

(٦)
الخازوق والدّولاب والكهرباء وأشياء أخرى

عدتُ إلى الزّنزانة ذات الرّقم (١١) . وعند الباب فُكّت قيودي ، ودُفعت إلى الدّاخل مع سيلٍ من الشّتائم المعتادة . كانت بطّانيّتي ذات الحواف البيضاء الممزّقة ما تزال هي هي . . . رائحة الرّطوبة والعفن كانت تفوح من كلّ شبرٍ في الزّنزانة ، يبدو أنّ شهور الصّيف قد مرّت عليها دون أن تفتح لأيّ نزيلٍ آخر ؛ لقد ظلّت أمينةً لي ، ولم تستقبل سواي طوال هذه الفترة ، وفضّلَتْ أن تكون أنيسةً لي وحدي رغم ما مرّ على فرع الخطيب من اعتقالات تجاوزت المئات إن لم تكن الألوف .

لستُ أدري كيف يُمكن أن يمرّ الزّمن على سجينٍ مُحاط بجدارن القبور الصّامتة من كلّ جهة مثلي!! يبدو الزّمن في تلك اللحظة مُتحالِفًا مع الجدران بطريقة التّناسب الطّرديّ ، فكلّما ضاقت تلك الجدران ضاقت فرجة الزّمن ، وفي لحظةٍ ما يتنافسان كلاهما على مساحة التّضييق ؛ أيّهما يجعلها في حدودها الدّنيا!! تضيق الجدران فيضيق الزّمن ، يصبح بطيئًا كسلحفاة ، حادّاً كسكّين ، مُولّيًا ظهره كلئيم .

كيف أقطع الزّمن ، وهو ينغرس في الخاصرة فيُدميها ، وفي تلافيف الدّماغ فَيَرُثُّها!!! قمتُ من مكاني رفعتُ يديّ إلى أعلى فارتطمتا بسقف الزّنزانة ، قفزت في مكاني ، ورحت أداعب السّقف بفروة رأسي ، خفّفتُ من انفعالي قليلاً ، ورحت أذرع المترين

بخُطوتين ، قرّرتُ أن أزيدهما إلى ثلاث ، فعلت ذلك أكثر من ألف مرّة . مللت ؛ فرحتُ أدور حول نفسي ، شعرتُ بالدُّوار بعد اللّفّة المئة ، أمتعني دُوارٌ من غير تعذيب ، دُوار اختياريٌّ وليس اضطِراريًا ، تابعت الدّوران مئةً أخرى وسقطتُ على الأرض ، كانت الزّنزانة تدور بي وأنا مستسلمٌ لها . . . هدأ الدّوار ، توقّفتُ بين نفسي ونفسي ؛ ساءلتُني : ماذا أفعل؟! هل جننتُ؟! أجبتني سريعًا : لا . يفعل المرء ذلك لينسى ، ليحتال على الزّمن ، يدور عكس عقارب السّاعة ليقضي عليه ، وحين يدور مع تلك العقارب يمتدّ به إلى ما لا نهاية . نحن في المصائب نصنع زمننا الخاصّ بنا ، نحاول أن نقطعه قبل أن يقطعنا ، يتجلّى الزّمن هنا عدوًا خفيًا ، لو لم يكن كذلك لما حاولنا خِداعه ، وفي النّهاية نكتشف أنّه يتغلّب علينا ؛ يسرق أعمارنا المنفلتة من بين أصابعنا ، ويتركنا حُطامًا على قارعة الأيّام!!

الصّلوات تخفّف من غلواء الزّمن ، تُحاول أن تستثمره لصالحها ، وبالتّالي لصالح السّجين ، قمتُ لأصلّي الظّهر ، أعجبني الوقوف بين يدي ربّ كل هذه الأشياء ، أردتُ أن أذوب في ملكوته ، أغمضت عينيّ ورحتُ عميقًا أغوص في كلماته السّنيّة ، ظللتُ أصلّي لساعتين ، وأقرأ ما (تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ) به ؛ لتهدأ بعد ثائرةٍ لن تكفّ عن الدّوران كلّما شَهَرَ الزّمن رمحه في الوجوه!!

سُحبتُ إلى التّحقيق ، وقد استعدتُ كثيرًا من عافيتي ، ظلّ ألم الشّقّ في رأسي مُلازمًا لي طيلة فترة الارتهان عبر كلّ السّنوات الضّائعة القادمة . أمّا ألم كسْرِ إصبع الوُسطَى فقد صار ذِكرى ، يبدو أنّهم عالجوه جيّدًا في مستشفى (حَرَسْتا) العسكريّ . دخلتُ الغرفة هذه المرّة إلى محقّق ثالث جديد ، صار واضحًا أنّهم يغيّرون المحقّقين لسببين على الأقل ؛ أولهما : ألاّ تنشأ علاقةٌ من نوعٍ ما يُمكن أن تؤثّر

على نتيجة التّحقيق واستخلاص المعلومات بين السّجين والمحقّق، وثانيهما: كلّ محقّق سابق يُعدّ فاشِلاً بالنّسبة للمحقّق التّالي، ذلك أنَّ الاستبدال يكون للضّعيفً (الّذي يرون أنّه ضعيف) ويأتي من بعده من هو أشدّ وأعتى.

في الغرفة شاهدتُ أحد السّجناء المُطمّشين والمُكلبشين، وكانت رجلاه كذلك مربوطتين بجنزير قصير. أمّا أنا فلم يطمّشوني حتّى الآن، يبدو أنّهم كانوا يريدون لي أن أشاهد ما يجري. أعددتُ نفسي للأسئلة المعتادة، غير أنّ المحقّق لم يوجّه لي أيّ سؤال، رفع في وجهي خازوقًا يزيد طوله عن متر، كان رفيعًا من أعلاه ثمّ يغلظ حتّى يصبح قُطرُه حوالي (١٥) سم في نهايته. الخازوق المُرعِب الّذي طوله متر كان مقسومًا إلى ثلاثة أقسام، أملس ورفيع في أوّل (٢-٣) سم وغليظ وخشن في بقيّة المتر. وله مِقبض في نهايته ليُمسِك به الجلاد. رفعه المحقّق أمام ناظري فارتجف جسدي كلّه، وصار قلبي يخفق بشدّة، وراحت شفتاي تهتزّان كجناحَي ذُبابة، توقّعت الأسوأ على الفور. كانت عينا المحقّق تتفحّصاني من رأسي حتّى قدميّ، وتختبران وَقْعَ المنظر عليّ، تمنّيتُ في تلك اللحظة أن أكون مطمّشًا مثل السّجين الآخر، لكنّني بعد ذلك ارتعبتُ لِما حلّ بالمُطَمّش؛ لقد كان هو الضّحيّة.

أشار المحقّق للجلاّدين، أحنى أحدهم ظهر السّجين، وعرّاه تمامًا، وأمسك اثنان برجليه وثبّتاها جيّدًا، وجاء الرّابع ليستلم الخازوق من المحقّق، وضعه في دُبر السّجين وراح يضغط ببطء، ارتفعت صرخةٌ من السّجين، وراح جسده ينتفض، وتابع الجلاّد إدخال الخازوق، صار الخازوق المميت في جزئه الخشن داخل دبر السّجين، فعلت صرخاته واستغاثاته حتّى بلغت عنان السّماء، شعر الجلاّدون بالانتشاء، علا

الصّياح أكثر، صار يسترحم، وهم يتلذّذون بصياحه. قال أحدهم لصاحبه:

- للأخير... لَيْموت ابن الشـ... للأخير...

دفع الجلاّد الخازوق بكلّ ما يملك من قوّة، وارتفعتْ صرخةُ التقاطِ مَلِك الموت من فم السّجين، دخل الخازوق إلى الأحشاء وتهتّك كلّ ما مرّ عليه من أنسجة وأربطة، خار السّجين وهو ينطفئ بسرعة، ثمّ أسلم الذّبيح روحه إلى بارئها!!

أيّ وحوشٍ هؤلاء الّذين يفعلون هذا؟! أيّ ساديّة هذه الّتي يتمتّع بها هذا الصنف من المخلوقات؟! مَنْ يستطيع أن يحدّد لي ماهيّة هؤلاء السّفّاحين؟! أَوُلِدوا لأمٍّ وأبٍ، أم لشيطانةٍ وإبليس؟! هل هم كائنات أخرى تلبس ثياب البشر حتّى يفعلوا ما فعلوا؟!!

فيما بعد تأكّدتُ أنّ هذا السّجين قد أدلى بكلّ ما يريدون من معلومات، لم تكنْ حياة أيٍّ منّا مهمّةً بالنّسبة لهم، كانت المعلومات الّتي نملكها أهمّ مِمّا سواها. ولمّا فرغت جعبته من المعلومات وتأكّدوا من ذلك، استخدموه وسيلة للضّغط على مساجين آخرين لم يعترفوا بعد، أو لم يرموا بكلّ ما لديهم من كنوز!!

فاقم الرّعب من اضطرابي، تقيأت كِسَرَ الخبز المختلطة بحبّات الزّيتون، وشعرتُ بتأرجحي، تمتمتُ ببعض الأدعية، وسالت دموعٌ حمراء على خدّي. رشقني أحدهم بدلو ماءٍ على وجهي. ولفّ آخر الذّبيح بحصيرة وخرج.

- وْلا محمود الفحّام، وهيثم رشيد، وسلطان أحمد... هَدُول من خليّتك كلُّنْ اعترفوا... إنتا بِدّا ما حابب تعترف...

- لأْ يا سيدي... حابِبْ...

- إيوه... إلْ ما بْيِعترَف نهايتو مِتِلْ ما شفت...

- لأْ يا سـيـدي . . . أنا بدّي إعـتـرف . . . بس عَ شـو بدّي إعترف . . .

- عَ الأسلحة إلّي استلمْتَا من التّنظيم وسلّمْتَا لعناصر تانية . . . بدنا دِلّْنا عَ مخازن الأسلحة ، وعَ أسماء العناصر ، وين كنتو تِتْلاقوا!!

- بسيطة يا سيدي . . . بسيطة . . . رح إعترف (قرّرت أن أعترف بطريقتي الخاصّة)

- أها . . . هات لَنْشوف .

- الأسلحة بحوش بيتي بِـ (سَقْبا) ، تحت شجرة الجوز . (كنتُ أعرف أنّه لا يوجد أسلحة هناك ، أخبرني بذلك العسكريّ الّذي كان يحرسني في مستشفى حَرَسْتا العسكريّ) .

- والتّنظيم . . .؟!

- ما إلي علاقة . . .!!

- شلون ما إلك علاقة . . . لَكانْ منين الأسلحة .

- من تُجّار أسلحة بِبيعوني ، وبعدين بَبْيعَا أنا وبربح من وراها سيدي .

- والإخوان يا حَيَوان . . .!!!

- يا سيدي أنا ماني مِنّن ، وأنا ضدّ الإخوان أكتر منّك!!

- ضدُّنْ أكثر منّي!! كيف صارت هَيْ . . .؟!!

- هَدول حمير يا سيدي ما بيفهموا لسّه ما استلموا الحُكم ومِخْتِلْفين بِينات بَعضُنْ مين رح يكون الرّئيس ومين نائب الرّئيس!!

- طيّب وإنتا شو بدّك يكونوا؟!

- أنا بِدّيّاهنّ يكونوا إيد وحدة ، وجيش واحد ، وبعدين يهجموا عليكُنْ ، ووَرْجيني وَقْتَا إزا رح تْصَمْدوا مَعُنْ دقيقة . . . بس بهَيْ اللّحظة بِنْتِسب إلُنْ . .!!

- وْلا . . . الله يلعنك . . . والله إنت أبلى منُّنْ . . .
- يا سيدي المختصر : الإخوان حمير وإنتو كفّار مجرمين . . .
- ولا . . . نِحنا كُفّار؟!!!
- إي سيدي . . . (كنتُ أذهب دون أدري بالأمور إلى نهايتها) .
- وْلا . . . إنتا جاوزت حدودك يا ابْن العا . . . هاتوا الكهرباء والدّولاب لنشوف بِدّو يحكي ولا ما بِدّو . . .!!

كان القابض الثّنائي ذو اللّون الحليبيّ يحتلّ طرف سلك كهربائيّ يطول لأربعة أمتار تقريبًا ، وفي الطّرف الآخر بدت شعبتان من الحديد ، لهما مقابض بلاستيكيّة . أمّا مصدر الكهرباء فكان فيه مفتاح دائريّ يتحكّم بمستوى الفولتيّة في السّلك الكهربائيّ المُهيّأ .

حشروني في الدّولاب ، أحاط بي كما يحيط حبلٌ غليظ بيدٍ معقوفة ، ظلّ الجزء الأخطر منّي عرضةً للصّيد في أيّة لحظة ، ويداي مُكلبشتان ، وضع أحد الجلاّدين قابض الكهرباء في مكانه ، وأمسك آخر بطرفي السّلك في شعبتيه المعدنيّتين ، وضع واحدة على قدمي المرتفعة إلى أعلى من الدّولاب ، ووضع الأخرى على القدم الأخرى ، اهتزّ جسدي وانتفض للصعقة الكهربائيّة ، استمرّ في ذلك لمدّة (١٠) ثوانٍ شعرتُ أنّ دمي قد نشف ، وأنّ عروقي قد جفّت ، وأنّ ما تبقّى من شعرٍ رأسي قد احترق . . . اقترب منّي المحقّق : (إي وْلا . . . انعدل مُخَّكْ) ، بقيت ساكتًا . أشار لهم أن يرفعوا الفولتيّة ، كرّروا ذلك لعشر ثوانٍ أخرى ، فشعرت بأنّ عينيّ ستنفجران ، وأنّهما صارتا بحجم خرم الإبرة لحظة الصّعق ، أمّا يداي فغاصتا في الكلبشة مع شدّة الاهتزاز . . . توقّف لدقيقة ، ويبدو أنّه يئس ، فصار يأمرهم بصعقي في أنحاء متعدّدة من جسمي ولا يسأل سؤالاً واحدًا ، كان يبدو أنّه صار يتسلّى بمنظري وأنا أرتجّ وأختلج . . . وضعوا الشّعبتين المعدنيّتن على

خصيتيّ فكاد يُغمى عليّ ، وظلّ أثر انقباضهما بعد ذلك لأسبوع ، ثمّ وضعهما بجانب عينيّ فشعرت أنّ رأسي ينفجر ، وأنّ كلّ الدمّ تجمّع في نقطة واحدة ، وشعرت بالحدقتين تضيقان وتتوسّعان في الثّانية عشر مرّات . وتابع أسلوبه في التّسلّي فوضعهما على معدتي ، فانقبضت عضلات المعدة وانبسطت مرّات عديدة ، تشنّجت حينها منطقة الجذع بالكامل ، وشعرتُ بحالة احتقان قاسية ، وبدأت معدتي تنزف من الدّاخل أعرف ذلك تمامًا . رافقني وجع النّزيف هذا لمدّة شهرٍ فيما بعد!!

كانوا يضعون الشّعبتين كما يحلو لهم في أنحاء متفرّقة من جسدي وهم يراقبون ارتعادي وارتجافي كخروفٍ ذبيح ويضحكون ، وكانوا يتناوبون على رفع (الفولتيّة) في كلّ عضوٍ يصعقونه من جسدي ، ويتشهّون وهم ينظرون إلى ردّة فعل جسدي ؛ وكلّما شارفتُ على الموت علتْ قهقهاتهم وامتلأت أشداقهم بقيح الضّحكات . . . في لحظةٍ مالت كفّة الجسد فيها للموت ، بحثتُ عن الله لينقذني ممّا أنا فيه ، ساءلته إنْ كان يراني - وهو يراني - فَلِمَ يُشاركهم النّظر إليّ والتّلذّذ بتعذيبي دون أن يخلّصني من بين أنيابهم . هم أنفسهم عندما كنتُ أصيح : يا الله . . . يا الله . . . كانوا يقولون : إذا كان يسمعك فليأتِ إلى هنا ، ونحن نصعقه كما نصعقك . . . استغفرتُ الله بعدها ، وبقيتُ أستغفره ستّة أشهر في اليوم الواحد ألف مرّة لذلك الخاطر اللّعين الّذي راودني في ليلة الكهرباء المشؤومة!!

أعادوني إلى الزّنزانة دون دم ولا جلدٍ . . . كنتُ كومةً من العظام تُشحط من غرفة التّحقيق إلى قبرها المقدور . رميت جسدي على أرض الزّنزانة ، ولم أصدّق أنّ العذاب قد كفّ ، كانت ساعةٌ واحدةٌ دون عذابٍ في ذلك اليوم تُعادل العيش في ظلّ الله ونعيمه يومَ القيامة

ألف عـام ؛ هكذا تبـدو نعـمـة الله جليّـة حين تنهض المقـارنات بين الحالات . لم أدر كيف صارت أسمى أمنيةٍ لي في ذلك اليوم أن يمرّ دون غرفة التّحقيق ودون جلاّدين . . . لم أعدْ أنظر إلى القبر الّذي أتكوّر فيه على أنّه جزءٌ من الفتْنة ، بل صار في نظري هو النّجاةَ من الفتنة ، ولم أعد أنظر إليه على أنّه وجهٌ من وجوه المحنة ، بل صار قبسًا من أقباس المِنحة!! نعم . . . صار ملجئي من العذاب ، وصار جِداري من الآلام . . . كنت سأرضى وأشكر الله على نعمه لو عشتُ بقيّة العمر في هذه الزّنزانة ولكن من غير أن أرى الكيبلات والخوازيق والكهرباء والدّواليب والكمّاشات والهراوات والسّلالم و . . .

يا الله . . . يا مَنْ يرينا في كلّ شيءٍ عظمةً ورحمة ، إنْ كانت الرّحمة مخبّأة لي في هذه الزّنزانة ، مقدورةً لي بين جدرانها فأنا أحقر من أن أرفضها ، وأنا أقلّ من ألاّ أقبل بها . . . رضيت بها يا ربّ رضيت . . . ﴿فَهَبْنِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًا﴾!!

قضيتُ الليلة أقرأ بـ (يس) قرأتها عشر مرّات ، ثمّ ثنّيتُ بسورة (المُلك) وقرأتُها عشر مرّات كذلك ، ونمتُ بين قسوة الأوجاع ، وبين ذكريات الأهل والزّوجة ، وطيوف ابنتي الّتي أطفأت شمعتها الأولى قبل اعتقالي بأسبوع ، ثمّ ها هم يُطفئون جسدي ، ويحرقون قلبي في ابتعادي القسريّ عنها ؛ تذكرتُ ضحكتها الّتي يرقص له الفؤاد ، وتهاديها في الممرّ الطّويل تُحاول المشي وهي تتعثر كلّما خطت خُطوتين وتسقط في الثالثة ، كنتُ أسقط حين تسقط ، أنهض حين تنهض ، تُداعب بسمتها صفحة مشاعري فتخضرّ ، وتملأ نظرتُها حجرات القلب بالبهجة المُترفة ، وهي هي . . . في براءتها القادمة من ندى الجنّة ، ومن طيورها الشّادية ، ومن ورودها الشّذيّة . . . أينِ غبتِ الآن عنّي . . .؟!

أما تساءلتْ عيناك وأنت تستيقظين ذات صباح - وقد تعوّدت أن

تستيقظي في حضني - أنّه ما عاد من أبٍ يُهدهد بكاءك البريء، ويمسح دمعتك العَجْلى، ويرتّب خصلات شعرك السّوداء الّتي تنسدل على جبهتك الفضيّة الودودة . . . مجرّات من الحنين تثقب فؤادي وأنا أتذكّرك بين مستنقعات العذاب هنا . . .!! أما من فرصةٍ لأرتشف من صفاء عينيك يا صغيرتي ما يُعينني على تحمّل القادم المجهول؟!! أخذ طيفُها يغيب في سماءٍ مُظلمة بعيدة، وحملتْني نسائم الحرّيّة المُتشوّفة خارج الجدران، استسلمتُ لهذا الخيال، حين رفعتُ البطّانيّة إلى جسدي المقهور وغططتُ في نوم عميق!!

مرّ شهران جديدان عليّ هنا دون أن أُستدعى إلى التّحقيق، هل كانت (يس) ذات العشر مرّات في ليلة الكهرباء هي السّبب؟! أنا نفسي غرقتُ في بحر الحيرة؛ لماذا لم يعودوا يستدعونني إلى التّحقيق من جديد؟! هل اقتنعوا أنّني لا أملك معلومات؟! أم هل أدلى بهذه المعلومات الّتي يريدونها معتقلون آخرون؟! عشرات الأسئلة ثقبت دماغي وأنا أتوجّس من الحفلة القادمة . . . لقد تعوّدت على حفلات التّعذيب لأكثر من أربعة أشهر سابقة، لماذا في الشّهرين الأخيرين هدأت الأمور؟! من أيّ جنرال صدرت الأوامر حتّى كفّوا عن التّحقيق معي؟! ومع أنّني ركنتُ إلى هدوء العاصفة الّذي أعيشه، وارتحتُ له؛ وأنهضني من قرارة الجحيم، ومنحني فرصةً لاستعادة ذاتي، إلاّ أنّ التّرقّب والتّوجّس ظلاّ سيّد الموقف؛ فمن يأمن للعقرب الّتي تعيش بين ثيابه، وتقتات من خلايا جسده؟!!!

في الزّنزانة بدأتُ أبني عالَمي . . . كفّت القرية عن مراوغتي، وكفّ ضجيج دمشق عن التّحرّش بي . . . صار لي هنا عالَمٌ جديد . . . كان عليّ أن أبنيه من البداية على سجيّتي وعلى ما أريد . . . كانت ذكرياتي في العقود السّابقة عن فترة الدّراسة والعمل تعمل على

تشويشي، والعبث بطمأنينتي؛ فمن هو المجنون الّذي يُقارن الحياة الّتي عشتها طالبًا مُجِدًا في الجامعة، وطبيبًا معروفًا في المستشفى، بالحياة الّتي أعيشها الآن . . . أذكر أنّه ذات مرّة كنتُ مشارِكًا في مُؤتمرٍ طبّيّ مع مجموعةٍ من أطبّاء الشّام وبلدان عربيّة وأجنبيّة أخرى، وفي خِتام المؤتمر كنّا نتعشّى في فندق (الشّيراتون) في طابقه الأعلى، كانت أطباق الطّعام من كلّ صنفٍ ولونٍ، فتحتْ شهواتُ الحياة لنا عن صدرها المكنون في ذلك اليوم، وفي غمرة عَزْفي بأصابعي على سيمفونيّة التّنقّل بين أطايب الطّعام حانت منّي التفاتة عبر بعض الجدران الزّجاجيّة الّتي كانت تحيط بالمطعم من كلّ اتّجاه، فرأيت دمشق ببهائها الطّاغي تتمدّد على الأرض، مثل حوريّة ساحرة . . . وتنبسط مثل كروم العنب النّاضجة، عشقتُ دمشق يومها من كلّ قلبي، أحببتُها مثل فاتنة تحلّ في سويداء القلب، وأنثى تستبدّ بمأخوذ العقل والفؤاد مثلي . . . ظللتُ أطوف بنظري على مساكنها من ذلك المكان الشّاهق، وهي تتهادى في أحيائها بهدوء، وتتمدّد في حاراتها بأمان . . . رَسَمَتِ الأضواء لبّ المشهد الأسطوريّ، كانت تلك الأضواء تتمايل عبر بيوتها وأعمدتها وفنادقها وساحاتها كأنّها راقصةٌ قادمةٌ من السّماء، حلّت على أهل الأرض لترسم على قلوبهم - وهم يُتابعونها بعيونهم - مشهد السّحر نفسه فيقعون صرعى هواها، ويَهْوُون قتلى حُبّها . . . لم أعرف يومها، ولم يكن لي من سبيلٍ لأعرف أنّ هذه المدينة الّتي تبدو بهذا الهدوء الدّيباجيّ الرّخيم، كانت تعيش فوق طبقة من الجمر الملتهب، وتستقر فوق حمم من البراكين المتحفّزة . . . نعم لم أكن أدري أنّ دمشق سوف تنقضّ علينا، وتنهشنا بأنيابها الّتي غطّتها تحت عباءة من الحرير، تلك العباءة الّتي لم تكن خافيةً على أيّ طبيبٍ عاين المشهد معي من تلك النّوافذ يومَها!!!!!

هل هذه دمشق الّتي تدور فيها الحرب الخفيّة من حارةٍ إلى حارة، ومن زُقاق إلى آخر؟! هل هذه دمشق الّتي هيّأ صلاح الدّين جامعها الأمويّ للنّصر ذات تاريخ أبيض؟! هل هذه دمشق الّتي تتظاهر أنّها تنعم بالهدوء من فوقنا، ونحن من تحتها نذوق أهوالاً من التّعذيب والتّقتيل في سراديب ودهاليز لا يعرف أحدٌ مبتداها ولا مُنتهاها؟!! مَنْ يملك خارطة لهذه السّراديب فيأتي ليشهد على وحشيّة هذه الأجهزة الّتي تُمعن في تمزيق أجسادنا بكلاليب من حديدٍ، وتشريح لحومنا بسكاكين نار؟!

صار قانون الزّنزانة بعد مضيّ الشّهرين الأخيرين محفوظًا بالنّسبة لي: (الكوز) الّذي أبول فيه وأشرب فيه يُملأ مرّتين في اليوم عند الخروج إلى الغائط. الخروج إلى الغائط تحت لَسْع السّياط يجب أن يتمّ في دقيقة. الزّنزانة مُطفأة في اللّيل والنّهار، وحده النّهار يتغلّب على بعض العتمة من خلال الشّقوق. عدد البطّانيّات واحدٌ وهذا العدد لا يتغيّر في صيفٍ ولا شتاء هو هو، عليك أن تجعل منها فِراشك وغِطاءك ووسادتك. الطّعام يدخل مرّتين في اليوم في يدِ سجّان يبصق فيه قبل أن يقدّمه إلى السّجين. الحمّام يتمّ كلّ أسبوعين وقصّته سوف تُحكى لاحِقًا؛ لأنّها سُرياليّة بامتياز. الملابس لا تتوافر للسّجين أبدًا؛ فأفرهول السّجن الكاكيّ سيبقى ما يستر عورتك لو استمرّ بك المقام هنا نصف قرن!!

هل هو البحر الهادئ الّذي يستعدّ للثّورة؟!! أم هي الرّيح الّتي تركت الأشياء كأنّها ﴿أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَة﴾؟! مرّ حتّى الآن ما يقرب من سبعة أشهر، وأنا أقرأ (يس) و(الملك) ولا أجدني أحفظُ كثيرًا من الآيات... ولا مُصحف يُعطَى ولو ربع ساعةٍ في اليوم لتستقرّ به القلوب الواجِفة، كان المصحف حينها جريمةً كبرى، وخيانةً عُظمى!!

خانتني ذاكرتي، أحسستُ أنّها امتلأت بالثّقوب، وتسلّل من تلك الثّقوب كلّ ما كنتُ أحفظه من آيات الكتاب الحكيم... ظلّت هيئة السّجين الّذي قُتِلَ بالخازوق أمامي تنهض في اللّيالي الحالكة وتنهش دماغي، وتضغط على قلبي... كنتُ أظلّ قابعًا في مكاني، مُسدلاً رأسي على حِجري، ومُجهِشًا بالبكاء لساعات وساعات... لم أجد ما يعينني على تخفيف لوعتي به غير بعض الأدعية؛ بقيت لسنة أدعو بها له علّ الله يتقبّله في المرحومين، وينتقم من جلاّديه أجمعين!!

عندما دخل أوّل شتاءٍ عليّ في (فرع الخطيب) دخلت معه المآسي الجديرة به. كانت ليلة ماطرة، نفث فيها الجوّ من البرد ما لا طاقة لإنسانٍ به. لم يمرّ وقتٌ طويل على المطر الهاطل حتّى أحسستُ أنّ بللاً قد تسرّب إلى بطّانيّتي الّتي يرقد نصفها تحتي، ونصفي الآخر تحتها. ثمّ تفاقم الوضع فصار قعر زنزانتي يفيض بالماء عن جوانبه، ومع برودة الجوّ فقد أحسستُ أنّ الماء يجمّد كلّ شيءٍ في جسدي، وقفتُ على رجليّ، وصرتُ أعصر البطّانيّة لأخفّف ارتشاحها بالماء، ولكنّ الماء صار يتزايد، ويأتي من الخارج عبر شقّ الباب السّفلي، عرفتُ حينها أنّهم صمّموا أرضيّة المعتقل بحيث تصرّف المطر النّازل إليها نحو الزّنازين... يومها ظللتُ أرتجف من البرد طوال اللّيل، ولم أستطع أن أُغمضَ جفني للحظة... مرّ عليّ أكثر من أسبوع على هذه الحالة، أرتجف من البرد القارس، والبطّانيّة المبلّلة والأرض العائمة في بركة ماء، ولا شيء يدفع البرد... في هذا الأسبوع لم أنم في اليوم الواحد أكثر من أربع ساعات، ولم أكن لأنام هذه السّاعات الأربع باختياري، كنتُ أنامها بسبب الإنهاك من الرجّفة والسّهر والتّكوّر على النّفس!!

في اللّيالي الّتي كان يعصف بي فيها الهمّ والبرد، كنتُ أتدثّر

بالذّكريات لعلّها تبعث قليلاً من الدّفء في الأوصال ، وتُبعد كثيرًا من شبح الخيالات المرعبة أيّام التّحقيق الأولى . . . بعض الصّور لم أستطع التّغلّب عليها إلى اليوم ، لم يكنْ هناك من سبيلٍ إلى محوها من الذّاكرة ، أو استبدال ذكريات عذبة بها . ظلّت تنقب جدار القلب بإزميل الرّعب . . . تركتُها . . . تركتُها تفعل ما تشاء ؛ قلت : لعلها تقتل القلب في نَقْبها المتواصل ، فأرتاح منه ، هذا الّذي يصفعني بالحسرة واللّوعة في كلّ حين!!

كيف يسير العالَم الخارجيّ؟! هل ما زال يُتابع لهاثه الطّبيعيّ خلف ساقية الزّمن؟! أم أنّه تجمّد منذ تموز كما حدث معي ، وتوقّف عند أوّل سوطٍ شقّ ظهري إلى نصفين؟! وهل الزّمن الّذي أتحدّث عنه زمني أم زمنهم؟! إذا كان زمني فلا يهمّ أحدًا سواي ، وإذا كان زمنهم فلا يعبؤون بما يخصّني!!! أهكذا هي الحياة ؛ تقسم النّاس إلى مَنْ تحبّ وتكره ؛ تلفظ الّذين تكرههم خارجها ، وتغطّي الّذين تحبّهم بمباهجها؟!!! ها أنذا أفقد كلّ ما يمتّ إلى البهجة بِصِلَة!! ها أنذا أسير نحو شطب البهجة ومرادفاتها من قاموس حياتي اليوميّ!! ها أنذا أبكي في داخلي على كلّ شيءٍ ومن كلّ شيء!!

في منتصف لسعات البرد من كانون عام ١٩٨١ انتزعوني من الزّنزانة ورموا بي إلى مهجع الثّكالى!!

(٧)
﴿الَّذِي عَلَّمَهُمُ السِّحْرَ﴾

كان مُعتِمًا ، ومكتظًا ، ولا تصل إليه إلاّ عبر دهاليز وأقبية تمتدّ في أدراج تحت الأرض ، وروائح العفن فيه تزكم الأنوف . وكان نزلاؤه من الّذينً استطاعوا أن يخلّصوا أنفسهم من بين براثن الوحوش والسّباع وأبقوا على بعض الرّمق ليشهدوا ما تبقّى لهم من العذابات الآثمة القادمة!!

أمّا الجدران فقد اهترأ فيها كلّ شيء ، بقايا الدّهان قد سقط ، وبقايا فُتات الرّمل منه قد تناثر ، وبعض قضبان الحديد الصّدئة قد بانت . السّجناء مرميّون على الأرض في كلّ زاوية ، ومنبوذون في كلّ اتّجاه كأنّهم مجموعة من الجربى الّذين يُخشى الاقتراب منهم . أمّا العيون فكانت منتفخةً من التّعذيب ، ملأ اللون الأزرق كلّ محاجرها ، تُحدّق في الفراغ ولا ترى شيئًا من الذّهول والصّدمة . وأنا . . . أنا كنتُ ﴿كَبِيْرَهُمُ الَّذِي عَلَّمَهُمُ السِّحْرَ﴾!!

صدقَ فِيّ يومها : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) ، كلّ هؤلاء المُلقَون كجثثٍ في أرضيّة هذا المهجع كانوا قد وفدوا إلى فرع الأمن الدّاخليّ (فرع الخطيب) بعدي . وكان (الصّبر عند الصّدمة الأولى) يشكّل لهم معضلة ، إذ إنّ أكثرهم لم يستطع ذلك ، أو لم يعرف أنْ يحاوله .

قمتُ أتفحّص الوجوه لعلّني ألتقي بمن أعرفه فيها ، وفي غمرة تنقّلي بين الضّحايا ، صُعِقت عندما رأيتُ وجهه ؛ نعم كان وجهَه . . .

توقّفتُ أمامه مليًا لأتفحّصه ، كان هو . . لا بدّ أنّه هو ، أعرفه من الشّامة الّتي تستقرّ فوق صُدغه الأيسر ؛ حمدت الله أنّهم لم ينزعوها في حفلات التّعذيب . . . وحدّق هو الآخر النّظر فِيّ فعرفني ، غالبَ ابتسامة باهتة من شدّة الألم ليرسمها على وجهه فخانته ، وإنْ تدفّق طرفها الأقصى ليوحي بكلّ شيءٍ . . . همّ بأنّ يقوم من مكانه ليحتضنني ، أشرتُ إليه بيدي كي يبقى جالِسًا ؛ كنتُ أخشى أن يكون أحد المخبرين بيننا ، فيعرف سِرّ العلاقة ، فينهدم ما صبرتُ عليه طوال سبعة أشهرٍ سابقة . . . وكأنّه قدّر ذلك فعاد إلى مكانه . . . بدأت الصّور تنهالً على مخيّلتي . . . التقطتُ له فيها عمرًا من الأحداث ، وتقابلت عيوننا لتقول كلّ شيء بصمت!!!

ها هو (محمود الفحّام) بشحمه وما تبقّى من لحمه بين أكثر من خمسين سجينًا في هذا المهجع المتهالك المُتهاوي ؛ كنتُ أظنّ أنّه أُعدم ، أو أنّه اختفى عن العيون ليتّقي القبض عليه . أما وإنّه أمامي حيٌّ يُرزَق ، فإنّ كثيرًا من الحذر يجب أن يُتّبع . . . أمّا الخوف من أن يكون اعترف على أحدٍ فكان أكبر من أن أتناساه ولو لدقائق في ذلك اليوم الّذي وفدتُ فيه إلى هنا!!

(محمود الفحّام) مُغامِرٌ ومُجازِف ، قليل الكلام صحيحٌ ، ولكنّه خطير الفعل ، عندما هرب بعضُ المَساجين من سجن (كفرسوسة) آواهم في أحد البيوت الّتي يملكها بعيدًا عن أعين المخابرات ، كان عدد غير قليل قد تمكّن من الهرب من السّجن بمعاونة آخرين ، وذابوا في البيوت البعيدة وفي الحواري الجانبيّة والأرياف الخارجيّة اتّقاءً للقتل أو الإعدام ، وكان (محمود) أوّل من تجرّأ أن يجعل بيته مأوى لهم ، ويسخّر طاقاته وذكاءه الحادّ ، وسِرّيّته العميقة في خدمة الإبقاء عليهم خارج دائرة القبض!!

لِماذا زجّوا بي بين هؤلاء البائسين؟! لماذا أخرجوني من زنزانتي ورموا بي هنا؟! هل كان ذلك كي يلتقطوا شيئًا من الاعتراف عن طريق المدسوسين . . .؟! كلّ هذه الأسئلة رميتُها ورائي ، وأقبلتُ على المهمّة الّتي يجب أن أقوم بها هنا قبل أن يُرحّلوني من جديد؟! كنتُ قد عزمتُ على أن أعلّم الجدد طرق المناورة والمراوغة مع المحقّق ، وطرق الصّبر على التّعذيب .

- حينَ تُجلَد لا تنشغل بالتّفكير بألم الجلد ، حاوِلْ أن تشغل نفسك بماضٍ لصيقٍ بالفؤاد ، حاولْ أن تغوص في أجمل ذكرياتك وتعيشها . . . إيّاك أنَ تعدّ مع الجلاّد سِياطه ، دعه يعدّها وحده ؛ إذا كان سيّده طلب منه ذلك ، فمن طلب منك أنتَ شيئًا كهذا؟! انشغل بغير العدّ . . .

- إذا اضطررت للاعتراف فاعترف على الموتى والقتلى والّذين خارج البلاد .

- إذا كان موعد التّحقيق معك معروفًا أو درويًا ، فامتنع عن الطّعام قبله بيوم أو ساعات طويلة ، فذلك أسهل أن يُغمَى عليك بعد بضع جلدات ؛ الإغماء هروبٌ من العذاب ، وإعطاء فرصةٍ للمُلاحَقين أن يهربوا كذلك!!

- في كلّ مراحل التّعذيب لا تكتم صرخاتك ؛ لأنّها تؤدّي إلى انفجار الرّئتين ، اصرخ بملء فيك ، وبين كلّ صرخةٍ وأخرى اسحب ما استطعت من الهواء إلى رئتيك . . .

- لا تخجل من نفسك حين تتوسّل أو تسترحم . . . أنتَ في النّهاية إنسان ، ومن لحم وعظم ، ومن مشاعر وأحاسيس . . . قد يكون في صرخات الاسترحام بعضُ العزاء . . .

- إن عدتَ من التحقيق وفي جسمك بعض الجروح ، فلا تترك

الجروح دون أن تمسحها ، بأيّ سائلٍ كان ، بماء نظيف أو غير نظيف ، بريقك إن لم يكن قد جفّ تمامًا ، أو حتّى بالبول إذا اقتضت الضّرورة ، واربط على الجرح وشدّ عليه ؛ أطراف البطّانيّة قد تفي بهذا الغرض . . .

- (وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ) اقرأ ما استطعت وما تذكّرت من الآيات في التّعذيب وبعده . . .

- لا تنهر نفسيًا في أيّ مرحلة . . . تذكّر أنّك الأقوى لأنّ قضيّتك عادلة ، ولأنّ الظّلم لا يدوم!!

عشرات النّصائح ، قلتُها خلال شهرٍ كامل قضيتُه بينهم . . . عملتُ خلالها طبيبًا عضويًا ونفسيًا . . . وفي هذا الشّهر تحوّلتُ إلى مستشار ، كثيرون ارتاحوا إلى نصائحي . بعضهم لم يعجبه ما قلت . . . اعترف على نفسه كذبًا ، وورّط قومًا ليس لهم علاقةٌ بالأمر من قريبٍ أو بعيد!!!

عرفَ المحقّقون أنّ شيئًا ما تغيّر على المهجع ، لم يصبروا عليّ أكثر من ذلك ، قادوني إلى غرفةٍ للتّعذيب ، صارت لديّ خبرة كافية لتلقّي العذاب ، ظلّوا أكثر من ساعتين يعذّبونني لمجرّد التّعذيب دون أن يسألوني سؤالاً واحِدًا . أحد الجلاّدين (هستر) من التّعب ، صار يشدّ شعر رأسه ، وصار يصيح :

- ولا مَنْـ . . . ولا عَرْص . . . ولا شَرْ . . .

شحطوني بعد ذلك إلى زنزانتي ذات الرّقم (١١) استقبلتُها أو استقبلتْني كحبيبٍ عاد بعد طول غياب ، بعد شهرين من عودتي إليها ، وفد إليّ سجينٌ آخر من قريتنا قاسمني الزّنزانة هو (نزار) . . . صار هناك من يُقاسمني الهمّ ، ويوسّع دائرة الصّبر والاحتمال وإن ضاقت دائرة المكان!!

قال نزار : (محمود الفحّام) اعتقل منذ سنة ، قال لي ذلك في إحدى حفلات التّعذيب الّتي جمعتْنا ، لكنِ اطمئنٍّ بالنّسبة له : لم يعترف على أحد ، كان صلبًا وقويًا وعنيدًا . . .

تذكّرتُه في مهجع الثّكالى ، حينَ لم يقترب منّي ولم يستسلم لرغبةٍ جامحة في احتضاني ، أدركتُ أنّه من هذا النّوع الّذي يصعب انتزاعُ المعلومة منه ، أو إيقاعه في فخّ الاعتراف . . . لكنْ من يصمد في وجه الأعاصير حتّى النّهاية؟! منْ يستطيع أن يُغالب طغيان الموج حتّى آخر رمق ، كان الموج إذا طغى حمل أناسًا وأهلك آخرين ، فمن أيّ صنف هو ، وإلى أيّ الفريقين سينحاز : هل إلى الّذين قيل فيهم : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الجارِيَةِ﴾؟!! أم إلى الّذين قيل فيهم : ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكانَ مِنَ المُغْرَقِين﴾؟! أعرفه : غامضٌ . . . طَوال عملي معه لم أفهمه ، ولم أستطع أن أدرك كنه ما يفكّر به أو يخطّط له ، كانت رأسه يابسة مثل كرة نُحاسيّة ، وعينه ثاقبة كأنّما أخذت من اللهب قبسًا ، ومشيته سريعة كأنّ جيشًا من الهواجس تلاحقه ، لم يقف مع أحد يعرفه أو لا يعرفه أكثر من دقيقتين . يغيّر مكانه في السّاعة الواحدة أكثر من عشر مرّات . . . ويخلو بنفسه دائمًا ، ولم يبدأ أحدًا بالحديث في حياته ، كانت النّاس تبدؤه ، وكان هو ينهيهم . . . ماذا بعد كلّ هذا يمكن أن يكون قد حدث؟! كيف استطاعوا اعتقاله . . . أتمنّى لو استطعتُ أن أواجهه أيّام المهجع وأسأله بعض الأسئلة الّتي ظلّتْ تُعذّبني كلّ هذه الفترة!! أتمنّى لو يُقاسمني هذه الزّنزانة بدل نزار أو حتّى مع نزار . . . المهمّ أن أعرف وأرتاح . . . هل أنا في دائرة الهدف أم لا . . . .؟!!!

اقتسمْنا الـ (٨٠) سم هي كامل عَرض الزّنزانة أنا ونزار ، وصرنا ننام مُتقابِلَين على جنوبنا لا على ظهورنا .

كنّا مقتولين شوقًا إلى الحديث ؛ عمّن اعتقل ، عمّن عُذّب ، عمّن هرب ، عمّن قُتِل . . . في الليلة الأولى لم ننم ونحن نروي لبعضنا قصصًا مرعبة عاشها أحدنا أو عاينها أو سمع بها . ظلّ نزار طليقًا بعدي ستّة أشهر ، خلالها تغيّرت أمور كثيرة ، الشّيخ (منير) استطاع أن يجتاز الحدود بعد أن داهموا بيته ، وغادر إلى العراق . أبي وأمّي وزوجتي لم يصلْهم خبرٌ واحدٌ عن مكان اعتقالي . . . ولم يعرفوا إنْ كنتُ على قيد الحياة أم فارقتُها . . . بعض الأحياء في قريتنا دُوهِمت وحدث فيها اشتباك وسقط جرحى ، وسالت دِماء ، واستفاق الأهل على عهد جديدٍ لم يألفوه .

عرفتُ من نزار بعض الحِيَل الّتي استخدمتْها أجهزة المخابرات للإيقاع بالّذين لم يعترفوا بعد ، ومن الأمور الغريبة الّتي كانت تحدث : أنّ أجهزة الدّولة كانت تذهب إلى المواخير والخمّارات ، وتدخل إلى بيوت الدّعارة ، تقتحم غُرف ممارسة الفاحشة ، فتأخذ الرّجل الزّاني من فوق المرأة الزّانية ، وتعتقله ، وتسير به إلى الفرع . . . في الطّريق يُصدَم الرّجل : لماذا تعتقله المخابرات؟! ويبدأ يتساءل عن السّبب الّذي أوقعه في أيديهم ، وهو الّذي لا همّ له من الدّنيا إلاّ كأسٌ وامرأة ، وعندما يصلون إلى الفرع ، يقتادونه بوحشيّة إلى غرفة التّحقيق ، وهُناك يقابله (المعلّم) ويبدأ هو زبانيته حفلة التّعذيب معه ، وفي منتصف الأذى الجسديّ العنيف ، يسأله المحقّق :

– وْلا إنتا إخوان؟!

– أنا إخوان . . . شْلون هَيْ . . . أنا شَرْ . . . ابن شَرْ . . .

– وْلا . . . لا تْيبِّسْ راسك اعترف أحسن لك . . . راسك مثل راس التّيس . . .

– سيدي . . . أنا حياتي مع العاهرات . . . ما خَتْني سيدي من

الماخور . . . شلون بدّي كون إخوان . . .؟!

- هِنٍّ اعْترفوا عليك . . . (لكي يبدأ الحقد ينشأ في قلبه على الإخوان ، لتهيئته للمرحلة القادمة) .

- كَزّابين سيدي . . . الله يلعنُنْ . . . اعترفوا عليّ . . . شلون . . . وأنا ما بعرف حدا منُّنْ . . .

- هَيْ أسماء إلّي اعترفوا عليك . . . (يقرأ عليه أسماء يمكن أن يعرفها بحكم الجِوار أو المنطقة) هَدول اعترفوا عليك . . .

- كزّابين . . . والله العظيم كزّابين . . .

- حُطّوه عَ بْساط الرّيح يا شباب ، (ويبدأ الشّبح والسَّلخ والجلد ، وبعد تعذيب طويل ، يكفّ الزبانية ، ويقترب منه المعلّم الكبير) قائلاً :

- وْلا . . . إنتا بِتسكَر؟!

- إي سيدي . . . إي سيدي!!

- قدّيش بتسكر باليوم؟!

- رُبعيّة يا سيدي!!

- شو رأيك نجيبلك لترين . . . بشرط . . .

- حاضر يا سيدي . . .

- تِتْعاون معنا . . .

- ماشي . . . ماشي يا سيدي . . . أنا خدّام بساطيركُنْ . . .

- ولا . . . كل قدّيش بِتنام مع مَرَة . . .؟!

- بالأسبوع بالأسبوعين بنام مع وحده يا سيدي . . . حسب الجيبِة . . .

- شو رأيك كل يوم نْجِبْلك وحده . .

- . . . . .!!

- رح إنفَوْتَكْ تعيْش بمهجع الإخوان شهر ، بس شغلتك

تِسْمع . . . تِسْمع مْنِيح . . . وتتـقرّب مِنُّن . . . ورح نلتـقي كلّ يومين تلاتة وبدّك تتحمّل وْلا شويّة تعذيب كلّ ما جيتنا . . .

- حاضر سيدي . . . حاضر سيدي . . .

من ارتاح في المهجع إلى هذا السّجين المُعـذّب ، الّذي تكاد تُزهق روحه كلّما ناداه الجلاّدون ، وأخذته العاطفة له والرأفة به فصار صديقًا مُقـرّبًا له ، فاعلم أنّه وقع في الفخّ ، وصار هو الضّحيّة بدلاً منه . . . كثيرون سقطوا بهذه الطّريقة!!!

وبعضهم عندما يختلط بالإخوان ، ويسمع منهم ، ويسمع لهم يتأثّر ويتغيّر ، ويصبح ضدّ العسكر ، وينقلب السّحر على السّاحر!!

كان بعضهم حينَ يخرج من السّجن بعد شهرٍ أو شهرين من الاعتقال الأوّل ، يندم على ما فعله من توصيل المعلومات ، ويشعر بالحقد على العناصر الّذين استغلّوه لهذه المهمّة ونكّلوا به باسم خدمة الوطن ، والإيقاع بمن هم ضدّ الوطن ، فتراه بعد أن يخرج ينتظم في صفوف الإخوان ، وقد يحدث أن يُعتَقل ، ثمّ يدور معه هذا الحِوار في الاعتقال الثّاني . يسأله رئيس الفرع :

- ولا . . . إنت مين نظّمك يا بغل . . .؟!

- إنتا سيدي .

- أنا . . . شلون يا حَيوان . . .؟!

- لّما كَزَّبِتْ عَ الإخوان وخلّيتني كَزِّبْ عليهُنْ . . .!!

(نزار) المسكين ناله ذات مساءٍ من العذاب ما لا طاقة له باحتماله ، أراد أن يذهب إلى الحمّام لقضاء الحاجة ، فطرق باب الزّنزانة فلم يستجب له الجلاّد ، ثمّ حاصرتْه آلام المثانة فطرق الباب مرّة أخرى ، وراح ينادي : بِدّي أروح عَ الحمّام . . . فتح الجلاّد باب الزّنزانة واستلّه من عنقه ، وأهوى به على الأرض وراح يركله ويهوي

بالعصا على بطنه ، ويُلحق الهراوات النّازلات بمسبّات ماحقات . . . وأنا أرى المشهد ولا أستطيع أن أحرّك ساكنًا ، وبعد أن أفرغ الجلاّد كلّ غضبه فيه ، شدّه مرّة ثانيةً من عنقه وأدخله إلى الزّنزانة . . . رحتُ أهدّئ من روعه ، وأصبّره ، وهو ساكتٌ لا يتكلّم . . . ثمّ انتفض واقفًا على رجليه ، وراح يطرق الباب مرّة أخرى ، وهو يصيح : ثانية بس ع الحمّام . . . مُو قادر إمْسِك حالي . . . وازداد حنق السّجّان بعد أن ظنّ أنّ الضّرب في المرّة الأولى قد أخمده وأنساه قصّة الحمّام ، فدخل منتفخًا من الغضب ، وأمسكه بكلتا يديه ثمّ دفعه إلى الخارج ، ورأيت الجلاّد يُصوّب نظره نحوي يريد أن يُخرجني مثله لأنال نصيبي من العذاب ، فتكورّت على نفسي في الزّاوية ، واتّقيت بيديّ وجهي ، وكانت عيناي تنطقان بالرّجاء : أنا بحالي . . . استغرق الأمر أقلّ من ثوانٍ ، خرج من الزّنزانة إلى (نزار) وانهال عليه بالعصا الخشبيّة الغليظة ، وأفرغ فيه حقدًا وغيظًا مُضاعفَين ، وراح يسبّ الدّين ، ويتوعّد (نزارًا) بالموت . . . ثمّ ظلّ يركله وهو يدفع به إلى الزّنزانة مُجدّدًا ، ظلّ جزءٌ من جسده مرميًا على الباب ، دفشه برجله دفشة أخيرة ، وأغلق الباب الّذي تكوّر من ورائه الجسد المُعذّب . . . خانتني العبارات الّتي يجب أن أقولها في حضرة صديقي (المحشور) لأخفّف عنه . . . ولكنّنا بقينا صامتَين لللحظات ، تحامَل بعدها (نزار) على نفسه ، وقام ثالثةً يطرق باب الزّنزانة ، ويُجاهِد برفع صوته الّذي أصابه ما أصاب جسده من ضعف ، فبدت فيه الحشرجة . . . ظلّ يطرق الباب دون كلل . . . وفي هذه الأثناء بلغ الغيظ والحنق بالجلّاد مبلغًا لم يصِلهُ من قبل ، ففتح الباب ، ووقف عنده مُباعدًا بين رجليه ، وناصبًا يديه بشكلٍ قائمٍ على وسطه ، وأخذ نفسًا عميقًا غاضبًا ، وصاح :

- هلأ . . . مِنْشُوفْ كيف رح تشخّ على حالك يا ابن العا . . .

نادى على جلاّدٍ آخر، وهبط عنده في سرعة البرق، أمسك كلّ واحدٍ منهما بيد من يديه، وشحطاه إلى غرفة العناصر لتبدأ حفلته الكبرى، و كان أثناء الطّريق شبه مستسلم لقدره. بدأت الأرجل تنهال عليه من كلّ جهة، تعاونت على سحقه عشرة بساطير، لا يكاد يرتفع عن بطنه بسطار إلاّ ويهوي آخر على ظهره، ولا يكاد يرتاح من رفسة على الخصيتين حتّى تطحنه أخرى على رقبته، وفي أثناء تلوّيه وتقلّبه من الألم، ارتطمت رجله بطاولةٍ صغيرة تحمل كاساتٍ من الشّاي والقهوة فوقها، فهوت على الأرض وانكسرت، فأصاب الجنونُ الكلاب المسعورة، فاشتدّوا في تعذيبه، وعلا سِبابُهم وشتائمهم... ولم يملك (نزار) من بعد السّيطرة (فعملها) على نفسه، وارتاح كأنّه ارتاح من العذاب نفسه!!!

كان رجلاً بسيطًا وطيّبًا وهادئًا؛ لم يطل المقام به كثيرًا عندي. فتح الزّبانية علينا باب الزّنزانة في منتصف ليلةٍ مُحاقة، وشحطوه من رجليه، وذهب معهم دون أن يعود. لم ألتقه ولم أعرف ماذا حلّ به طوال فترة سجني كاملة!! فلتنزلْ عليه شآبيب الرّحمة إنْ كان حيًا أو ميّتًا!!

(٨)
خَلفَ هذا الثّقبِ

خَشْخشاتٌ ثقيلة تتلبّس الأرض قادمةً من فجٍّ عميق . . . ضجيج بشريّ هائل يتدحرج على الطّريق . . . أصوات تعلو وتهبط . . . أقدام عساكر تخبط الأرض . . . وأصوات ارتطام سلاسل وقيود . . . وأبواب تُفتَح وأخرى تغلق . . . شعرتُ لوهلةٍ أنّ باب زنزانتي سوف يُفتح لشدّة قرب الصّوت منه . . . صرخات . . . استغاثات . . . توسّلات . . . وشتائم تتطاير في الفضاء ، ومسبّات تتقادح كالشّرر . . . قلت في نفسي : لا بُدّ أنّها دفعة جديدة من المعتقلين . . . ولكن يبدو أنّها دفعة كبيرة . . . لم تتّسع المهاجع الكبيرة لها ، فجاؤوا بما تبقّى منها إلى الزّنازين .

الزّنازين الّتي تبدأ من (١) وتنتهي عند (٢٥) حول أطراف السّاحة ، ساحة مهجع المنفردة - كما يسمّونها- امتلأت عن بكرة أبيها . صار لي أصدقاء إذاً . بعد هيجة الدّخول إلى الزّنازين غمرتْني موجةٌ من السّعادة ؛ أصبح لي جيران يُمكن بطريقة أو بأخرى التّواصل معهم . . . صمّمتُ أن أخترق جدار الصّمت الّذي يُثقل القلب ، وأبدأ بمحاورة الهاجعين هنا . . . ولكنْ الحذر في كلّ الأحوال واجب!!

حاولت عناصر المخابرات ألاّ يلتقي سجينٌ بآخر في ساعات الخروج لقضاء الحاجة . كنّا نخرج في أوقاتٍ متقاربة ، لكن لا نلتقي . . . في مرّات نادرة وافقَ أن أخرج عنصرٌ سجينًا من زنزانة ما ،

وهو عائدٌ التقى سجينًا يخرج للتّوّ من زنزانةٍ أخرى . . . زنزانتي تتمتّع بموقع استراتيجيّ نوعًا ما ، فهي تحتل قلب الحرف القائم للسّاحة ، وتقع المراحيض مقابلها تمامًا ، وهذا من جهةٍ يقلّل من عدد السّياط الّتي تلهب الظّهور في الذّهاب والإياب لأنّ المسافة منها إلى الحمّامات أقرب من الزّنازنين الأخرى ، ومن جهة أخرى يُعطيني وقتًا أطول بعدّة ثوان أثناء قضاء الحاجة . . . ولكنْ مَنْ يُدرِك الأفكار الإبليسيّة الّتي يفكّرٌ بها الجلاّدون هنا؟!!

ركل الجلاّد الطّعام برجله من على باب الزّنزانة ، وتلقّفتُه بنهم شديد ، كان طعامَ الغداء ، وكان يتكوّن من (شوربة) ورغيف خبزٍ ، وكوب صغير من الأرزّ لا يحتمل (٥) ملاعق حتّى ينتهي . . . المهمّ أقبلتُ على الطّعام بشهيّة كبيرة ، وأتيتُ عليه في وقتٍ وجيز . . . لم تكد تمرّ عشر دقائق ، حتّى صارت معدتي تموء ، ونشبت حرب بين أمعائها ، فصارت أمعائي تتراقص ، وتصطفق مخرجةً أصواتًا هنا وأصواتًا هناك . . . شعرتُ بحاجةٍ شديدة للذّهاب إلى الحمّام . . . طرقتُ باب الزّنزانة الحديديّ الثقيلَ ، فتباطأ العسكريّ بالرّدّ . . . ثمّ طرقتُهُ مرّة ثانية ، ففتح كوّة الباب من الخارج ، وصاح :

- شو فيه . . .؟! (وأتبعها بشتيمةٍ غليظة) .
- أريد الذّهاب إلى الحمّام . .!!
- مُو هَلّق . . . وقت الحمّام بعد ساعة . . .
- ما بقدر . . . هلّأ بَعْمِلا عَ حالي . . .
- شو . . . رِجّال كبير وْتَعْمِلا عَ حالك . . . شو هالمسخرة . . .
- آه . . . بطني . . . بطني . . . ماني قادر . . . أرجوك . . . أرجوك . . .

وبعد رجاءات طويلة وحارّة ، يفتح باب الزّنزانة ، وأركض مثل

كلب الصّيد والهراوات تهبط على جسدي ، يتوقّف على الباب . وأدخل أنا أفرّغ حمولتي ، وأرتاح ، وأعود خفيفًا إلى الزّنزانة . . .

في اليوم التّالي . . . وعلى طعام الغداء أيضًا ، حدث الشّيء ذاته ، بسرعةٍ راجعتُ نفسي : ما سبب إصابتي المُفاجئة بالإسهال ، لم أبردْ ، لم آكل ما هو ثقيل على المعدة من دسم أو دُهن . . . ولا شيء من الطّعام الّذي قُدِّم لي أمس أو اليوم يسبّبُ الإسهال . . . أفقتُ من تساؤلاتي على صوتِ قرقعة معدتي ، طرقتُ الباب بسرعةٍ وشدّة ، تباطأ كعادته ، صرخت قبل أن أفقد السّيطرة على الوضع :

- بدّي إطلع عَ الحمّام . . .

- وْلا . . هي لِعبة . . . وْلا نْكِتِمْ أحسن ما إدعَسِ بْبَطنك . . .

- يا سيدي . . . آخر مرّة . . .

- ولا إنتا رِجّال . . .؟! صْبُور شْوَيْ . . .!!

- ما فيني يا سيدي . . .

- والله لأَهْري بدنك يا ابن القَحـ . . . إلعب فينا . . . تَعا وْلا!!

فتح الزّنزانة ، وبالكيبل الّذي في يديه راح ينهش به جسدي ، وأنا أركض من أمامه باتّجاه الحمّامات ، وفي الطّريق صار يضحك ويصيح :

- ولا عاملّي فيها دكتور ورِجّال . . وِبْتِخْرَى تحتك . . . يا عيب شوم . . . يا حيف عَ رْجال . . .

ولولا لطف الله لكانت بالفعل سالت تحتي . . . رجعتُ إلى الزّنزانة ، وأطرقتُ وأنا خَجِلٌ ممّا حدث ، وبِحُكْم خبرتي أدركتُ أنّهم يضعون في الطّعام مادّة مُسهّلة ، تضطرّ السّجين إلى ما اضطررتُ إليه ، أمّا هم فيتندرّون ويضحكون ويتسلَّون . . . ابتداء من اليوم الثّالث لم أفعل ما فعلتُ في اليومين السّابقين . . . لا يحتاج الأمر إلى كثيرٍ من

الذّكـاء . . . كنتُ آكل الخـبـز ، وكلّ مـا هو جـافّ . . . أمّـا الشّـوربة فحرّمتُها على نفسي . . . حتّى لا تُصيبني الخَرْخَرَة!!!

في النّهـارات الّتي بدأت تطول صـار لِزامًـا عليّ أن أمـلأ وقت فـراغي بأيّ شـيء . . . خلعتُ يد (الكوز) المعـدنيّ الّذي أشـرب وأبول فيه منذ عام . . . خلعتُها ، وعدّلتُ انطِعاجها حتّى صارت مستقيمة تقرب من (١٥) سم ، ثمّ رحتُ أحفّ طَرفها بأرضيّة الزّنزانة الإسمنتيّة حتّى صار طرفـها حاداً ، صارتْ لديّ الآن أداةٌ خطيـرةٌ ، يجب الحِفاظ على سرّيّة وجودها . . . أمّا (الكوز) فلكي لا يُلاحِظوا أنه مقطوع اليد ، كنتُ أخبّئ الجزء المقطوع بيدي ، وأكوّرها فوقه لأوهم من يراني من الجلاّدين أو أراد أن يُدقّق النّظر فيه ، أنّ يده ما زالت موجودة . . . بعد يوم من تلك الحـادثة بدأتُ أثقب جـدار الزّنزانة الّتي تلي زنزانتي ، والّتي تحمل الرّقم (١٢) ، استغرقتُ في نقب الجدار حوالي شهر . كان النّقب يسـمح لإصبع أن تمتـدّ عبـره ولكنّها لا تنفـذ منه إلى الزّنزانة المقابلة كانت تحتاج ضعفي طول الإصبع لكي تتمكّن من ذلك . أمّا مخلّفات النّقب فكنت أطحنُ بعضها وأذيبه بالبول في الكوز ، وبعض الأجزاء الصّلبة الكبيرة نوعًا ما احتفظتُ بها تحتي . . . في البداية كلّما كان باب الزّنزانة يُفتَح من الخارج يُصيبني الهلع من أن يكتشفني أحدٌ . . . بدأ مستوى الخوف مع الزّمن يضمحلّ ، حتّى صرتُ أواجه العسكريّ كأنّ الثّقب الّذي في جدار الزّنزانة أمرٌ عاديّ ؛ وللأمانة لم يفتّش العسكريّ الزنزانة يومًا ، ولم يُشعرني بأنّ ما في الأمر ما يَريب!!!

في اليوم الّذي تأكّدتُ أنّني أنهيتُ مهمّتي تلك ، أخفيتُ اليد في تلافيف بطّانيّتي ، وسددتُ الثّقب من جهتي بحصاةٍ صغيرةٍ احتفظتُ بها . . . ونمتُ قرير العينِ هانِئ البال .

خلف هذا الثّقبِ بدأتُ أطلّ على عالَمٍ آخر . . . على حياةٍ

أخرى . . . على تجربةٍ جديدةٍ فريدةٍ تستحقّ أن تُروَى بتفاصيلها . . .!!!!

انتظرتُ ليلة الخميس بعد منتصف اللّيل لكي أجرّب استعمال الثّقب الجديد الّذي أحدثتُه في الجدار . . . قرّ في ذهني أنّ معظم العساكر والجلاّدين إنْ لم يكونوا كلّهم في هذه اللّيلة يجتمعون في غرفة الضّبّاط في الفرع ، يسهرون ويسكرون ، ويُمارسون الفواحش والرّذائل . . . ويُبقون على بعض العناصر المنبوذة في الحراسة . . .

أزلتُ الحصاة من مكانها ، ورحتُ أصدر أصواتًا خفيضة في البداية لأكتشف إنْ كانت كافيةً لكي يسمعني نزيل الزّنزانة (١٢) . . . لم أجد استجابة . . . رفعتُ صوتي قليلاً :

– هيه . . . هيييه . . .

– مين . . .؟! (ردّ الّذي في الزّنزانة المجاورة ، بعد محاولات لاكتشاف مصدر الصّوت وبالتّالي لاكتشاف الثّقب الّذي يطلع من الجدار البعيد عن رأسه) .

– أنا إياد . . .!! مين إنتا . . .؟!

– إياد . . .؟! إياد مين . . .؟!!!

– إياد أسعد . . .!!! الدّكتور إياد أسعد . . . مين إنتا؟!!

– الدّكتور إياد أسعد مستحيل . . .؟!!

– شو المستحيل . . .؟!!!

– حكو إنُّونْ أعدموك . . .!!!

– لأ ما أعدموني . . . أكيد في هدف من ورا هالإخباريّة . . . بس إنتا مين؟!

– أنا سامي . . . سامي قِرداح . . .

– مستحيل . . . : إنتا سامي قِرداح إلّي درّسْنا لُغات بالمدرسة . . .

- بْشَخْمو وْلْحمو . . . شو عامل . . . كيف قدرت تعمل هالثّقب . . .

- ما بهمّ كيف . . . المهمّ إنّو موجود . . . طَمنّي عن أخبارك . . .!!

وبدأ نهرٌ من الكلام يسيل عبر فتحتَي الثّقب . . . وانطلقت عصافير الكلام تبحثُ عن فتات الأمل في خبز التّرقّب . . .

كان (سامي قرداح) شيوعيًا عرفتُ أنّه اعتُقِل مع مجموعة من الشّيوعيّين ، وكان يملك محلّ خِياطة في قريتنا ، يعتاش منها إلى جانب كونه مدرّسًا . . . بعد أسابيع من تلك الحادثة سلّمه رئيس الفرع أمر المِخيطة ، فصار العساكر يسمحون له بالخروج إلى غرفة خاصّة ليقوم برتق بناطيل الضّبّاط وتقييفها ، وتزبيط رُتبهم ، وتعليق أزرار البدلات العسكريّة في أماكنها بدقّة . . . وكان يُعامَل معاملةً خاصّة ، إذ كان يتناول على الأقلّ طعام الغداء في غرفة الخِياطة لا في الزّنزانة ، ولم تكن تهوي على رقبته السّياط حال خروجه من الزّنزانة بعَكْسنا تمامًا ، وكان لا يُوضَع إلاّ حارسٌ واحدٌ خارج غرفته أثناء عمله عندهم . . . وفي بعض الأحيان كان يحصل على حمّام ساخنٍ . . . وفي بعض الأحيان الأخرى ، كان يتناول سيجارةً أو سيجارتينِ بصحبة أحد الضّبّاط في الفرع ، وربّما قُدّمت له القهوة السّاخنة . . .!!!

أمّا أنا فلم يهمّني من ذلك شيء باستثناء الأحاديث الّتي طوّحَتْنا في المجاهيل ، ونحن نستعيد أخبار قريتنا ، وأخبار ناسها!! صارت المحادثة عبر الثّقب شبه يوميّة ، وتبدأ بعد خمود الحركة تمامًا في السّاحة الخارجيّة ، وغالبًا ما يكون ذلك في الواحدة بعد منتصف اللّيل . . . وبعد أن يجفّ نبع الكلام بيننا ، ونبدأ نُعيد سَردَ ما كنّا قد قلنا ، نتوادَع . . . وبحركة صارت روتينيّة أو اعتياديّة أضع الحصاة على الثّقب ، وأتأكّد أنّ اليد المعدنيّة مدسوسة تحت البطّانيّة ، ثمّ أفرغ إلى

النّوم ، وأذهب في أحلام بعيدة ، موغلة ، لا أدري على أيّ جنبٍ سوفَ تستقرّ!!!

قلتُ له ذات مرّة : إنّ بِنطالي قد تشقّق جزءٌ منه ، ويحتاج إلى رتقٍ . . . كان الجزء الّذي تهتّك لطول لبسي له هو الجزء الملاصِق لعورتي ، وغالبًا ما كانت هذه العورة تظهر من تحته خاصّة وقتَ الخروج إلى الحمّام ، الّذي كنّا نركض فيه إلى غايتنا رَكضًا . . . أجابني أنّ هذا الأمر ليس سهلاً ، وقد يسبّب لنا المشاكل إذا عرف رئيس الفرع ، وقد يحدث ما لا يُحمد عقباه . . . لكنّه وعدني أن يجرّب ، وأنّه سيأتيني بالخبر قريبًا . . .

مرّ على ذلك الطّلب يومان ، لم أسمع فيهما لجاري نأمة ، ولا همسة!! تعجّبتُ ، صرتُ أرفع صوتي عبر الثّقب ، ولكن دون جدوى . . . قلتُ : لعلّه نُقل إلى زنزانةٍ أخرى!! ولكن لماذا تركوا زنزانته خاليةً إذا كانوا قد نقلوه إلى أخرى . . .؟!! قلت : لعلّهم أفرجوا عنه!! لعلّه : نُقل إلى سجن آخر . . . لم تطل تساؤلاتي كثيرًا إذ عاد في اللّيلة الثّالثة ، بدأتُ أتوجّس منه بالفعل ، ولكنّي طردتُ هذا الخاطر من رأسي ، وعدتُ إلى الحديث معه كأنّ شيئًا لم يحدث . . . ثمّ فاتحتُه مرّة أخرى بأمر بنطالي ، فقال لي : على طول . . . أخذتُ الإذن منهم بتصليحه . . . في فترة الغداء لا تخرج إلى الحمّام ، سوف آخذه منك عبر كوّة الزّنزانة ، وابق فيها بالشّورت . . . وفي المساء سيعود إليك البنطال جديدًا . . .

صرتُ ألبس بنطالي المرتوق وأحسّ براحةٍ وأنا أتحرّك في مأمنٍ عن أن ينكشف جزءٌ من جسدي للمتلصّصين . . . مدّت الوداعة بيننا بِساطها ، وتوسّعتُ في الحديث معه ، ووحّد بيننا السّجن على اختلاف الطّيّات والأعمار ، وأزال الفارقَ بين الطّالب والأستاذ جدارٌ

كريهٌ يقوم في وجهنا معًا . . .!!

في ليلةٍ كان لها ما بعدها ، بدأ سامي معي الحديث :

- والله إنتا بطل يا دكتور إياد . . .

- الله يخلّيك . . . في السّجن نحن أدوات . . . أكياس من الورق المُكدّس . . . لا يوجد أبطال داخل السّجن يا أستاذي . . .

- بالعكس . . . إنتا أبو الأبطال . . . سيرتك وإسمك ما شاء الله . . . صارلك سنة ونص معجّزُنْ . . . ما حكيت ولا كلمة . . .

- . . . .!!!

- أنا بكره طالع . . . خلاص إفراج . . .

- الله يسهّل أمرك أستاذ . . .

- ما بدّك شي من التّنظيم؟! أنا جاهز . . .

- أيّ تنظيم؟!

- الإخوان . . . شو بِدها حكي هَيْ . . . بِدّك أحذّر حدا يغيّر محلّ السّلاح ، أو بدّك مصاري تصل من ناس لناس . . . أنا جاهز يا دكتور . . .

- يخرب بيتك . . .!!

- يا لطيف . . . عَ شو يا دكتور . . . أنا نِفسي ساعْدَك ما دام أنا طالع . . .

- وْلا . . . إنتا بعت نفسك إلُنْ . . .

- الله يسامحك!!!

- وْلا . . . أنا ما لي علاقة بالإخوان . . . لو كان لي علاقة كان اعترفتْ من أوّل كفّين . . .

- وعَ شو حابسينك لهلّأ صارلك أريب السّنتين . . . ما تخاف منّي . . . أنا بدّي إخِدْمك كِرمال هالأيّام إليّ قضّيناها سَوا!!!

واستغللتُ الفرصة لأردّ ردًا قاسِيًا، وأحوّل مجرى الحديث، قبل أن يورّطني:

- وْلا . . . إنت عامل حالك قيادي شيوعيّ، وباعِت إبنك عَ فَرنْسا عَ (الإمبرياليّة) حتّى يدرُس!!!

- لأ . . . مو صحيح!!

- شلون مو صحيح . . . ما إنتا سرقت مصاري الحزب وبعتِت إبنك فيها عَ فرنسا؟! يا لطيف شو استغلالي!!

وانقطع حبل المودّة إلى غير رجعةٍ لحظَتَها، وصار الشّيوعيّ سامي قِرداح جزءًا من الماضي!!

لم يمرّ على انقطاع الحبل الّذي بيننا إلاّ ليلةٌ واحدة لتبدأ بعدها الأهوال. استُدعيت للتّحقيق مُكلبش اليدين.

فكّوا الكلبشات في الغرفة، وأجلسني المحقّق على المكتب، ووضع أمامي أوراقًا وقلمًا، وصاح بي:

- كْتُوب . . . كْتوب كِلّ شِي . . . إزا اعْترفت إعتبرها آخر مرّة رح نحقّق فيها معك . . . وبتطلع إفراج . . .

أشار إلى الجلاّدين، فخرجوا وتركوني وحدي إلى المكتب والقلم والأوراق . . . في لحظةٍ خاطفة شعرتُ أنّني مَلِكٌ أتربّع على العرش . . . الغرفة مُلكي، وأنا جالسٌ إلى كرسيّ، لم أجلس عليه إلاّ في ساعات التّعذيب الفظيعة، ولديّ حريّة الكتابة، وأمامي أوراق بيضاء تنتظرني لكي أخطّ فوقها كلماتي . . . ثم نُكِست على رأسي: هل تُصنَع الحرّيّة في غابة من قيود؟! وهل ينجو الحمل في مسبعة من الوحوش؟! ولكنْ . . . ماذا أكتب؟! عدلّت الأوراق، وتأنّقتُ وأنا أُنقّل القلم ليستقرّ بين أصابعي، وانطلقتُ في الكتابة . . . بعد بضعة أسطر، خفّ حماسي، وشعرتُ أنّ الكلام لديّ انتهى . . . وتيقّنت أنّ

حياتي كلّها لا تعدو أن تُجمل في هذه السّطور الّتي لا تزيد عن عشرة . . . دخل الحُرّاس عليّ الباب ، وأخذوا منّي الورقة ، وسلّموها للمحقّق ، نظر فيها ، ثمّ رأيت الدّم يصعد إلى وجهه فيحمرّ ، ثمّ ارتجّت شفاهه قبل أن تنطلق منه المسبّات :

- وْلا يا إبن الحرام . . . كُلّ الخرا إلّي كاتبُه رح تاكْلو هلأّ !!

وبدأت حفلة من التّعذيب أفقدتني توازني . . . مرّت شهور طويلة قبل أن يُمارسوا مثل هذه الحيوانيّة عليّ . . . كدتُ أتعافى من الماضي ، نحن نتعافى من الآلام بتدريب النّفس على نسيانها ، ولكنْ : ها هو الماضي الرّهيب يعود بأبشع صوره!!

هل يعتاد الإنسان عذاباته؟! هل يقتات على آلامها فيفتقدها حين يُحرَم منها؟! هل نحن نَحنّ إلى أوجاعنا ، ونشتاق إلى انهياراتنا الجسديّة الّتي تتواطأ مع الجلاّد والزّمن؟! أتساءل اليوم بعد كلّ هذه الشّهور الطّوال هل ألفتُ السّوط وهو يبني في كياني مملكة الرّعب ، تلك المملكة الّتي صار الخروج منها مُرعِبًا ، فانكفأت على نفسي فيها مخافة أن أخرج منها؟! هل الرّعب دوائر لا تكفّ عن التّداخل؟! أتمنّى اليوم بعد زمنٍ طويلٍ من حفلات التّعذيب الإجابة عن سؤالٍ واحدٍ من هذه الأسئلة!!!

كنتُ في البداية أتّحد معي في مواجهة الخوف القادم ، أضمّ قلبي وعقلي إلى جسدي من أجل احتمال الألم . صارت المشاركة ألمًا يتوزّع على هذا الثّالوث ؛ فقرّرت في إحدى مراحل التّعذيب أن أنفصل عنّي . . . كلّ الّذين قالوا بنظريّة التوحّد من أجل مواجهة الكتلة الضّاربة سقطوا مع نظريّاتهم في مسألة التّعذيب في سجون هؤلاء الوحوش . . . صارت النّظريّة الأصوب ومن تجربتي الشّخصيّة : فرّق نفسك على العذابات ، تتفرّق هي معها ؛ فيخفّ أثرها ، ويسهل احتمالها!!!

وضعوا رأسي في برميل ماء حارّ ، وارتفعت يداي المُكلبشتان خلفي ، والتزمني من الخلف عسكريّان يضغطان بقوّة على مؤخّرة رأسي ليبقى غارقًا بأكمله في الماء ، بدأتُ أختنق ، مرّت عليّ ثوان كأنّها سنين أو دهور ، بدأت أزداد اختناقًا ، ضغطتُ بأقصى ما أستطيع من قوّة مُحاولاً إخراج رأسي من الماء وهم يزدادون في الضّغط عليه لكي يزداد اختناقي ، صرتُ أرافسُ برجليّ من حلاوة الرّوح ، وانضغط بطني على حافّة البرميل فازدادوا تعذيبًا بضربي على مؤخّرتي ، أيقنتُ أنّني ميّتٌ لا محالة . في ثوانٍ معدودة أخرى ، ارتختْ رِجلاي ، وكفّ رأسي عن المقاومة ، واستسلمتُ لِقَدَري . . . رفعوا رأسي عندها بسرعة ، استنشقتُ هواء الغرفة بأكمله عندما صار رأسي خارج البرميل . . . ثمّ أعادوا الكرّة معي مرّتين بعدها . . . أشرفتُ على الموت ثلاث مرّات في تلك الحفلة . . . وبعد أن أنهوا لُعبتهم رموني في الزّاوية ، أحاول أن أستعيد ذرّات الهواء المسلوبة من رئتيّ!!

حفلات من التّعذيب مرّت مثل صواعقَ ليليّة بين هذه والأخيرة . . . الأخيرة كانت القاضية ؛ فقد استدعَوا لها مُصارِعًا حقيقيًا ، يصل وزنه إلى (١٥٠) كغم ، وعضلاته مُخيفة . دَوْلبوني في الدّولاب ، وارتفع جذعي مع رأسي من جهة ، ورِجلاي مع قفاي من جهة أخرى ، أمّا يداي فكانتا – على غير العادة – حُرّتَين . . . بدأت الكيبلات المعدنيّة تنهال على رجليّ وعلى إلْيَتَيّ ، وبدأت الآلام تشقّ جسدي شقًا ، وفي غمرة التّعذيب شعرتُ أنّ الموت يحوم حولي ، وتذكّرت عبارة الصّدّيق : (اطلبوا الموت تُوهبْ لكم الحياة) ، فرحت أهرب من الموت بطلبه ، ورحتُ أفرّ منه بمواجهته!! شددتُ على جِذعي بما استطعتُ ودفعتُ الدّولاب بيديّ مع ضغطي برجليّ ، فطار الدّولاب وسقط في رأس أحد الزّبانية ، ولبسه إلى منتصفه ، وهجمتُ على

المُصارِع أريد الانتقام منه ، فلمّا رآني على هذه الحالة مُتوجِّهًا نحوه هرب مثل الفأر ، والتجأ إلى باب غرفة التّحقيق ، وأمسك بالباب من الخارج ، ومدّ عنقه من الأعلى ، وراح يصيح :

- جمال . . . جماال . . . جماااال . . .

- شو فيه . . ولا إنت ويّاه . . . (اقترب جمال الّذي عرفتُ فيما بعد أنّه بطل في الكاراتيه ، ويستخدمونه عند الطّوارئ . . . ظلّ يقترب ، وهو يتصنّع الهدوء ، ويُمثّل دور الرّجل الّذي يريد حلّ المشكلة ، وقال بهدوء :

- ليش يا شباب عاملين هالصّريخ . . . شو فيه . . . إن شاء الله خير . . . .

(كنتُ في لحظتها قد باغتتني المُفاجأة ، وسيطرت على تفكيري . . . واستمرّ جمال يقترب منّي بهدوء ، وينظر إليّ بإشفاق ، وهو يقول) :

- ليش هيك مآذينك . . . مزوّدينها معك . . . ما بيصير . .

(ولمّا صار في مواجهتي ، لا يفصل بيني وبينه أكثر من متر ، شدّ قبضته بإحكام ، وأرجع هذه القبضة بطريقةٍ مدروسةٍ إلى الوراء ، ولكمني بسرعة وقوّة على مناخيري . . . وطِرتُ مع الضّربة إلى الوراء مترين ، وسقطتُ على الأرض مثل سمكة قُذِفت خارج البحر لتموت ، حاولتُ العودة إلى البحر ، ولكنّي كنتُ دون رِجلين . ظللتُ أنزف ، وفي لحظات فقدتُ الوعي) . . . في الغيبوبة تراءت لي (لمياء) تمسح الدّم والعرق عن وجهي ، ابتردت النّار الّتي تلفح وجهي ، نهضتُ كما لو كنت في رقدة خفيفة ، حملتُها بين يدي ، خاطبتُها :

- لقد كبرتِ يا شقيّة . . . أصبح عمرك ثلاث سنوات . . .

ردّت بضحكةٍ ساحرة . . . واستمرّت في النّقر بإصبعها على

أنفي . . . يداها اللّيّنتان أزالتا كلّ ألم كنتُ أشعر به ، دمعتْ عيناي .
عرفت أنّني لن أراها . احتضنتُها طويلًا . شممتُ شعر رأسها الأسود .
عبثتُ به ؛ حرّكتُه ذات اليمين وذات الشّمال . ثمّ انفجرتُ في البكاء
من جديد . . .!!!

نُقلتُ إلى المستشفى بعدها لأسبوعين ، وظللتُ فاقد الوعي مُصابًا
بنزيف داخليّ طيلة هذه الفترة . . .

نحن لا نعود إلى قبورنا إلاّ إذا أردنا ذلك؟! ما من أحدٍ أجبرك
على أن تدخل القبر الواحد مرّتين . . .!!!

(٩)
بِساط الرّيح

نقلوه إلى زنزانتي . . . ذات الرّقم (١١) ، وهناك بدؤوا معه كما معي ، رحلة استلال المعلومة . . . كلّ أجهزة المخابرات الخارجيّة الّتي تُساعدهم في طرائقهم الهمجيّة لم تُسعفهم - مع كلّ تطورّها - باختراع جهازٍ يستطيع استخراج المعلومة دون اللّجوء إلى العنف الجسديّ والنّفسيّ . . .؟! لماذا أبقى الله على ما نعتقد ونفكّر به داخل تلافيف أدمغتنا وحرّم على الآخرين رؤيته ، أو حتّى استنشاق رائحته؟! أكانت له كلّ هذه القدسيّة حتّى يُصبح محجوبًا عن الآخرين ، مستترًا وراء غلالةٍ لا يملك إلا صاحبها حقّ إزاحتها أو رفعها!!

(محمود الفحّام) اكتشف الثّقب . والسّؤال : هل هو الّذي اكتشفه ، أم هم الّذين جعلوه يكتشفه؟! والسّؤال الأنكى : إذا عرفوا أنّني صاحب هذا الثّقب ، فلماذا لم يغلقوه بعدي؟!!

دخلوا عليه ، صار منظرهم مألوفًا له ، لم يُحرّك ساكِنًا ، فقط عبّأ رئتيه بالهواء ، وملأ شفتيه بالأدعية السّحريّة . أمّا هم فبدؤوا بـ (بِساط الرّيح) ؛ الشَّبْح الّذي يكون أقرب إلى الصّلب ، ثمّ تبدأ الهِراوات والكيبلات عملها . . . أصبح الجلاّدون محترفين ، يعرفون المواضع الأكثر تأثيرًا ، والأقلّ مُقاومةً . . . لم يكن (محمود) سهلاً ، ولكنّهم لم يكونوا أسهل منه!! خُبثهم الّذي مارسوه سابِقًا اكتسب مستوى

جـديدًا . . . بدّلوا الجـلاّدين الّذين أنهكهم تعـذيبـهم له ، رجع أربعـة منهم إلى غرفة الضّبّاط وهم يلهثون ، استلقوا على كراسيّهم كأرانب مذعورة ، كانت عيونهم ترتجف ، أمّا قلوبهم فكانت تزداد اسوِدادًا ، جاء أربعـةٌ جـدد وأكـملوا الحـفلة . . . في النّهـاية دخل المُقـدّم (أبو رمـزت) ، ملأ جوّ الزّنزانة بالهدير ، رمى إلى (محمود) أوراقًا وقلمًا ، وقال له :

- اكـتب من اليـوم إلّي اِطْلِعِتْ فـيـه مِنْ . . . أمّك لليـوم يا ابن العـا . . . ، أكـيـد إنّك ابن عـا . . . ، لو مـا كنـت ابن عـا . . . مـا وصلت لعِنّا!!

أطبق باب الزّنزانة وخرج ، وهو يزفر . . .

لم يكتبْ (محمود) حرفًا واحِدًا ، مسح ببعض الورق دمه ، وبصق على بعضـه الآخـر ، وشـرب مـا تبـقّى له من الماء في الكوز ، ونام على ظهره ، ورفع إحدى رجليـه بزاوية قائمـةٍ على الأرض ، وعقـد الأخرى على أختـها ، وراح يتلو بعض الآيات في سِرّه ، وهو يشعر أنّ جـروحه مع التّـلاوة تغور في الجلد ، وتنشـأ حـولها بعض البـسـاتين ، وتتـفـجّر خلالها بعض الأنهار . . .

دخل (أبو رمزت) الزّنزانة بعد ساعتين ، ركل (محمودًا) ببسطاره :

- هات يا أخو الفَلْ . . .

أخـذ الأوراق كـاملة ، وترك القلم ، وأطبق البـاب خلفـه!! توقّع (محمود) أن يعود هو وزبانيته خلال ثوانٍ أو دقائق . . . مرّت سبعة أيّام دون أن يمرّ أحد!!!

في الضّيق تتبدّى السّعة ، وفي الألم يتجلّى الأمل ، وفي الكرب يجد المرء مخرجًا وإن كان بعيدًا في الرؤية الأولى ، وفي الحزن يبعث الله للمحـزون من يُسـرّي عنه ولو كـان خيالاً من ماض ، أو طيـفًا من ذكريات . . . لو خلق الله الضّيق دون سعة ، والألـم دون أملٍ ، والكربَ

دون فَرَج ، والحزن دون سرور ، ما طاب العيش لمخلوق ، وما وجد المرء قيمةً لحياةٍ يُمكن أن ينتظر قساوتها على أمل العبور إلى لِينها ولو بعد حين!!!

في اللّيلة الثّامنة ، كان جار (محمود) في الزّنزانة رقم (١٢) يُعذّب مربوطًا إلى سقفها كأنّه ذبيحة ، وكانت (الكرابيج) تنهال عليه من الجهات الأربع ، كان صراخه يشقّ جدران الزّنزانة رقم (١١) ، ويُوجع القلب ، حتّى همّ (محمود) أن يقول لهم : ها جسدي عذّبوه دونه ، فأنا أحتمل مرور السّياط عليه ولو شقّتْني إلى نِصفين ، ولكنْ أنّى لي أن أحتمل هذا العذاب الّذي يصلني عبر هذه التوسُّلات .

في اللّيلة التّاسعة خمدت الزّنزانة (١٢) على عادتها ، في الليلة العاشرة استفاقت من سُباتها ، لتبدأ محاولاتها من جديد . صاح الصّوت المحشور داخلها عبر الثّقب :

– محمود . . . محموووود . . .

– مين؟! (بصوتٍ خفيض وهو يقترب من الثّقب) .

– أنا (سعد) . . . ما عرفتني . . .؟!

– لأ!!

– سعد بدر . . .!!

– اثبت لي إنّك هوّ!!

– مُعاذ التقاك في (داريّا) . . . كان يوم جمعة بعد المغرب ، أخذ منّك رِسالة توصّلها ليحيى حامد . . . صح . . .

– طيّب . . . شو بدّك؟!

– أنا صارلي بْفَرع الخطيب تلات أسابيع بَسْ؟! يعني جديد . . إنتا الله يعينك!!!

– والمطلوب . . .؟!!

- طلعتْ إفراج . . . ما اعترفتْ عَ حدا . . . الهبايل صدّقوا إنّو ما لـــي عـــلاقـــة ، وْلا نّي من التّنظيم . . . يومين وبكون برّه . . . بَدّك شـــي؟!

- لا ما بدّي . . .

- يا رِجّال لِسّا ما واثق فيني؟! ما حدا بيعرف . . . ممكن اليوم يبدّلو الزّنازين . . . ففرصة أبل ما إطلع نفيد إخوانّا . . . .!!

- طيّب .

- طيّب!!!

- بدّي تحكي شْويِّةْ معلومات لَكَمْ حَدا . . .

- حاضر . . . عَ طُول . . . مين بدكيّاني أحكيلو . . .

- فلان وفلان وفلان . . .

- مين؟! ما حْفِظْتُنْ . . .

- فلان وفلان وفلان . . . شو بِدّا هَيْ . . .

- خـــايف إنســـاهُنْ . . . ممكـن يعـــذبوني مـــرّة تانيـــة ، وانخـــبل بعقلي . . . شو رأيك تِكتبُهنْ عَ وَرقة . . .

- إنتا أجدب . . .

- أضمن يا سيدي!!

- آه صحيح . . . عندي قلم بس ما في ورقة . . .

- إزا بِدّك معي ليرة . . . مدلّك يّاها من الخِزِق ، واكتوب الأسماء عليـهـا ، مـا حـدا رح يفـتّش اللّيـرة وأنا طالع . . . هَيْ عليـهـا صـورة الرّئيس . . . كلّ شي رَحْ يِتفتّش غيرَا . . . وهيك منكون ضمنّا تهريبًا بدون أيّ شكوك . .

- ماشي هات الليرة . . .

الحِصان الّذي راهن عليه كلّ النّاس ، حتّى راهن هو على نفسه ،

كسب الجولات جميعها ، لكنّه تعثّر وهو يتقدّم إلى خطّ النّهاية!!

السّحابة الّتي أغدقت على الشّجرة تحتها بفيوض المطر ، لم تنتظر حتّى تخرج الثّمرة ؛ رحلتْ قبل الأوان!!

السّاقية الّتي ملأت القنوات كلّها بالماء ، توقّفت في لحظةٍ غادرة في الأعلى ، ثمّ هوت مرّة واحدة إلى الأسفل ، ولم تعد تدور من جديد!!

الصّبّار الّذي ملأ كلّ يدٍ تمتدّ نحوه بالشّوك ، انحنت هامته في الصّحراء ، لأنّه فاخرَ جملاً عابِرًا بأنّه أشدّ منه اقتدارًا على تجرّع المرارات!!

العصفور القويّ الّذي نقل بمنقاره الحبوب من البيادر في الجبال البعيدة ، وأطعمها الآخرين ، انقضّ عليه صقرٌ - في لحظة انتفاش الرّيش - فابتلعه بلقمةٍ واحدة!!

هذا هو (محمود الفحّام)!!!!

شحطوه من رجليه ، وعند باب غرفة التّحقيق من الدّاخل ، حمله أربعة من أطرافه ، وطوّحوه في الهواء قبل أن يقذفوا به على الجدار المقابل ، فينزلق عليه حتّى يتكوّم أسفله كتلةً من العِظام المتداخلة في اللّحم المُهترئ .

أقصر حفلةٍ في تاريخ العذاب الجسدي الّذي عاشه (محمود) كانت تلك الحفلة ، ولكنّها الأطول في تاريخ العذاب النّفسي . علّقوه من رجليه ، ورفعوه بجنزيرٍ على رافعة ، فتدلّى كأنّه كيسٌ ملتفٌّ ، وبدؤوا يصفعونه على وجهه ، ويبصقون في عينيه ، ثمّ راحوا يُديرونه حول السّلسلة فيدور مثل أسطوانة ، وبعد أن يُصيبه الرُّعاف والغَثيان ، يعكسون اتّجاه دورانه ، فيصبح مثل قطعةِ لحم مُهيّأة للتّقطيع . . . أمّا هم - وبخاصّة المحقّق - فكانوا يضحكون بعدد الدّورات الّتي

يدورها . . . ثمّ يُرخون السّلسلة فجأة ، فيسقط على رأسه ، لتتحرّك بحركةٍ عفوية قبل أن تندقّ ، فينقطع منها نُخاع الحياة . . . ثمّ تركوه ليواجه المصير المحتوم :

- اعترفْ وْلا . . .

- ع شُو . . .؟! ما عاد عندي شي إعترف عليه . . . أنا انتهيت . . . إزا بِدكُن تِدبحوني . . . هاي أنا أُدّامكن!!!

- آخر فرصة حتّى تعترف بإرادتك . . .

- لن أعترف بإرادتي أو بغير إرادتي . . .

- ستعترف اليوم رغمًا عنك!!!

الحوار القصير قَصّر الهوّة بين رفض الاعتراف وبين الجنون . . . في تلك اللّحظة أخرج المُحقّق له (الليرة) وقال :

- هَيْ اعترافك يا ابن العا . . . فلان وفلان وفلان . . .!!!!!!

فقد (محمود) لِسانه ، ظلّ صامتًا كأنّ ذلك اللّسان انعقد بحبل إلى السّلسلة ، أمّا عيناه فظلّتا مُعلّقتينَ (باللّيرة) في شرود طويل ، وأمّا عقله فشعر أنّه تبخّر في ثانيةٍ واحدة ، صار يهذي دون أن يدري :

- أنا حْمار . . . أنا حْمار . . . أنا حْمار . . .

ركنَ رأسه على صدره ، وظلّ ينزف بالكلمات نفسها : أنا حْمار . . . أنا حْمار . . . أنا حْمار . . .

حملوه إلى سجنٍ آخر ، بقي فيه عامًا ، وأسلم الرّوح على حبل المشنقة بعدها . . .!!!!

كان بطلاً ، ولكنّه ككلّ الأبطال يقعون في أتفه الأسباب . كان عظيمًا ، ولكنّ عظمته انتهت عند (الليرة) ذات القيمة الأقلّ في تاريخ حياته . كان شُجاعًا ولكنّ شجاعته خانته وهو ينهار أمام حروفه الّتي صاغ منها أسماء أعزّ النّاس عليه ، وشعر أنّه خانهم خيانةً لا يُمكن أن

يغتفرها لنفسه ولو ظلّ يستميحهم طوال حياته ، خيانةً تمنّى أن يُشنَق قبل أن تلتقي عيناه بواحدٍ منهم ، ولكنْ حتّى الموت خانه في هذه الأمنية ، فجمعه بِمَنْ وشى بهم ، وحين التقت العيون لم يصدّق أحدٌ مِن المُحضَرين أنّ الّذي أحضرهم إلى هنا هو نفسه الّذي علّمهم أنّ الرّوح أرخص بكثير من الصّبر ، وأنّ الحياة أحقر بكثير من الوشاية ، وأنّ الأخوّة أعظم بكثير من مجرّد كلمة!!

قالوا لهم في حضرته :

- باعْكُنْ بكاسةْ شاي . . .

كانت هيبته ما تزال - حتّى تلك اللّحظة - قائمةً في نفوسهم ، ولمّا كسرت (اللّيرة) هذا الحاجز ، تسلّلت عيونهم عبر المسافة الفاصلة بينهم وبينه لتقرأ فيها الإنكار ، واستمرّت العيون تُحدّق فيه لعلّه يُنكر أو يكذّب ما سَمعوه ، ولكنّ عينيه كانتا ذابلتين كأنّهما وردتان ديستا بألف قدم في صحراء مُترِبة . لم تقولا شيئًا ، وظلّ صمتهما الذّليل يشي بأنّه فعلها . أمّا الزّبانية فاستغلّوا الصّمت ، وكرّروا أمامه وأمامهم عبارتهم الأخيرة بتشفٍّ عميق :

- باعْكُنْ بكاسةْ شاي . . .!!!

وانهارت الجُدُر بعدها ، وامتلأ المكان بطنين الذّباب . . .!!!

(١٠)
مِنْ مأمَنِهِ يُؤتَى الحَذِرُ

في المسلخ العسكريّ ، رأيتُ ما لا يُمكن أن يراه امرؤ في أيّ مكان آخر على سطح هذه الأرض . كان المستشفى يعجّ بالمُعذّبين الّذين صاروا في حالة حرجة جرّاء التّعذيب ، ولم نكن كلّنا سواء ؛ فقد كان المسلخ مع ذلك مقسومًا إلى قِسمين ، قسم للّذين لم تجد المخابرات في تعذيبهم فرصةً أخرى لاستلال المعلومة أو استلّتْها منهم بالفعل سابِقًا . وقسم للّذين ما زالت تُعشّش في تلافيف أدمغتهم - كما يعتقدون - كمّيّة هائلة من المعلومات الّتي تؤدّي إلى الاعترافات . القسم الأوّل لقي من العذاب داخل المستشفى ما يوازي خارجه في الفرع ، والقسم الثّاني أُعتني به جيّدًا ، وحوفِظ على حياة قاطنيه لكي تُستخرج منهم المعلومة لاحقًا بعد التّماثل للشّفاء . وكنتُ أنا من نزلاء القسم الأوّل ؛ الّذين وقع عليهم من العذاب والعنت ما وقع!!

كان الأطبّاء - الجزّارون - يخزون بالإبرة كلّ شبرٍ في جسدي ، بسبب أو بدونه ، وكانوا يستخدمون المقصّ لقصّ أجزاء من اللّحم أحيانًا دون أن يطرف لهم جفن ، أو يتحرّك لهم قلب . . . ولم يكن صُراخي من الألم يعنيهم من قريبٍ أو بعيد . . . وفي لحظات كثيرة كنتُ أشكّ أنّ هؤلاء أطبّاء بالفعل ، وكنتُ أميل إلى الاعتقاد بأنّهم ضبّاط سفّاحون لبسوا قناع الطّبّ ، وهو منهم براء!!

في اليوم الخامس ، أراد رئيس الدّوريّة المكلّفة بحراستي في

(المسلخ) أن يتسلّى ، أمر زبانيته أن يربطوا رجليّ معًا ، ويرفعوهما إلى الأعلى ، ثمّ جاء اثنان أمراني بأن أرفع جذعي إلى الأعلى ، وقاموا بربط يديّ إلى الخلف مع رجليّ وعلى مستواهما فصرت كالعَجَل المُدوّر إلى الخارج لا إلى الدّاخل ، كانت ضلوع صدري تتمزّق ، ويختلف بعضها في بعض ، ولوهلةٍ خُيّل إليّ أنّي أسمع طقطقات عظامي . بعد هذه الهيئة (الفرّوجيّة) صار وجهي سهل المنال ، راح رئيس الدّوريّة يتسلّى بصفعي على صفحة وجهي اليمنى فينفتل يسارًا ، ثمّ يُعيد الكرّة مع صفحة وجهي اليسرى فينفتل يمينًا ، وهو يضحك مع كل صفعة ، ويقهقه ، ويأمر جلاّدية بشدّ يديّ إلى الأعلى ليرتفع جذعي وتنضغط عظامي كلّما أحسّ أنّ هذا الجذع قد ارتخى . . . تلقّيتُ يومها مئات الصّفعات استمرّ الجلاّد قرابة ساعتين وهو يفعل ذلك ، ومع الزّمن بدأ ينتشي كأنّه يتلذّذ بممارسة ساديّته هذه . . . اختلف لون وجهي ، وانحبس الدّم في مواضع القيود على يديّ ورجليّ فازرقّ كلٌّ منهما . . . ورشح العرق غزيرًا على كافّة أنحاء جسدي . . . وعندما أحسّ أنّه أشبع ساديّته ، أمر زبانيته أن يبقوني على هذه الحال حتّى تنتهي مدّة دوريّتهم ، وتقوم الدّوريّة الّتي بعدهم باستلام الحراسة . . . وهكذا ظللتُ على هذه الحال ما يقرب من خمس ساعات ، عاينتُ فيها الموت راقصًا بلا رحمةٍ أمام ناظريّ!!

خرجت من المسلخ العسكريّ بعد حوالي أسبوعين لأعود إلى الزّنزانة (١١) . عرفتُ كلّ ما حدث مع (محمود) . . . كان طيفه في اللّيل يُضيء المكان ، كنتُ أحسّ أنّ روحه تُجالسني في العتمات الباردة ، وحين أشعر بالوحدة بعد أن يهجع كلّ مَنْ في الفرع من جلاّدين وضحايا ، كان يُفيق من غيابه ويحضر بهدوء في زنزانتي . . . صوته ما زال يرنّ في أذني ، وابتساماته ما زالت تُشعّ في دُجاي ، وثباته

ظلّ أنيسي في كلّ حفلات التّعذيب . . . ما الّذي حدث له حتّى وقع في هذا الشّرك ، أيصدُق فيه أنّه : (من مَأمَنه يُؤتَى الحَذِر)؟! كان مدرسة في الصّبر ، ومنارةً في الاحتمال ، وقلعةً في الصّمود . . . فكيف استطاعت موجةٌ صغيرة أن تدمّر مدرسته ، وتجتثّ منارته ، وتهدم قلعته؟!!

باع (محمود) كلّ شيءٍ من أجل أن يكسب روحه ، وغامر بكلّ شيءٍ من أجل ألاّ يحتقر نفسه ، وحينَ ظنّ أنّه أذكى من كلّ جلاّديه ، استطاع فأر عبر ثقبٍ مُهمَل أن يهزمه!!

خلتُ أنّني ساعدتُ في انهيار هذا الجبل ، وشعرتُ أنّه كان لي دورٌ فيما آل إليه ، لولا هذا الثّقب اللّعين الّذي حفرته من أجل أن أجد فسحةً توسّع قليلاً من انقضاض الجدران على ضلوعي ما تمكّن عميلٌ مجهول أن يختصر كلّ عمليّات التّعذيب السّابقة الّتي لم تنل من محمود شيئًا ، ويتفوّق عليها في (ليرة) تحمل صورة الرّئيس!!!

أَمِنْ فرجة الأمل حطّم اليأسُ كلَّ ما صمد (محمود) في وجهه!! أأكون أنا الّذي رسمتُ نهاية (محمود) دون أن أدري؟! أمِن المعقول أنّهم تركوني أفعل ذلك - وبعلمهم - من أجل هذه اللّحظة الحاسمة؟!!

بلا شكّ أحسستُ أنّني شريكٌ في الجريمة ، وأنّني كنتُ - دون أنْ أدري - تلك الضّفدعة الّتي أزالت الحجر الصغير من أمام سدّ مأرب ، فتدفّق الماء من ذلك الثّقب الصّغير وقضى على كلّ شيءٍ في طريقه ، وأنهى كلّ ما بناه البشر من حضارة أُطعمت للهلاك!!

كانت الزّنازين تحجب كلّ شيءٍ يُمكن أن يدخل إليها ، إلاّ ما كان يخرج عن سيطرتها من خلال الشّقوق السّفليّة والجانبيّة لأبوابها!! وكنّا نُلقَى فيها كجراذين مُقرفة ، ويُداس علينا كفئران مذعورة ، ولم

يكنْ لنا من حريّة حتّى في النَّفَس الّذي يُمكن أن يُبقي علينا حتّى يستوفوا منّا أهدافهم ؛ كانوا يعدّون نسمات الهواء الدّاخلة عبر الشّقوق ، ويُحصونها قبل أن يسمحوا لها بالمرور ، وإذا زادت عمّا قرّروه منعوا ما تبقّى منها ، وأوقفوه خارج الزّنزانة . . . وكُنّا - في الصّيف - نشعر باختناق شديد ؛ كان الهواء المتسلّل عبر الشّقوق السّفليّة لا يبارح مكانه ، وكلّ سجين إذا وقف على قدميه لأكثر من نصف ساعة سيُغمَى عليه من قلّةِ الأكسجين ، فكنّا نمدّ أجسادنا بالقرب من تلك الشّقوق ونلتمس الهواء من خلالها ، وأحيانًا ننبطح على بطوننا لتكون أنوفنا أقرب إلى منفذ الهواء فلا نُبارح هذه الهيئة لساعاتٍ طويلة حِفاظًا على حياتنا ووعينا .

قرّر رئيس الفرع - فجأةً - أن يدهنَ أبواب الزّنازين ، وكان يبدو أنّ ضابِطًا أعلى منه رتبةً سيزور الفرع ، أو أنّ السّجناء سيغادرون إلى سجون أخرى ، وهو لا يريد لمن يأتي بعدنا أن يرى آثار التّعذيب الّتي حلّتْ بنا ، يريد أن يبغتهم بقبضته القاسية ، حين ينتقلون من حياةٍ عاديّة كانوا يعيشونها ستبدو جنّة وارفةً قياسًا إلى ما سوف يعيشونه في حضرة جحيمه المُسمّى : (فرع الخطيب)!!

دهن العامل الجزء الخارجيّ من الباب ، وانتقل إلى الجزء الدّاخليّ ، وما كادت قدماه تطأن أرضيّة الزّنزانة من الدّاخل حتّى خرج مُسرِعًا وهو يسعل من شدّة الرّطوبة وقلّة الهواء وكثرة العفن . لم يستطع أن يقف ولو دقيقةً واحدةً داخلها ؛ ونحن الّذين قضينا فيها أكثر من سنتين . . . بعدها رمى لي بالفرشاة وطلب منّي أن أقوم بدهْن الجزء الدّاخليّ . . .

تختار الطّيور أحيانًا أعشاشها بغريزتها الّتي تقودها إلى الأمان النّفسيّ والغذائيّ ، وقد تغيّرها بحثًا عن الحياة والحبّ والسّلام ،

فتهاجر جهةَ الجنوب . . . أمّا نحن فقد كانت هجرتنا قسريّةً جهة الشّرق . . . ولم يكنْ لنا من حقٍّ في الحياة ولا في الحبّ ولا في السّلام . . . وضعونا في أقفاص ذات جدران مُصفّحة وقادونا إلى حيث الموت والرّعب والجنون والجحيم . . .!!!

(١١)
أيّها المُقبِلون على الجَحيم، تَحَلَّوْا بِالمَوْتِ

أين يقع هذا المكان؟! كيفَ استطاعوا أن يكتشفوه وهو خارج الجغرافيا والتّاريخ والإنسان والحياة بالنّسبة لبلدي؟! هل هذا المكان حقيقيّ أم من اختراع الخيال؟! نحن الّذين قضينا فيه كلّ هذه السّنوات العِجاف : هل نحن نحن الّذين كنّا هناك أم كانوا غيرنا؟! ما زلتُ إلى اليوم أشكّ بأنّنا خرجنا منه أحياء!! وأنّ الجلود الّتي تتوزّع على هيئاتنا هي جلودنا؟! لطالما داهمني خاطرٌ عميق بأنّهم بدّلوا لنا جلودنا وأخرجونا من هناك نوعًا آخر من المخلوقات!! أتلمّس جنبيّ بيدي . أقرص أذنيّ . أشدّ على شفتيّ . أصفعني . ثمّ . . . أكتشف أنّني بالفعل صرتُ خارج المقبرة!! طوال كلّ هذه السّنين العجاف بقيت أعتقد أنّنا نمثّل دور الموتى الأحياء . كنّا موتى ولكنْ شيءٌ ما كان يحرّك أعضاءنا ، بالطّبع ليست إرادتَنا الحرّة ، أشياء كثيرة لا أفهمها ولا أملك القدرة على تسميتها ، ظللنا نتحرّك في الفراغ ونحن لا نملك شيئًا واحدًا يخصّنا ، حتّى أنفاسنا كانت مرتهنةً في قبضة الجلاّدين ، مع السّوط كنّا نتنفّس ، وحينَ يغيب تغيب معه أنفاسنا ، من أجل ذلك - ربّما - عشقنا أن تظلّ السّياط مشهورةً في وجوهنا ، لا لشيء ، إلاّ لكي ننفث أنفاسنا المخنوقة!!!!

أيّها المُقبِلون على الجحيم : تَحَلَّوا بالموت فهو فرصتكم لكي تخرجوا منه أحياء!!! أيّها الغافلون عن الأمل : انتبهوا ها أنتم على

وشك أن تفقدوه إلى غير رجعة!!! أيّها المُعَلّقون على أبواب العدم : ليس الوجود لعبةً للتّخفّي ، جِدوا أنفسكم بفقدها ، قبل أن يضطركّم هذا الوجود المُنعدم إلى رميها في صحراء الهباء!!! أيّها القادمون إلى هنا : لقد أصبحتم في عداد الرّاحلين ، هدّئوا من رَوْعكم قليلاً ، فإنّ الأخطر لم يأتِ بعد!!! أيّها الباكون على الماضي : كفكفوا دموعكم طويلاً ، فإنّ الماضي كان ، أمّا الحاضر والمستقبل فلن يكونا أبدًا!!!!

هبطْنا المكان عند العصر . . . كانت رهبةٌ من نوع ما تُغلّف المكان ، دارت السّيّارة العسكريّة الّتي تُقلّنا نصف دورة قبلً أن تستقرّ على الباب الّذي يفتح باتّجاه واحد ؛ باتّجاه الغياب . كان الباب نفسه يقول : من دخلني فَلْيقرأْ على روحة سورة الغياب ، فما دخلني أحدٌ وخرج ، وما خرج منّي إلاّ قليل ، ولكنّ القليل الخارج لم يكنْ أبدًا يشبه نفسه حين دخل!!

دخلنا على شكل سلسلة بشريّة ، مُطأطئي الهامات ، يرهق وجوهنا قتَرٌ وذِلّة ، تنوء أرجلنا وأيدينا بالأصفاد ، ومع إسبال الهامة على الصّدر ، وضمّ اليدين مع القيود عند أسفل البطن ، وانحناء الظّهر قليلاً بَدَوْنا مثل حيوانات تُساق إلى المذبحة ، كنّا أكثر من مئةٍ وخمسين سجينًا ، ووقف على الباب اثنان من كبار الجلاوزة ، تَفنّنا في صفعنا على رِقابنا المحنيّة ، وأحيانًا رَكْلنا بالبساطير على الكواحل ، وأحيانًا أخرى رَكْلِنا على المؤخّرة ، وحين يندفع الواحد منّا بسبب ركلة المؤخّرة ، يتخربط نسيج السّلسلة بخروج المركول عن السّكّة ، فيعيده الجلاّد الآخر بركلة أخرى حتّى ينتظم في السلسلة ، وويل لضعاف الأجساد الّذين لا يحتملون ركلات البساطير فيقعون على الأرض ، سيكونون فريسةً سهلةً لوحوش أعدّت لهذه الحالة ، سيطال الرّكل والرّفس والرفش الوجهَ ومقدّمة العنق . أحدهم سقط على الأرض ،

فتهاوت عليه البساطير من كلّ صوبٍ، وصار يصرخ، ومع ازدياد الصّراخ والتّأوّه كانوا يُمعنون في الرّفس حتّى خفت صوته تمامًا، ويبدو أنّه أغمي عليه أو فارق الحياة، وبسرعةٍ قفز نحوه أحد الجلاّدين، وصار ينطّ فوقه كأنّه يريد أن يُجهِز عليه إن تبقّى فيه رمق، ثمّ فكّ قيده، واستلّه من السّلسلة البشريّة المهينة، وأمسكه من يديه ورجليه مجموعتين ورماه في الزّاوية كأنّه كيسُ نُفايات، وصاح على أحدهم أن يُنادي الطّبيب ليتأكّد من موته!!

واستمرّ المسير حتّى دخلنا إلى غرفة واسعة، وكان ضابط صغير جالسٌ في آخرها إلى مكتب، يأخذ المعلومات من كلّ واحدٍ منّا، وحينَ يفرغ من تسجيل اسمه ومهنته، ويضبط الأمانات الّتي معه (نقود، ساعة، هويّة، ملابس، مشط، حِزام، . . . .) نخرج من بابٍ إلى يسار الضّابط يُفضي إلى ساحةٍ كبيرة، وعند هذا الباب من جهة السّاحة يقف جلاّد متأهّب بهِراوة غليظةٍ، كان يحلو له أن يضرب بها ظهور المساجين أو بطونهم، فيجمعون أيديهم إلى بطونهم، وينكمشون وهم يستغيثون من الألم، وتتلقّاهم مجموعةٌ أخرى لتتأكّد من اصطفافهم على محيط السّاحة.

كانت الشّمس تهبط في الأفق لتأذن للّيل بالقدوم، وكنّا نهبط معها؛ بل كنّا نهوي معها. عفوًا كانت الشّمس تهرب من منظرنا التّراجيديّ، لتُسارع في إسدال اللّيل سِتارَه على الفضيحة الإنسانيّة الّتي تمثُل أمامها. وإذا كان للشّمس بعد اللّيل شروق، فإنّ ليلنا الّذي جاء في ذلك اليوم لم تُشرق من بعده أيُّ شمس، ولا حتّى بزغ فيها أيّ ضِياء لنجم أو قمر . . . ظلّ الليل يسكننا حتّى نسينا من نحن، وظلّ يغلّف قلوبنا حتّى ظنّنا أنّ النّهار لا يطلع إلاّ في الحياة الآخرة، أو لا يطلُعُ أبدًا . . . كنّا منزوعين من الحياة، من أبسط مظاهرها!! ورأى

فينا الجلاّدون دوابّ يجب ألاّ تُركب فحسب بل يجب أن تُذبَح وتُسلَخ ، وتُدبَغ جلودها!!

أتمّتْ دُفعتنا من المساجين في ذلك المساء اصطفافَها على محيط السّاحة ، ووقف عشرات من العناصر عند مدخلها ، وانتصب الجلاّد الأكبر في منتصف الحلقة ، كانت هيئته تُوحي بأنّه من وحوش الكواكب الأخرى الأسطوريّة ، طويل القامة ، مليء الجسم ، مُغضَّن الوجه ، غليظ الكفّين ، واسع الخطوة ، ضربة واحدةٌ من يده كفيلةٌ بأن تُردي أحدنا في مكانه مَغشيًا عليه . أمّا صوته فأجشّ ، لا أدري لطول ما سَكِرَ أم لطول ما حشّش ، وأمّا رائحته فأحسست أنّها كريهة تُشبه رائحة الجنزرة ، أو تجمّع الزّبالة في مكبّ النّفايات ، ولا أدري إن كانت تلك الرّائحة الّتي انبعثتْ منه هي رائحته بالفعل أم هي ما تخيّلته من شكله . . . وأمّا شارباه فكانا غليظَين ، سميكَين ، أسودَين ، خالطت طرفَيهما القريبين من شفتيه صفرةٌ بسبب التّدخين . . . أمّا عيناه فكانتا ضيّقتين تغوصان في تقاطيع وجهه المنتفخة ، وكانتا – مع صغرهما – حادّتين تقطران لؤمًا وخبثًا وذكاءً . . . عرفتُ فيما بعد أنّه (أبو نذير) . . . بعض الأسماء ترافقنا حتّى تحلّ محلّ أسمائنا الّتي يحدث في بعض الغمرات أن ننساها ، وننسى أنّها تنتمي إلينا أو ننتمي إليها!!

شدّ (أبو نذير) جسمه في وسط السّاحة ، وكنّا ما زلنا نقف مُهطعي الرّؤوس ، لا يرتدّ إلينا طرفنا ، وأفئدتنا هواء . صاح أبو نذير :

– مين فيكُنْ عسكريّ يا شرا . . . .!!

رفع حوالي سبعة أيديهم . لم أرهم . أحسستُ بهم . تحرّكوا داخل الطّوق قليلاً . صاح أبو نذير مرّة أخرى :

– بَدّي ضُبّاط يا منا . . . .

همـهم ثلاثةٌ وتقـدّمـوا ، في حين تراجع الأربعـة البـاقـون إلى السّلسلة . صاح من جديد :

- ولا يا ابن الفلتانة إنتا شو رتبتك؟! (وهوت كفٌّ على رقبتـه فهوى بين الأرجل)

- عميد!! (صوتٌ لم يكدْ يسمعه غيره)

- وإنتا؟

- عقيد!

- وإنتا؟

- عقيد!

- لَبْسوُنْ رُتَبُنْ!!

في أقلّ من دقـيـقـة كـان الحـرس قـد أحـضـروا ثلاث بدلات عسكريّة ، وثلاث بوريّات ، وفُكّت قيود الضبّاط الثّلاثة ، وألبِسوا كامل لباسهم العسكريّ مع رتبهم ، وبوريّاتهم . وبدوا أنّهم على رأس سلطتهم النّافذة!!

- هاتوا لكل واحد إلّي بيناسب شرفه العسكريّ .

تقدّم ثلاثة من الحرس يحملون ثلاث دِلاء . خطا أبو نذير خطوتين باتّجاه الضّباط ، نزع عن أكتافهم الرّتب العسكريّة ، وهوى على وجه العميد بعصاه ، فدار دورة كاملة ، ثمّ ترنّح ، ثمّ تماثل للوقوف . ثمّ تلقّى ما يخصّه :

- إنتـا إلك شـرف عـسكري يا أخـو الشّـر . . . خـيـانتك للسّـيّـد الرّئيس رِح طالِعا أنا من طِيـ . .

أشار لأحد الحرس ، تقدّم يحمل سطلاً ، ثمّ وضعه أمام العميد المَجلود . وتراجع إلى الوراء بحركة عسكريّة . صاح :

- كُولْ شرفك يا ابن العا . . .

جحظتْ عينا العميد وهو ينظر إلى السّطل ، لم يصدّق . تردّد . ارتعشتْ ركبتاه . دفعه اثنان من خلفه . وغطس وجهه بالكامل في السّطل . راح أبو نذير يصرخ :

- رح توكل الخرا إلّي بها السطّل كلّه يا سطل . . .!!

تقدّم نحو العقيدين ، بينما راحت أنفاس العميد تختنق . نزع رتبهما العسكريّة ، وهوى بعصاه على رقبة الأوّل فجثا كأنّه ضُرِب على كتفه لا على رقبته . وقدّم له الحرس وليمته من الفئران الميّتة . أمّا العقيد الثّاني فراحت الصّراصير تنبع من وجهه وأذنيه وعينيه وهو يأكل شرفه العسكريّ .

دبّ الرّعب في أوصال الجميع . لست متأكّدًا من عدد الّذين ساحت على أفخاذهم السّوائل الحارّة من هول المشهد . عن نفسي فعلتُها تحتي مُبكّرًا!!

غاب أبو نذير في أحد الأبواب ، فتنفسّت السّاحة الصّعداء . فكّوا قيودنا جميعًا . تحفّزت البنادق على الأسوار وفي الزّوايا . حلّ وسط السّاحة جلاّدٌ آخر . عرفت فيما بعد أنّه (أبو صفوت) . لم يكن أقلّ رعبًا من سلفه . صاح بنا جميعًا :

- عاري الصّدر يا أولاد القحـ . .

خلعنا القمصان والثّياب العلويّة ، بعضنا بقي لابسًا (الشّيّال) . لحهم . فصاح بصوتٍ أعلى :

- عاري الصّدر يا حمار إنتا ويّاه . . . وْلا . . . عاري الصّدر . . . يعني عاري الصّدر . . .

تنبّه السُّذّج منّا ؛ فخلعنا كلّ ما نلبسه على النّصف العلويّ . رشمت الشّمس صدورنا . وطَلَتْ جذوعنا . لوّنتها بلونها . ازدادت الصّدور صفرةً مع حمرةٍ مشبوبة . طبعتْ على تلك الصّدور بعض

القُبَل الحانية في جوّ يلفّه الرّعب من الجهات السّتّ. رحلتْ بسرعة. خجلتْ من منظرنا. أرادت ألاّ تنتظر اللّحظة الآتية!!

- عاري الجسم . . .!! (صاح أبو صفوت من جديد)

فهم الأذكياء منّا المقصود. بانت العورات كلّها. فقعت ضحكاتهم. دوّت قهقهاتهم. أشاروا إلى العورات وهم يتلذّذون بالمنظر. طعنت بعض التّعليقات حياءً لم يكنْ له من حيّزٍ في ذلك الجحيم. قليلون منّا ظلّوا يرتجّون قبل أن يشلحوا. دارت عيونُ الحرس بسرعة تلتقط الّذين لم يمتثلوا. قفز جنديّ قصير أمامي كجندب. وصاح بصوتٍ أطول منه :

- إشلح الكيلوت يا ابن الـ . . .

- كيف؟!

- مِتِلْ ما الله خلقك.

- ما بشلح! (واتتني جرأة في غير محلّها)

- كيف اطلعت من طِيـ . . . . أمّك، بدّك هيك تشلح . . .

بقيتُ صامِتًا، ازداد ارتجاجي. كوّرتُ يديّ على عورتني، وهممت أن أتوسّلَ إليه ألاّ يفعل، لم أكدْ أهمّ بما أردتُ حتّى سحبني إلى وسط السّاحة. عاونه عسكريّ آخر. رمياني على بطني. انهالوا عليّ بالسّياط الجلديّة، بدأت أعافط مثل دجاجةٍ مذبوحة. تمزّق الكلسون. قلبوني على ظهري. مدّ أحدهم يده علًى ما تبقّى من الكلسون وسحبه فبانت عورتي كاملة. انفجرت الضّحكات الآثمة من على الأسوار. سمعتُ أحدهم يقول : عليش كنت خايف يا ابن . . . على هالــ . . .

رجعتُ إلى صفّي مهزومًا. وبدلاً من أن أشعر بالفخر لأنّني قلت لا. انتابتني موجةٌ عارمةٌ من الشعور بالذّل والمرارة. رمقتني بعض

العيون بعطف . وبعضها بتشفٍّ . وقفتُ في السّلسلة ألهث وأقطر دمًا .
صاح أبو صفوت :
- عُودْ وقوم وْلا . . .
بعضنا لم يستوعب . تطوّع بعض الحرس بتفهيمنا . هوت هراوة على الكتف الأيمن ، وقبضة أخرى ضغطت الكتف الأيسر إلى الأسفل ، فقرفصنا . نزلتْ مع القرفصة أشياء . وخرجت أشياء أخرى . ثمّ ما لبثت يدٌ أن شدّتنا من شعورنا إلى الأعلى .
- هيك . . . يا ابن الشـ . . . إنت ورياه!!
غربت الشّمس تمامًا . ودّعنا ما ظلّ لنا من كرامةٍ معها . وبكيتُ في أعماقي كما لم أبكِ من قبل . نزل بعض الحرّاس من الأسوار . ساقونا بالرّكل والرّفس والكشاطات والكيبلات إلى باب في أقصى السّاحة يُفضي إلى غرفة صغيرة معتمة وخالية إلاّ من رائحة العفن ، وبلا نوافذ . حشرونا فيها مثل السّردين . عرفنا فيما بعد أنّنا لم نُوزّع على المهاجع بعد . وأنّنا سنوزّع حسب آليّة هم رسموها لا ندري كنهها . كانت الغرفة لا تتسع لعشرين شخصًا وكنّا حوالي مئةً وخمسين شخصًا . فكيف نقضي تلك اللّيلة؟!
لم ينم مضطجعًا على جنبه إلاّ المرضى وكِبار السّنّ . ولم يزيدوا عن عشرة . أمّا البقيّة فقد حُشرنا إلى جانب بعضنا . ضاقت الأنفاس . وتسرّب كلّ هواء الغرفة إلى رئتينا . بعضنا أوشك أن يختنق . رحنا نمسح ما تقاطر على الجباه من العرق والدّم . أنا نمتُ واقِفًا .

(١٢)
﴿تُدمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأمْرِ رِبِّهَا﴾

هل هو عام الرّمادة؟! يا ليت!! هل هو شِعب أبي طالب؟! يا ليت!!
هل هو قلعة الباستيل؟! يا ليت!! هل هي محاكم التّفتيش؟! يا ليت!!

عام الرّمادة أكثر شبعًا من أعوامنا هنا . كان عامًا واحِدًا . وكانت بالنّسبة لي سبعة عشر عامًا . وغيري قضى أكثر . وغيري قُضِي عليه هنا!! شِعب أبي طالب حاصر البطون ولكنّ أهل المروءة أنقذوا الموقف ومزّقوا الصّحيفة . ونحن لا أهل ولا مروءة يُمكن أن تمزّق صحيفةً من بعدنا وتُعيدنا إلى الحياة من جديد . قلعة الباستيل تحوّلت إلى متحف رغم كلّ العذابات الّتي عاناها السّجناء هناك ، فهل يتحوّل سجن تدمر إلى متحف؟! محاكم التّفتيش كانت صِراعًا بين عقيدتين ودولتين . وهم هنا يدّعون الإسلام ، ويعتنقون سوريّة وطنًا ؛ فلماذا تأكلنا أوطاننا ، وينهشنا منْ هم مُسلِمون مثلنا؟!!

صحا مَنْ نام . وفرك عينيه من ظلّ صاحيًا وداهمتْه الأنوار . صلّينا الفجر بالإيماء . وقف عند طلوع الشّمس ضابطٌ على الباب ، وبدأ يُنادي على الأسماء . كلّ اسم خرج ظلّت تُلاحقه الكيبلات الحديديّة حتّى فوّرت الدّم من جسده ، وهو يُساق إلى مثواه الأخير!! حُشرنا في زرائب . لا يعلم إلاّ الله أنّها لا تصلح للدّوابّ . عشرون ألفًا ظلّت تقتات خبز الحياة بما استطاعت حتّى قضى عليها الموت أو جعل الله لها سبيلاً .

فُتِحت أبواب العنابر كلّها . وأُشرِعت السّاحة السّادسة بالذّات للوافدين الجُدد . تساءلت وأنا أساق مثل البهائم إلى مهجعي : إلى أيّ مدىً سنظلّ نتذكّر أنّنا بشر؟! ومتى سننسى!! شيءٌ ما في أعماقي صفعني وهو يقول لي : مِنَ الآن تأكّد أنّك دابّة . فرصتك في تذكّر إنسانيّتك معدومة . وقد يكون في الآتي القريب ما يجعلك تنسى أنّك حتّى بهيمة!!

لم أفق من الصّدمة أسبوعًا . ظللتُ أحاول أن أفهم القوانين الّتي تسري علينا هنا . صارت السّاحة السّادسة ، غرفة أو مهجع (٢٧) وطني . من الآن عليّ أن أتعامل معه كمثوى أخير . لم أستطع . شتمتُ نفسي . لم أقتنع . حاولتُ ولكنّي فشلت . غرفة (٢٧) ظلّتْ محفورةً في ذاكرتي حتّى بعد أن مسحوها . فيها تأرجحتُ مثل خردلة في العواصف مئة مرّة في لحظاتٍ متناقضات . ومنها أطللتُ على حياة ليست موجودة ولا في أخصبً الخيالات هَيَمانًا وأكثرها تجنيحًا وأبعدها شأوًا . حياة تبدأ هناك وتنتهي هناك ؛ ليس لها شبيه قبلها ولا بعدها . هي حياة (تَدْمُر) الّتي ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾!!

إنّه اليوم الأوّل في المهجع (٢٧) ، تعلّمتُ في هذا اليوم الأوّل نصف الحياة ، كانت الغرفة بطول سبعة أمتار وبعرض أربعة . وفي سقفها شرّاقتان مُطلّتان على الفضاء . والشّرّاقة فتحة في السّقف بطول متر في متر ، ومُغطّاة بقضبان حديديّة غليظة ، وإلى يسار الدّاخل من الباب حمّامان لقضاء الحاجة . ويُصار إلى الغرفة من باب حديديّ ذي مِصراع واحدٍ ، وأمامه عتبة إسمنتيّة ترتفع أقلّ من نصف متر .

صاح صوتٌ من الخارج :

- مهجع ٢٧ . . . طْلاع لَبرّا وْلا . . . راسك بالأرض . . . إديك ورا ضَهرك . .

ارتبكنا . تخربطْنا . أخيرًا خرجنا . وقف على الباب في صفّين متقابلين ستّة من الجلاّدين ، تناوبوا على صفعنا ولطمنا وسَحقِنا .
صاح الصّوت الأوّل :
- الكلّ لجوّا . . . لَشوف . . .
كان على المئة والخمسين أن ندخل من بابٍ واحد ضيّق في ثوانٍ قليلةٍ ، تدافعنا كالغنم الهاربة من الذّئاب . انْحشرناً عند الباب . تهاوتً على قُمَع الرّؤوس السّياط . تعثّر بعضنا بالعتبة . سقط بعضنا الآخر ودِيس بالأرجل . اشتدّ الزّحام والضّغط . انزلقت أجسادٌ إلى الدّاخل . نال أكثرنا نصيبه من الصّفع أو الرّكل أو الشّتائم . كان هذا تمرينًا على الدّخول!!
وقف العسكريّ الّذي صاح أوّل مرّة :
- مين فيكن عسكري يا خوات الشّـ . . .
اندفع واحدٌ منّا . شقّ الأجساد المكوّمة على أرضيّة الغرفة . ووقف على الباب قبالة العسكريّ :
- أنا يا سيدي . . . (قالها بطريقة تشي باحتراف . كان العميد)
- قدّم الصّفّ وْلا . . .
أدار العميد ظهره للباب ، واجهنا بوجهٍ أصفر . صاح بصوتٍ مهزوز :
- اِسـْ . . . تَرِحْ . . . اِسـْ . . . تَعدْ . . .
بعضنا فهم . بعضنا ظلّ واقِفًا كالأبله . حاول العميد المسكين أن يشرح . كان الأوان قد فات . صاح العسكريّ في الخارج :
- شو فيه ولا . . . لسّا ما قدّمت الصّفّ يا أخو الفلْـ . . . طْلاع لبرّا إنتا ويّاه . . .
خرجْنا مرّة أخرى إلى السّاحة . تحركّنا بلا وعي . تساقطْنا

كالذّباب بعد العتبة . داسْتنا البساطير كحشرات . وأعادونا كبهائم إلى الزّريبة مرّةً أخرى . كان تمرينًا فظيعًا . صار العميد رئيسًا للغرفة!!

العميد رجلٌ يستحقّ المحبّة بعد أن استحقّ الشّفقة في اليوم السّابق . رجلٌ في أواسط الخمسينات من عمره . أصلع إلاّ من بعض الشّعر الّذي وخطه الشّيب على جانبي رأسه . نحيل الجسم غير أنّه مشدود . في الجزء الأعلى من ظهره انحناءةٌ خفيفة يُمكن تمييزها أكثر إذا مشى . هادئ . يتبسّط في الكلام لمن يرتاح له . أسمر الوجه صاف . رخيم الصّوت . واثق البسمة . كان أبًا لكلّ مَنْ في الغرفة!!

أدرتُ النّظر في الغرفة . تقاربت الأجساد في امتشاقٍ طوليّ . عبرتُهم كصورٍ تتحرّك أمامي في دورانٍ لا ينتهي . سللتُ من بينهم عائلتي . ارتفعتً الذّكريات في وجهي . ابتسمتْ زوجتي وطفرتْ من عينها دمعة . ضحكتْ ابنتي (لمياء) ضحكتها الطّفوليّة . صارت تقول الكثير من الكلمات . ركّبتْ بعض الجُمل . يااااه لقد كبرت في غفلةً منّي . حضر أبي . اعتذر وهو يرمي ببصره إلى البعيد : اضطررتُ إلى أن أفقدك . بكتْ أمّي وهي ترفع يدين من دعاء ، ثمّ تضعهما معًا على رأسها وتهتزّ ذات اليمين وذات الشّمال كأنّها تنوح . صاح العسكريّ من طاقة الباب :

- وين رئيس الغرفة .
- حاضر سيدي . . . (قفز العميد من مكانه وشدّ جسمه)
- وين السُّخرة؟!
- حاضر سيدي . . .
- وْلا . . . طلّع تْلاتِة يشيلوا الأكل .

كنتُ الأقرب إلى العميد فخرجت مع اثنين آخرين . كان العساكر بانتظارنا . ما إنْ ترك (البلديّة) الأكل على العتبة حتّى بدأت العصيّ

تنهش أجسادنا . أدخلنا الطّعام بسرعة ونحن نلهث . كانت ثلاثة طشوت من البرغل . كان هذا عشاءنا . القدامى تقدّموا نحو العميد . حَكَوا له بعض الكلمات ومدّوا صحونهم . ملؤوها وعادوا . فرغ طشتان بقي الثّالث . قال العميد لِمَنْ لم يأكل بعد من الجدد :

- قريبًا سيعطونكم صحون بلاستيكيّة . الآن كُلوا من الطّشت .

هجمْنا كأنّنا ندافع عن حياتنا من أن تسيل . غطسْنا في طشت البرغل . أنا أدخلتُ وجهي بالكامل . نهرني أحدهم من خاصرتي . رفعتُ وجهي فتساقطت بعض الحبّات . ضحك العميد ضحكةً خفيفة . نثر الطّمأنينة في قلوب البعض حين قال :

- في المرّة القادمة سننظّم الأمر بصورةٍ أفضل!!

اقترب أحدهم من العميد . قال له بعض الكلمات . فردّ العميد كأنّه يُعلن لنا جميعًا :

- عامر . . . عامر الزّعيم . سيكون مساعدي من الآن .

همهمت بعض الأصوات . وزفرت أخرى . وشتمتْ ثالثة . أمّا أنا فضحكت!!

كان عامر يقرب طوله من مترين . وقد مضى على وجوده في سجن تدمر سنةً كاملة . وليس له أيّ علاقة بأيّ تنظيم سياسيّ أو حزبيّ . وهو من المساجين الّذين يُسمّون (البلديّات) ؛ أي المساجين المحكومين بقضايا غير سياسيّة كاللّواط والسّرقة والمُخدّرات ، وقد يكونون مجرمين خطرين . وقف عامر بجانب العميد فبان الفارق الجسماني . خِلْتُ لو أنّه مال الأوّل على الثّاني لَهَرَسه . لكنّه أظهر - على الأقلّ في تلك اللّحظة - وداعةً ، وامتثالاً ، وطِيبةً .

صاح صوتٌ من الخارج :

- وْلا . . . رئيس الغرفة . . . قدّم الصّفّ .

- إِسـْ . . . تَرِحْ . . . اِسـْ . . . تَعِدْ . . . (قال العميد . بينما حاول عامر الزّعيم أن يُنظّم المحابيس في مجموعات . يعرف : كلّ خمسة في صفّ طوليّ . بدا الأمر أقلّ سوءاً من المرّة السّابقة)

- اِسـْ . . . تَرِحْ . . . اِسـْ . . . تَعِدْ . . . (كرّر العميد بثقة أكبر) .

انخبطتْ أرجل عديدة في الأرض . ثار بعضُ الفُتاتِ المُتساقط من الجدران المُهترِئة . دخل رئيس الدّوريّة واضعًا يديه خلف ظهره . وراءه مشى اثنان ككلبَين خلف سيّدهما . نظر العسكريّ إلى يمين الباب وهو داخل . تصنّع شهقةً عالية :

- يا لطيف شو حيوانات . . . لاحسين الطُّشوتا . . . شو ما مِنْطَعْمِيكُنْ ما بْيِنْفع فيكُنْ . . .!!

مشى إلى آخر الغرفة . اصطفَفْنا على الجانبين خمسات خمسات . بدأ بأوّل صفّ أمسك بذقن الواقف في المقدّمة . رفعه . بصق في وجهه . مضى . رفع ذقن المحبوس الثّاني الواقف في المقدّمة . أهوى بقبضة يده على وجهه . وراح يتسلّى . عرفْنا ؛ الّذين يصطفّون قريبًا من الباب أو في مقدّمة الصّفوف تنالهم بركات رئيس الدّوريّة!!

- ٢٨ صفّ . وصفّ فيه فِرْدين سيدي . (قال أحد الكلبَين) .

- يعني ١٤٢ حيوان يا سيدي . (قال الكلب الآخر) .

- كم ابن شر . . جديد عالغرفة ولا رئيس الغرفة؟!

- ١٠٠ سيدي . (قال الزّعيم لينقذ العميد من الورطة) .

- يعني ميتْ حيوان إجو جْداد بِدُّن بطّانيّات . يا لطيف شو بْتِصرف عليكُنْ الدّولة . بْتِدْفع دَمْ قلبها مْشان أولاد عا . . مِتْلكُنْ . (قال ذلك وهو يعود من آخر الصّفّ ، ويلسع بخيزرانته جنوب الواقفين على الطّرفين . وخرج) .

نفثنا الهواء المحبوس في صدورنا . تفرعطنا بكلّ اتّجاه . ابتسم

العميد من جديد . شدّ على يد الزّعيم شاكِرًا . بدأت ملامح المرحلة تتّضح . ومعالم القوانين ترتسم . عاد عشرة من العساكر حملوا البطّانيّات على دفعتين . تكوّمت على الباب من الدّاخل . فرحنا كأنّنا استلمْنا هدايا العيد!!

تحامل على كتفي أحد المسنّين . قدّرتُ عُمره بسبعين سنة . تأوّه وهو يحمل بطّانيّتَيه ويعرج في مشيته . لحقتُ به . أسندتُه . عرفتُ أنّه تعرّض لفلقة حفرتْ أخاديد في باطن رجليه . أمّا ركبته فبدا ألمها فظيعًا . سقط عليها وهو يولّي هاربًا بعد موجةٍ من الرّكل . كان طيّبًا . عرفتُ أنّه مسيحيّ . اسمه قُسطنطين صرّوف .

تموت الوعول في الجبال الثّلجيّة إذا لم ينبثق النّهر . نموت نحن إذا لم ينبثق الرّضى . نحاول الحياة . أسهل الأمور الاستسلام للموت . أَرْيحها على الإطلاق . شيءٌ واحدٌ منعني من أن أستسلم له . سيقولون : جبان . كان يُمكن أن يسير على حافّة الوادي المليء بالصّخور دون أن يسقط . سقط لأنّه تعب . تعب لأنّه لا يريد أن يواصل المِشوار . المشوار لا يستغرق أكثر من عَقْدين من الزّمن . الزّمن يمرّ مثل البرق . عندما يلمع البرق ستضيء المنحدرات العميقة . ستتكشّف المسارات المظلمة . فرصة النّجاة ممكنة . نحن نقاتل من أجل أن نحترم خيارنا!!

عوت ذئابٌ قديمةٌ في أعماقي . قلتُ لقسطنطين : هل أجدادك من بيزنطة؟! ماذا يفعلون لو رأوك هنا؟! يثورون من أجلك؟! يخلعون رقبة الرّئيس ويصنعون من فروة رأسه جلدًا لأحذيتهم؟! أم يقدّمون له الهدايا على الجِمال لتخرج من هذه الحُبُوس؟! ماذا لو رأوا الحُفَر في قدميك الكريمتين؟! ماذا لو تحسّسوا ركبتك المنزلقة من مكانها؟! كانوا سيوجّهون المدافع من التّلال الحدوديّة ويقصفون دمشق . يقصفون الرّبوة

أم المهاجرين أم نهر عيشة يا تُرى؟! أين ستدوّي البواريد الّتي يحملونها على أكتافهم؟! قُلْ لي يا قُسطنطين . قُلْ لي . لم يسمعني قسطنطين . لم يكن أطرش . لم تتحرّك شفاهي ؛ فقد قلتُ هذا الكلام في عقلي!!

(١٣)
سَيِّفْ وزَحْزِحْ

في السّادسة مساءً تبدأ اللّعنات بالهبوط علينا . كلّ مَنْ في الغرفة يجب أن يخلد إلى النّوم . أيّ حركةٍ بعد ذلك تكلّف صاحبها حياته . الحرّاس الّذين يتمركزون على الأسطح حول الشّرّاقات يُعلّمون كلّ من يتحرّك . (التّعليم) يعني بداية التّخلّي عن الحياة . كان علينا أن ننسى كيف نستعمل عيوننا ولماذا . اقتضت الحكمة في تلك السّنوات الغابرات : أبقِ رأسك مخفوضًا . وهامتك منحنية . ويديك خلف ظهرك . والشّرّاقة؟! إيّاك أن تفكّر بالنّظر عبرها . ارتكاب خطيئتين : رفع الرّأس عاليًا ، والتمرّد على القوانين . رفع الرّأس عاليًا كان يكلّف الرّأس نفسه . ما أسهل أن تفقده في لعبة البساطير الّتي تدور بين (٢٢) لاعبًا!!

الغرفة خالية من كلّ شيءٍ إلاّ مِنّا ومن بطّانيّاتنا . استفاقت غيلان الرّعب في مخيّلتي . لم أستطع التّخلّص منها حتّى بعد خروجي من هذا الجحيم . كانت تأتي كأنّها جيوش خارجة من العالَم المخفيّ . وحوشٌ أنيابُها بحجم الأصابع . تقفز كالقرود . وتنهش لحومنا . تمضغها . تلوكها . ثمّ ترميها أمام أقدامنا . ونحن مأخوذون بمنظرها . كأنّما شُلّتْ حركتنا لا نفعل شيئًا سوى مراقبتها وهي تأكلنا ونحن نموت بين يديها!!

النّصف الثّاني من عام ١٩٨٢ كان مغموسًا بالأشلاء . مُشبعًا

بِبِرَكِ الدّماء . طافِحًا بالرّعب . كانت أرواحنا أرخص من الجُعلان حينَ تُسحق بالأقدام . بكيْنا على أنفسنا . وبكيْنا من انتظار المجهول . وآلَمنا انتظار العذاب أكثر من العذاب نفسه . ولم نتعوّده . كأنّهم كانوا يُبدّلون جلودنا لنذوق العذاب من جديدٍ في كلّ مرّة!!

- في السّادسة يكون النّومْ . ديرو بالكُنْ تتحرّكوا بَعْدَا . (قال الزّعيم)

- كيف رح نقدر ننام . . . إحنا ١٤٢ واحد . (قال العميد)

- ورديّات .

- كيف؟!

- تلاتْ وَرديّات . . . كلّ ورديّة (٨) ساعات . قسم بِينام على (سيفه) . وقسم بِينام على قعدته . وقسم بِيضَلّ واقف . وبدّلوا الأقسام كلّ ٨ ساعات .

لم نعتدْها في اليوم الأوّل . اهترأت أقدام الواقفين والمُقَرفصين . قال العميد : لا بدّ من طريقة .

في اليوم الثّاني نام المهجع بأكمله (مسايفة) . رتّبنا الزّعيم والعميد كأقلام في مِحفظة . بدأ من الحرف الأبعد في الغرفة . طلب من الأوّل أن ينام على جنبه وظهره إلى الجِدار ، رأسه إلى القائم ورجلاه إلى وسط الحرف . وطلب من الثّاني أن يضع قدميه عند قدمي الأوّل . ورأسه إلى الزّاوية الأخرى . وطلب من الثّالث أن ينام معاكسةً مع الأوّل ؛ رِجلاه عند الرأس ، ورأسه عند الرّجلين فذلك أهون الشّرّين . . . وهكذا ظلّ يفعل . حتّى إذا أنهى عشرة صفوف أي عشرين محبوسًا نادى الزّعيم وناداني ونادى اثنين آخرين من المعروفين بقوّة العضلات ، وطلب منّا أنّ نكبس العشرة : (سَيِّفْ وزَحْزِحْ) . نتوزّع نحن الأربعة بقبْضات أيدينا على جسم آخر محبوس مُمدَّد ، ونبدأ

بدفعه هو والعشرة الّذين خلفه باتّجاه الجدار . نضغط حتّى يتزحزح العشرة ويحدث بعد الزّحزحة أن يتشكّل حيّز يتّسع لواحدٍ أو اثنين . ثمّ ننتقل إلى العشرة الأخرى الّتي تحتها ونكبسها بالطّريقةً نفسها . ومع أنّهم كانوا يكبسون أنفسهم إلاّ أنّ الخلخة بينهم كانت ضروريّة ربّما لتنويم أكثر من ثلاثين محبوسًا لم يكن لتتوافر لهم منامات المسايفة هذه إلاّ بهذه الطّريقة . استمررنا نفعل ذلك لساعتين وحين أنهينا ، صار فريق التّكبيس معروفًا ، وصارت هذه مهمّته ما دام العدد بهذه الكمّيّة . ولأنّنا ننام فيما تبقّى من مساحة فقد تبقّتْ لي مساحة حرفي عند الباب نفسه ، وكذلك الزّعيم . أمّا العميد فكان ينام مع حوالي عشرين في الفسحة الّتي أمام الحَمّامَين!!

في الصّباح أكون أوّل المستيقظين ، يدفشني الحرس بظلفة الباب على بطني . حرصتُ على أن تفتح الظّلفة على بطني لا على عورتي . أتأوّه . تكون تلك الآهة وسيلتي للاستيقاظ التّام . يفزّ المهجع واقفًا ، بعد تنبيهين اثنين : صياح العسكريّ من الخارج ، وآهتي من الدّاخل!!

لم نكن نستطيع الصّلاة . كانت الصّلاة أكبر المحرّمات في تدمر . أيّ حركةٍ تشي بسجود أو ركوع ، تكلّف صاحِبها السّجود على بساطير الجلاّدينً . ولا حتّى بإيماءة من أصابع أو عيون . تفعل . ولكنْ إذا ضُبطتَ وأنت تفعل فويلات الجحيم نفسه تُصبّ فوق رأسك . كانت الشّرّاقتان مِجهرَي الحرّاس ، ونوافذ المراقبة . وصلاحيّة حارس الشّرّاقة في التّعذيب مُطلقة . لمح الحارس مرّة أحدهم يجمع بين أصابعه ويحرّكها ، فناداه :

- وْلا . . . شو عَمْ تِعمل وْلا . . .؟!
- بْسبِّح سيدي . . .
- بتسبّح مين يا حمار!!!

- الله . . . سيدي . . . بْسبِّحْ الله . . .

- وْلا يا أخو الفَلْـ . . . ما بتعرف إنّو الله مانو موجود هون . . . وْلا عَلِّمْ حالك ولا . .

وقفتْ كتلةٌ من الرّعب في حلق المحبوس . ازدردها بصعوبة . توقّف قلبه للحظات . صاح الحارس مرّة أخرى :

- وْلا . . . لَمّا تِطلع عَ التّنفّس بْنادِي وين الْمعَلِّمْ بْتِـــجي يا حَيَوان . . . مِشان الله ينفعك يا مَنْـ . . .

في اليومِ التّالي . خرج الْمُعلّم إلى السّاحة . دفعه اثنان من العناصر على الأرض . سقط مذعورًا . جرّاه على السّاحة الخشنة . حشراه في الزّاوية البعيدة . نزل الحارس من الشّرّاقة . تفنّن في ضربه بالكيبل على وجهه . شقّت صرخاته الفضاء . وصلتْ إلى مهجعنا . ازدادت رؤوسنا انحناءً . دعونا له في الخاطر دون أن يتحرّك اللّسان . كبرت عضلة القلب في الجوانح . شدّ الضّيق حِزامه على الصّدور . وتتالت الصّرخات . جلدوه يومها على رأسه أكثر من (٢٠٠) جلدة . دخل ينزف . غطّى الدّم كامل وجهه . وتعفّر رأسه من الخلف وارتضّ . رمى نفسه جثّة على المدخل . تلقّيتُه . حملتُه إلى الحمّام . قلت : الحمد لله أنّه نزف . سيعيش . لو لم ينزف لمات . غسلتُ وجهه ورأسه . طهّرتُ الجروح بما استطعت . أعطيته نصائح لمقاومة الالتهاب . نظر إليّ بعينين ودودتين . شعر أنّ نصف الآلام قد زالت . عرف المهجع أنّني طبيب . صرتُ منذ اليوم طبيب المهجع . اتّخذتُ مكاني عند ظلفة الباب بعد العميد والزّعيم .

بدأ الطّعام يشحّ . كان شحيحًا لكنّه ازداد شُحًّا . بدأت أجسادنا تضمر . ضرب الجوع خنجره في بطوننا واسترق منها كلّ شيء فصرنا ضامرين . قلّ الكلامُ مع قلّة الطّعام . بعضُنا وجد في الكلام صعوبةً .

لم ينسَ لكنّه لم يملك طاقة الحكي . صرنا نقضي الأوقات الممتدّة بلا رباط ، والهائمة في المدى بلا ضابط بالتّعارف . بدأتْ سحابة من التآلف تغلّفنا . في البداية لم نجرؤ حتّى أن ننظر في وجوه بعضنا . هكذا أمرونا . مع الزّمن ارتفعت ذقوننا قليلاً . صرنا ننظر إلى عيون بعضنا . العيون عالَم العجائب . في العيون نبتت أشجار المودّة . وانبتّتْ جذوع الغربة . أمام مرآتها قصصنا آلاف الحكايات ، وعلى ضوء بريقها اختصرنا أغوار المسافات . كان الصّمت أمام عيون شغوفةٍ بالكلام ينوب عن الكلام كلّه . قلنا بالصّمت ما لم نقله بالحكي . ثمّ كان الهمس . حسبنا همساتنا وعددناها ثمّ خبّأناها حتّى لا يبدلونا بمثلها جَلَدًا . همسنا في القلوب فسالت ينابيع . وهمسنا في الآذان فاخضرّت حقول . وهمسنا في الأعماق ففاحت أزهار . استعدنا بعض الإنسانيّة . عرفْنا كيف نحتال على الصّمت الّذي يؤدّي إلى الجنون ، ورفعنا غشاوةً ظلّت تكرّسنا كعميان لزمنٍ ليس بالقليل .

نزل المطر رِهامًا خلف السّهوب . ثغتْ شاةٌ تحت شجرة بلّوط . عوى ذئبٌ وراء جبالِ السلميّة . فاض نهر الفيجة . ترقرق بهدوء . تخلّى عن الجَرَيان . ومشى وادِعًا . لمعَ برقٌ خاطف . انطفأ في لحظة . توقّف الرّهام . سطعتْ شمسٌ من خلف الغيوم ثمّ رحلتْ . سكنت الرّيح . صمت كلّ شيء . ندفت حبّاتٌ من الثّلج . تمايلت وهي تواصل رحلتها عبر الفضاء باتّجاه البشر . تلقّتْها الأرض فساحت مع النّهر . تخلّت عن ذاتها وصارتْ ماء . كتبت على صفحة النّهر قبل أن تذوب : كلّنا من ماء . ظهر أبي . بكى بصمت . مسح دموعه . حاول أن يكفّ عن النّشيج . لم يُفلح . قال لي : سامحني . بكيتُ . خفضتُ هامتي . أمسكتُ بيده . هَوَيتُ لأقبّلها . استفقت في الظّلام!!

اختار العميد بمشاورة الزّعيم ثلاثةً من المحابيس ؛ (عدنان) لتنظيم

الدّخول إلى دورة المياه . و(تيسير) و(سالم) للسّخرة . كان هذا مجلس إدارة المهجع . والمتطوّعون موجودون عند الحاجة . ويتمّ التّبديل خاصّة في مجموعة السّخرة . السّخرة فدائيّو المهجع . يتحمّلون الضّرب عند إدخال الطّعام عن المهجع كاملاً . ولكنْ إذا دُعوا إلى مهمّة صعبةٍ كهذه أجابوا . ورئيس المهجع كلمته لا تصير اثنتين!!

مع الزّمن صرنا نعرف متى نهمس . التقت العيون بحميميّة أكثر من قبل . وانهارت بعض الجدر السّميكة الّتي رفعها الحرس بيننا . ومدّ الانسجام بساطه أمامنا . عرفتُ أنّني لم أكن الطّبيب الوحيد في المهجع كان هناك خمسة غيري . كان المهجع يعجّ بالأطبّاء والمهندسين والحقوقيّين والأدباء والشّعراء والخطباء والمُنشدين أصحاب الأصوات الجميلة . وكان خليطًا عجيبًا . اجتمعت فيه أديانٌ وأحزابٌ . فرقّتنا الأهواء المتعدّدة والمشارب المختلفة ، وجمعتْنا المصيبة الواحدة!!

الثّالث بعد العميد والزّعيم من جهة الباب . موقعٌ إستراتيجيّ مكّنني من أن أعرف كثيرًا من الخبايا والأسرار الّتي تغيب عن الآخرين . حسّي الأمني فتح لي أبواب التّأويل والتّفسير . صرتُ أتقصّد متابعة الحركات والأحداث . أجمع . أرتّب . أقارن . وأخرج بنتيجة . أندهش منها . أخبّئها في الضّلوع . وأخزّنها في الذّاكرة . وأكتبها في صفحات دفترٍ من ورق الأيّام . مِن هناك سوف أُطلِعلكم على ما لم يكنْ بالحسبانٍ . من هناك تبدأ حياةٌ أخرى دورتها . يبدأ عالَمٌ جديدٌ حكايته . تبدأ دُنيا غير الّتي اعتدناها بالمسير . وأنا أستغلّ مكاني . يغيب العميد والزّعيم فأتقدّم إلى الموضع الأوّل . لا أحد يعترض ؛ فكلمة العميد لا تصير اثنتين . أحبّني هذا الرّجل الشّهم وأحببتُه . لم أكنْ طبيبًا إلاّ في حالات قليلة . كان هناك من ينوب عنّي في المداواة والمداراة والمعالجة . ولم يكنْ هناكٌ من ينوب عنّي في التّأمّل!!

كانت في زوايا المهاجع والسّاحات سمّاعات ، تُذاع فيها أسماء المطلوبين للمحاكمة . في البداية رجع مَنْ ذهب . تكرّر فيما بعد أنّ بعض الّذين نُودِي عليهم لم يعودوا ؛ ذهبوا لملاقاة الله . كان هذا في شهر آب عام ١٩٨٢ حتّى آخره . مسلسل الرّعب ابتدأ ولم ينتهِ . نادَوا في السّماعة على (مُؤمن شتورة) . ظنّ أنّها مُحاكمة . خرج قبل هذه المرّة سبع مرّات وعاد . لم يدر أنّه بعد هذه المرّة لن يعود . كان صلبًا وعنيدًا ولا أباليًا . وقف على باب المهجع . أصلح هندام السّجن . ربّت على شعر رأسه ونظر في الفراغ كأنّما ينظر في مرآة . شدّ على يد العميد . رمقه العميد بنظرة دامعة . ما الّذي أدراك؟! وخرج . كانت أوّل حادثة أشهدها . بعدها شهدتُ المئات . خرج (مؤمن) من المهجع بخُطًا واثقة . على الباب من الخارج سأل : إلى أين؟! فأجابوه : إلى الفرع . لم يشكّ للحظة أنّه إفراج . عصف به الأمل . وسيق إلى أحد مهاجع السّاحة السّادسة ؛ ساحتنا . رأى أعمدة الخشب المنتصبة والحبال المتدلّية . وعشرات العساكر يطوّقون المكان والرّشاشات مُشرعة . فصاح بالّذين ساقوه : وما هذه الحبال والأعمدة؟! أيقن أنّه الإعدام فأراد أن يختار ميتته لا أن يختاروا هم عنه . دفع الأوّل وحاول أن يأخذ منه سِلاحه . هاج . فقد صوابه . صاحوا قبل أن يقبض على الرّشاش : (كمين . . . كمين) . وكانت تعني أنّ هناك سجينًا أفلت ويجب القضاء عليه . تجمّع أكثر من خمسين حارِسًا . أمسكوا به من جديد . قيّدوه جيّدًا . انكسرت إحدى يديه . استلّ أحد السّفّاحين سِكّينًا كبيرة . ثبّتها على عنقه وذبحه كما تُذبح الشّياه . نفر الدّم في وجه السّفّاح . رشمَ وجهه ببعض البقع الحمراء الدّاكنة . مسحها بطرف كُمّه وتابع عمليّة الذّبح كما لو كان يذبح دجاجة . انبعجت الرّقبة إلى الخارج . بان البلعوم وتشرشبت العروق . جزّه بحقدٍ أشدّ . فَرْفَطتْ

أقدامُه . رقص جسده رقصة الذّبيح . ظلّ الدّم يثعب . انتهتْ حياته مع القطرات الأخيرات . سكنتْ حركة أعضائه . لفّوه في بطّانيّة . ورموه بعيدًا في الصّحراء . تلقّفته الضّواري . نهشتْ لحمه . شبعتِ الوحوشُ منه لكنّها لم تقتله . داخل أسوار هذا السّجن هناك وحوشٌ من نوع آخر!!

مكّانه في ساحة الإعدام انتقش بالدّم . ظلّ الدّم يصبغ السّاحة أيّامًا . من مكاني الخطير شممتُ رائحة المسك . لستُ متأكّدًا : شممتُها أم تخيّلتُها!! في السّماء ارتسم جسده الملفوع بالدّم . في المساء لم يتخلّ الشّفق عن حمرته ؛ ظلّ أحمر عامًا كامِلاً!!

(١٤)
أعطِ كِسْرَةَ خُبْزِكَ لغيرِكَ

التّكيّف مع الوضع القائم مهانة أم عبقريّة؟! حينَ يتقبّل المحبوس ما يتعرّض له من تعذيب ويحتمله ويتكيّف معه فهل هو بذلك يركن إلى الذّلّ أم يُحاوِل الحياة؟! الّذين خفضوا رؤوسهم هل خفضوها ضعةً أم من أجل أن تمرّ العاصفة؟!

أعدى أعداء السّجين كرامته . تقف مثل رمح في وجهه : إمّا أن يحملها ويقاتل بها ومن أجلها . أو ينحني أمامها لتدوسه أقدامُ العابرين؟! مذبوح هو على الحالَين ؛ فأيّهما يختار؟! وهل الخيار في سجنٍ مثل سجن (تدمر) إرادة؟! أم أنّ الإرادة نفسها انذبحت على عتبة البوّابة الّتي عبرت منها الآلاف البشريّة القابعة في هذه الصّحراء الشّرقيّة المُهلكة؟!

سوافٍ راكضة . خريفٌ مُبكّر . العمر هنا كلّه خريف . رمال تتناثر على الرّؤوسٍ . تدخل المسامات . تملأ أوعية الطّعام . تصطكّ تحت الأسنان . الرّضى شرطُ العيش الأوّل . والسّخط هَدْرٌ للأعصاب في محيطٍ يحترف اغتيالها . صفرت الرّيح . مدّت عنقها عبر الشّرّاقة . دخلتْ معها زمجراتٌ سماويّةٌ مخيفة . ارتعشت الأقدام . بحثتْ عن مأوى . المأوى نفسه بحث عمّن يؤويه ؛ أين المفرّ؟!

قلّلوا الطّعام . في الخارج حدثت اشتباكات جهة الغرب . كان عامًا دامِيًا . آذن بالرّحيل . جرّ معه وخلفه أشلاءً كثيرة . ربط بقدميه

مدينةً كاملة وسحبها نحو وادي الموت . وعلى الحافّة ألقاها دون اكتراث . هلك الكثيرون . ومن نجا عاش بنصف جسد . وبطعنةٍ في الرّوح لا تبرأ . وبذكرى خانقة تتأبّى على النّسيان .

– وْلا . . . رئيس المهجع ٢٧ . . .!! (صاح العسكريّ في الخارج وهو يخبط الباب)

– حاضر سيدي . . . (تهيّأ العميد)

– السّخرة ولا حيوان . . .

خرج (تيسير) و(سالم) و(الزّعيم) تلقّوا العصيّ والهراوات . حاولوا اتّقاءها بالأيدي . خافوا على العيون أن تنفقىء . حملوا الطّشتات . دخلوا وهم يلهثون . كان الفطور جبنة وزيتون أسود وخبز يابس . وزّع العميد الطّعام بالتّساوي : كلّ خمسة محابيس بقطعة جبنة . كلّ عشرة محابيس برغيف خبز . كلّ ثلاثة محابيس بزيتونة . حدثت مشكلة ؛ كيف يمكن تقسيم حبّة الزّيتون على ثلاثة محابيس . لو كانت على اثنين لكان الأمر سهلاً . تقسيم الزّيتونة نصفين أسهل بكثير من تقسيمها أثلاثًا . اقترح (الزّعيم) ذو الخبرة :

– كلّ تلاتِة يعيّنوا قَسِّيم . . . بِيكون كبيرُنْ . . . وجيهُنْ . . .

– صحيح . (قال العميد) . كلمتو ما بِتْصير تِنتين .

ثلاثتنا (أنا والعميد والزّعيم) حصلنا على زيتونة عجفاء . مدّها العميد نحوي . صارت مهمّة تثليثها إليّ . فكّرت في سِرّي : فلأتنازل عن ثلثي . لم تُعجبني الفكرة . ألغيتها حالاً . تناولتُ خيطًا من الخيوط الّتي استللتُها من البطّانيّات واستخدمتها أكثر من مرّة في تخييط الجروح وإخراج الدّمّل . لستُ مهندِسًا . وعليهم أن يقبلوا بقسمتي فهم الّذين اختاروني لذلك . حاولتُ العَدالة ما استطعت . العدالة المُطلقة مستحيلة ؛ لا توجد إلاّ في رسائل أفلاطون ، ووصايا لقمان ، وشرائع

حمورابي . لففتُ الخيط على الثّلث الأعلى وساويتُه بالثّلث الأسفل وجعلتُهما أكبر مساحةً من الثّلث الأوسط . ناولتُ كلّ واحدٍ قسمته . أعطيتهما الثّلثين الأعلى والأسفل واحتفظتُ بالأوسط . ابتسم العميد على عادته . لم أَدْرِ : إعجابًا أم استنكارًا!!

مرّت أسابيع سوداء . لم يكن الأكل يكفي عُشْرنا . ألغوا كلّ الوجبات وأَبقَوا على وجبة واحدة . كان واضِحًا أنّ هذا مقصودٌ ولم يأتِ عفوًا . بعض الأجسام اللاّحمة تحمّلت . تقتات الأجسام على أنفسها إنْ لم تجد شيئًا تقتات عليه . أعرف ذلك تمامًا . ما كان ممكنًا لبعضنا كان صعبًا وقاسيًا وأحيانًا مستحيلاً لآخرين ؛ لأولئك الّذين تراجعت بطونهم وغارت في تجاويف صدورهم . برزتْ عِظام المحابيس . اصفرّت بعض الوجوه . وداخ كثيرون وسقطوا . واستمرّت آلة التّعذيب تحرث أجسادَنا بلا هوادة . هناك مرضى . على الأقلّ يحتاجون ما يُمكننا فعله من أجلهم . قمتُ بمساعدة الأطبّاء الآخرين في المهجع بإحصائهم . أعرف من الأطبّاء (زُهدي) زميلي في كلّيّة الطّبّ . أصغر منّي بعام . ذكاؤه كان لافِتًا . لكنّ شاعريّته ورِقّته كانت لافتةً أكثر . بعد نصفِ يوم من الإحصاء والتّأكّد : كِبار السّنّ والمرضى زادوا عن الثّلاثين . شاورتُ العميد : سيهلكون جوعًا . قال لي : والعمل؟! أجبتُ : نستأذن الحرس بألاّ يخرجوا للتّنفّس ونبقيهم في المهجع مهما خرجنا ولأيّ سبب . قَبِل . في اليوم التّالي تجرّأ وطلب من الحارس أن يرأف بالكِبار والمرضى . طلب ذلك بكلّ مودّة . صفعه الحارس على وجهه . وحزّه بالكرباج على جبهته . وصاح بالمهجع كاملاً :

– وْلا منايـ . . . مهجع ٢٧ إطلع لبرّا إنتا وْياه . . .

استدعى حُرّاس السّاحة كلّهم . استخدموا الكيبلات المعدنيّة . وكلّما مرّ من أمامهم محبوس . ضربوه وشتموه :

- وْلا إنتا يا شر . . . كبير . . .

- ولا إنتا مريض ولا . . . مريض؟! مُوتْ يا ابن العا . . .

أحد الكِبار في السّنّ خرج يتهادَى لا يكاد يمشي خطوتين إلاّ رجع . ضربه الحارس على عينه اليمنى ، وسحب السّوط الّذي التف حول رأسه . سالت عينه على خدّه . فقد الوعي . حملناه إلى الدّاخل . صرخنا : نريد له طبيبًا وعِلاجًا . ذهبتْ صرخاتنا سُدًى . استفاق في منتصف اللّيلِ من غيبوبته ؛ أيقظه الوجع . تلوّى من الألم . ولم يجد من أحدٍ عزاءً له غير الكلمات . حاولتُ التّخفيف عنه . ظلّ يئنّ طوال اللّيل ، ويشهق . في الهزيع قبيل الفجر سكت إلى الأبد . طرقْنا الباب وقلنا : فيّ ميّت عنّا . رمى الحارس لنا ببطّانيّة :

- لُفُّوه . . . يا أخوات الشّر . . .

سلّمناه لهم . رمَوه مثل كيس في مؤخّرة سيّارة عسكريّة . ذهبوا به إلى الصّحراء . تخفّفوا من حمله . ألقوه بين الرّمال دون أن يدفنوه . وعادوا مرتاحي الضّمير!!

كان (يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيْرَا) . دفن العميد رأسه في صدره . واحتضن رُكبيته وراح يبكي كطفل . هدّأتُ من روعه . ضممتُه إلى صدري . واعتذرت :

- سامحني . . . كنتُ السّبب .

لم يبكِ لنفسه . بكى على المرضى . بكى على الثّمانينيّ الّذي قضى كأنّه جُعل . وتعلّمنا ألاّ نطلب بعد اليوم .

نعم . أصابتنا في الثّلث الأخير من هذه السّنة مجاعة حقيقيّة . (مَنْ يَستطعْ أن يُعطي كسرةَ خُبزِه لمريضٍ أو كبيرٍ في السّنّ فليفعلْ) قال ذلك العميد . وجد تفانِيًا من الجميع . (قسطنطين) نفسه بقي ثلاثة أيّام لم يدخل بطنه أيّ شيء ، وكان من أحوجنا . اكتفى ببعض

جرعات الماء . وقرفص في محلّه كأنّه هيكلٌ عظميّ .

مريضٌ بالسّكّريّ قاوم الموت ما استطاع . ظلّ مرميًا كأنّه كيسٌ من الخيش ، كنّا نتأكّد من أنّه حيّ بعلوّ صدره وهبوطه . يعلو ببطء شديد ويهبط كذلك . صوتُ أنفاسه كان مسموعًا ؛ كانت له خشخشة . قضى أكثر ساعات النّهار مغشيًا عليه . لا يفيق إلاّ ليعود إلى الإغماء . نصحتُ أخاه أن يظلّ يقطر في فمه على الدّوام قَطَرات من الماء ، ويُعلمني إذا أحسّ باضطراب أنفاسه . كان محتاجًا إلى قليلٍ من السّكّر ليستمرّ ؛ لم نكن نحصل على ذلك . قلنا لطبيب السّجن . قال لنا ببساطة : دعوه يموت!! إذا مات يصبح متّسع لمحبوسٍ جديد!! أخوه كاد يُجنّ . ها هو شقيقه يموت أمام عينيه ولا يملك له حيلةً . تنفلت أنفاسه من بين يديه ولا يستطيع لها إمساكًا . ظلّ ستّة أيّام يُعاني سكرات الموت . أيقظني شقيقه في اليوم السّابع . كانت الشّمس تلدُ نهارًا جديدًا . وكَعْبا قدمَي الحارس من الشّرّاقة كانتا مُولّيتَين لنا دُبرهما . أنّ المسكين أنينًا خفيفًا . حاول أن يبلع ريقه . شفتاه مُشقّقتان يابستان كأنّهما قطعتا حطب . وتحت عينيه هالةٌ زرقاء . جسستُ عرقه . حضنتُ أخاه . قلت له : سنغسّله ونصلّي عليه . سيحظى بميتةٍ مختلفة ولْيكُنْ ما يكون . أدخلتُه أنا وأخوه إلى الحمّامات . غسّلناه . وكفنّاه ببطّانيّتَيه . وصلّينا عليه . وقفتُ إلى جانب أخيه في الصّلاة . لم يكفّ كتفه الّذي يلي كتفي عن الارتجاف .

استمرّ الجوع ما يزيد عن شهرين . استفحل الأمر . وازداد الجلاّدون في تعذيبنا بالجوع . كان رغيف الخبز يقتسمه عشرة . صار يقتسمه عشرون . لا يكاد يحصل الواحد على لقمة . مَنْ كان يملك إيمانًا عميقًا حافظ على خلايا دِماغه من التّلف . بعضُنا جُنّ أو كاد . أحدنا انقطع به حبل الصّبر فهوى . فزّ مثل جنّيّ . ركض باتّجاه باب

المهجع . طرقه بشدّة وراح يصيح : بِدّى أعترف . . . بِدّي أعترف . . .
ارتجف العـمـيـد . أطبق بيـده على فم المحـبـوس . دفعـه المحـبوس ثمّ هوى بلطمـةٍ من يده على وجـه العـمـيـد . تـراجع العـمـيـد إلـى الوراء مذهولاً . فتحَ الحارس البابَ . تلّه من عنقه للجبين وجثى على صدره :
- شو بِتْقُول وْلا . . .
- بِدّي إعترف . . .
لم يعد لـلاعـتـراف قيـمـة . هنا جيء بك لتـموت ألـف مرّة قبل أن تموت الميتة الأخيرة . مجيئك إلى هنا هو موتٌ بالتّقسيط . ولكنّ كلّ دفعـةٍ من الموت لا تسـاوي جـزءاً منه ، بل تُسـاوي أضـعـافـه . شـحطه بمعاونةٍ آخر من رجليه . وأدخلوه على (أبو نذير) :
- سيدي بيقول بِدّو يعترف . . .
- شو يعترف . . .؟! تَعَا وْلا . . .
أكملوا شحطه حتّى صار قريبًا :
- بشو بِدّك تعترف . . . .
- سـيـدي : الرّئيس هو أَمَرْنا بالجـهاد أنا بِدّي لَبّي طَلَبُو . . . . بدّي إحميكُنْ من الإخوان . . . رايحين يهجموا عليكن بالطّيّارات . . .
- يهجموا علينا؟!!
- آه سيدي . . . آه سيدي . . .
- الإخوان عِندُنْ طيّارات . . .؟!
- سرقوا طيّارة الرّئيس سيدي . . .
فقد (غسّان) عقله على الحقيقة . اختلجتْ عينا (أبو نذير) . أرجع كتفيه إلى الخلف . ثمّ دنا ففتح درج مكتبه . أخرج إضبارةً . وقّع حكم الإعدام . لم تطلع الشّمس مِنْ بعدُ على ذلك المسكين!!
لم يكنْ مهجَعنا وحده يُعاني مجاعةً ماحقة . كانت كلّ المهاجع

والسّاحات تُعاني ما نُعاني . كان هناك ما لا يقلّ عن عشرين ألفًا يتضوّرون جوعًا . ولا يجدون ما يسدّ الرّمق ، ولا ما يُقيم الأَوَد .

صرنا نعرف أيّام الإعدامات ؛ السّبت والأربعاء . كثيرون ودّعناهم لآخر مرّة في هذين اليومين . بعضنا حمّلهم سلامًا للرّاحلين السّابقين . أشقّاء أوصلوا سلاماتهم إلى أشقّائهم عبر المُعدَمين حديثًا . أبناء لآبائهم أو آباء لأبنائهم . كانوا يبلّغونهم سلامهم ودعاءهم وصبرهم على البلاء موقنين تمامًا بوصول هذا الكلام إليهم . لا أدري ما الطّاقة الرّوحيّة الّتي كانت تدفعهم لذلك؟! الإنسان مخلوقٌ عجيبٌ!! تنهّدتُ . تلوتُ في سِرّي : ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُون﴾؟!

نُودِي على خمسة من مهجعنا . كان يوم الأربعاء . سارعوا جميعًا إلى الاغتسال . وصلّوا ركعتين لله أطالوا فيهما السّجود . ثمّ نهضوا إلى الموت . أحدهم وقف شارِدًا . تطلّعتُ إليه . اضطرابٌ بادٍ تحت جفنيه . تُرقوته علت وهبطت بسرعة . عرفتُ أنّه ضَعُف . ومَنْ يكون قويًا إلى هذا الحدّ؟! هزّ رأسه كأنّه يدفع عنه الوساوس . عاد فصلّى الرّكعتين ثانيةً . رفع يديه بعدهما وهو جالس إلى السّماء . دعا . شخص ببصره إلى هناك . ابتسم . رأى ما لا يُرى . قام . كان هذه المرّة قويًا . تأكّدتُ أنّه سيصمد .

(صادق) أحد الخمسة . بكى أبوه وهو يودّعه . قال له :

– يا أبتِ لم تبك؟!

– أبكي على فراقك . الظّلم ظُلُمات .

– أنتم أولى بالبكاء على أنفسكم من البكاء عليّ . أنا ارتحت . أنتم ستبقَون في هذا العذاب . أدعو الله لكم بالفرج .

عانقه أبوه . شدّ على صدره . رأيتهما يُطيلان العناق . لم يكن الأب يريد ترك ابنه .

- ستشفع لي؟! (قال الأب)
- إذا قبلني الله شهيدًا ستكون أوّل من سأشفع له . (قال الابن وهو يبتسم)
- أخوك . . . ربّما سبقنا إلى هناك . لا أدري . أرجوك قبِّله عنّي .
- إذا خرجتَ من السّجن سالمًا فقبِّلْ أنتَ يد أمّي عنّي . قل لها : الشّهداء كالأنبياء ؛ يختارهم الله!!

شعّت هالةٌ من النّور غمرت المهجع كلّه . صاح الحارس من جديد . خرجوا مُكلّلين بالمجد . انتظرهم الخلود في السّاحة . فتح لهم ذراعيه . وغابوا في أيكته .

من شقوق الباب تسنّى لي أن أشاهد الإعدام عِيانًا لأوّل مرّة في حياتي . كان الإعدام يتمّ بالمشنقة . وكان يتمّ بطريقةٍ غير معهودةٍ في تاريخ البشريّة . المشنقة ذات ثلاث أرجل . وعمود قائم مع آخر أفقيّ . على الأفقيّ يُثبّت حبل المشنقة . تُنكّس الخشبة الأفقيّة حتّى تلامس الأرض . وفي حين أنّ المشانق في غير هذا المكان تكون واقفة ويوضع للسّجين كرسيّ ، ويُلفّ حول عنقه الحبل ، ثمّ يُدفع الكرسيّ من تحته فيهوي على الأرض بثقل جسمه ، ويشدّ الحبل على عنقه فتُزهق روحه . أمّا هذه المشانق الّتي هنا فأمرها عجب . تبقى مُنكّسة ، ويؤتي بالسّجين ، تُقيّد يداه خلف ظهره ، ويُلفّ حول عنقه الحبل ، ويُشدّ بإحكام . ثمّ يأتي ثلاثة إلى قوائم المشنقة الثّلاثة فيرفعونها لكي تستقرّ على هذه القوائم ، وفي أثناء رفعها يرتفع جسد المحكوم عليه بالإعدام ، ويشدّ الحبل على عنقه بقوّة الجذب إلى الخلف فيفارق الحياة!!

سيق الخمسة من مهجعنا ، وسيق آخرون من مهاجع أخرى . وجلستُ أراقب . كنت أتحسّس الموت في الوجوه . فيسقط منّي هناك . أتلمّسه حولهم ، فأراه يدور حولهم من أمامهم مرّة ومن خلفهم أخرى .

أقول في نفسي مستغربًا : هل يرونه مثلي؟! إذا كانوا كذلك فلم يتجاهلونه كلّ هذا التّجاهل . علت أصوات التّكبيرات . كبّر أوّل المُساقين إلى الحِبال ، فسرت موجةٌ طاغيةٌ من التّكبير . رأيتُ الحرس يضطربون . أفزعتهم هذه النّداءات . يعرفون أثرها ويلمسونه . لاحظتُ (أبا نذير) يصيح وينتقل من مكانٍ إلى مكانٍ بسرعة ، ويحرّك يديه بعصبيّة واضحة . فهمتُ أنّه يطلب من الجلاّدين الإسراع بتنفيذ الأحكام . ظلّت أصوات التّكبير تعلو . ارتجّت جدران السّجن لها . وارتّجت قلوبنا معها . شعرنا بعزّة لم نشعر بها من قبل . لأوّل مرّة يعلو صوت المحابيس . ماذا يفعلون بِمَن هو مُقدِمٌ على الموت؟! بِمَ يُخيفونهم ليسكتوا صوتهم؟! هل بعد الموت عقوبة؟!

بعد نصف ساعة تدلّتْ أجساد اثني عشر سجينًا . كانوا أقمارًا في عتمة قلوبنا . تأرجحوا يمينًا فَخلْتُهم يلقون علينا التّحيّة : ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ . ثمّ تأرجحوا يسارًا فخلْتُهم يصبّون اللّعنة على الجلاّدين . ثمّ استقرّوا مُقبلين بوجوههم فخِلْتُهم يتأهّبون لدخول الفردوس!! أيّ كواكب هذه الّتي هبطت من السّماء لتعانق الأرض ؛ لتعانق هذه البقعة المنسيّة وتبارِكها؟! مرّ عليهم طبيب السّجن ليتأكّد من أنّ أرواحهم لم تعد تسكن أجسادهم . ثمّ أنزلوهم كفرسانٍ تعبوا من طول الطّريق على ظهرِ خيول كبتْ من طول قِراع .

لفّوا أجسادهم في بطّانيّات . نظّفوا بالماء ما سال من دمائهم أو أرواحهم في السّاحات . وحملوا (اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا) ليرتاحوا من رحلةٍ طويلةٍ في غُبار المفازات!!

ظلّت صورتهم وهم معلّقون مشنوقةً في خيالي . رافقتْني سنوات . لكنّ خيالي ازدحم بعشرات الصّور بعدها . اتّحدتْ الصّور كلّها في

صورة البطل الأسطوريّ الّذي يطلب الموت فتوهب له الحياة!!

تحسّنتْ بعضُ أحوال الطّعام . صارت البيضة يقتسمها أربعة . ربع بيضة يُمكن أن تكفي أحيانًا . في السّابق البيضة كانت تُوزّع على عشرين محبوسًا . هل للجلاّدين ضمير؟! هل يخزهم هذا الضّمير إذا خَلَوا إلى أنفسهم ، ونُكِسوا على رؤوسهم؟! أليسوا بشرًا تجري في عروقهم دماء؟! أما هزّهم منظر السّاقطين من السّماء شُهبًا مُعلّقة على ألواح ودُسُر؟!

قيل لنا إنّ طبيب السّجن سيزور المهاجع . سرتْ إشاعةٌ أنّه يريد أن يطمئنّ على صحّة المرضى ، والّذين تأثّرت صحّتهم بقلّة الطّعام . حلّ على مهجعنا بعد أسبوعين من حفلة الإعدامات . رافقه عسكريّان حَفًّا به كحارسَين . تطلّع في الوجوه بعينَين بغيضتَين . ظلّ يمشي إلى أن جمد في مكانه فجأةً كتمثال . علا صدره . واحمرّ وجهه . وأفرد يديه بعد أن كان يعقدهما خلف ظهره . نظر إلى الحارسَين خلفه . وأشار إلى الطّبيب (زُهدي) ، وقال لهما : علّموه .

صار (زهدي) يُسحب كلّ يوم إلى السّاحة ، فيُجلد حتّى تختلج بقايا أنفاسه في صدره ، ثمّ يعود إلىً المهجع . فعلوا ذلك أكثر من عشر مرّات . ظلّ مُعلّمًا لشهرين . دخل مرّة وقد تورّمت قدماه حتّى صارتا كبرتقالتَين ، وانتفختْ عيناه . سارعتُ إلى التّخفيف من معاناته . حاولتُ فتح عينيه فلم أستطع . استعنتُ ببقيّة الأطبّاء . أمسك اثنان جفنه الأعلى ، وأمسكتُ أنا وآخر جفنه الأسفل ، وفتحنا عينيه . كانت الشّرايين الدّقيقة قد انفجر كثيرٌ منها . امتلأت عيناه بالدّم والورم . خفتُ أن يفقد بصره . عالجناه بالماء . وببعض الخيوط حاولنا تنظيف بعض الجروح . لم يُمهلاه حتّى يشفى . عاودوا شَحْطه في اليوم التّالي . أدرك أنّه هالكٌ لا محالة . طلب منّا أن ندعو له .

فتح نصف عينٍ وتطلّع من الشّرّاقة ، رأى عبرها بعض الطّيور .

كانت تغيب وتحضر . حلّ محلّها سربٌ من الحمام الأبيض . غطّى واجهة الشّرّاقة بالكامل . اتّحد معًا فصار غلالةً بيضاء . ارتسمت على هذه الغلالة صورة حبيبته . كان وجهًا ملائكيًا صافِيًا . ابتسمت له وبشّرتْه : ستلتقي بي قريبًا . لا تخف سوطه . سيكون سببًا في لقائنا . جروحك تشفى بسرعة وأنتَ مُقبلٌ لأن تنضمّ إلى سرب هذه الحمامات البِيض . غادرت مع السّرب وهي تلفّه بوشاح من أمان . شعر بها على الحقيقة . حاول أن يضع حدًّا فاصلاً بين الحقيقة والوهم فعجز . غمضت عيناه وتخيّلها في حدائق غنّاء تُمسك بيده وتعرّفه بأنواع الورود . وتقطف له من كلّ شجرة وردة .

كان طبيب السّجن (يونس) زميلاً (لزهدي) في الجامعة . تسابق قلباهما أيّهما يفوز بالحبيبة . اختارت الحبيبة (زهدي) دون تردّد . وتركتْ لأجله كلّ مَنْ عداه . ملأ الحقد قلب (يونس) وظلّ جرح إخفاقه يقطر سُمًّا إلى أن تواجها هنا . ولكنْ مَنْ كان منبوذًا خلف أسوار هذا السّجن ، صار سيّدًا مُطاعًا داخله . خثّر الحقد روح (يونس) بالثّأر . ملأ كلّ خلاياه بالانتقام . حانت الفرصة . لن يُضيّعها . ولن يستنفدها مرّة واحدة . ظلّ طوال شهرين يتلذّذ بمنظر (زهدي) وهو يُعذّب أمام ناظريه . كان يطلب من الجلاّدين أن يأتوا به إلى عيادة السّجن ، ويجلس إلى مكتبه ويطيل النّظر بعينَين تفيضان قَطِرانًا ، وترتويان من منظر الدّماء الّتي تسيل من جسد غريمه (زهدي) .

مَنْ يُعطي سلطةً كافيةً لانتزاع أرواح البشر كأنّها شعرةٌ تُنتزَع من جلد شاة؟! مَنْ يملك مَنْ؟! ومن أعطى الحقّ لهذا كي يعيث في جسد ذلك هوانًا؟! أيّ أقدار تلك الّتي تُبدّل الأدوار في زمن الخطيئة؟! وأيّ حقد ذلك الّذي لا تُشبع غرائزه أنهارٌ من الدّم كافيةٌ لأن تغرق ضمائر البشرِ كلّهم؟!

- صَفّوه . . .!! بِدّياه ينرمي للكلاب اليوم . . . (قال ذلك يونس لحارِسَيْه) .

طرق العسكريّ الباب :

- وْلا مهجع ٢٧ طْلاعْ لبرّا إنتا وْياه . . .

أخرجونا جميعًا ، وأبقوا على (زهدي) في الدّاخل . أغلقا الباب من خلفهما . وفي الخارج تجهّزت الرّشاشات على أسطح المهاجع لأيّ طارئ . أمّا داخل هذا الباب الكئيب فكانت ملحمةٌ أخرى من ملاحم النّضال تُصنَع . هجما عليه . انفردا به فأيقن بالنّهاية . مرحبًا بها . لم أتفاجأ . أخبرتني حبيبتي بذلك . وصدقتْ بُشراها . أنتم تساعدونني على اللّقاء بها . تَشهَّدَ . انهالوا على رأسه بالهروات الغليظة . لم يحتمل رأسه المتورّم إلاّ بضع ضربات . انفلق إلى نِصفين ، وتهتّك النّصف المكسور . خرج دِماغه يسيل على الفلقتين . ظهرَ السّفّاحان مزهوَّين ببطولتهما . أمرونا بالدّخول . ارتعدتْ فرائصُنا لهول المنظر . كان مُسجًى كنبيّ في آخر المهجع . ويده ممدودة باتّجاه الشّرّاقة . صاح العسكريّ :

- شو فيه . . .؟!

تهيّأ العميد ليردّ . ذابت الكلمات في جوفه . حاول مرّة أخرى فجفّت على شفتيه . صاح العسكريّ من جديد :

- شو فيه وْلا إنتا وْياه . . .؟!

أراد أن يتكلّم لكنّه لم يستطع . دخل العسكريّ لطمه على خدّه . وقال له :

- قُولْ تْزَحْلَق ووقعْ على رَاسُو . . . وهلأ بسألك : شُو فيه . . .؟!

- تْزَحْلَق ووقعْ على رَاسُو . . . (قال العميد وهو يشدّ على أسنانه)

- طَلّعوه لبرّا يا أوْلاد القَحْـ . .

لففتُه أنا والزّعيم ببطّانية ، وسلّمناه للحرس . لا ندري ما صنعوا به بعـد ذلك . أغلب الظّنّ أنّه تحـوّل إلى حـمـامـةٍ بيـضـاء والتـحق بحبيبته!!

في اللّيل قـمتُ كـشبحٍ دون أن يشـعـر أحـد . صلّيتُ عليـه سِـراً وانتحبْتُ وأنا أدعو له!!

(١٥)
قُسْطَنْطِين صَرُّوف

الشّيوعيّ المسيحيّ (قسطنطين صرّوف) رجلٌ عجيب . عالِمٌ بالنّحو كأنّه سيبويه . فصيحٌ في اللّسان كأنّه سَحبان . حافظٌ للشّعر عليمٌ به كأنّه الخليل بن أحمد . كان قصيرًا . أحمر الوجه . ذَرِب اللّسان . سريع البديهة . حادّ النّكتة . وكان متعاونًا ومتفانيًا في خدمة المجموع . وكان خارج السّجن عضوًا قياديًا في الحزب الشّيوعيّ . أبوه أيقن أنّ العربيّة ترفع صاحبها ، فبعث به إلى الكتّاب فحفظ هناك القرآن كاملاً على يد الشّيوخ . ودرس العربيّة عندما كبر فأتقنها عن اقتدار . ولم أصدّق أنه سيصبح عن قريبٍ أهمّ مصادر تحفيظ القرآن وتلقّيه في المهجع . وكثيرًا ما كان يطوف بنا في ساعات اليُسر ، ويقول مازِحًا :

– مين بدّو ياخُد السّند منّي يا مْقَفْلِين!!

ونضحك . ثمّ يتحوّل الضّحك إلى جدّ . وحينَ لم يكنْ طوال السّنوات السّبع عشرة من أقلام بين الأيدي أو أوراق . أو في المتناول كتبٌ . فقد كان هو أوراقنا وأقلامنا ودفاترنا وكتبنا . وما ذلك إلاّ لِسَعةِ حِفظه وقوّة ذاكرته!!

تقرّب منّا أكثر بعد انقضاء سنة العُسرة سنة ١٩٨٢م . صار العميد يستشيره . ويستملح الجلوس معه . تخيّلوا أنّنا اكتشفنا مواهبه بعد مرور أكثر منْ سنة!! كنّا قبلها نخاف أن ننظر في وجوهنا . أمّا في

خروجنا إلى السّاحة فقد بقينا سنوات لا ننظر في وجوه جلاّدينا : (راسك بالأرض . . وإديك ورا ضَهرك) ؛ لم تكن عبارةً لنحفظها ؛ كانت سلوكًا حيوانيًا أرغمونا على إجادته!!

(قسطنطين) سِرٌّ . ومن يدري ماذا يحمل هذا المهجع من أسرار ومواهب؟! في هذا العام ١٩٨٣ حدثتْ بعض الانفراجات البسيطة في بعض الأيّام . تعلّمنا من خبرتنا السّابقة أن نستغلّها ، ونمسك بعنقها فور أن تمدّه باتّجاهنا ؛ لأنّنا لا ندري متى تُعطينا ظهرها!!

أمّا (عامر الزّعيم) فله قصّة أخرى ؛ كان من المقيمين في المواخير ، لا يخرج من ماخور إلاّ ليدخل آخر . لم يترك خطيئةً يُمكن أن تخطر على بال أحدٍ إلاّ ارتكبها . زنى وسرق ولاط وقتل وسكر ونصب وهرّب المخدّرات ونام مع كلّ الحيوانات ولم يكنْ يتورّع عن أن يفعل أيّ شيء .

عندما قُصفت المدينة بالطّائرات . أخذتْه الحميّة بأهل حيّه المُحاصرين . راح يدفع برميل (مازوت) على عرباية كي يُوصلها إلى أحد الأفران الّتي تخبز الخبز للمنكوبين المُشرفين على الهلاك . في الطّريق والعرق يتصبّب من جسده في دَفْعِه البرميل الثّقيل ألقَوا عليه القبض . وحوكم على أنّه قائد التّنظيم في الحيّ . في السّجن رأى من الأهوال ما جعله يرتدع . كان طويلاً جسيمًا . حنطيّ البشرة . شديد الأسْر . وخشن المعاملة .

قرّر أن يحفظ القرآن على يد (قُسطنطين) . فاكتشف شيخُنا المسيحيّ أنّ (الزّعيم) أغبى من الغباء نفسه . بدأ معه بسورة (طه) على أساس أنّ آياتها قصيرة . طلب (قسطنطين) من (الزّعيم) أنْ يحفظ الآيات الخمس الأولى من السّورة . ظلّ شهرًا كاملاً دون أن يعلق بذهنه منها شيءٌ . لم ييأس منه قسطنطين . قرّر أن يغيّر الأسلوب ؛

طلب هذه المرّة أن يحفظ : ﴿طَهَ مَا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ فحسب . قال له : رَدِّدْها خمس آلاف مرّة ثمّ عُدْ إليّ لنحفظ الآية الّتي بعدها . وفعل الزّعيم ما طُلِبَ منه حرفيًا . سلكتْ أموره بعدها . لكنّه مع ذلك احتاج إلى ثمانية شهور كاملة ليحفظ سورة طه فقط!! بعد سنين أخرى حفظ الزّعيم القرآن كاملاً!!

لم نزل إلى اليوم نخرج إلى السّاحة مطأطئي الهامات ، مُسبِلي الأذرع خلف الظّهور . تعلّمنا ألاّ نرفع رؤوسنا في وجه جلاّدينا . بعض الجلاّدين كنّا نميّزهم من أصواتهم . وبعضهم الآخر رسمْنا لهم صورةً في أذهاننا من تخيّلاتنا . عشرات الجلاّدين ألهبوا ظهورنا وشقّوا بطوننا وحفروا أخاديد في أقدامنا ولم نرَ من وجوههم شيئًا . كانت المهانة تسربلنا في كلّ أحوالنا . لم يكنْ من حقّنا أنْ نشعر بوجود مخلوقات من جنسنا نتعامل معها . ظلّت الأحداق مطرقةً في الأرض كأنّها مشدودةً إليها بحبلٍ من مسد!!

في شهر شباط من هذا العام حدث تغيّر جذريّ ، انتشلنا من مستنقع المذلّة والمهانة ولو إلى حين . طرق العسكريّ الباب :

- مهجع ٢٧ لبرّا ولا . . .

أمسك الرّقيب العسكريّ بأحد الخارجين الأوائل . صاح فيه :

- رْفَاعْ راسَكْ وْلا . . . وِفْتاحْ عيونَك . . .

لم يُصدّق المسكين . مرّت العبارة في ذهنه وخرجتْ بلهاء . ظلّ مُطرِقًا كالعادة في الأرض : هل يألف الإنسان الذّلّ . هل تحتاج الكرامة إلى تمرين؟!

صاح مرّة أخرى به :

- وْلا ما سمعتني . . . أطرش وْلا؟! رْفاع راسك وْلا . . . وِفْتاح عيونَك . . .

للمرّة الثّانية ظنّ أنّه يحلم . كان غير متأكّد أنّ هذا الصّوت الّذي سمعه هو صوت الرّقيب ، أم صوت عقله . قرّر بينه وبين نفسه أنّه صوتُ عقله . كان صوت العقل في تلك الأيّام : أمنية هاربة . لذا ظلّ مُطرِقًا كأنّه خُلِق لهذا وعلى هذا!!

لم يتمالك العسكريّ نفسه . أمسكه بيده اليسرى من ذقنه ، وبكفّه الأيمن صفعه على وجهه . استفاق المسكين . هذه المرّة أيقظتْه الصّفعة .

كانت هذه الصّفعة قد أيقظت المهجع كاملاً . صرنا بعدها نرفع رؤوسنا ونفتح عيوننا . ونغترف من المكان مواضعه . ما أجمل أن تتحاور العين مع المكان!! أجمل الحوارات وأعمقها وأبقاها أثرًا تلك الّتي ترسم فيها عينا إنسانٍ ومكانٍ مستوى الألفة ؛ الأمكنة أيضًا تَعشَق وتُعشَق كالإنسان!!

صور الجلاّدين والرّقباء رسمْتُها في خيالي . تشكّلتْ تلك الصّور من نبرات الصّوت الّتي كنّا نسمعها ، ومن إيقاع الخطوات وثقلها . وأحيانًا من الظّلال الّتي تدفعها الشّمس خلف الجلاّدين ونلمحها في طرفةِ عينٍ هاربةٍ . أكثر الصّور الّتي رسمْتُها في خيالي لهم لم تكنْ تلك الّتي رأيتُهم فيها بعد أن صار مسموحًا لنا أن نرفع رؤوسنا ونفتح عيوننا . قلت : زيّفوا ذواتهم في واقعهم ، أم زيّفناها نحن في خيالنا؟! فما رأيناه لم يكنْ مطابِقًا لما رسمْناه!!

(١٦)
الحِلاقة

طالت شُعُورنا . صار القمل يسبح في أجسادنا . حملة النّظافة ابتدأت . الحنق الّذي يلازم كلّ الجلاّدين والرّقباء ازداد في ذلك اليوم ؛ لقد كلّفهم رعاية الشّياه الجرباء . وهذا أمرٌ مقزّز بالنّسبة لهم .

صاح الرّقيب من الخارج :

- مهجع ٢٧ عالحلاقة ولا إنّتا ويّاه . . .!!

خرجنا متفائلين . لا يعرف المرء ما خلف الأكمة . الأكمة تملك خاصّيّة التّحوّل ؛ يمكن أن تصبح وحشًا مفترِسًا!!

الأرض خشنة . حبّات (البحصة) ظاهرة في سطحها . الأرض الحارقة تلسع . والسّياط خلف الظّهور تلسع . وشتائمهم تلسع . وصياحهم بالإسراع يلسع . وازدحامنا على الباب في الخروج والدّخول يلسع . مشينا مُسرعين كالحُمُر المستنفرة باتّجاه مهجع الحلاقة . كانوا يصيحون :

- منْ هُونْ يا ابن الشّر . . . ولا مِنْ هُونْ يا مَنْـ . . .

وكنّا نركض . نتعثّر . قد نقع أحيانًا . نُداس . نتكوّم فوق بعضنا . وتعود السّياط لتفريقنا من جديد!!

مهجع الحِلاقة طويل . يصطفّ (البلديّات) يحملون في أيديهم ماكنات الحلاقة اليدويّة . رأيتُها هي نفسَها في يدَي أبي ذات صيف يَجُزّ بها شُعور الأغنام!! على باب المهجع هناك استقبال اعتياديّ : كفّ

على الرّقبة . بَصْقة في الوجه . لَطْمة على الخدّ . وربّما قَفْزةٌ في الهواء ثمّ رَكْلة : هذا إذا كان الرّقيب قد تعلّم فنًا جديدًا من فنون الكاراتيه وجاء ليطبّقه علينا .

ندخل عشرات . نُعطي ظهورنا للبلديّات . يبدأ الجزّ . تندّ صرخة هنا أو هناك . يصفع البلديّة صاحبها ويُتبِعها بشتيمة . تَحوّلَ البلديّات وهم مساجين القضايا غير السّياسيّة إلى جزّارين وجلاّدين مثل العساكر . أعطتهم إدارة السّجن سلطة الرّكل والشّتم والضّرب . الصّفعة الّتي تأتيك من الرّقيب أو العسكريّ مهما بلغت قسوتُها فلا تبلغ قسوة الضّربة الّتي تأتيك من البلديّة ؛ الأولى متوقّعة والثّانية غير متوقّعة . الجزّ يحرث الرأس حراثة حقيقيّة . تبدأ الدماء بالسَّيلان . تنشرم الأذن . ينخطّ وادٍ طوليّ عميقٌ في الرّأس . يضحك البلديّة . يشتم . ويُتابع حِراثته . ثمّ يصفع المحلوق على رقبته ؛ الصّفعة إيذان بانتهاء حلاقة الرّأس والانتقال إلى حلاقة الذّقن . يتقدّم أحد البلديّات إلى الأمام . يُمسك فرشاة حلاقة . يُصَوْبِنُ الذّقن . يطوف بالوجه . يغطّي العينين وفتحتَي الأنف . الويل كلّ الويل لمن يعترض . تنفثئ بقعة صابونٍ عند الأنف مع التّنفس . تسيل حين تتبعها انفثاءات أخرى . يطوف مِن بعده (بلديّة) آخر . في يده موسى الحِلاقة . يشعر بالمتعة وهو يرى الأحمر يختلط بالأبيض . يتمازج اللّونانِ فيشعر بالمتعة أكثر . أتساءل : ألا يحقّ لي أن أصرخ . أن أفقأ كيس الألم المحتقن فِيّ؟! أُجيبني : بلى . أصرخ . تميل الموسى إلى اليمين فتنجرح الأذن : ما بين أن تصرخ أو تفقد أذنك أنتَ صاحب الخيار!!

تخرج العشرة الأولى وتنال في الخروج ما نالتْه في الدّخول . تتبعها العشرة الثّانية إلى الدّاخل ويستمرّ المُسلسل . تستغرق الحلاقة نصف نهار ، ولكنّه نصف عُمر . نعود شبه ضحايا إلى المهجع . عند

اكتمال العدد في المهجع نتبادل النّظرات ثم لا نملك إلاّ أن نضحك . نضحك ملء أشداقنا ؛ كان كلّ واحدٍ منّا يحمل فوق كتفيه بطّيخة ؛ بطّيخة لامعة . يطوف الزّعيم ؛ يُلحمِس على البطّيخات من علوّه الشّاهق . يفغر فاه ويهمّ بأكل إحداها . ثمّ يطبع قبلةً طويلة . يتملّص المحبوس الّذي تحته ، وتنهار الضّحكات من بعده!!

في اللّيل نادت السّمّاعة على ثلاثةٍ من مهجعنا . لم يكن السّبت ولا الأربعاء . ولم يكن الوقت صباحًا . فرضيّة الإعدام إذًا معدومة ؛ هذا أمل المغمورين في قدور الموت الآنية . خرجوا إلى (أبي نذير) . ونبتت من بعدهم فرضيّات خضراء ، وهمهمت أصوات وارفة :

– لماذا هم بالذّات؟!

– لماذا في هذا الوقت بالذّات؟!

– احتمال إفراج!!

– إفراج . . . لا . . . لا . . . بجوز زيارة خاصّة!!

– زيارة خاصّة؟! لأ . . . لأ . . . هَيْ بِدًّا رشوة كبيرة حتّى تزبط . . .

واندلاحتْ فرضيّات لم تنتهِ . لكنّها لم تجاوز جدارن الغرفة . وسرعان ما تبخّرت . الفرضيّات هنا فُقاعات صابون عند أوّل نسمة حقيقة تذوب!!

دخل الثّلاثة (راشد ، وسميح ، وبدر) على (أبو نذير) . فُكّت القيود من أيديهم . ظلّوا ينظرون إلى معاصمهم طويلاً قبل أن يدركوا حقيقة أنّ الأساور لم تعد تُحيط بها . رحّب بهم المدير : (أهلين وسهلين بالشّباب) . ذُهِلوا ؛ لم يسمعوا من ثلاث سنوات غير الشّتائم . احتاجوا إلى مترجم ليفهموا المقصود من كلمات لم تدخل قاموسهم منذ شهور الجدب . أمال (راشد) جذعه وانحنى إلى الأمام . ربّما ظنّ

أنه من الأفضل أن يفعل ذلك . . . وربّما ذاكرته لم تُسعفه أنّ هذه الوضعيّة ليست هي الأساس في طبيعة تكوينه . نسي من زمن سحيق أنّ الله خلق صُلْب الإنسان مستقيمًا . (سميح) جثا على ركبتيه ، لم يكن يريد أن يُظهر الولاء للسّلطة المُطلقة . كلاّ . كان يُمارس خَلْقه في هذه الحياة . الحياة الّتي كان فيها إنسانًا هي الحياة الأولى ؛ لقد انتهتْ منذ أمد!! (بدر) كان أكثرهم تذكّرًا لكرامته : رمى جبهته على صدره ، وعقد يديه خلف ظهره!!

- ناديتكُنْ لأعرف طلباتكُنْ . . . شُو ناقِصْكُنْ؟! (قال المدير)

ظلّوا خُرسًا . صحيح : ماذا ينقصهم؟! كلّ شيء إلاّ الموت .

- شو طلباتكُنْ . . . وعد منّي رح تتحسّن الأمور . . . احكو شو بِتْريدوا؟! (كرّر المدير) .

تململ (بدر) في مكانه ، فرّج بين ساقيه ، أسبل يديه على جنبيه . رفع رأسه ببطء ، ثمّ تهيّأ للكلام . تشكّلتْ بعض الحروف ، لكنّها لم تكتمل في جملة ولا حتّى في كلمة . تدحرج الخوف من قلبه كرةً شدّتْ أعضاءه إلى الأسفل . صمت . لاحظه المدير :

- احْكي بدر . . . إي . . . شو بِتْريدوا .
- شغلة وحدة بَسْ . . .
- احْكي . . .
- بدنا تكون فيه فترة للتنفّس .
- بَسْ؟!
- بَسْ .
- رَح نْفَسّْكُنْ مْنيح يا بدر . . . وعد منّي . . .

في الصّباح . سيق الثّلاثة مع آخرين ليلفظوا أنفاسهم على أعواد المشانق .

الشّهداء قناديل في عتمة خيباتنا . نحملها بأيدينا في اللّيالي الطّويلة لتضيء لنا دروب التّيه . كلّما ارتفع أحدهم في السّاحة السّادسة ارتفعْنا معه من هوّة الضّياع . كانت بطولاتهم جدارنا الّذي أوينا إليه ، وفي ظلاله استرحنا من الهجير ، وتحت كرامته احتمينا من الهوان . قصصهم طُمرت في رمال الصّحراء . ودفنت في مجاهيل الغبراء . لم يكنْ لهم من شاهد يروي ما سطّروه من تضحيات أسطوريّة إلاّ الله . اليوم من يستطيع أنْ يرتقي إلى عليائهم فيقطفَ لنا من حكاياهم ما يكون شاهِدًا على زمنِ القمع والحَيونة لأنظمة متوحشّة حوّلت حياة البشر إلى جحيم؟! أنظمة كانت وما زالت تقول : أنا أو الدّمار!!!

(١٧)
الزّعيم والسّند

رَدِّدْ ورائي :

- (الَّذِينَ إِذا اكْتـالُوا عَلَى النّاسِ يَسْـتَـوْفُـون) يقـول قُـسطنطين للزّعيم .

- (الَّذِينَ إِذا اكْتالُوا عَلَى النّاسِ يَسْتَفْوُون) . يردّ الزّعيم .

- يَسْتَوْفُون وليس يَسْتَفْوُون .

- يَسْتَفْوُون .

- يَسْتَوْفُون يا زعيم . . . الله يرحم والديك .

- يَسْـــتَـــفْــــوُون . يســْ . . . تَـفْ . . . تَوْ . . . فُــــوْ . . . وُوْ . . . يَسْتَفْوُون . . .

ويعيدها قسطنطين مئة مرّة حتّى يستقيم بها لسان الزّعيم . إنّه انفراج كبير . في منتصف هذا العام بدأنا نُشكّل مجموعات لتحفيظ القرآن . كان التّحفيظ بصوت خفيض . أهمل حرس الشّرّاقتين ما يسمعون من أصوات . أو هكذاً بدا لنا . على أيّة حال الأصوات كانت أقرب للهمس . كان هناك ثلاثةٌ آخرون من الحُفّاظ تولّوا المهمّة بشكل كبير . وتنقّلوا هم وقُسطنطين بين كلّ المجموعات . لم يكونوا على وِفاقٍ مع قسطنطين . قالوا له :

- إنتا مسيحيّ . كيف تعلّم المسلمين القرآن؟!

- شو فيها؟!

- إنتَا نصرانيّ كافر . . . لا يؤخذ العِلم عن كافر . العلم نورٌ ؛ ونور الله لا يُهدَى لعاصي!!

- أنا مو كافر . . . أنا مؤمن . . . ومؤمن أكثر منكُنْ كمان!!

- أنتَ صاحب عقيدة التّثليث ونحن أصحاب عقيدة التّوحيد؟!

- يا جماعة هادا كلام فاضي . . . أنا وِيّاكُنْ بْنِحتكم للعميد . . . ومِنْسمّع قُدّامو القرآن ، إذا طلعتو حافظين أكثر منّي رَحِ اتْرِكلْكُنْ ها الشّغلة . . .

وتبدأ الأصوات ترتفع . ويتدخّل العميد : استروا علينا الله يتسرّ عليكُنْ . . . خَلَصْ بلا مشاكل . . . خَلُّوًا ديمقراطيّة يا شباب . . . إلّي حابِبْ يحفظ معكُنْ هو حرّ . . . وإلّي حابِبْ يحفظ مع قُسطنطين هو حرّ كمان . . .

فقدَ قُسطنطين بعض (الزّبائن) لكنْ ظلّ يحفظ معه نفرٌ غير قليل زاد عن عشرين تلميذاً . كان (الزّعيم) ألمعهم بلا شكّ!!!

تبيّن لي أنّ قُسطنطين مُتقن أكثر من الحفّاظ الآخرين . أذهلني أكثر عندما علمت أنّه يحفظ القرآن على القراءات . لم يدع لي مجالاً للشّك بعدها كي أعتقد أنّه مُسلِمٌ بالسّرّ . أمّا هو فلم ينفِ ولم يُثبِت!!

برزتْ أصوات جميلة عديدة . بدأنا نُزحزح صخرة الزّمن الّتي تجثم فوق صدورنا . صار بمقدورنا أن نطرب ولو على مستوى محدود . استمرّ حرّاس الشّرّاقتين بالتّغاضي . رأيتهم أكثر من مرّة يتبادلون الإشارات مع (الزّعيم) . (الزّعيم) أقدمنا في السّجن . ربّما صنع شيئًا من العلاقات معهم . في حين أنّ أيّ عسكريّ كان يتساهل أو يتعاون مع أيّ سجين يلقى عقوبةً من الإدارة لا تخطر على بال . وكان بعض الحرس جواسيس على الآخرين . حدث هذا مرّة منذ زمن لكنْ في غير مهجعنا!!

كان ذلك في بداية عام ١٩٨١ هفتْ نفسُ أحد السّجناء على كأس شاي. فناوله الحارس الكأس الّتي بيده. لمحه أحد زملائه من الحرس الجواسيس. وُضعَ تحت المراقبة. تبيّن أنّه يتساهل مع المحابيس!! كيف؟! كأس شاي في فترات التّنفّس. أو يسمح لمريضٍ أو كسيح أن يبقى في مهجعه ولا يخرج للتّنفّس. بعد شهرٍ من المراقبة عُقدت للحارس المتساهل محكمة عسكريّة داخليّة. أُدين. أعدم. وعلّقت جثّته داخل غرفة (الذّاتيّة) ليشاهده كلّ الحرّاس!!

مَنْ إذًا يخاف مَنْ؟! من يحمي مَنْ؟! ومن يقضي على مَنْ؟! صارت بالنّسبة لي كثيرٌ من تصرّفات الحرس مُسوّغة. صرتُ أفهم لماذا يتصرّفون على هذا النّحو. إنّهم يحمون أنفسهم بإيقاظ قوّة الشّرّ النّائمة في أعماقهم!! تأكّدت أنّ الوحوش ليست كلُّها وحوشًا متشابهة. هناك وحوش أنيابها أطول، مخالبها أحدّ، أشداقها أوسع، قفزتها أعلى. وفي النّهاية تأكل الوحوش أنفسها!!

قسطنطين استمرّ في إدهاشنا. بدأ يقرأ على مسامعنا أبياتًا من المعلّقات الجاهليّة. ونادى في المهجع:

– المعلّقات كلّها معلّقة هنا (ويشير إلى رأسه) منْ أراد أن تثكله أمّه فليتبعني إلى تلك الزّاوية... (ويضحك)

اتّخذ له زاوية تحت حماية (العميد) و(الزّعيم). وكثرت الزّوايا فكان لا بدّ من التّنظيم. وتشاور (العميد) مع مجلس إدارة المهجع، فخرجوا بتشكيل أربع زوايا أو حلقات؛ هي: زاوية القرآن، وزاوية الحديث، وزاوية الشّعر والأدب، وزاوية الطّبّ والصّحّة. وتوزّع على الزّوايا عدد من البارعين في كلّ مجال من هذه المجالات. كان قسطنطين بارعًا ومقبولاً عند كثيرين في الزّاويتَين الأولى والثّالثة. الزّاوية الرّابعة كانت أقرب إلى الخدمات الصّحّيّة، لمساعدة المرضى

والعاجزين والدّاخلين من حفلات التّعذيب الّتي لا تنتهي . في شهورٍ قليلة كان العلم الّذي في صدور بعضنا قد توزّع بأكمله على كلّ من في المهجع . تمّ ذلك بالسّرّ والمداراة وبتحيّن الفرص . لم يكن الأمر سهلاً . كنّا نتلقّف المعلومة بحذرٍ وتلفّت كمن يسرق في الظّلام يخشى أن يقع في قبضة العيون المحيطة بنا من كلّ جانب . الإنسان مصفوفة من العجائب والغرائب . وسّعنا قضبان السّجن الخانقة بهذه الزّوايا الأربع . لم ننحبس بالمعنى القهريّ ؛ استطاع العقل أن يتمدّد في الاتّجاهات كلّها ، ويحلّق خارج هذه الأسوار . وظلّ البارعون منجمًا من المعرفة لا ينتهي ، ونهرًا من الحكمة لا ينضب . ووضع (العميد) لهم قاعدة فقهيّة ، وألزمهم العمل بها : (مَنْ كَتَمَ عِلْمًا ألجمهُ اللهُ بلجام من نارٍ يومَ القيامة) . وفي الحقيقة كان هناك أمرٌ آخر غير الدّافع الفقهيّ يحملنا على أن نلقي بما لدينا من كنوز : كنّا نحمي عقولنا من الصّدأ بهذه الطّريقة ، ونقتل الوقت بدل أن يقتلنا ، ونشعر بخفّة في الصّدر وبتحليقٍ في الرّوح وباخضرار في العقل حين نفعل ذلك . ولذا انطلقنا من عِقالنا كأنّنا جائعون لأن نعطي أكثر من جوعنا لأن نأخذ!!

ماذا كنّا نفعل؟! كنّا نُقاوم الكآبة الّتي سكنتْ كلّ شيءٍ في المهجع حتى هواءه . ماذا كنّا نفعل؟! نكافح الحزن والهمّ اللّذَين يعشّشان في الخواطر ، فتنهمد لذلك الحركات ، وتحدودب الظّهور ، وتتساقط الأجفان على المآقي . ماذا كنّا نفعل؟! كنّا نحاول أصعب مهمّة وأقدسها في تاريخ البشريّة : نستجلب طائر الحرّيّة بما نملك في قلوبنا من ذاكرة!!!

من العجيب أنّ أوّل كلمةٍ كانت في القرآن : (اقرأ) . لو كانت (اكتب) لوقعنا نحن الّذين ننحصر بين هذه الجدران في دائرة العجز . إذ كيف نكتب في وسطٍ تنمنع فيه كلّ وسائل الكتابة . والأعجب :

أنّ الطّريقة الّتي يُنفّذ بها الأمر : (اقرأ) ليس مقتصرًا على القراءة من كتاب ؛ بل هو لا ينصرف إلى ذلك ابتداءً ، إذ (اقرأ) هي تنفيذ أمر فعله الرّسول ، حين قرأ عليه جبريل وقرأ هو وراءه . وهذا بالضّبط ما كنّا نحن نفعله ؛ كنّا نقرأ على أيدي الحُفّاظ في كلّ علم . وكانت فتوحًا جبّارة ؛ رفعتْنا من وَهْدة الجمود ، وأذابت الجليد المتراكم على العقول قبل الأفئدة!!

من موقعي الاستراتيجيّ الثّالث وأحيانًا الأوّل من جهة الباب . ليس بيني وبين شقوقه الّتي تطلّ على أهوال العالَم الخارجيّ إلاّ مَدَّةُ عُنُق!! اعتدتُ منذ ذَبْح (مؤمن) بالسّكّين أن أحصي عدد الّذين قضت عليهم محكمة السّجن العسكريّة بالإعدام أو بالتّعذيب . كنتُ أفعل ذلك بظفري ؛ أحفر على الجدار خلفي خطًا مائلاً لكلّ روح تُزهَق ، أربعة خطوط باتّجاه ما والخامس باتّجاه مُعاكس فوقها جميعًا ؛ كلّ مجموعةٍ من الخطوطِ هي خمسة . اليوم أحصيتُ ثلاثةً وعشرين خطًا . كان موتهم رحمةً لهم ولنا ؛ لهم إذْ أصبحوا في حواصل طير يمارسون أقصى درجات الحرّيّة والانطلاق . ولنا ؛ نحن الّذين لم يكن لنا أكثر من (١٠) سم حيّزًا ننام فيه (مسايفةً) ، صار لنا حوالي (١٥) سم . ولم تعد مجموعة التّكبيس تقوم بعملها منذ شهور . ولكنْ لا أحد يتوقّع اللّحظة القادمة . وعلى جمرات الخوف والتّرقّب نعدّ أنفاسنا اللاّهثة خلف المجهول .

قام أحد المساجين من مكانه ، يريد أن يذهب إلى الحمّام ، حركته كانت ثقيلة فأحدثتْ جَلَبة . من بعيد راقب (عدنان) المسؤول عن تنظيم الدّخول إلى الحمّام ما يحدث فَشَلَّه الرُّعب . مدّ جذعه نحوه وأشار إليه أن يتقدّم دون أيّ صوتٍ . فالكلّ نيام واللّيل ساكن ، وأيّ صوت يلفت انتباه حارسَي الشّرّاقة سيجلب الكوارث والنّقم . غير أنّ

هذا المحبوس المسكين تعثر في الطّريق ببطن أحد النّائمين فوقع من طوله على نائم آخر ، فندّت آهةٌ من أحدهم فبدأ الويل . صاح العسكريّ :

- وْلًا . . . شو فيه وْلا . . .؟!

وأطبق الصّمت من جديد . غير أنّ العسكريّ نادي السّجين الّذي وقع :

- شو فيه وْلا حَيَوان . . .؟!

- بدّي رُوح عَ الحمّام . . .؟!

- بِدَّكِ تْشخّ وْلا . . . هلأ بورجيك كيف تشخّ . . . وين حارس الحمّام . . .؟!

تقدّم (عدنان) وهو يرتجف إلى الشّرّاقة حيث الشّرطي .

- وَقْفوا الاتنين بجنب بعض تحتي إنتا وْياه يا حيوان . . .

حلّ العسكريّ (القايش) عن بنطلونه ، وأخرج عضوه ، وراح يبول عليهما . . . طرطش البول على رأسيهما وأنفهما . . . تحرّكا حتّى لا يدخل في فميهما . . . صاح من جديد :

- هَيْ وَرْجيتك كيف تشخّ وْلا . . . وهلأ اعْتبر نفسك مْعَلَّمْ . . . لَمّا نادي وين المْعَلّمين بتطلع لبرّا إنتا وْياه يا بغل يا ابن العا . . . .

وفيما كان وجه (عدنان) يتقبّض ، وقلبه يتقلّص ، وكبده تتفتّت ، كان (الزّعيم) الّذي يراقب الوضع دون أن يراه أحدٌ يكتم ضحكةً متفجّرةً تحاول الانفلات!!

ظلّ (عدنان) و المحبوس المسكين مُعلّمين أربعة أشهر . (عدنان) لم يُشفَ من الخطوط الحمراء والزّرقاء على ساعديه وظهره وبطنه طَوال تلك الفترة . تعوّدنا أن نراه بها . وأحيانًا نناديه بها . حلّت محلّ التّعريف به . وحين انتهى عذابهما ظللنا فترةً نجهل ما الّذي تغيّر عليهما حتّى تغيّرتْ أشكالهما إلى هذا الحدّ!!

(١٨)
﴿نَعيماً﴾

في السّجن : ما من فكرةٍ مستحيلة . وما من فكرةٍ لم تخطر على بال . السّجن منجم الأفكار المُذهل . نحن نساوي أفكارناً . قدرتنا على استنباطها يرفعنا إلى دائرة القدسيّة في السلسلة البشريّة . تصبح أفكارنا عظيمة إذا ما منحنا ليلُ السّجن فرصةً مشحونةً بالتّأمّل لاكتشاف العظمة الكامنة في أتفه الأشياء وأكثرها سذاجة!!

- مهجع ٢٧ حَمّام . . . طْلاعْ لبرّا إنتا وْياه . . . (صاح الرّقيب)

وتدافعْنا إلى الباب كأنّنا نُساق إلى الموت .

- عاري وْلا إنْتا وْياه . . . (صاح بصوتٍ أكبر مرّة ثانية)

وبدأنا نخلع كلّ شيءٍ إلاّ ما يستر العورةً المُغلّظة .

- لا تخاف على طِيـ . . . إنتا وْياه . . . طْلاع عاري لَشُوف . . . حافي ولا أخو الشّـر . . إنتا وْياه . . .

ونخرج حفاةً عراةً كالدوابّ السائمة . على جانبي الصّراط إلى الحمّام يصطفّ العسكر والرّقباء . يعرفون دورهم أكثر منّا . تنهال على أجسادنا العارية اللكمات والصّفعات والكيبلات المعدنيّة الخيزرانات والبساطير . يقع بعضنا . يصبح أسهل عليهم رفشه في بطنه . يقوم . يتعثّر . يكاد يسقط . يعتدل . يركض بأقصى ما يستطيع . يتنفّس الصّعداء عند الباب . يظنّ أنّه نجا . تبدأ حفلةٌ جديدةٌ هناك .

في الطّريق وأنا أركض وتشيّعني السّياط من خلفي . لمحت على

الأرض كسرة خبز . دفعتُها برجلي وأنا مُنحن إلى جانب السّاحة بعيدًا عن الطّريق خوفًا من أن تطأها أقدامُنا . لمحني أحد الرّقباء . جُنّ جنونه : كيف تدوس نعمة الله؟! راح يدوسني ويرفش في بطني ببسطاره . قلت وأنا أتأوّه : كسرة الخبز هذه نعمة الله وأنا؟! هل أكون نقمته مثلاً؟! تغضب لأنّني أزحتُ الكِسرة برجلي رافِقًا بها ، ولا يُخالجك الشّعور إيّاه وأنت تطبع كامل فرزات بسطارك على وجهي؟! ألست أنا أيضًا نعمة الله؟!!

هذا الحوار دار في عقلي لم تخرج كلمة واحدة منه إلى مسامع الرّقيب؟!!

لمحتُ اثنين في المجموعة عارِيَين تمامًا . كانا مصدومَين لم ينتبها إلاّ حينما بدأ العساكر يضحكون عليهما ويشيرون إلى عورتيَهما ويشتمونهما ببذاءة!!

كان علينا أن نركض أكثر من (٦٠٠) متر حتّى نصل إلى مهجع الحمّامات ، تجاوزنا السّاحة السّادسة خرجنا منها كاملةً ، وخرجنا من السّاحة الخامسة أو السّابعة لا أدري وانعطفنا بزواية قائمة إلى الحمّامات . كانت هذه الطّريق هي طريق الآلام حملنا فيها السّياط والهراوات صُلبانًا على ظهورنا . أمّا الأرض فتتوزعها نتوءات البحصة الخشنة ، انغرزت تلك النّتوءات في بواطن أقدامنا العارية كالمسامير . صرخ عدد غير قليل منّا فجأةً بعد أن خرجنا من السّاحة السّادسة ؛ كانوا قد رشّوا الأرضَ بالزّجاج المكسور . دعسنا عليه . دخل في أقدامنا . غاص بعضه عميقًا . أنتج وجعًا فظيعًا . تابعنا رغمًا عنّا . الموجوعون ليس لهم إلاّ الله .

كردور الحمّام فيه خمسة قواطع . في سقف كلّ قاطع صنبور ماء يرشق الماء النّازل منه على الأرض . الباب المُفضي إلى هذا الكردور

يقف عنده زبانية العذاب . يُعطونك حُصّتك المعهودة كاملة غير منقوصة . وتدخل . كلّ (١٠) مساجين يقفون شبه عرايا تحت صنبور واحد ، هنا خمسة صنابير . يجب أن يقف تحتها جميعًا في اللّحظة الواحدة خمسون سجينًا . وعليهم خلال دقيقة أو دقيقتين أن يفرغوا من الحمّام ليعطوا المجال لخمسين محبوسًا آخرين أن يدخلوا إلى هذا النّعيم . يقسمون مهجعنا في العادة إلى ثلاث دفعات . دفعة تحت الصّنابير . ودفعة في الدّاخل تنتظر . والثّالثة في الخارج تنتظر . وهناك جلاّدون في الدّاخل والخارج . يبدأ الجلد عندما تدخل الدّفعة الأولى . تستريح من الجلد دقيقة أو دقيقتين هما فترة الحمّام . ثمّ يكون هناك (التّنعيم) ؛ أي قول العساكر الحناين لنا : (نعيمًا) . وتكون (نعيمًا) على طريقتهم هي جلدنا من قبل زبانية الدّاخل . وحين نخرج يتلقّانا بالجلد للمرّة الثّالثة جلاّدو الخارج . ثمّ نعود . مهجعنا بكامله عليه أن يُنهي الحمّام في أقلّ من عشر دقائق . وهكذا بقيّة المهاجع!!

نسيت أن أحدّثكم عن جلاّدي الطّريق . . . يزفّوننا بالرّكلات حتّى ندخل جُحرنا . لحظة دخول الجحر هي لحظة الرّاحة من العذاب . تساوي تلك اللّحظة عندها ثلاثة أرباع متع الدّنيا . أهتف في سرّي : هل يمكن أن يكون العذاب (نعيمًا)؟! هل يقتنع الإنسان أنّ ما كان عذابًا مُستطيرًا لشخصٍ ما ، يصبح هو نفسه نعيمًا غَدَقًا لشخصٍ آخر؟!

بعد أن يكتمل المهجع . نلبس ما يستر عوراتنا . تبدأ مهمّة الأطبّاء . يجلس المساكين على أقفيتهم . يمدّون أرجلهم وهم يصكّون على أسنانهم من الألم . لم نعد ننتبه إلى الأحمر والأزرق الّذي يلوّن الصّدور والبطون والظّهور . نتركه للزّمن . يبرأ وحده . كان الله بعوننا . مهمّتنا في ذلك اليوم اقتصرت على إخراج قطع الزّجاج من بواطن

الأقدام . عدد القطع الّتي أخرجناها يومها كانت بالمئات!!

صار يوم الحمّام يوم الحِمام . أصبح نداء الرّقيب للخروج إلى الحمّام يُعادل تمامًا الخروج إلى الموت . أبغض كلمةٍ إلى آذاننا هي تلك الكلمة . بدا يوم الحلاقة بسيطًا أمام هذا اليوم .

كانوا يخرجوننا إلى الحمّام كلّ شهرٍ مرّة ، وأحيانًا كلّ ثلاثة أسابيع . أمّا يوم الحلاقة فكان كلّ أسبوعين . يحدث أحيانًا أن يتأخّر يوم الحمّام أكثر من ثلاثة أشهر . لا نكترث كثيرًا . قد يكون ذلك راحةً من رؤية الموت فيه . يكفينا الموت الّذي لا يفارقنا إلى غيره!!

كان في يوم الحمّام عذابٌ من نوع آخر . في الصّيف كانوا يضخّون في صنابير الاستحمام مياهًا تغلي . فتغلي معها أجسادنا . وفي الشّتاء كانوا يضخّون مياهًا باردة جداً . فتتجمّد معها أرواحنا . ولذلك صار مألوفًا بعد عودتنا من الحمّام في شهور الشّتاء أن نُصاب بالحمّى الّتي تزيدنا عذابًا فوق العذاب!!

ما الّذي جعلنا نصمد إلى اليوم؟! أنا عن نفسي لا أعرف . الحقيقة أنّ بعضنا انهار . إذا واتتني الذّاكرة ربّما أسرد طرفًا من حكاياتهم . حكاياتهم ليس من قلبٍ ليحتمل روايتها إلاّ إذا كان قد تحصّن بمطعوم الشّجاعة العمياء . لم نكن لنسمّي أنفسنا أبطالاً . كنّا نحاول الحياة إذا لم يلبِّ الموت دعواتنا واستجداءاتنا له في أوقات كثيرة ومتقاربة . أمرٌ ثانٍ قد يُساعد في الإجابة : في كلّ أنظمة الطّغيان في العالم يملك الجلاّدون كلّ شيءٍ في المُعذّبين إلاّ التّفكير ؛ يمارس المقموع حرّيته في التّفكير . يلج عوالم لا يستطيعها بغير ذلك ؛ تصبح حرّية التّفكير معادلاً موضوعيًا للحريّة الكبرى . شيءٌ ثالثٌ كان يرفع منسوب الاحتمال عند الكثيرين ؛ أنّنا (فِي العَذابِ مُشْتَرِكُون)!! هناك إخوةٌ لنا من هؤلاء المناضلين في مشارق الأرض ومغاربها صَمَدوا على

مثل ما صمدنا عليه . قد تكون البطولة جَبْرًا أو قد تكون قَدَرًا . لكنّها بالضّرورة ليست اختيارًا . كثيرون وجدوا أنفسهم يمثّلون دور البطولة لأنّهم لم يملكوا خيارًا آخر ؛ كان عليهم أن يتحوّلوا إلى أبطال . وفي المقابل كان يُمكن أن يتحوّلوا إلى منبوذين . وفي الحالين لا يُمكن أن نقدّس الأوّل ، ولا يُمكن أيضًا أن نُدنّسَ الثّاني!!

بدأنا نُصلّي جماعةً سِرًا حتّى في الصّلوات الجَهريّة!! أين؟! في الفسحة الّتي أمام الحّمامَين . وهل سمحوا لكم بذلك؟! لا . سقف الحمّامَين ليس به شرّاقة . ندخل سِرًا ونخرج سِرًا . يؤدّي كلّ عشرة أو أكثر الصّلاة . وينتظر الآخرون دورهم . كان شعورنا ونحن نفعلها مزيجًا من مئة شعور متناقضة ومتداخلة . كان الخوف يقف في مواجهة الشّجاعة : من يجرؤ على أن يخالف الأنظمة في جهنّم؟! والحرمة في مواجهة الحلال : من يصلّي أمام حمّام؟!!! والحزن أمام الفرح : منْ يفرح بانتصار موهوم كهذا؟!! والأمل أمام الألم : مَنْ لا يهاجمه الألم وهو يركع أمامً حمّامً ويولّي وجهه جهة بابه؟!! واليأس أمام الرّضى : مَنْ لا يقتل شيئًا من اليأس مقابل الرّضى بواقع فظيع مثل هذا؟! والشّكّ أمام اليقين : من لا يشكّ بأنّ ما نفعله هو أحد طّرقنا الذّاهبة إلى الجنون؟!!

(١٩)
﴿يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾

بدّل (العميد) السُّخرة . يكفي ما أكلته السّياط من جسد (تيسير) و(سالم) . وأنا تناوبت مع العميد على الخروج أحيانًا مع الاثنين المُعيّنين . لم أر العميد يومًا واحِدًا يشكو . كان دائمًا راضِيًا . بسمته الخفيفة لا تكاد تُفارق مُحيّاه . بكى أمامي مرّة واحدة . أمّا في السّرّ فلا أدري مَن الّذي فينا لم يبكِ؟! نبكي على ماذا؟! على أعمارنا الّتي تنكمش هنا . على أهلنا الّذين إلى اليوم لا نعرف ما حلّ بهم ، ولا يعرفون ما حلّ بنا . على صِغارنا يأتون في عتمات اللّيل . يتسلّلون من الشّرّاقة في غفلة من الحرّاس كالملائكة . يهبطون إلى (وادٍ غَيْرِ ذِي زَرْع) فيملؤونه بالأقاحي .

كيف يمكن تعريف الزّمن هنا؟! الزّمن خارجٌ من نفسه . كتلته المتحرّكة تتأخّر عنه وهو يراوح مكانه . المتأخّر لا يلحق بأحدٍ حتّى ولو كان هذا الأحد ثابتًا في مكانه . الزّمن استطال على الجانبين . بعجَ قلوبنا . بطيءٌ جداً . أقدامه تدور كمغزلٍ في موضعها . أيّ يدٍ يُمكن أن تأتي إليه من الخلف فتدفعه إلى الأمام ولو خطوةً واحدة . نمضغ ماسة الوقت وندرك تمامًا أنّها أصلد من كلّ ما عداها!!

أُعلِن عشرة أسماء من مهجعنا . خرجوا جميعًا . دخل الرّقيب يبحث عن اسمٍ لم يكنْ بيننا . ظلّ يبحث عنه دون جدوى . قال العميد :

- ليس في مهجعنا . . . ربّما في مهجع آخر . . .
- كُولْ خَرا وْلا . . . أنا قلت بْمَهجعكُنّ يعني بْمهجعكُنْ . . .
- تفضّل دَوِّرْ مِتِلْ ما بِتْريد . . .
- ما ني فاضي . . . طلعلِيّاه إنتا . . .
- ما نو هون . . .
- كيف . . .؟! شو . . .؟! بدّك تِخلقو مثل ما الله خلقك . . .
- أستغفر الله (بصوتٍ لا يكاد يُسمع)

لم يكد يُنهيها حتّى سقط على الأرض من شدّة الرّكلة الّتي وجّهها الرّقيب له على بطنه :

- قوم ولا . . . قوم . . . هات أيّ واحد من ها الشّرا . . . بالنّاقص عن واحد يا أخوات الفلـ . . .

يُعطي العميد ظهره للرّقيب . كان شُجاعًا . امتدّت يد الرّقيب إلى (عدنان) . تلّه من عنقه وخرج به . . . ظلّ عدنان يصيح ويستغيث حتّى خبا صوته . . .

في صبيحة ذلك اليوم أعدموا أكثر من ستّين شخصًا . سجّلتُ المُعدمين من مهجعنا . حفرت الخطّ الخاصّ بعدنان على الحائط بعيدًا عن الخطوط الأخرى . لقد ناب عن غيره في الموت . تساءلت وأنا أحاول عبثًا أن أبلع ريقي : هل يُخطئ الموت ضحيّته فيعمى عنها ، ويستبدل بها غيرها؟!!!

في مساء اليوم نفسه . شبك عدد من الرّقباء أيديهم وعمّروا دبكةً في ساحة الإعدام نفسها . رقصوا حتّى تنمّلتْ أقدامهم . وسكروا حتّى سقطت ركبهم . وعادوا إلى غرفة الذّاتيّة وهم يقهقهون بفجور .

في طعام الغداء . وضع البلديّة الطّشتات أمام الباب . خرج اثنان مع العميد . أغلق الباب . بقيت في الدّاخل أراقب الوضع . وقف

الرّقيب على الرّؤوس . أنالها قِسطّها من العذاب . ثمّ أمر اثنين من البلديّات أن يبولوا في طشت شوربة العدس . تردّدا . صفعهما . سارعا بإنزال البنطلون . أفرغا كلّ ما فيهما من بول في طشت الشّوربة . لم يختلف لون الشّوربة شيئًا . رفعا البنطال وغادرا على عَجل . أشار العميد بإصبعه لمعاونَيه أن يكتما الأمر . لم يعرف العميد أنّني رأيتُ كلّ شيء . دخل الثّلاثة بالطّشوت الثّلاثة . استغرب كثيرون أنّ منسوب الشّوربة في الطّشت قد زاد ، قال بعضهم : لا بدّ أنّهم بدؤوا يدلّلوننا!! شرق المهجع الشّوربة كاملةً ، لحسوها لحسًا ، بمن فيهم العميد . لم يبق منها قطرةٌ واحدة . وحدي الّذي لم أمدّ يدي إليها . سألني العميد مستغربًا : لماذا لم تتناول حِصّتك من الشّوربة؟! قلتُ له : تبرّعت بحصّتي لأحد المرضى . لم تقنعه الإجابة . نظر في عينيّ نظرةً فاحصة . لم أستطع التّهرّب من نظراته . عرف الحقيقة . كتمها للمرّة الثّانية .

دخل (أبو نذير) في المساء يتفقّد أحوال الرّعيّة . جرّ خلفه أكثر من عشرةٍ من الحُرّاس . كان يوم الخميس بعد أربعاء الإعدام . سأل عن طلباتنا . وتوقّف كتمثال يريد أن يسمع . لم ينبس أحدٌ ببنت شفة . يعرفون ما حلّ سابِقًا بثلاثةٍ من زملائهم . كرّر الطّلب مرّة ثانية . فلم يردّ أحدٌ . صاح في الثّالثة صيحة مرعبة . فارتّج المهجع كلّه . عرفنا أنّ العقاب سيحلّ بالجميع . تقدّم (الزّعيم) أراد أن يفتدي المجموع بنفسه . قال بهدوء وثقة :

- نحتاج يا سيادة المدير . . . تزيدوا إلنا عدد البطّانيّات نحن في تشرين الثّاني والبرد رَحْ ياكِلنا أَكِلْ . . .

- تمام . . . تمام . . .

في اليوم نفسهُ . بعد خروج المدير بنصف ساعة . استمرّ تعذيب

(الزّعيم) في السّاحة أكثر من ساعتين . نال أكثر من ألف كرباج على قدميه . دخل وهو يعرج ويتأوّه . كان جسده مُشرَّحًا . ولون لحمه قد تبدّل . تلقّيتُه بالأحضان . كان بطلاً حقيقيًّا!!

- يا ويلي عليك . . . (قلتُ وأنا أشعر بالأسف من أجله)

- العَوَض بْوِجه الكريم . . .

(٢٠)
﴿هارُونَ أَخِي﴾

- قدّم الصّفّ ولا مَنْـ . . . (قال الرّقيب)
- اسْـ . . . تَرِحْ . . . اسْـ . . . تَعِدْ . . .   (صاح العميد بالمهجع)

انتظمْنا في الصّفّ جيّدًا . . . خمسات خمسات . . .

- كم تُور وْلا . . .؟! (قال الرّقيب)
- ١١٤ سيدي . . . (ردّ العميد)
- وْلا . . . هالمهجع فاضي . . . شلون تاركينكُنْ هيك . . . فيه دفعات كبيرة جايِة . . . رح تنزل هون . . . شويّة شرا . . . مع هالشّرا . . . بيِتْلاقو . . .
- مِتِل ما بتريدوا سيدي . . .
- بدّي واحد مِنكُنْ للبلديّات وْلا . . .
- هَي (الزّعيم) سيدي . . .

ارتقى الرّقيب على أصابع قدميه ، ثمّ هوى بجُمع يده على وجه (الزّعيم) . كانت هذه اللّطمة بمثابة الإعلان عن قبول الطّلب .

انضمّ (الزّعيم) إلى مجموعة (البلديّات) . كان يخرج قبل الفجر من المهجع ليوزّع الفطور مع (البلديّات) الآخرين على المهاجع . . . ويفعل الأمر ذاته مع الغداء . وربّما في بعض الأحيان مع العشاء . تنقّله بين المهاجع كان فتحًا عظيمًا : جاءنا بالأخبار من كلّ مهجع ، ونقل إلينا بعضَ ما يدور في الخارج ، وهرّب إلينا بعض الأشياء

الثّمينة والنّادرة، شكّل هذا الأمر بالنّسبة لنا فرجًا وسعةً. وباختصار: صار (الزّعيم) هُدهدَنا.

في آخر شهرين من عام ١٩٨٣ زاد سُعار الدّولة. بدأت تحطّم كلّ شيء، وتدمّر كلّ ما يقف في طريقها. قتلتْ. أعدمتْ. شنَقتْ. سَحقتْ. سَحلتْ. لم تُبقِ من فظيعة إلاّ ارتكبتْها. ارتفع عدد المُعدَمين ارتفاعًا خطيرًا. أعدموا في أحد الأيّام مرّة واحدة (٩٠) شابًا. من أين جاؤوا بمشانق لهم جميعًا!!

من مهجعنا نادوا على ستّة. كان أحدهم إبراهيم، وكان خطيبًا. وقف هو وإخوانه الخمسة. وقال لهم بضع كلمات:

- الحياة مقدورة. هنا أو هناك سيّان. والموت ليس انتهاء الحياة. الحياة هناك هي الحياة؛ خلود. والحياة هنا زيف؛ امّحاء. ماضون إلى الله. من تخلّف عن الرّكب ذلّ وزلّ وضلّ. أنتم إلى الجنّة بإذن الله. فإن أقبلتم على الأعواد فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. ثمّ تشهّدوا.

ثمّ نظر إلى المهجع كاملاً، وقال:

- سامحونا يا شباب. من كان له في رقبتنا ذِمّة فليحللنا منها الآن. إذا أردتم أن تنظروا إلى أهل البرزخ فانظروا إلينا.

عانقناهم جميعًا. بكينا على أكتافهم كأطفال. بدت الحياة أتفه مِمّا كنّا نتصوّرها. وتخثّر شعورنا بالظّلم. وتعملق إيماننا بعظيم ما نفعل. بدونا لحظتها قادرين على أن نضحّي بكلّ شيء. ولم يكنْ لدينا شيء نملكه. كانت لدينا أرواحنا وهي أعظم شيء. بدا أمر التّخلّي عنها سهلاً!!

بعد أسبوع من حفلة الإعدامات الرّهيبة. وفد إلى السّجن ما يقرب من ألف سجين جديد. كان نصيب مهجعنا منهم (٦٠) سجينًا. اكتظّ المهجع. وعاد فريق التّكبيس إلى عمله. استعانوا بآخر

في الفريق ، كانت المهمّة أصعب . نام في فسحة الحمّام العميد والزّعيم في هذه الفترة . أمّا أنا فحافظت على موقعي عند الباب وشقوقه . لم أكن مستعداً أن أتخلّى عن هذا المكان ولو مقابل حياتي!!

في الدّفعة الجديدة برز التّنوّع والتّعدّد . الأذى الّذي سبّبوه باكتظاظ المكان زال بما لديهم من مواهب وعلوم . فمن أطبّاء إلى مهندسين إلى قضاة إلى عمداء كلّيّات في جامعة دمشق وغيرها توزّعت دفعتنا الجديدة .

(هارون) مهندس . أبيض البشرة ، سريع الحركة . عيناه سَوْداوان حَوْراوان . يضحك في وسط الألم والعذاب . تطوّع من تلقاء نفسه في أوّل يوم وفد فيه إلى مهجعنا أن يكون في السّخرة . تحوّل بهذه السّرعة إلى (فدائيّ) يتلقّى الضّربات والصّفعات من الرّقباء عند كلّ مرّة يُدخل فيها الطّعام إلى المهجع . دخل قلبَ (العميد) بسرعة . أراحه أسبوعًا من السّخرة وحوّله إلى موقع (الحارس اللّيليّ) الّذي يقوم بتنظيم الدّخول إلى الحمّام دون أيّ ضجّة أو جَلَبة وخاصّةً في اللّيل .

تلقّى (العميد) الدّفعة الجديدة بحنانٍ أبويّ . أمرنا جميعًا - في أسابيعهم الأولى عندنا - بإهدائهم ما يفيض عن حاجتنا من الطّعام ، أو بعض ما كنّا نختزّنه من حصصنا في وجبة الغداء . ولم يُبادر العميد إلى توزيعهم على المواضع الصّعبة كالسّخرة وتنظيف الحمّامات والمهجع من بداية قدومهم . تركهم على راحتهم وحثّنا على تقديم الدّعم المعنويّ لهم أشهرًا قبل أن يتساووا معنا في هذه الحقوق وتلك الواجبات .

تقرّبتُ من (هارون) بلا دوافع . كان يحرّك شيئًا ما في روحي لم أدرِ ما هو . روحه المرحة جعلتْني أحبّه . تذكّرتُ فيه أخي المهندس (أحمد) . يشبهه إلى حدٍّ بعيد . وخاصّة ضحكته . كنتُ محتاجًا إلى من يعيد

تاريخ الضّحكات إليّ . صار مثل أخي تمامًا . صرتُ أخشى عليه كأنّه هو . وصرتُ أبذل له من نفسي وأحميه كأنّني أحمي أخي . فجأة انتبهتُ إلى نفسي ، قلت : (هذا ما يفعله الحِرمان . ليس أخاك!!) ولكنّني لم أتقبّل هذه الحقيقة . بدأتُ أحدّثه عن أبي وأمّي وإخواني الآخرين وأخواتي . وأسأله عن أحوالهم كأنّه يعرف . وكان يُماشيني . ويردّ بما يتيح له التّخيّل أن يردّ . وأنا أصدّق وأعرف تمامًا أنّني أهرب من واقعي وأضحك على نفسي . صارت إجاباته لأسئلتي تُريحني ، وتسعدني ، وتُساعدني على اجتياز بعض الآلام . أمّا هو فكان يعرف أنّه يخترع الإجابات ومع ذلك استمرّ في إلقائها على مسامعي . واستمرّ ارتياحي العميق لها وله ؛ واضحٌ جدًا أنّ كلّ واحدٍ منّا كان مريضًا!!

جولات (الزّعيم) على المهاجع أزالت الغطاءَ عن البئر . ومن موقعه استطاع أن يعرف علامَ تحتوي هذه البئر . قال لي :

- الشّيوعيّون يعيشون في الجنّة ؛ عِندهم صحفٌ كثيرة ، وكتبٌ يطلبونها ، ويحصّلون زيارات متعدّدة!!

- في مهجعنا بعضُ الشّيوعيّين ؛ لماذا لا ينالهم الله برحمته مثل رفقائهم .

- الملاحدة إلّي هنيك إلُنْ مهجع خاصّ . إلّي هون مِن المغضوب عليهم!!

- ما بتقدر تجيبلك جريدة أو كتاب . .؟!

- كيف . . .؟!

- هَربُو تحت أواعي السّجن . . .!!

- ممم . . . مخاطرة . . . بَسْ رَحْ حاوِلْ!!

- تعرف لَوِ بْتِقدر . . . بِتْكون بطل . . . حتى لو جبت صفحة واحدة!!

- بتِسْوَى . . . تِكْرَمْ عينك يا دكتور . . .
- أُوعَى حدا يَعرِف . . . حتّى لو كان العميد!!
- مفهوم . . . مفهوم . . .

نادوا على (١٥) سجينًا من مهجعنا مرّة واحدة . لا بدّ أنّ دفعة الإعدام هذه بالمئات . كان من بينهم (هارون) . ارتجفتُ لحظة سماعي اسمه كأنّه أنا الّذي نُودِيَ عليّ . سارعتُ إليه أحتضنه . نظرتُ إليه بعينين دامِعتين :

- ليش هيك . . .؟! والله هادا ظلم . . . لسّا مْبارح إجيت . . . ما صار لك شي عِنّا!!
- معلش يا دكتور . . . حكم الله غالب . . . ادعيلي بَسْ . . .
- إنتا دْعيلنا . . . (قلتُ ذلك وعيناي غارقتان بالدّموع)
- الحياة خطوتين . . . خلصو الخطوتين اليوم . . . اعتبرها هيك . . .
- والله حرام . . . والله حرام . . . (احتضنته طويلاً وأنا أنفجر من البكاء) .

صرخ الرّقيب في الخارج . نادى بغلظة . خرجت الدّفعة استوقفهم واحدًا واحدًا على الباب يسألهم عن أسمائهم وينظر في الورقة الّتي بين يديه . فإذا وافق اسم السّجين مع المكتوب في الورقة دفعه إلى الخارج . وعندما وصل إلى (هارون) سأله :

- اسمك . .
- هارون محمّد عبد الهادي .
- وْلا . . . مين ناداك إنتا؟!
- إنتو سيدي . . .
- فوت لجوّا يا بغل . . . (وضربه على صدره مُرجِعًا إيّاه إلى الدّاخل)

بقي (هارون) مصدومًا ذلك اليوم بِطُوله ؛ هل نجا من الموت بأعجوبة؟! أم أجّله الموت كما أجّل غيره؟! وهل الموت يلعب معه أو به؟! ما أقسى لعبة الموت إذا كانت بهذه الفجائعيّة؟! من نابَ عنه ليرتفع على أعواد المشانق اليوم؟! وهل هي أسماء يُلصقها الموت على رِقاب المحكومين في لحظة قاضية ، ثمّ ينزعها عنهم في لحظةٍ أخرى؟!

عانقتُه مرّة أخرى لّما دخل . وبكيتُ مثل بكائي حينما خرج . تساءلت : هل البكاء تميمة النّجاة من الموت أم تعويذة الوقوع في حضنه؟!!

نادَوا على (هارون) بعدها كلّ دفعة إعدامات لمدّة شهرين ، وفي كلّ مرّة يخبطه العسكّري على صدره ، ويدفعه إلى داخل المهجع!! سبع مرّات نُودِيَ عليه للقاء الموت ، وفيهنّ جميعًا عزف الموتُ عن لقائه!!

جاءنا (الزّعيم) من المهاجع الأخرى الّتي يطوف بها بخيوطٍ ، وبإبر ، وبكاسات بلاستيكيّة . وساعدناه في الحصول على بعض الأشياء الثّمينة كالأحذية . كان الأمر يتمّ بالمقايضة ، وأحيانًا بزيادة كمّيّة الطّعام لبعض المهاجع . كان (الزّعيم) يغافل الحرس ويملأ في الطّشتات أكثر مِمّا هو مطلوب ، ويبعث بها إلى مهاجع معيّنة مقابل الحصول من عندهم على أشياء مطلوبة محدّدة . امتهن (الزّعيم) استخدام الطّعام كورقة نقديّة ذات قيمة عالية ومؤثّرة . كان داهيةً . وكان مفيدًا للمهجع بأكمله . تقاسمْنا السّرّ معه أنا والعميد ، وسرّبتُ بعض الأسرار إلى (هارون) . أمّا بقيّة نزلاء المهجع فكان يأتيهم بعض الخير ، يلاحظون الفروقات والتّغييرات الّتي حصلت ، ولا يدرون من أين تأتيهم ، ولا يُقحمون أنفسهم في السّؤال عنها ما دام لا يبدو على وجه العميد القابليّة للحديث عن مصدرها أو سببها!!

بدأ الفنّ يظهر لدينا أيضًا . كان الدّجاج يأتينا كلّ أسبوعين مرّة .

والدّجاجة الواحدة تُوزّع على أكثر من عشرين سجينًا . يأكلونها بشهيّة كأنّ كلّ واحدٍ من العشرين احتازها لنفسه!! أمّا عِظام الدّجاج فكان مادّة خصبة لخَيالِ كثيرين في المهجع . من هذه العِظام صنعنا الإبر ، وبعض الموادّ الجارحة لاستخدامها في العمليّات الطِّبّيّة الّتي تُلجِئنا الحاجة أو الظّروف إليها في كثيرٍ من الأحيان!!

***

اقترب أحد المساجين في المهجع (٣٤) من الزّعيم ، عرجَ عرجةً خفيفة حتّى وصل إليه . . . كان الزّعيم لحظتها يهمّ بوضع الطّعام أمام الباب . همس في أذنه وهو يتلفّت حوله :

- إنتا من مهجع ٢٧؟! (قال السّجين الأعرج)

- إي!!

- عِندكُنْ بِالمهجع الدّكتور إياد . . .

- إي!!

- بْتَعرِفه منيح؟!

- أكتَر واحد .

- هو أخي .

- أخوك؟!

- إي . أنا المهندس أحمد . . . بَلْغُو سلامي . . . أنا اعتقلت بعدُو بْسنة . . . على الأقلّ أموري طيّبة . . . مشتاااااق أَحْضنو . . .

- رَحْ بَلْغو . . . لا تخاف . . . يا ريت إلي أخو هُونِي مِثْلَك . . . صار لي خمس سنين ما شفت حدا من أهلي . . .

أنهى الزّعيم الحوار على عجلٍ . تحرّك قبل أن يفتك به الحرّاس . انتقل إلى المهجع الّذي يليه لِيُنهي ورديّته في توزيع الطّعام .

(٢١)
عَنِ التّنفّس

- مهجع ٢٧ تنفّس وْلا . . . إنتا وْياه . . . طْلاعْ لبرّا لَشوف . . .

خرجنا بحركةٍ تماوجيّة كحركة النّحل الخارج من القفير . كان عددنا أكبر هذه المرّة ، وكانت فرصة التّصادم هربًا من السّياط أكبر كذلك . في الخارج كان الموت يبسط رداءه على السّاحة . اتّخذ شكلاً أفقيًا .

- إديك وراء ضَهرك . . . عيونك بالأرض . . . وْلا إنتا وْياه . . .

وفي مشهد الذّلّ المتتابع خرجنا . في السّاحة كانوا قد كسّروا زجاجًا ورموا بقطعه على الأرض . بعضنا خرج لابسًا في قدميه . وبعضنا لم تُمهله السّياط ولا الصّرخات أن يلبس حذاءه . وبعضنا لا يملك هذا الحذاء أصلاً . فخرج هذا القسم حافِيًا . كنتُ أحدهم . أوّل ما وطئت قدماي الأرض قفزتُ كالملسوع . نزلتْ قدماي بعد القفزة على الأرض فنشب بهما الزّجاج مرّة أخرى فقفزت قفزاتٍ أشدّ من الأولى وصرخت من فظاعة الألم . . . كان مشهد القفز هذا والصّرخات الّتي تتبعه قد حدث لنصف المهجع على الأقلّ . . . كان العشرات منّا يقفزون ويصيحون كأنّهم فقدوا عقولهم . . . لم يترك الحرس المشهد يمرّ دون عقاب . . . ظلّوا يضحكون مُتَشفّين ويُتبعون ضحكاتهم المُجلجِلة بسياطٍ لاهبة . . . . ثمّ أمرونا بالجلوس بعد أن توزّعنا على السّاحة . وكان الجلوس أصعب من الوقوف . . . صارت قطع الزّجاج المتكسّر

تدخل في الأدبار، وتغوص في لحم الإلية، وتنفذ إلى باطن الأفخاذ . . . وما أشدّ حاجة الواحد منّا في تلك اللّحظة إلى صرخة ينفّس بها وَقْع الألم الفظيع . . . لكنّ الصّرخة تتبعها حفلة تعذيب، فَرُحْنا نكتمها على أمل أن يكون عذاب الجلوس على الزّجاج أخفّ من عذاب نزول السّياط على الرّقاب والأجساد .

نادى الحارس أحد الكبار في السّنّ . كان يتجاوز السّبعين . قد حنت السّنون ظهره . وجثمت على كاهليه فأثقلتْهما . أمّا الحارس فكان في العشرينيّات من عمره . ما زال شارباه لم يخطّا سوادهما بكثافةٍ فوق شفتيه . صاح الحارس :

- وْلا إنتا . . . أبو شيبة . . . تَعَا لهون . . .

- نعم سيدي . . . (أجاب العجوز بعد أن صار قريبًا)

- إلك وْلادْ يا منـ . . .؟!

- إي سيدي . . .

- كم واحد وْلا . . .؟!

- تلاتة سيدي . . .

- نادِيْنْ لَهُونْ . . .

اجتمع الأب وأبناؤه الثلاثة أمام العسكريّ . أمرهم أن يخلعوا ملابسهم : (عاريًا ولا . .)

خلعوا ثيابهم كاملةً إلاّ ما يستر عورتهم . بدا جسد المُسنّ نحيلاً مُجعّدًا أكلتْ منه السّنون حتّى أبْلتْه . أمر العسكريّ الأب أن ينام على بطنه . امتثل للأمر . ثمّ أمر أحد أبنائه الطّويل والجهم منهم أن يجلس على ظهره . تردّد الابن، لكنّ صرخات العسكريّ وتحفّز الحرس من حوله جعله يمتثل للأمر . جلس الولد واضعًا قفاه على ظهر أبيه . صرخ الأب بفجائعيّة . غاصتْ مئات قطع الزّجاج المكسّرة في صدره . صار

يتحرّك بما أوتيِ من قوّةٍ جرّاء الألم . لكنّ الابن الجاثم فوقه جعل حركته ثقيلة فَراوِحَ مكانه ، وبسبب هذه الحركة المضغوطة من أعلى غاصت قطع الزّجاج إلى داخل صدره أكثر . فلم يملك إلاّ الصّراخ والثّبات في مكانه . غير أنّ العسكريّ انتقل إلى مستوى آخر أفظع من التّعذيب . أمر ولديه الآخرين أن يُمسِكَ كلّ واحدٍ منهما بأحد رِجْلي أبيه ويجرّه من أوّل السّاحة إلى آخرها . ظلّ الولدانِ مكانهما يرتجفان من الخوف . ويمتنعان عن تنفيذ الأمر . بدت الهوّة سحيقة بين الإقدام والامتناع ، ليس من امرئٍ حتّى لو كان فاقدًا لإنسانيّته في العالَم كلّه تُطاوعه نفسه في موقف كهذا أن يعذّب أباه الّذي جاء من صلبه بهذه الطّريقة الشّنيعة . هزّ الولدان كتفيهما ، وارتجفت شفاههما . وبدأ دمع صامتٌ غزيرٌ يسيل على خَدّيْهِما . صاح بهما العسكريّ مرّة ثانيّة . ولوحّ بالسّوط في وجوههما ، وأداره فوق رؤوسهما بضعة دورات مُهدّدًا بالعقاب إذا لم يمتثلا . كان صوت حفيف السّياط وهي تمرّ فوق الرّؤوس يدخل إلى الدّماغ فيثير داخله زوبعة وعاصفة . اضطربت خلايا الدّماغ . راحت تتناثر في كلّ اتّجاه . أمسكا رأسيهما من صُداع عنيف يكاد يفتّت رأسيهما . اخترقت الأوعيةَ الشّعوريّة تهديداتُ العسكريّ بالعقاب حتّى الموت . رأيا الموت عِيانًا . قارنا بينه وبين أن يعيش أبوهما ولو في أتون العذاب . امتثلا وهما يُغالبان مرارة الدّنيا كلّها في لحظةٍ إقدامهما . أمسك كلّ واحدٍ برِجلٍ من رِجلَي أبيه وجرّه . تهادى الجسد مع ثقل الابن الثالث الجاثم على ظهره . هبط ونزل مع حصى الأرض وزجاجها . شقّت الصّرخات جدران السّاحة وصعدت إلى السّماء ظلّت ترتقي حتّى وصلت السّماء السّابعة . لم تستجب السّماء ، بقيت صامتة مع كلّ هذا الصّراخ الكارثيّ . أخذت الأرض في المترين اللّذين جرّ بها الابنان أباهما من صدره قِطعًا كثيرة . بدأ

بعض الدّم يختلط مع غبار الأرض وسوادها فيحفر صورة الأشلاء الممزّقة . لم يحتمل الابنان صرخات أبيهما . رجعا إلى المقارنة مرّة ثانية . صار احتمال أن يواجها الموت عندهما أسهل من مواجهة صرخات أبيهم . تركا رِجلَيه . أنزلا رأسيهما على صدريهما وراحا يبكيان ندمًا . تبعهما الابن الجاثم على ظهر الأب ووقف إلى جانبهما . شكّل الثلاثة في وقوفهما المهين صورة المأساة في أعتق تجلّياتها . نادى العسكريّ ثلاثة من أشدّاء الحرس . قفز الأوّل بكامل ثقله على ظهر الأب . صاح بالاثنين الآخرَين . بدآ يجرّناه . ابتدأت الصّرخات من جديد . بدأت تخفت . كان الرأس في البداية يتقفّز على الأرض صعودًا وهبوطًا . ويرتطم بالأرض ، فيتهشّم الأنف والفم ، ويسيل الدّم منهما غزيرًا مختلطًا بعفرة التّراب . بعد بضعة أمتار تساوي الحياة كلّها ، ارتخى الرأس لم يعد يتقافز كالسّابق . في آخر السّاحة ترك الثلاثة جسد العجوز . صفّق لهما الرّقيب . وفي الطّرف الآخر منها كان الأبناء الثّلاثة يبدؤون رحلة تعذيب استمرّت لأكثر من ثلاث ساعات . استخدم الرّقباء معهم ألوانًا جديدةً من العذاب . كانت السّياط الّتي جُلِدوا بها على الرّأس خاصّة قد تُرِكت في الماء المالح لثلاثة أيّام ، فثقل وزنُها ، وتشبّعت بالملح . صارت الضّربة بها تساوي عشرة بغيرها ، وخصوصًا عندما يسيل الدّم يتلقّفه الملح فيُلهِبه ، ويزيد مستواه أضعافًا مُضاعفة . ظلّوا يعذّبونهم في قاطع آخر من السّاحة دون أن نراهم . غابت عنّا أجسادهم ، وحضرت أصواتهم بكامل عنفوانها . وكان حضورًا صوتيًا أشدّ قسوةً من الحضور الجثمانيّ!!

أكثرنا شاهد هذا الّذي حدث خلسةً . كنّا نجلس مُقرفصين ، نحتضن بأيدينا رُكبنا ، ونطأطئ رؤوسنا ، ونبقى على هذه الهيئة الذّليلة حتّى ينتهي وقت التّنفّس .

دخلنا في السّادسة مساءً . . . ابتدأ عملي أنا ومجموعة من الأطبّاء . عملتُ من عظم الدّجاج مِلقطًا . ثقبتُ عظمة من وسطها وأدخلتُ أخرى فيها ، وجعلتُ أطرافهما حادّة ودقيقة . ثمّ ربطتُ على طرفيهما الآخرَين حلقتين من البلاستيك الرّقيق فصارت جاهزةً للاستعمال . وانهمكتُ بإخراج الزّجاج . بدأت بالأماكن الخطرة ؛ النصف الأعلى من الجسد : الصّدر والوجه والشّفتين والجبهة واللّسان أحيانًا . كان بعضُ الزّجاج قد انهرس فصار شعيرات دقيقة غاصت في اللّحم المتقبّض ؛ كان إخراجها يحتاج إلى صبرٍ وأناة ودقّة ووقت طويل . جلس أبناؤه حوله يبكون ، ومن خلال شهيقهم كانوا يرسلون عبارات النّدم الحارقة : سامِحنا يا أبي . . . سامحنا . . . والله غَصْبن عَنّا . ولم يكن الأب يردّ بكلمة ، كان شبه فاقدٍ للوعي . صدره يعلو ويهبط بلا انتظام ، وخشخشة الصّدر مسموعة ، ومن فترة لأخرى يُطلق تنهيدة أو صرخة وجع مكبوتة . . . لسانه كان مملوءًا بالأتربة وحطام الزّجاج ، بعض أسنانه سقط . لثّته نالها من الشّظايا ما نالها . غسلتُ فمه وطلبتُ أن يلفظ ما تجمّع من دمٍ وغبار وماء . لبّى بصعوبة . كرّرنا هذه العمليّة مرّات حتّى صار فمهً شبه نظيف . قامَ أحد الأطبّاء بمساعدتي في إخراج بعض الشّظايا الدّقيقة من اللّسان نفسه . كان صعبًا أن تُحافظ على الفم مفتوحًا واللّسان ممدودًا . أمّا أنفه فقد كُسِر من الضّغط فوقه ومن ارتطامه بالأرض الخشنة الصّلبة . كان علينا أن نجبّره . لم يكن هناك ما يُساعد على التّجبير شيءٌ . اكتفيتُ بأنْ صنعتُ له حافظةً من البلاستيك تُحيط بأنفه وتجعله مستقيمًا لعلّه يجبّر نفسه بنفسه .

ظلّ الأولاد حولي أنا ومجموعة الأطبّاء ينشجون بصمتٍ طوال عمليّة المعالجة الّتي استمرّت حوالي أربع ساعات . غطس الأب في

نوم عـميق على وقع آهاته الّتي تندّ منه كلّما استـخرجنا من جسمـة شيئًا .

بقيّة المهجع تعلّمت أن تُخرج الزّجاج من الأرجل بنفسها . وزّعتُ على كلّ عشرةٍ منهم إبرة من العظم . وعلّمهم (الزّعيم) كيف يصنعون من عِظام الدّجاجِ إبرًا وملاقط ومِقصّات وحتّى سكاكين . . . أصبح مـجـال الرّعـاية أفـضل . . . في القـريب العـاجل سـوف أنشئ زاويةً للمستلزمات الصّحيّة ، وأعيّن (هارون) أمينًا عليها!

(٢٢)
«اسمهُ أحمدُ»

- أخوك . . . معنا بِالسّجن . . . (قال الزّعيم لي)
- أخي . . . مين قصدك . .؟!
- أخوك المهندس أحمد . . .
- مُو معقول . . .!!
- أقسم لك بالله . . . أخبارُو مْنيحة . . .
- إيْمْتا قبضوا عليه؟!
- بعدك بسنة . . . آخر أخبار أهلك عندو من سنتين . . . المهمّ صار لك أخ هون . . . إنْ شاء الله يجيبوه لَعَنّا عَ المهجع . .
- إن شاء الله . . . دير بالك عليه بِالأكل . . . وصّي عليه رئيس مهجعُنْ . . .
- ولا يهمّك . . . وأيّ أخبار أو أي شي بدّك توصلّو ياه . . . من عيوني . . .
- تِسلمْ يا زعيم . . . تسلم . . .

صار هناك من أفكّر فيه في اللّيل ، من أبثّه همومي ولو كانت تحتاج إلى أن تتسلقّ أسوارًا كثيرة وجدرانًا عالية وساحات فسيحة .

أخي هذا أصغر إخوتي ، كانت أمّي قد تعلّقت به قبلًا أن يجيء . عندما كانت حامِلاً به في شهرها الأخير تعبتْ تعبًا شديدًا وعانت معاناةً فوق الاحتمال ، وتمنّت لو أنّها تتخلّص من هذا الحمل ومن هذا

الجنين بأسرع وقت . كان شقاؤها في الحياة يتضاعف كأمٍّ تحاول أن تدبّر امر منزل في قرية تعتاش ابتداءً على ما ينتجه الحقل من ثِمار كالبرقوق والدّرّاق والمشمش والتّفّاح وغيرها يُصار بها إلى السّوق المركزيّ لِتُباع ، وانتهاءً بالبقرة وببعض الشّياه الّتي كانت مصدرًا للحليب ومشتقّاته . كان على أمّي أن تساعد أبي في قطف الثّمار وحصاده ، وأن تحلب البقرة والشّياه ، وتقوم كذلك بصنع الجبنة والزّبدة والسّمن البلديّة وغيرها . . . وإلى جانب ذلك كلّه تُرضع الصّغار الّذين يتناسلون تِباعًا دون راحة ، وتقوم على تعهّدهم وحمايتهم من الأمراض والأوساخ . . . كانت أمّي عندما حملت بأخي الأصغر هذا قد اكتهلتْ ، ووصلت متاعب الحياة ذروتها ، وفي غمرة شقائها بآلام الحمل تمنّت أن تتخلّص منه إلى الأبد . ودعت الله طوال اللّيل أن يخفّف عنها ما هي فيه . ونامت في تلك اللّيلة بعد نهارٍ طويل مُرهق . في النّوم رأت رؤيا غريبة ؛ جاءها أحد الأولياء الّذين كانت لهم مقامات يعمّرها أهل قريتنا بالأذكار والأدعية ، وتمثّل لها في المنام ، وعاتبها على أنّها تتمنّى ان تتخلّص من هذا المولود المُبارَك . وطلب منها أن تُبقي عليه وتحدب عليه وتلمّه بعطفها أكثر من سواه ، وأن تسمّيه (أحمد) . واستيقظت أميّ في الصّباح نشيطةً مرتاحة ، وفي الظّهر كانت قد وضعت أخي الأصغر هذا وسمّيناه (أحمد) بلا تردّد . كان أخي كثير الحركة ، يلفت الانتباه بصوته الحادّ وكثرة حركته في البيت والحقل . عندما بلغ السّادسة من عمره أركبه أبي على حصان ، وجعله يُمسك رسنه بيده ، ودفع أبي الحصان من الخلف بضربةٍ معيّنة فانطلق الحصان راكضًا ، كان أبي ينظر إلى أخي فوق الحصان مسرورًا ، إلاّ أنّ الحصان قفز عن صخرةٍ صغيرةٍ اعترضتْ طريقه ، فوقع بدوره أخي عنه ، وكُسِرت رِجله . لم يذهب به أبي إلى طبيب . اكتفى بأن نادى

(حكيم) القرية ، وجبّرها بطريقة بدائية . أصلح التّجبير من شأن رجله لكنّها ظلّتْ تحتفظ بعرجةٍ بسيطة تظهر كلّما مشى .

استيقظ الأب السّبعينيّ من غفوته الطّويلة بعد ثلاثة أيّام . جلس أبناؤه حوله ينظرون إلى أبيهم الخارج من الموت . كانت عيونهم تشعّ غبطة وفرحًا بعودته إليهم . وإن كان بعض هذا البريق يخبو أحيانًا لشعورهم بأنّهم ساعدوه في إيصاله إلى هذه الحالة الصّعبة . ضمّهم الأب إلى صدره النّحيل ، وعانق الثّلاثة معًا . التفّوا حوله وشكّلوا بكائيّة من نوع نادر .

أعطيتُ الأب سوائلَ طوال فترة غيبوبته كلّما أفاق إفاقةً بسيطة . وبعض السّكر بتذويبه في فمه . وخبّأت له بعض الطّعام المفيد . وأوكلتُ أمر رعايته إلى أبنائه . وطلبتُ من (العميد) أن يطلب من الرّقيب أن يسمح له بالبقاء في المهجع وعدم الخروج إلى التّنفّس . فقبل الرّقيب بعد سيل من الشّتائم .

أصبحت صحّة الأب السّبعينيّ جيّدة . . . تماثل للشّفاء . . . وبدأ يُشاركنا اعتياديّة الحياة ؛ نكتةٌ نزيح بها جبل الهمّ الجاثم على الصّدور ، أو قصّة نفرّغ فيها كبت الألم المتغلغل في العروق . أو أنشودةٌ نروّح بها عن القلوب الّتي ملّتْ نمطيّة الحياة وقسوتها . أو آيات تُتلَى من صوتٍ نديّ ترتقي بالرّوح خارج أسوار هذا الجحيم!!

كان الزّمن في سجن تدمر شيطانًا ذا أربعة وعشرين قرنًا يدور في مكانه كتلة من اللّهب المنذرة باللّظى . كان رحىً يُمسك إبليس بمقودها ويضعنا جميعًا تحت حجرَيها فيطحننا كحبّات قمح صدئة سرعان ما تنسحق وتتحوّل إلى دقيق . لم يكن الزّمن يدور!! مَن قال إنّ الأزمنة تدور؟! الزّمن غلافٌ يحيط بفضائنا المقهور هنا ونحن الّذين نتخطّاه إلى وادي الموت . هو ظلّ مغلّفًا حياتنا دون أن يتحرّك ملمترًا واحدًا . دَفَعَنا

بيد من حديدٍ فسقطنا في هوّة الغياب . لم يكنْ من أحدٍ خلف غلافه يراناً لكي يبكيً على أحوالنا ، أو يرقّ قلبه لنا ؛ كنّا وحدناً نواجه المصير المرعب دون أسى . وحده الله كان حاضِرًا . لربّما لم يصل إيماننا إلى الحدّ الّذي تتدخّل فيه قدرته لتغيير ما يحدث من أجلنا . ولربّما وصل إيماننا إلى الحدّ الّذي كان فيه اصطفاؤنا في هذه المحنة الّتي لم يواجه مستواها من الرّعب والفظاعة أحدٌ من البشر قبلنا!!

(٢٣)
الورْشة

أشهر مكان في قلعتنا الحصينة . شرّفها ملكُ الموت كثيرًا حتّى خيّل إليّ أنّها أصبحت أحد مساكنه الأكثر إقامةً ، وإن لم تكن مسكنه الوثير . اختار الله له ذلك . ولنا ذلك . فلتكنْ مشيئة الله ماضية!!

* صاروا يُقسّطون الموت على دفعتين ؛ الدّفعة الأولى : محاكمة صوريّة ، والثّانية : حبل يتدلّى من تحته الجسد . وصاروا - عمدًا - يخلطون بين الاثنين . بعضنا نودي على اسمه عبر السّمّاعات فذهب وعاد ، وبذا يكون قد قطع نصف الشّوط إلى الموت . ولا يدري متى يأتي النّصف الثّاني . النّصف الثّاني قد يأتي بعد يوم أو في اليوم نفسه أو بعد شهر أو بعد سنةٍ ، في حالتي قطعتُ النّصف الأوّل نحو الموت في عام ١٩٨٥ وبقيت أنتظر النّصف الثّاني اثني عشر عامًا . وخرجت عام ١٩٩٧ دون أن أتمّ قطع المرحلة الثّانية!!

الورشة تحتلّ السّاحة الأولى والثّانية كاملتين . كان الإعدام يتمّ في كلّ ساحات السّجن . غير أنّه إذا كان عدد الضّحايا كبيرًا فإنّهم يجهّزون لهم (الورشة) . إذا نودي المحابيس إليها فمعنى ذلك أنّ المعلّقين على الأعواد يومها سيكون بالمئات!!

في هاتين السّاحتين يعمل نصف مرتّب السّجن في التّجهيز لحفلة الإعدامات ، يُخلونها من كلّ شيء . وينصبون فيها المشانق . (٥٠)

مشنقة تستعدّ لاحتضان القادمين من فجٍّ عميق . يتوزّع فريق الموت على العمل بهمّة منذ فجر اليوم ؛ يتأكّدون من متانة الخشبات ؛ الثّلاثيّة يجب أن تكون قادرةً على حمل الأعواد الأخرى وجسد الشّهيد . القائمة يجب أن تكون متينة ومساميرها مدقوقة بشكل جيّد وقويّ مع المتعامدة . الحبل يجب أن يكون غليظًا ومفتولاً وملفوفًا في عقدته أو نشطته بشكل مُتقن ، بحيث يسهل شدّه على عنق الضّحيّة . المسافة الجغرافيّة مهمّة . ما بين مشنقة وأخرى مسافةٌ تسمح بمرور اثنين أو وقوفهما ؛ أحدهما الحارس العسكريّ . الأرض يجب أن تكون نظيفة ؛ فرئيس الأمن العسكريّ في الدّولة كلّها وربّما وزير الدّفاع يحضر مثل هذه الإعدامات الكبيرة . و(بواضين) الماء يجب أن تكون جاهزة وموزّعة على أطراف السّاحتين وزواياهما . حال انتهاء الإعدامات يقوم البلديّات بشطف أرضيّة السّاحتين من آثار الدّماء أو أيّة أشياء أخرى . البلديّات في الحالة الطّبيعيّة لا يشهدون هذا الموقف إلاّ في النّادر . يحدث أن يُسمح لهم بذلك من أجل بثّ الرّعب في النّفوس ، وإيصال ذلك إلى ساكني مهاجعهم . (الزّعيم) أحد البلديّات الّذين شهدوا عشرات الحفلات من هذا النّوع على مدى سنواتٍ طويلة .

في السّابق كان الشّهداء عندما يُنادَى على أسمائهم للإعدامات ، تُطَمّش عيونهم وتقيّد أيديهم . وعندما يخرجون من مهاجعهم تبدأ صيحات التّكبير تنطلق من الحناجر : الله أكبر . . . الله أكبر . . . فترتجّ لها جنبات السّجن وساحاته . . . يحدث - في أحايين قليلة - أن يبدأ الضّحايا تكبيرهم فينضمّ إليهم في هذا نزلاء المهاجع من المحابيس الّذين لم يبرحوا أماكنهم ، تتجمّع الأصوات . تتعاظم . تتعالى . تتشكّل رهبةً وهيبةً في صدور الجلاّدين . يفكّرون بالانتقام من المُكبّرين .

كيف؟! أعدادهم بالآلاف . يتأرجحون . يستمرّ التّكبير . أمّا المحابيس فيجدون في ذلك راحةً عجيبة . وأمّا الجلاّدون فيجدون فيه ضيقًا ورعبًا عجيبين .

فيما بعد تعلّم حرّاس السّجن . صارت التّكبيرات مصدر رعبٍ لا يُمكن السّيطرة عليه ؛ فاخترعوا (اللزّاقة) . بعد أن يطمّشوا العيونَ ، ويقيّدوا الأيدي وأحيانًا الأرجل ، يضعون لاصِقًا عريضًا وقويًا على الفم ، ويوسّعونه من الجهتين ، ويلصقونه بشكلٍ جيّد ، فيمنع ذلك السّجين من التّكبير . بعضهم كان يشدّ عضلات فمه ، يحرّك (اللزّاقة) بلسانه محاولات متعدّدة متتابعة ، في النّهاية ينجح أحيانًا بإزاحتها قليلاً عن الفم ، فيبدأ بالتّكبير ، تخرج تكبيراته مخنوقةً لا تكاد تجاوز صاحبها أو محيطه ، كأنّما هي خارجةٍ من بئرٍ عميقة .

على طرفي السّاحتين غرفتان تُجهّزان فجرَ الإعدام لاستقبال الأعداد الكبيرة . يُنادَى على المُعدمين ليخرجوا من مهاجعهم مرّة واحدة . هذه المرّة نادوا على حوالي (٣٠٠) اسم . خرجوا جميعًا . جُمّعوا في الغرفتين اللّتين على طرفَي السّاحتين . يُساق إلى (الورشة) (خمسون) سجينًا على عدد المشانق ، يخرجون إلى الأعواد كما تخرج الأسود من غيلها ومن غابها . خُطاهم واثقة . مشيتهم هادئة . يُبصرون الطّريق ويعرفونها كما لو كانت عيونهم غير مُطمّشة . يبتسمون وإن لم تُظهر (اللزّاقة) ابتسامتهم . شيءٌ ما في أعماقهم يقول لهم : (امضوا فإنّكم على الحقّ) . شيءٌ آخر يرونه بعيون قلوبهم ، يشكّل نورًا هاديًا لهم ، يستقبلونه وهم أشدّ ما يكونون شوقًا إلى لقائه ، يرون أنّها الجنَّة وأنّها حُسن الخاتمة . توضع في أعناقهم الحِبال ، يتأكّد العسكر من التفافها حول الرّقبة جيّدًا . يلتصق الحبل بالعنق ، فتفوح رائحة طيّبة . من أين تأتي والمكان يعبق برائحة الموت . يشمّونها من خلال عُقد

الحبال الملتصقة بخلايا أعناقهم ؛ رائحةٌ لم يشمّوها من قبل ، ولكنّهم يعرفونها حقّ المعرفة ، إنّها الرّائحة الّتي تنطق ؛ تنطق بأنّ درب الآلام يوشك على نهايته ، وأنّهم سـ ﴿يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ . تنتشر الرّائحة في السّاحتين ، تتكثّف . تتحوّل إلى رهام . يسقط رذاذها على أنوف الشّهداء . ترتفع الأعواد إلى الخلف . تتكاثف الرّائحة أكثر . يسقط رذاذها الآن مطرًا . تنتصب الأعواد . تفارق الرّوح الجسد المُضنى وتفتح الأبواب الثّمانية . فيدخلون من أيّها شاؤوا!!

كان كلّ خمسين سجينًا يُقدّم إلى الباحتين . فإنْ تدلّت الأجساد . طاف بها الطّبيب (يونس) يتحسّس رقابها ليتأكّد من أنّها فارقت الحياة . تُترك لدقائق . يأتي الجلاّد الأكبر ، وزير الدّفاع أو مدير الأمن السّياسيّ يتنقّل بين هذه المنارات ، واضعًا يديه خلف ظهره ، ومادًا خطواته بكبرياء . ومصوّبًا نظره يمنةً تارةً ويسرةً تارةً ، متلذّذًا بمنظر ضحاياه . شاعِرًا بالزّهو أمام جلاّدين أكبر منه أن أدّى الأمانة كما يحبّ سادته ويرضون . . . يظلّ ماشِيًا حتّى يصل إلى هذا الشّهيد ، لم ينتبه إليه أوّل الأمر ، كان قصيرًا . عَلِق حذاؤه المهترئ بالرّتب العسكريّة الّتي تعلو كتف الجلاّد كأنّه يدوسها ويدوس صاحبها . كان قصيرًا حقًا ولكنّه كان أعلى من رقبة الجلاّد ونياشينه وكرامته . ظلّ الشّهيد عالِيًا في حياته وفي مماته .

تأتي الخمسون الثّانية والثّالثة وربّما يصلون إلى السّادسة أو السّابعة ، ويتوالى ارتقاء الشّهداء إلى ربّهم ، أقمارٌ في إثر أقمار . تسطع كلّ خمسين منها مرّة واحدة . . . مثل هذا العدد من الأقمار لا يوجد في كوكبٍ ولا في فضاء . . . غير كوكبنا وفضائنا اللّذين كانا خارج الكواكب والفضاءات الّتي يعرفها البشر أو يرونها . . .!!

يُنزلون هذه الأقمار . يلفّونها في أكياس من الخيش بنّيّة اللّون .

يضعونها في تراكّات عسكريّة . يخرجون بها إلى الصّحراء . يحفرون لهم قبورًا جماعيّة . يلقونهم هناك كأنّهم أشياء أو نكرات . . . كأنّهم لم يكونوا بشرًا يومًا . . . ولم يتشاركوا معهم بُنوَّتهم لآدم . . . ثمّ يعودون وقد شعروا براحة اكتمال المهمّة . . .

في بلدي فقط يدفنون الأقمار في رمال الصّحارى . . . ويودِعون النّجوم في مجاهل التّراب . . . في بلدي يأكل الإنسانُ الإنسان ليشبع شهوته إلى السّلطة . . . ويشرب من دمه ليسكر . . . ويرقص على أشلائه ليطرب . . .

الجلاّد الأكبر ، يُطبق بعصا إمبراطوريّته على يده . ينتشي . يشعر بزهو حارّ . يدير ظهره للجثث المبعثرة . يخرج على إيقاع تحيّات الإجلال من قبل جلاّديه الصّغار . . .

يأتي البلديّات والصّرخات من العساكر تصمّ آذانهم . يسكبون (بواضين) الماء على أماكن الجثث . يشطفون السّاحة . تتصاعد رائحة الطّيب . لا يشمّها أحدٌ . تغادر مع الّذين غادروا . وبعضها يعود إلى المكان الّذي جاءت منه . إلى السّماء تحفّ بالأرواح الصّاعدة إلى هناك!!

انكسرت العَظْمة الّتي أحفر بها الخطوط خلف ظهري على الحائط . أوشك الحائط أن يمتلئ بالرّاحلين . هذا المهجع خرّج حتّى الآن ثلاثةً وستّين قمرًا!!

في اللّيل تضيء الأقمار . أراها بكامل أنوارها النّاعمة . ترسل طيوفها هادئةً ساحرةً . تبعث السّكينة في المهجع كلّه . تحرس المساكين الّذين ينضوون تحت سقفه وداخل جدرانه . تمسح بيد من خلود على رؤوس المُعذّبين . لم يروها كما رأيتُها ؛ لكنّهم أحسّوا بما بعثتْه من أملٍ كما أحسستُ . وليكنْ . لستَ مضطرًا أن ترى ملاكًا حتّى تشعر

بوجوده . لست مضطرًا أن تراه حتّى تلفّك سحابةٌ من طمأنينة وتحيط بروحك . . . الإحساس أعمق من المشاهدة . ما يراه القلب لا تراه العين . ما يراه القلب أدوم أثرًا ، وأعمق أملاً!!

(٢٤)
اليدُ المُرتجفةُ لا تَحملُ كِتابًا

قرأ كثيرون على (قسطنطين) . والزّعيم على كثرة مشاغله في نقل الأخبار وتوزيع الطّعام وتنظيف السّاحات صار يستحقّ شهادةً وتكريمًا . حفظ خلال عام خمسة أجزاء من القرآن الكريم . كان قسطنطين يصبر عليه كثيرًا ، ومعً صبره الكبير إلاّ أنّه لم يكن مُتساهِلاً معه البتّة . كان يدقّق له على مخارج الحروف ، وعلى لفظ الكلمات لفظًا صحيحًا ، وإعطاء كلّ حرفٍ نصيبه من التّحقيق .. الآخرون توزّعوا على حَفَظةٍ آخرين . لم يستسغ الإسلاميّون أن يحفظوا على يدي قسطنطين . خاصّة من كانوا ينوون أخذ السّند . كان صعبًا عليهم بل كانوا يعدّون ذلك طامّة كبرى أن يأخذوا عن قسطنطين المسيحي القرآنَ متّصلاً بالرّسول الأعظم ، ومنتهيًا بجبريل عليه السّلام عن الله عزّ وجلّ . ولكنْ من يدري؟! بل من يستطيع أن يؤكّد أو ينفي أنّ قسطنطين كان مسلِمًا!! حتّى في صلاة الجماعة الّتي كانت نادرًا ما تتمّ وفي ظروف استثنائيّة . لم يستطع أحدٌ أن يرى قسطنطين منضويًا تحت رايتها . وإن شاهده الكثيرون يُتمتم ويُهمهم في أوقات الصّلاة بأصواتٍ غير تلك الّتي اعتادوا أن يسمعوها منه في بقيّة الأوقات!!

ظلّ قسطنطين لغزًا عصيًّا على الحلّ والتّفكيك . هو نفسه استعصى على نفسه بإخفائها تحت طيّات الغموض . غير أنّه خلال أكثر من خمس سنوات استطاع هذا الرّجل أن يخرّج أربعة حُفّاظ ،

ويدرس على يديه أكثر من خمسين تلميذًا عبر هذه السّنوات . . .
بالنّسبة لي ارتحتُ للحفظ عنه ما دام مُتقنًا فيما أرى أكثر من
الآخرين . . . لكنّني كنتُ أقطع حلقته كثيرًا لانشغالاتي المتعدّدة
والمتكرّرة بمداواة الجرحى ، وإسعاف المُصابين . فقد تولّيت موقع المسؤول
الصّحّي ، وإن كان الفضل في تخفيف آلام نزلاء المهجع يعود إلى
مجموعة من الأطبّاء الآخرين الّذين بعضهم استمرّ معنا ، وبعضهم
ودّعنا . الّذين ودّعونا استطاعوا أن يتغلّبوا على أمراضٍ خطيرةٍ وآلامٍ
حارقةٍ هاجمت زملاءنا فأنقذوا كثيرًا منهم من الموتٍ ، ولكنّهم لم
يستطيعوا أن يُفلِتوا في النّهاية من قبضة الموت نفسه ، حينَ دعاهم إليه
دعوةً لا تردّ ولا تُعاد . إنّها الدّعوة الأولى والأخيرة إلى رحابه . ليكون
بعد ذلك قد غاب عنّا إلى غير إياب!!

واشتغلت النّدوات بعيدًا عن عيون الرّقباء . أكثر النّدوات الّتي
استطاع أصحابُها أن يجمعوا حولها عددًا أكبر من غيرها ، هي ندوات
التّفسير والفقه . وكان ألمعنا في ذلك الشّيخ (صفوان) . هادئٌ وقور . في
السّتينيّات من عمره . قليل الكلام . لم أره يتكلّم إلاّ في حلقته . صابرٌ
صبر الجبال الرّواسي . وتلامذته حفّوا به وبجّلوه وكانوا يُبالغون في
خدمته والعمل على راحته . ضمّتْني وإيّاه دفعةٌ واحدة في شهرٍ واحدٍ
وفدْنا فيه معًا إلى هذا المعتقل الرّهيب . درّس التّفسير والفقه من الجامع
لأحكام القرآن الكريم للقرطبيّ . كان يحفظه - تقريبًا - عن ظهر قلب .
وكان تمثّله بعبارات القرطبي مُدهِشًا . لا يكاد يصدّقه عقلٌ . وبالنّسبة
لي لم أصدّق أنّ إنسانًا يمكن أنَ يحفظ مجلّداتٍ من الكتب ، حتّى
بدأتُ أحضر له في السّنتين الأخيرتين . كلامه عذبٌ ، لأنّه يقبس من
نور الله . كان درسه في الأسبوع مرّتين ، ولم أغب عنه إلاّ حين أكون
منشغلاً بعلاج زميلٍ أو آخر . . .

كان (العميد) يقدّر النّاس، ويُنزلهم منازلهم. وإن كانت عناصر الحرس لا تقيم وزنًا لأحد، ولا تضع اعتبارًا لإنسان. وتُوقع العذاب على الكبير قبل الصّغير وعلى الشّيخ قبل الفتى. إلاّ أنّ المهجع كان له عالَمه الخاصّ وكانت له قوانينه الخاصّة. وتحت هذا العالَم بعيدًا عن عالَم الجلاّدين كان الشّيخ (صفوان) يحظى بمرتبة الأولياء. نعم؛ لم يُخرجه (العميد) مرّة واحدةً للسّخرة. ولم يطلب منه خلال كلّ هذه السّنوات مرّة واحدة أن يكون حارِسًا ليليًا. وحماه الله من (التّعليم) فعاش في مهابةٍ من الله تليق بعلمه وبسنّه وبمكانته!!

دخل (الزّعيم) قبل السّادسة مساءً؛ قبل عدّ المهجع. كان يبدو عليه الحبور. كان صدره منتفخًا قليلاً. يرسم ابتسامةً لا تخفى على أحد. لا بدّ أنّه حصّل صيدًا ثمينًا. أخذني من يدي إلى الحمّامات بعيدًا عن الأعين. مدّ يده إلى بطنه، ونهض ثيابه، وأخرج من هناك كِتابًا وقدّمه إليّ بحذرٍ وهو يتلفّت حوله كما لو كان يقدّم سلاحًا خطيرًا. تفحّصته على عجل. قلّبتُه بين يديّ. بدا سلاحًا خطيرًا بالفعل. ومن كان ذا عقلٍ ليشكّ بأنّ الكتاب أخطر سلاحٍ قادرٍ على أن يقلب الموازين وينبش الماضي، ويُحقّق الحاضر، ويحدّد المستقبل!! خبأتُه بدوري في ثيابي قبل أن ينتبه أحدٌ. وقرّرتُ أن أتفحّصه فيما بعد على غير عجلة. طبعتُ قبلةً على جبين (الزّعيم). وسألته:

– من أين حصلتَ عليه...؟!

– من مهجع الشّيوعيّين.

– كيف؟!

– سرقتُهُ.

– سرقتَه؟!!

– كان أحدهم قد وضعه قريبًا من الباب. تظاهرتُ بمساعدتهم في

إدخـال الطّعـام إلى داخل المهـجع . . . دون أن يـدري أحـدٌ أو يحسّ تناولتُه بخفّة . وفي لمح البصر كان يغيب في ثيابي . . .!!

- فظيع . . . إنتا فظيع . . .

- الجـايّات أحـسن . . . رح إسـرقلك واحـد شـيـوعيّ . . . شُـو رأيك . .؟!

- بكفّي الكتب هلأ . . .

في اللّيل تسلّلتُ إلى نفسي . أخـرجتُ الكتـاب من مـخـبئـه الثّـمين . كـان غـلافه أخضـر . وعلى صـفـحة الغـلاف خُطّ بلونٍ ذهبيّ العنوان : قصائد شرقيّة . وكان صـاحبـها الشّاعر الرّوسيّ بوشكين . لم تكـن كـتب الأدب من اهتـمـامي . وحـتّى لو قـرأتُ كِـتـابًا في الأدب فبالتّأكيد لن أقرأ لشعراء روسيا ولا أدبائها . لكنّي - ولا أدري لماذا تمامًا - قرأت الكتاب حتّى الآن عشر مرّات . كان هناك توقٌ ما في داخلي إلى المعرفة . سلطة المعرفة طاغية لا ينجو من وهجها ذو قلبٍ . تناسق الحروف وتضامّها معًا في كلماتٍ وعباراتٍ وسطورٍ جعلني أغرف من معين هذه التّشكيلة السّاحرة حتّى الثّمالة . في أقلّ من أسبوعين كنتُ قد حفظت كثيرًا من قصائده . دون أن يكون لي حقّ النّقد ؛ لأنّني لا أستطيعه : كانت قصائد بوشكين تلامس شغاف القلب . كان يتحدّث عن النّفس كما لو كان يتحدّث عن نفوسنا ؛ نحن الّذين نقبع مثل الكلاب الجرباء في هذه القلعة القاتلة .

بعد شهر . تحرّك السّرّ في الصّدر . آلمه . لم يعد من مجال لكتمه أكثر . السّرّ إذاً جال في الصّدر عذّبه . السّرّ أرنبٌ يقفز في الضّلوع . لا مجال لأن تهدأ تلك الضّلوع إلاّ بإخراج الأرنب ، وإيداعه في أيادي الآخرين . الإنسان وحده لا يستطيع أن يترك أرنبًا يرعى من عشب صدره إلى الأبد!! قلنا في ليلة عابرة أنا والزّعيم للعميد : إنّ لدينا

كتابًا . أنت رئيس المهجع . هو بين يديك . أنتَ حرٌّ فيما ترى أو تفعل .
أخذ الكتاب بيد مرتجفة . قبّله ووضعه على رأسه دون أن يعرف محتواه
أو حتّى عنوانه . قام بهدوء إلى الحمّامات . مزّقه إلى قطع صغيرة .
ومزّق القطع الصّغيرة إلى ما هو أصغر منها . وألقمها فوّهة المجاري . أمّا
الغلاف فكان من الورق المُقوّى ؛ نقعه في الماء حتّى لان ثمّ أذابه بيديه
وعجنه ، وضمّه إلى فوّهة المجاري مع الأوراق ، ثمّ أتبعها بالماء الّذي
أخفاها دون أن تترك خلفها أيّ أثر!!

(٢٥)
﴿حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾

– كيف هو حالُ أخي . . .؟! (قلتُ للزّعيم)
– لقد قطع نصف الطّريق .
– تعني أنّه نودي للمحكمة؟!
– نعم .
– أخاف أن يبتعله النّصف الآخر من الطّريق . . .!!
– ومن فينا لا يخاف ذلك . . . ومن فينا لا ينتظر أنصاف الطّرق الّتي تذهب ولا تعود .

الأب السّبعينيّ عاش . ضحكتْ في وجهه هو وأبناؤه الدّنيا ولو لمامًا . كانت ليلةً باردة . حرّاس الشّراقتين خمدوا مثل ذئابِ عجوزة . قدّرنا أنّهم نيام . أو أنّ البرد ألجأهم إلى غرفة الذّاتية حيثُ تكونُ المدفأة مشتعلة . قرّر (العميد) أن يُشعل اللّيلة الباردة ويُدفئها بسمرِ الأحبّة . تنادينا من الأطراف وجهّزنا أنفسنا لتأجيل الحزن ليلةً من لياليه الّتي لا تنتهي . هناك دائمًا في الجحيم مساحة مهما كانت ضئيلة قابلةً لأن تنتمي إلى واحات النّعيم .

تحلّقنا في حلقة دائريّة كبيرة . واستعددنا لأيّ شيء . كنّا قادرين على تقبّل جزاء ما نفعل من إهانات وضربٍ مقابل الاستمتاع بليلةِ ودٍّ ولو مرّة واحدة في السّنة . بدأ الوصلة أحدٌ الأبناء الثّلاثة ، اسمه (عليّ) . كان نحيلاً ، طويلاً بعض الشّيء ، بشرة وجهه كالحليب . هذا

الفتى الحلبيّ يملك حنجرةً قويّة وصوتًا ساحِرًا . بدأ بموّال :

يا راحِلِينَ إِلى مِنى بِقِيادِ
هَيَّجْتُمُ يَوْمَ الرَّحيلِ فُؤادِي
سِرْتُمْ وَسارَ دَلِيْلُكُمْ يا وَحْشَتِي
الشَّوْقُ أَقْلَقَنِي وَصَوْتُ الحادِي

شدّ القلوب كما لم تُشدّ من قبل . وهفت إلى صوته الأرواح كما لم تهفُ إلى شيءٍ مثله من قبل . وبكى وأبكى . كان يقول : يا راحلين . . . فتنخلع القلوب من الجوارح كأنّنا نحن الرّاحلون . . . وتنفلت الأدمع من المآقي كأنّنا إلى غير أوبة ماضون . . . ثمّ يقول : إلى مِنى . . . فنشعر أنّ منى هي الشّام . . . ثمّ يقول : هيّجتمُ . . . فتهيج الأفئدة . . . ثمّ يقول : يا وحشتي . . . ويمدّ (يا) ، ويُبدئ ويُعيد فيها ، حتّى إذا انتقل إلى (وحشتي) . أوحشنا كلُّ شيءٍ ، وشعرنا بفداحة الحرمان ، وبوخزةٍ في الجَنان تسيل منها دماء الشّوق إلى ماضٍ حبيبٍ إلى النّفس . . . قريبٍ إلى الرّوح . . . ثمّ يقول : أقلقني . . . فتتقلقل العظام . وتدخل الكلمات إلى جوفها فتحزّ بسكّين اللّحن لينَ النّفوس الطّروبة . . .

حتّى إذا تمايلت الأجساد على إيقاع الكلمات والنّغم . . . ترك (عليّ) الدّور لأخيه (شهاب) . وهو الأخ الضّخم الّذي جلس على ظهر أبيه في ذلك اليوم المشؤوم . فأطرب وأشجى حتّى نسينا كلّ ما حولنا . يومها ردّد رائعة الرّفاعي :

أَبَتاهُ ماذا قَدْ يَخُطُّ بَنانِي
وَالحَبْلُ والجَلّادُ مُنْتَظِرانِ
هَذا الكِتابُ إِلَيْكَ مِنْ زِنْزانَة
مَقْرُورَةٍ صَخْرِيَّةِ الجُدْرانِ

لَـمْ تَبْقَ إلاّ لَيْلَةٌ أَحْـــيَـــا بِهـــا
وَأُحسُّ أَنَّ ظَلامَـــهـــا أَكْـــفـــانِي
سَـــتَـــمُـــرُّ يا أَبَتـــاهُ لَسْتُ أَشُكُّ فِي
هَذا ، وَتَحْـــملُ بَعْـــدَها جُـــثْـــمـــانِي

لم تبقَ دمعةٌ في العيون إلا نزفْناها . ولم تبقَ رعشةٌ في الجفون إلاّ رعشناها . ولم تبقَ رقّة في الفؤاد إلاّ رَفَفْناها . قسطنطين الأصلب فيما مضى . انهار . ظلّ جسده يرتجّ دون أن يُسمع له صوت . ثمّ نزّ صوتٌ من بين هذا الارتجاج ، فصار يهتزّ اهتزازًا شديدًا . ثمّ لم يسيطر على نفسه ، حتّى ضمّه العميد بين يديه ، فدفن هو الآخر رأسه في صدره . وظلّ يشدّ على جسده المرتجف حتّى هدأ .

ثمّ طلبْنا من قسطنطين نفسه أن يُسمعنا أحلى ما يحفظ من الشّعر العربيّ . أردْنا أن نُلهيه عن وجع الذّكرى قليلاً . فاختار – دون أن يعي – كلّ ما يوقظ الأوجاع ، وينبش الذّكريات . وما منّا وفينا إلاّ مفجوع وموجوعٌ ومولوع . . .!!

ثمّ وعظ الشّيخ (صفوان) فرقّق القلوب . ثمّ قرأ (هارون) من سورة القصص فزكّى الأرواح . ثمّ حدّثنا (الزّعيم) عن مغامراته في المهاجع الأخرى فضحكت النّفوس . ثمّ بسط لنا (العميد) تجربته في العسكريّة فقطعنا الوقت دون أن ندري . . .!!

في الشّرّاقة الأقرب إلى الباب خُيّل إليّ أنّني سمعتُ حفيفًا . هل الحارس موجود؟! تحرّكَ؟! كان نائمًا فغفل ، أم كان مستيقظًا فسمع؟! وإذا سمع هل سكت رأفةً ورِقّة ، أم انتظارًا وتحيُّنًا؟! أم استماعًا واستمتاعًا؟! وهل سيجعل الأمور تمرّ بسلام؟! قد لا يكون هناك حفيفٌ بالأصل ، وقد يكون كلّ هذا الّذي أحسستُهُ إنّما هو اختلاق الخيال الّذي يشكّله الرّعب والخوف الدّائمَان ، وإن حاولنا أن نُذهل عنهما بما نستطيع!!

في صباح اليوم التّالي . دخل الرّقيب . صاح :

- مهجع ٢٧ لبرّا إنتا وْياه . . .

خرجنا ونحن متوجّسون خيفة .

- عاري الصّدر وْلا . . .

خلعنا ما يستر نصفنا الأعلى ونحن نزداد خوفًا وترقّبًا .

- رْكُضْ حول السّاحة وْلا . . .

بدأنا نركض . بِمَ يُمكن وصفنا يومها : (حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَة) ، أم (إِبِلٌ هِيْمٌ) ، أم (مُهْطِعين إِلى الدَّاع) . برز عشرون وحشًا من الزّوايا . ركضوا خلفنا كمفترسين ، وركضنا أمامهم كطرائد مذعورة ، وانغرزت أنياب السّياط المغموسة بالماء المالح في جلودنا . وأكلتْ من لحمنا . ما تطاير من نُتَف اللّحم خلال حفلة التّعذيب هذه على الأرض وفي الفضاء كان يكفي - لو جُمّع بعضه فوق بعض - أن يشكّل جسم رجلٍ كاملٍ . في الصّرخات المتفطّرة يزداد سُعار آكلي لحوم البشر . رفع (العميد) الّذي يتقدّمنا في هذه الحفلة السّاديّة بسبّابته إلى السّماء . ففهمنا . بدأنا نُكبّر بدل الصّراخ . لم نكد نُكمل دورتين في التّكبير حول السّاحة حتّى توقّفتْ دوّامة التّعذيب . ما من جلاّد تحتمل أذنُه صيحاتِ التّكبير لأكثر من دقيقتين . دخلنا تتبعنا طوفانات الشّتائم من خلفنا . على الباب قال الرّقيب وهو يلهث لأحد زبانيته : هات صور الرّئيس . . . جاء بها . أعطى الرّقيبُ للعميد (٢٥) صورة كبيرة للرّئيس . وقال له : هاتِ ثمنها . ثمنُها مئة ليرة . وكرّر : بدّي أشوفها معلّقة على جدران المهجع يا حيوانات من اليوم . لا أدري من أين خرجتْ مئة ليرة ، ومن أيّ مكمنٍ برزت . أعطاها العميد للرّقيب وهو يشكره . قال الرّقيب له وهو يهمّ بإغلاق باب المهجع علينا : لولا صورة الرّئيس يا شَرا . . كان سقط السّقف عليكم!!

سارع العميد بإلصاق الصّور على جدران المهجع حتّى لا يسقط السّقف على رؤوسنا فنهلك جميعًا!! اشترينا اللاّصق بخمس ليرات سوريّة من الرّقيب نفسه . في اللّيل كنتُ أنظر إلى الصّور المعلّقة فأرى فيها كلّ شيءٍ إلاّ أن تكون آدميّة . ثبتت على الجدران أسبوعين . في الأسبوع الثالث سالت عليها المجاري ففسّختْها . كانت المجاري ممدّدة عبر الجدران وبعضها في السّقف . وبعضها يخترق الثّلث الأعلى من فضاء الغرفة . في ليلةٍ أبعد ما تكون عن حدث كهذا ، سمعنا صوت قرقعات ووشوشات مياهٍ . لم ننتبه . كان النّوم أعزَّ من الاستيقاظ في مثل هذه السّاعة . لكنّ شيئًا آخر اضطرّنا إلى الاستيقاظ رغمًا عنّا ؛ الرّائحة!! نعم الرّائحة . اختنقنا من هول الرّائحة المنبعثة من هذه السّوائل العادمة . يبدو أن بعض مواسير المجاري المُمدّدة عبر الجدران انفجرت . فبدأت تتسرّب المياه . ظلّت تسيل على الصّور حتّى غطّت وجه الرّئيس بكامله ، فتشوّه الوجه المسكين!! ثمّ ازداد فيضانها فانقبعت الصّورة من مكانها ، وسالت مع فيضان المجاري مشفوعةً برائحة لا تُطاق . استيقظ (العميد) وشاهد كلّ ما حدث . اقترحْنا عليه أن يُنادي الحُرّاس والرّقباء . رفض ذلك خوفًا من العقاب الأليم ؛ خاصّة أنّ صور الرّئيس كانت تسبح في المجاري وتغرق فيها . اقترح علينا أن نصبر حتّى الغد ، ونحتمل كلّ هذه الرّوائح المُخدّرة . بعضُنا غالبَ الغثيان منها ، وبعضنا أغمي عليه . وبعضنا راجع ما في بطنه إن كان في بطنه شيء . وبعضنا تذرّع بالصّبر إذ لا وسيلة يومها سواه!! والصّور المُبجّلة الّتي أهينت هذه الإهانة الكبيرة؟! قال (العميد) : يجب أن نذوّبها في الحمامات ونُخفي أثرها . لو دخل أحد الرّقباء ورآها بهذا المنظر فستكون الطامّة الكبرى!! قلنا : وإن دخل ولم يرها معلّقة على الجدران؟! أجاب : سيدخلونَ ولن يلاحِظوا غيابها . إنّه لا يلفت انتباههم إلاّ ما

يهمّهم ، وصور الرّئيس بل الرّئيس نفسه في آخر اهتماماتهم!! تعجّبنا من قول (العميد) غير أنّنا التزمْنا بما قال . كان الفريق الّذي كُلّف بإتلاف صور الرّئيس فدائيًا . إذ بالإضافة إلى أنّ صوره لا تُحتَمل وهي نظيفة ومبجّلة ومحاطة بأطر مذهّبة . فقد كانت في تلك اللّيلة مهينة مُقزّزة مقرفة تفوح منها روائح لا تحتمل ولا تُطاق!!

أصلحوا المجاري في صباح اليوم التّالي وهم يشتموننا بأقذع الشّتائم . ظلّتْ أيدينا على قلوبنا خوفًا من أن يسألوا عن صور الرّئيس . وبالفعل كما قال العميد : لم ينتبه أحدٌ منهم إلى أنّ صورًا للرّئيس كانت تملأ جدران هذا المهجع الأربعة من أوّلها إلى آخرها!!

(٢٦)
سَلّةُ أخبارٍ

انتشرت كؤوس الشّاي البلاستكيّة الصّلدة . ومرطبانات الطّحينيّة الصّغيرة . صرنا نغسلها جيّدًا ، ونعدّها لشرب أيّ سائلٍ يُمكن أن يوضع فيها ؛ الشّوربة ، الشّاي ، القهوة أحيانًا ، الماء ، . . .

تعدّدت استعمالات الفوارغ البلاستكيّة ، غير أنّ فئةً من المساجين تعلّمت أن تستخدمها لغرضٍ أهمّ وأخطر . وكنتُ أنا أحد هؤلاء . استخدمتُها لمراسلة أخي (أحمد) . كنتُ أحفر عليها أخباري بالعظم بخطّ صغير وأسأله عن أخباره ، وأخبار أهلنا . كان يعرف الأخبار الّتي تشكّلتْ بعد اعتقالي بسنة . أمّا بعد ذلك فقد أُخذ هو الآخر إلى عالم الغيهب الّذي نتشاركه اليوم . أكثر ما أثّر في نفسي أنّ أهلي كلّهم اعتقدوا أنّني قُتلت . وشاعت شائعة موتي بين النّاس . ولم يكن من مجالٍ لتكذيبها ، فبعد اعتقالي من المستشفى الّذي كنتُ أعمل فيه ، اختفى باختفائي أيّ أثرٍ يدلّ عليّ . . . أنا الآن الميّت الحيّ . . . أو الحاضر الغائب . . . قال أحمد : إنّ الأمن السّياسيّ بعثوا لأبي بثيابك وأخبروه أنّهم وجدوا جثّتي مقتولةً في الحقول ، وأنّهم دفنوها هناك ، وجاؤوا بهذه الثّياب دليلاً على موتي . . . قد يكون أبي صدّق ذلك . غير أنّ أمّي لن تصدّق ذلك أبدًا . وزوجتي ستنضمّ إلى أمّي . . . أمّا ابنتي الّتي تركتُها وهي ذات ربيع واحد فلا أدري إنْ كانت ستعرف ما معنى أن يكون لديها أبٌ سقطَ في لجّ الغياب منذ

أن خطتْ أولى خُطُواتها في الحياة . . . هل يُمكن أن تغفر لي هذا الغياب إذا شاء الله لي أن أخرج من هذه القبور وأعود إليها ولو بعد عقود؟!

كيفَ سيتقبّل النّاس أنّ ميّتًا يمكن أن يعود إلى الحياة ، وأنّ ملحودًا يُمكن أن يخرج من بين رفات القبور ويظهر لهم كشبح؟! وأنا؟! أواجه موتي في أذهان النّاس بظهوري حيًّا؟! أم أستمرّ في هذا النّوع القسريّ من الموت ، فأتابع حياتي إذا ظلّ لي من حياة بعد أن أخرج من هنا بعيدًا عن نبش الماضي . . وبعيدًا عن إيقاظ مشاعر الخوف والرّعب والجنون والرّيبة والشّكّ والتّكذيب في النّفوس . . .؟!!

على تلك الكؤوس الّتي كان يحملها (الزّعيم) من مهجع إلى آخر ، ويأتي بها من هناك كذلك . . . وجد المساجين فسحةً من الأمل أزاحت عنهم بعض غبار اليأس العتيق . ونشلتهم من وهدة الكآبة إلى ربوة الفرح . كان تقاسُم الأخبار مع الآخرين بكلّ أشكاله ومستوياته يكسر رتابة الزّمن .

عرف الأخ ما حدث مع أخيه . والأب مع ابنه . والسّجين مع زوجته . . . مَنْ عاش . مَنْ مات . مَنْ قُتل . مَنْ أُعدِم . مَنْ أُفرِج عنه . مَنْ حُوِّل إلى مقبرةٍ أخرى . مَنْ وُلِد . مَنْ تزوّج . مَنْ طَلَّق . من صبر . من يئس . مَن انتظر زوجته . مَنْ لم ينتظر . مَن انتظرتْه زوجتُه . مَنْ لم تنتظر . مَنْ شَبَّ . مَنْ هَرِم . مَنْ . . . أطنان من الأخبار المفرحة والُمحزنة حملتْها كؤوس الشّاي ومرطبانات الطّحينيّة . كان اختراعًا عظيمًا . يُشبه اختراع العجلة . في ذلك العام تحوّلت تلك الأواني البلاستيكيّة الفارغة إلى حَمامٍ زاجلٍ ينثر علينا ريش الأخبار من كلّ جهة!!

ظلّ الشّعور بأنّني ميّتٌ يراودني زمنًا طويلاً . أحزنني أنّ النّاس

تُنكر وجودي . وتعتقد بأنّ لحمي قد تفسّخ تحت التّراب . وعظامي بليت من طول ما مرّ عليها من أيّام ، وما تعاقب عليها من دهور . . . الاستسلام لفكرة الموت قد ينقلك إلى مرتبة الموتى الحقيقيّين . . . ولكنّني هنا أحيا وأقاتل وأناضل من أجل أن أتغلّب على غوله المُحكم قبضته على خِناق كلّ واحدٍ منّا!! لن أموت إلاّ بقدر . لن أموت إلاّ إذا بعث الله الموت في أفعى مختبئة خلف عنقود عنبٍ ناضج!! لن أموت في واقعي وإن مُتّ في أذهان النّاس . ستأتيهم المعجزة سواءً أطال الزّمن أم قَصُر!!

دخل الرّقيب إلى المهجع . تطلّع في الوجوه بتشفٍّ . أمسك باثنين أحدهما شابّ والآخر مُسِنّ . لم ندر لماذا فعل ذلك حتّى الآن . ثمّ أقفل باب المهجع وخرج معهما . جلستُ إلى شقّ الباب كعادتي أستطلع ما يحدث . رأيتُ الرّقيب قد جمّع في السّاحة (١٢) سجينًا . نصفهم شباب ، ونصفهم الآخر مُسنّون . وبعد أن اكتمل العدد بمساعدة جلاّدين آخرين ، بدأت المسرحيّة التّراجيديّة . نادى الرّقيب على أحد الحرس وطلب منه شيئًا . غاب الحارس دقائق ، ثمّ عاد وهو يحمل في يديه (شوال) بصل وضعه أمام الرّقيب . فتح الرّقيب الشّوال ، ثمّ قال : هلأ بدنا نعمل مسابقة . نشوف الشّباب ولا الختياريّة رح تفوز . كان يتسلّى!!!!

صفّ المساجينَ صفّين : صفًا للشّباب وصفًا للمسنّين . وبدأ بالأول من الشّباب وأعطاه رأس بصل كبير ، وفعل الشّيء ذاته مع المسّنين ؛ أعطى الأول رأس بصل بنفس الحجم . قبل أن يُعطيه له أداره في يده ، وتأكّد من أنّه يُقارب الأوّل في الحجم . وقال : هه . . . هيك عَدْل . . . ثمّ أمر الشّاب والمُسنّ أن يبدآ بأكل رأس البصل الّذي في يد كلّ واحدٍ منهما . وأطلق صفّارته إعلانًا للبدء . احتار الاثنان فيما

يفعلان . جاءت كلّ واحدٍ منهما صرخةٌ مدوّيّة : كُلْ رَاسِ البَصَلْ ولا إِنتا وإيّاه لَتُوكِلْ خَرا . . .

بدأ كلّ واحد يمتثل . . يقضم في فمه قضمة . . . يزدردها بصعوبة . . . تدمع عيناه . . . يهمّ بالقضمة الثّانية . . . تُصبح أصعب . . . يتغلّب على حروريّتها وينجح بعد محاولاتٍ وتردّدات في ابتلاعها . . . تتّسع حدقتا العينَين . . . يزداد احمرارهما . . . يبدأ الدّمع يسيل خطوطًا خطوطًا على الخدّين . . . تبدأ الضّحكات تتعالى من الرّقيب والحرس الّذين حوله . . . يبدأ بالتّشجيع . . . أيوه أيوه . . . هيك الختياريّة أحسن من الشّباب . . . ينهش الاثنان نصف ما في يديهما . . . يتعالى صوت اللّهاث . . . . يتتابع ابتلاع الرّيق . . . تنهمر الدّموع بغزارة . . . يتوسّل المُسنّ . . . يجثو على ركبتيه . . . يبكي . . . يهمّ بأن يبوس بسطار الرّقيب لكي يُعفيه من هذا العذاب . . . يرفعه الرّقيب إلى الأعلى . . . يشدّه نحوه ثمّ يصفعه قائلاً : ولا . . . بدّك تكمّلها للأخير يا شرمـ . . . يستمرّ وهو يكاد ينفجر من القهر والألم والذّلّ . . . يبدأ الرّقيب التّشجيع من جديد . . . يُعلن الختيار فائزًا . . . يقول وهو يضحك : واحدْ صفرْ لفريق الختياريّة . . . ثمّ يستمرّ في مسابقته السّرياليّة فيبدأ بشَابٍّ ثانٍ ومُسنٍّ آخر . . . وتتابع ضحكاته حتّى تدمع عيناه هو الآخر . . .!!!!

(٢٧)
﴿ولا تَحْسَبَنَّ الّذينَ قُتِلوا...﴾

أنشودة الرّحيل . . . الغياب . . . الموت . . . كانت على كلّ لسان . لم يكنْ من وسيلةٍ لكي نحاول بها أن نُبَطِّئ سير عجلة الموت . ظلّتْ ماضيةً تسحق في طريقها كلّ من تلقى . وتيرة هذا الموت لم تخفّ طوال هذه السّنين العجاف . كان الموت في (تدمر) قِطارًا يطوف بالمحطّات كلّها ؛ من فاتَتْه محطّة منها ، لم تَفُتْه محطّة أخرى بعدها . . . كانت مسألة وقتٍ فحسب . تتوزّع المحطّات على هذه الأوقات المنفلتة من المحطّة الأولى . قد تكون بعده بيوم ، أو بشهر ، أو بسنة أو بعشر سنين . لكنّ القطار ماضٍ ، وجميعنا مُرشّحٌ للصّعود إليه في أيّ لحظة!!

قرأ (هارون) على (قسطنطين) . كان الهدوء قد عمّ المكان . وكثيرون ركنوا إلى أنفسهم يراجعون ما حفظوا . أو يتذكّرون ما غبر من الزّمان . كان نوعٌ من السّكون الحزين يغلّف المهجع . العميد نفسه الّذي جاهد طوال سنين ألاّ يُخفي ابتسامته في أشدّ الظّروف قسوةً ، رأيتُه يُدير وجهه إلى الزّاوية الّتي يجلس إليها عند الباب ويُطرق برأسه جامعًا ركبيته إلى صدره . تصعد من فيه زفرةٌ حرّى من فترةٍ لأخرى . قرأ (هارون) في تلك الّيلة على (قسطنطين) سورة البقرة غيبًا . حتّى إذا وصل إلى قوله تعالى : ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ طرق أحدُ الرّقباء باب المهجع طرقًا عنيفًا . ونادى في المهجع على سبعة أسماء . وكان من بينهم : (هارون) . علم

(هارون) أنّها المنيّة . فقام إلى كوبٍ من اللّبن مليء فشربه كاملاً وحمد الله . ثمّ توضأ هو وإخوته وصلّى ركعتين وخرجوا باسِمين . ودّعتُهم بنشيج مخنوق . احتضنتُ (هارون) بين يديّ . همستُ في أذنيه ودموعيَ الحارّة تحرق وجنتيّ : هل يُخطِئك الموت هذه المرّة كما فعل سابِقًا؟! قال : لقد مللتُ من كثرة مُناداته لي دون أن يلقاني ؛ لا أظنّ أنّ الموت جبانٌ إلى هذا الحدّ ، ولا أظنّ أنّني لستُ شجاعًا حتّى أُعرض عنه كلّ هذا الإعراض ؛ لقد آن لي أن أواجهه هذه المرّة . لا بدّ من لقاء وإن طال البعاد ، ولا بدّ من عناق وإن امتدّ الفراق . هذه المرّة قادمةٌ لا محالة ، أصبح تأجيلها يخنقني ؛ صدّقني يا دكتور أنّني الآن مستعدٌّ لعناقه أكثر من أيّ وقتٍ مضى!! ليس حبل المشنقة سيّئًا وقاسِيًا إلى هذا الحدّ ؛ أقسى ما في الموت أن تفقد وجه عزيزٍ عليك!! اعتدتُ وجهك يا دكتور ، من لي به إذا صحوتُ من الموت في الآخرة . ادعُ لي ، وفي الشّفاعة سأكون لك . كان أخي قبل أن يظهر أخي . رأيته فيه . الآن بعد أن فقدتُ أخًا حبيبًا مثله . صار الخوف يتعاظم في صدري على شقيقي أحمد .

في السّاحة الّتي أراها من خلال الشّقوق . بدا المكان مُحتفِيًا بالموت . لم يصنع الموت في (تدمر) مثل ما صنعتْه الحبال والأعواد . صار وجه الموت مقترنًا بها . صرنا نشمّ رائحته . صار له مرجعيّة . يسيل من عقدة الحبل العليا ، ويلتفّ مع الدّائرة ويشتدّ حتّى يتمكّن من روح الشّهيد . حين تخرج تلك الرّوح الطّاهرة يتخلّى عن اشتداده ويلين ، كأنّه هو الّذي عانى سكرات الموت . وكأنّه بخروج تلك الرّوح هو من ارتاح!!

وقف العسكريّ أمام (هارون) بعد أن أحكم لفّ الحبل على عنقه . رأيتُه يُكلّمه . ورأيت (هارون) يهزّ رأسه . لم أدرِ ما طبيعة الحوار

الّذي دار بينهما . فيما بعد علمت أنّهم يسألون الشّهيد الحيّ عن اسمه واسم أمّه ليوهموه بأنّ هناك تشابهًا في الأسماء وأنّه يُمكن أن ينجو من الموت إذا وقع هذا التّشابه . ولكنّ الموت لم يكنْ يعنيه هذا التّشابه من قريبٍ أو بعيدٍ ؛ كان ماضِيًا في ملحمته . يستصفي من الشّباب والكهول مَنْ شاء . ثمّ يقضي عليهم بالملك الّذي وُكّل بهم!!

بكى (قسطنطين) في ذلك اليوم كطفل . قال : أنا الّذي ألزمتُه أن يُسمّع لي ، حتّى وصل إلى قوله تعالى : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الّذِيْنَ قُتِلُوا . . .﴾ أنا الّذي ألجأته إليها . كان يُمكن أن نفعل ذلك في يوم آخر . تساءلتُ وهو يبكي ويتقطّع كلامه جرّاء بُكائه : ولكن ياً قُسطنطين هل تعتقد أنّك لو لم تُسمّع له هذه الآية أكان يُمكن أن ينجو من الموت؟! هل الموت لحظةٌ حائنة أم اختيارٌ قاصد؟! هل الموت يأتينا أم نأتيه؟! ألستَ تحفظ قوله تعالى : (لكلّ أجلٍ كتابٌ)؟! هدّأتُ من روعه رغم أنّني كنتُ أكثر حاجةً منه إلى من يُواسيني بهذا الفقد الكبير!!

في اليوم التّالي . فتح الرّقيب باب المهجع ، ونادي رئيس المهجع . خرج إليه (العميد) .

- كم واحد طلع من عندك مْبارِح؟!
- سبعة .
- حْزِنتْ عليهُنْ . . .؟!
- . . . . !!

كانت أيّ إجابة مُحتمَلة حتّى ولو كانت مع ما يريده الرّقيب أو ضدّه ستؤدّي إلى ضربٍ أو شتم أو تعذيبٍ من نوع ما . ولعلّ ترك الإجابة في مثل هذه الحالة خيرٌ من الإجابة نفسها وهذا ما فعله (العميد) .

لكنّ الرّقيب يبدو أنّه كان غير الرّقيب الّذي نعرفه في ذلك اليوم .
كرّر سؤاله :
- حْزِنْتْ عليهُنْ . . .؟!
- مين ما بيحزن عناس عاش مَعُنْ عالحلوة والمرّة سنين .
- بتؤمن إنو في الله . .؟!!
- إي . . . طبعًا . . .!!
- طيّب لا تخاف . . . (قال ذلك وهو يضع يده على كتف العميد بمودّة ، ثمّ تابع) :
- إزا في الله وآخرة إنتو الفايزين . . . وإزا ما كان فيه الله فَمَعناتُو أَكَلْتوها . . .!!
وخرج . تَرَكنا مشدوهين للحظات . ثمّ انقشع كلّ شيءٍ كأنّه زوبعة لفّت المكان ثمّ غادرتْه على عجلٍ!!
في مساء اليوم نفسه . أخرجونا من مهاجعنا . واصطفّ كلّ مهجع أمام مهجعه في السّاحة . كانت السّاحة تضمّ ستّة مهاجع . تجمّعنا في السّاحة ما يقرب من ألف سجين . ثمّ طلع علينا (أبو نذير) يرافقه دزّينة من الحرس . ووقف على رأس السّاحة . وصاح :
- في حدا مضايقكنّ . . . في حدا عم يسيء معاملتكنّ . . .
فنصمت صمت القبور أو الحجارة . . . فيغضب . . . فيصيح من جديد :
- في حدا مضايقكنّ . . . في حدا عم يسيء معاملتكنّ . . . احْكوا لا تخافوا . .
ونصمت - نحن الألف سجين - صمتًا أشدّ من سابقه ، فنحن نعرف من (أبو نذير) وما هي وعوده . وما هي عاقبة الّذين تكلّموا بحضرته سابقًا .

- والله هلق عـــهـــد الدّيمقـــراطيّـــة . . . عَمْ أحـــاول حَـــسِّنْ أوضــاعكُنْ . . . هه مين بدّو يحكي . . . كـأنّي ســمـعت حـدا هوني همس . . .

ثمّ يلتفّ يمينًا فـينخلع قلب الّذين تطلّع في وجوههم رعبًا من أن تنزل بهم صاعقة العذاب الهون . . . ولّما لـم يتكلّم أحدٌ . . . صار يدور بين الصّفوف وينتقي أشخاصًا بطريقة عشوائيّة :

- إنتا شو إسمك . . .؟!

- عبد الرحمن . . .

- سجلو إسمه . . .

- وإنتا . . .؟!

- سلمان . . .

- سجلو إسمه .

فعل ذلك مع عشرة انتقاهم بمزاجيّته . ثمّ وجّه كلامه لمعاونه :

- بكره هَدول العشرة نَفْسوُّنْ عَ المزبوط .

في فـجـر اليـوم الّذي تلاه تـدلّت أجـســاد العـشـرة من تحت أعـواد المشانق!!

(٢٨)
إنّ أصغَرَ أبنائكَ قد مات

لم نرتحْ من موتٍ إلاّ لنستعدّ لموتٍ جديد . كنّا في حضرة الموت مقيمين . ومن مائه عابّين . وتحت شجرته مستظلّين .

كان (أبو نذير) يغيب طويلاً حتّى نكاد ننساه ، أو نقنع أنفسنا أنّنا نسيناه ، ثمّ يظهر فجأة فيظهر معه الموت والعذاب والرّعب . في غيابه كثيرًا ما يتخلّى الموت عن دوره لعذاباتٍ أفظع . أفظع ما واجهناه في (تدمر) بعد الإعدامات والتّعذيب الجسديّ هو الأمراض . بدأت الأمراض تتفشّى فينا كأنّنا كنّا خالين من العذاب قبلها . جاءت لتنقلنا إلى الموت فنراه بأعيننا ونعايشه ولكن دون أن يفترسنا . كان الموت يجلس في الزّاوية مثل غولٍ ينظر إلينا من بعيد نتلوّى بين ثعابين الأمراض ، وهو يبتسم لأنّنا أرحناه ولو قليلاً حين سلّمَنا زبانيةُ المعتقل إلى أحضان أمراض لا ترحم!!

من الّذي قال لِلأمراض بملء فيه : أهلاً وسهلاً ومرحبًا؟! إنّها قصّة طويلة ومملّة أحيانًا . ولكنّ شيئًا ما في بعض تفاصيلها يستحقّ أن يُروَى . . .!!

تحوّل بعض البلديّات مع الزّمن إلى وحوشٍ مفترسة تنهش في جسدنا أكثر ممّا يفعل زبانية العذاب أنفسهم . كانً أكثرهم بلا أخلاق . ولطول عهدهم هنا . وقلّة صبرهم على مدد محكوميّاتهم تحوّلوا إلى كلابٍ في أيدي الرّقباء والعساكر . وكانوا أداة اقتصاص يستخدمها

هؤلاء العساكر حين يطيب لهم أن يتفرّجوا على ضحاياهم يُعذّبون أمامهم وهم يضعون رجلاً فوق رجلٍ .

في يوم الحلاقة كان يتمّ جزءٌ من هذه الأهوال الّتي لا تُصدّق . قال أحد العساكر مرّة لأحد هؤلاء البلديّات . وكان تحت يده أحد المساجين الّذين حقد عليهم ذلك العسكريّ . أمّا البلديّة فكان يحلق لهذا السّجين . اقترب العسكريّ من البلديّة وموسى الحلاقة في يديه يحلق للسّجين . همس العسكريّ في أذن البلديّة وتراجع إلى الخلف . ابتسم البلديّة نصف ابتسامة وهزّ رأسه وظلّ صامِتًا . بعد أقلّ من دقيقة كان السّجين يصرخ ويستغيث . ويقفز مكانه . كانت يداه مُقيّدتين فلم يستطع أن يتدارك نفسه . اجتمع عليه عدد من الحرس . استمرّ في صياحه واستمرّ الدّم يثعب من جهة أذنه . تقدّم البلديّة إلى العسكريّ الّذي وشوشه ، وقدّم له ما في يده . تناولها العسكريّ ؛ كانت قطعةً من أذن ذلك السّجين المسكين . وفيما كان صراخ السّجين يتعالى ,والحرس يلتفّون حوله يُوسعونه مع ذلك ضربًا كان العسكريّ يمدّ أصابعه الّتي التقطت أذن تلك الضّحية ، ويضعها تحت أسنانه يعضّ عليها كأنّه يفرّغ شحنةً هائلة من الحقد والضّغينة ، ثمّ يلوك تلك الأذن بين فكّيه ، ثمّ يلفظها ، ويُتبع ذلك بسيلٍ من الشّتائم . . .!!

لم يسلم أحدٌ من الّذين وُضعت رؤوسهم تحت رحمة أمواس البلديّات من الجراح . الّذين لم يفقدوا جزءاً من آذانهم عادوا إلى مهاجعهم مستبشرين . إنّها نعمةٌ عظيمة ؛ صحيح أنّ وجوههم امتلأت دمًا ، ولكنّها جراح بسيطة وهي أمور معتادة . المهمّ أنّ آذانهم ما زالت سليمة ، وها هي - وهم يتحسّسونها - تنتصب على جانبي وجوههم بكبرياء .

هل بعض العذاب أهون من بعض؟! هل يفرح السّجناء لأنّ

رقابهم ما زالت قائمة على أكتافهم حين يرون أن عدداً من زملائهم الّذين شاركوهم طعام الفطور اليوم قد خرجوا إلى غير رجعةٍ من بعده توًّا؟! هل الأمور نسبيّة؟! هل نظريّة النّسبيّة هذه صالحةٌ للتّطبيقِ هنا في أتون العذاب المرّ الجارف الحارق؟!

هل تكفي الإنسانَ كِسرةُ خبز، وقطرةُ ماء، وكلمةٌ طيّبة من أجل أن يعيش مَلِكًا؟! بلى. في (تدمر) من حصّل أوّل اثنتين أحسّ أنّه امتلك الدّنيا بحذافيرها. كانت الثّالثة صعبةً وعزيزةً. ولكنّ بعضنا كان يُعوّض بعضنا الآخر عن فقدانها باستحضارها أو مُحاولتها!!

الكلمة الطّيّبة شجرةٌ مُورقة إذا وقعت في القلب أحيتْه. كنّا جوعى إليها جوعًا دهريًا. وعطشى إليها عطشًا أبديًا؛ إلى تلك الّتي تنزل على القلب بردًا وسلامًا. كان الحرمان من الأهل والأولاد يعتّق مشاعر الأسى في القلوب، يختلط هذا الأسى بالدّماء، فيمتلئ القلب وجعًا. يُصبح هذا الوجع مُمكنًا تأجيله بكلمة طيّبة. وكان يمكن أن نخفّف من كثافته ببسمة صافية. لكنّ السّؤالَ الأنكى: هل كنّا في السّجن قادرين على أن ننتقي كلماتنا الطّيّبات وبسماتنا الصّافيات؟!

نادوا على دفعة جديدة للسّاحة السّادسة؛ السّاحة الأكثر استخدامًا في تاريخ الإعداماتً هنا وإنْ لم تكن الوحيدة حين تدعو الحاجة إلى غيرها. كذّبْتُ سمعي في البداية. ولكنّ اسم أخي لا يُمكن أن تُخطئه الأذن. نادوا على: أحمد عبد القادر أسعد. إنّه أخي بالفعل!! ارتعشتُ حالما عَبَرَ الاسمُ قنواتِ الأذن. ارتجفتُ حين استقرّ في تجاويف الدّماغ. خفق قلبي كجناح ذبابة. وارتفعتْ دقّاته حتّى سمعتُها بوضوح. وعلا صدري وهبط في اهتزازيّة جنائزيّة عجيبة. غامت الدّنيا في عينيّ، وسمعتُ طنينًا يضرب أذنيّ. سارعتُ بالجلوس على الأرض حتّى لا أفقد توازني. هدأتُ قليلاً. شردتُ

بذهني إلى البعيد . رأيتُه عبر مراحل حياته مذ كان طفلاً إلى أن شبّ . تجرّعنا معًا بعض المرارات في القرية . غير أنّ هذه المرارات العابرات لم تكن لتحول دون أفراحنا المالئات صدورنا ، والعامرات قلوبنا .

قيل لي - فيما بعد - إنّ أخي حينَ نودِي على اسمه طاف على كلّ زملائه في المهجع ، ووقف أمام كلّ واحدٍ منهم مُبتسِمًا ، فأخذ من هذا قطعة حلوى فأكلها بشهيّة كبيرة ، ومن هذا كسرة خبز فالتقمها ، ومن ثالث حبّة عنب فهرسها تحت نواجذه . ومن رابع قطعة جُبنٍ . . . وهكذا حتّى طاف بإخوانه جميعًا . كان أخي سهلَ المودّة ، بسيط السّلوك ، ودود العِشرة . وكان يحبّ الحياة . . . ولم يكترث فيها لوجدٍ أو فقدٍ . عاش حياته بيسر ، ومات هكذا ببساطة لمجرّد أنّ سمّاعة السّجن فغرت فاها باسمه . لم يؤذِ أحدًا في حياته ولو كانت هرّة صغيرة . كان يألف الفراشات في الحقول ، وتألفه . كان يحبّ الطّبيعة كلّها وتحبّه . لم يُجأ به إلى هنا خطأ ، ولا لأنّه ارتكب ذنبًا . جيء به إلى هنا لأنّ ظلمًا ونكايةً وعدوانًا واستبدادًا وطُغيانًا يُصبّ بطريقةٍ عشوائيّة على الأصفياء . حاله في ذلك حال الكثيرين هنا . . .!!

راقبتُه . . . مشى إلى المشنقة مقيدّ اليدين ، واثقًا هازئًا . . . أعرفه تمامًا ، كان يمشي ساخرًا من كلّ ما يحدث ، غير عابئٍ بكلّ ما يجري من ترهيبٍ وترعيب ، غير مكترثٍ لكلّ صيحات الجلاّدين الّتي تتوعّد كلّ شيءٍ تقع عينها عليه . . . خطواته كانت واسعة كأنّما يركل في طريقه كلّ خوف أو ذعرٍ أو استجداء . . . لم يكن مُطمّش العينين . . . كان قليل الحظّ إذ يشهد موت الآخرين وموته . . . ومن يدري قد يكون وافر الحظّ في هذا . . . وفي حالة مثل حالة أخي لا بدّ أنّ منظر المتدلّين من تحت الحبال لن يشكّل له فرقًا إلاّ في مستوى الثّبات . . .

نظر بهدوء حوله كأنّما يستكشف المكان . . . حانت منه التفاتة إلى حيثُ مهجعنا . . . خفق قلبي بسرعة . . . رجوتُه في نفسي أن يُديم النّظر باتّجاهنا حتّى أشبع منه . . . أو حتّى أملأ عينيّ منه لكي تبقى صورته المُنطبِعة في خيالي عونًا لي في سواد الأيّام القادمات الحالكات . . . رجوته ألاّ يُدير عن مهجعنا صفحة وجهه حتّى تلتقي عيناي بعينيه فأغرف منهما نورًا ويقينًا . . . وأودّعه وداعًا يليق به كفارس . . . ويليق بتاريخه كعاشق . . . غير أنّ نور عينيه ما لبث أن اختفى حالما أدار وجهه في دورته الأخيرة وهو يتفحّص المكان . . . التقى دوران نظراته مع دوران الأرض حول محورها فانبثقت المعجزات ، وتشكّلت المكرمات ، وحضرت البطولات . . .

اقترب منه العسكريّ . . . ظلّ أخي مرفوع الرّأس ، لم يُدنِه لكي يُساعد الجلاّد في مهمّته . . . احتاج الجلاّد إلى أن يرتقي إلى هامة هذا البطل المغوار . . . نظر أخي في عينيه فارتجفتْ ساقا الجلاّد . . . لم ترتجف هاتان السّاقان لأنّ أخي كان حاقدًا أو ناقِمًا على هذا الّذي يقدمّه السّاعة للموت . . . بل أعتقد أنّ أخي نظر في عينيه بودّ . . . ورمقه بحنان . . . وحدجه برحمةٍ وإشفاق . . . ولهذا ارتجفت ساقا الجلاّد . . . لم يعتدْ الجلاّدون في حياتهم على عينين مثل عينَي أخي تفيضان بكلّ هذا العطف والمودّة . . . لقد تعودت عيونهم على القسوة والغلظة والشدّة والبغضاء . . . وإنّ الكُره ليرتجف أمام الحبّ ، وإنّ الحقد ليهتزّ أمام التّسامح ، وإنّ القسوة لترتعش أمام الرّقة واللّين . . . فكان لا بدّ لجلاّد مثله أن ترتعد كلّ فرائصه أمام طوفان الحبّ الّذي واجهه أخي به في تينك العينين الحالمتين العاشقتين . . !!

شدّ العسكريّ الحبل حول عنق أخي ، أحسست أنّه شدّه على عنقي . . . تمنّيتُ لو رحمه قليلاً فلم يُضيّقه عليه إلى هذا الحدّ . . .

ولكنْ ما الفائدة والحبل سيُنهي حياته بعد قليل، سواءٌ أكان ضيّقًا حول العنق أم واسِعًا!! لم يُحِط الحبل بعنق أخي، بل أحاط بقلبي... انقبض قلبي، واهتزّ كأنّه أراد أن يُغادر الضّلوع... اختنقتُ كأنّ هذا القلب الّذي بين جوانحي قد انضغط إلى الأعلى حتّى بلغ حنجرتي... رجّعتُ... فرجع قلبي إلى مكانه... تعاون ثلاثةٌ من الخلف على رفع قوائم المشنقة... ارتفع جسد أخي قليلاً... شدّ الثلاثة القوائم بسرعة... تأرجح جسد أخي في الفراغ... تبعته في تأرجحه هالةٌ من النّور أضاءت المكان كلّه حتّى غشيت عيون الجلاّدين... ظلّ يتأرجح هذا العملاق في دورة البطولة حتّى ثبت... غادرتْ روحه جسده إلى السّماوات، لكنّ عينيه ظلّتا تُشعّان بالنّور والمودّة...

تقدّم طبيب السّجن (يونس)، جسّ عرقه. تأكّد أنّه ترك لهم جثمانه فحسب. كان الجثمان حيًا لوجود الرّوح فيه. حين تغادر الأرواح أجسادها تترك خلفها بيتًا خربًا لا قيمة له. القيمة كلّها للرّوح. والرّوح ليست بين أيدي هؤلاء الطّغاة، إنّها بين يدي أرحم الرّاحمين... فهنيئًا لمن لم تبق روحه مرتهنةً عند بعض المرتزقة من الجلاّدين!!!

قام المهجع كلّه فعزّاني بشقيقي. صلّى بأجمعه معي عليه صلاة الشّهداء. حتّى قسطنطين نفسه وقف إلى جانبي ورفع يديه وصلّى معنا!!

حملوه هو ورفقاءَه، رَمَوهم في قعر سيّارة الجيش العسكريّة، ومضوا بهم إلى الصّحراء كالعادة... على أيّ ثرى استقرّ جسد أخي...؟! هل أبقوه مكشوفًا يعاني الرّيح والهوامّ هؤلاء الّذين لا إنسانيّة عندهم؟! أم استيقظ بعضُها عند بعضهم، فحفروا له

وللمغدورين الآخرين ولو حفرةً واحدة ودفنوهم ولو في مقبرةٍ جماعيّة تحفظ لهم بعض الكرامة؟!!

يا وَجَعَ الأيّام الذّابِحْ . . . يا وَجْـهَ الطُّغْـيـان النَّابِحْ . . . قَـتَلَتْنا الهَمَجيَّةُ في عَصْرِ الإنْسان الأوَّل حَيْثُ الغادي يَفْتَرِسُ الرَّائِحْ . . . ما نَحْنُ وَمَنْ نَحْنُ وَكَيْفَ نُعيدُ لإنْسانيَّتنا المَطْعُونَة رُوحًا؟! مَنْ فينا الخاسِرُ والمَهْزُومُ وَمَنْ فِينا الرّابِحْ . . . في عَـهْد تَتَسَلَّى فِيه الأَنْظِمَةُ المَسْعُورَةُ بِالقَتْلِ وَسَلْخِ الجِلْدِ وَشُرْبِ دَم المَنْحُورِينً السّافِحْ!!

كيف سأقول لأبي - أين أبي - إنّ أصغر أبنائك قد مات . . . كيف سأنقل هذا الخبر لأمّي . . . أمّي الّتي أحبّته أكثر واحد فينا . . . بل أكثر منّا مجتمعين . . . كيف سأقول إنّ المهندس الّذي كان يُمكن أن يصبح عالمًا ويصنع لبلده ولأمته مجدًا قد اغتيل وهو في الرّابعة والعشرين . . .؟! إنّها آلاتٌ موكّلة بقتل النّوابغ . . . إنّها أنظمة موكّلة بخنق البلابل ، وذبح العصافير . . .!!

(٢٩)
الأقمارُ ترحلُ سريعًا

السّجون لا تحمي الأنظمة القمعيّة، والمذابح لا تُثبّت سلطتها. والإكراه لا يجلب الاعتقاد. على العدل قامت السّماوات والأرض. وعلى الظّلم أن يكون جديرًا بإسقاط أعتى الكيانات وأقواها وأطولها حكمًا.

رحل عنّا في السّنة الماضية وحدها من مهجعنا وحده واحدٌ وأربعون قمرًا. وجاءت دفعة جديدة، أهمّ ما ميّزها أنّ كثيرًا من هذه الدّفعة الّتي وفدت إلينا من ضبّاط الجيش. اثنان تصدّرا المشهد بسرعة، ودخلا في أجواء المهجع دخول الورقة السّاقطة من الشّجرة في مجرى النّهر الرّقراق. الأوّل عقيد في سلاح الجوّ، وهو طيّار اعتقل بتهمة الخيانة العُظمى، واسمه حسن شافع. والثّاني قائد فرقة مشاة برتبة عميد واسمه حميد بيطار، وقد اعتقل للسّبب نفسه الّذي اعتقل من أجله الطّيّار. كان الرّقيب أوّل انضمامهما إلينا هنا في هذا المهجع يتقصّدهما، ويستمتع بالسّخرية منهما. يناديهما. فيقول للأوّل:

- إنتا وْلا . . . شو رتبتك؟!

- عقيد . . .

- افتح إيديك ولا . . .

فيفتحهما العقيد، وينهال الرّقيب عليهما بالضّرب وهو يقول:

- شلون هَيْ . . .؟! أنا رقيب عم بضربك وْلا وإنتا عقيد؟!!

ويفعل الشّيء ذاته مع قائد فرقة المشاة . . . هكذا كان المهجع ينصاع رغمًا عنه لحفنةٍ من الأوباش لم تعرف في حياتها غير الحقد والأذى ، ولم تتلذّذ في حياتها مثل تلذّذها بمنظر الدّماء وهو يغطّي الوجوه والأجساد . ولم نكن نملك خيارًا . كان قَتْلُ أحدنا أهون على جلاّدينا من قتل ذبابة أو سحق صرصار . وكان بعضُنا يرى في الحفاظ على حياته واجِبًا . ولكنّ هذا الحفاظ على الحياة تطلّب ثمنًا باهظًا ربّما كان يفوق ثمن الموت نفسه ، ولذلك بعضنا فضّل الموت على أن يدفع هذا الثّمن الباهظ والمُذلّ!!

ولكنْ . . . حتّى الموتى لهم حقوق . أمّا نحن المنزوعين منّا والمغروسين رغمًا عنّا هُنا فلا نملك حتّى هذه الحقوق المسلوبة!!

كان من الممكن لجلاّدينا هنا أن يلعبوا علينا القمار . . . ويقامروا بنا ، ويخرجوا خاسرين في كلّ مرّة . . . وتُطيح بأعناقنا المشانق لا لشيءٍ إلاّ من أجل لعبة قمار فاز فيها هذا الرّقيب أو خسر فيها آخر . . . كنّا أدوات يُمكن أن نفقد أعناقنا لأقلّ من لعبةِ قمار . . . لمزاج مثلاً . . . أو لتَحدٍّ بين جلاّدَين . . . أو لمجرّد إطفاء شهوةٍ عند ساديّ يحبّ رؤية الدّماء تتدفّق والأجساد تتأرجح!!

في السّجن ، لا يُمكن إنقاذ الرّوح دائمًا . في السّجن لم نكن نعدّ تطويح الجسد بعقدة الحبل المألوفة هَدْرًا للرّوح . فَقْدُ الرّوح الّذي كان كثيرٌ منّا مُرشّحًا أن يعاني منه يعني ببساطة أن تتخلّى عن كونك قادِرًا على الحياة . حين تكفّ محاولاتنا عن استثمار بهجة الحياة أو التّوق إلى مواردها العذبة كنّا ننتهي ، حتّى ولو لم نُرفع على الأعواد . نعم ننتهي كورقةٍ أخيرةٍ في غصنٍ يابسٍ تلهو بها الرّيح حتّى رمقها المنذور للنّهاية المحتومة ؛ فرصتها في الإبقاء على نفسها في مكانها من الغصن

تكاد تكون مستحيلة . في لحظةٍ خاطفة تلتصق الورقة بهذا الغصن التصاقًا حميميًا مُطلقًا ، ثمّ تُذعن للأقدار فتنفصل انفصالاً خاطفًا لتخلّف الغصن من بعدها عارِيًا من كلّ شيء . . . وتستمرّ الورقة في تقافزها الأرعن اللاّإراديّ في فضاء يضجّ بالرّياح ، ويزمجر بالعواصف!! إنّه الانفصال ، في لحظةٍ وامضة مثل هذه اللحظة كان كلّ واحدٍ فينا مُخوّلاً أن يفقد عقله وإلى الأبد!!

الجنون كان ثمرةً من ثمار امتلاء القلب . والصّبر كان ثمرةً من ثمار استبقاء العقل . حين قاومْنا الجنون استطعنا أن نصبر . أنّى للّذين فقدوا عقولهم أن يصبروا؟!!! كلّ شيءٍ هنا كان يدفعنا إلى الجنون ، إذًا كلّ شيءٍ كان قادِرًا على أن يُفقدنا الصّبر!!! مَنْ صبرَ نجا . ومَنْ تخلّى عنه الصّبر جُنّ . ومن جُنّ ألقى بنفسه في أرجوحة الخواء!!

لم يكن صعبًا علينا أن تأتي النّهاية أو أن نواجهها . الأصعب كان السّؤال المُحدّق في الفراغ اللانهائيّ : متى يُمكن أن تجيء هذه النّهاية الرّائعة؟! انتظارها كان أصعب منها حتّى ولو كانت تُفضي إلى الموت المادّيّ ؛ الحقيقيّ ، انفصال الرّوح عن الجسد ، الإلقاء في غيابات الصّحراء ، امتلاك الوحوش الحقّ الإلهيّ بأن تنهش ما تبقّى من لحمك في تلك الصّحاري!!

هؤلاء الّذين يتفنّنون في تعذيبنا : ما الّذي يدفعهم إلى ذلك؟! ما السّرّ الّذي يجعل قلوبهم تمتلئ نحونا بعاصفة هوجاء من الحقد الأعمى؟! ما السّحر الّذي يأخذهم فيجعلهم في غيٍّهم يعمهون ، فلا يتركون لنا مسافةً لنلتقط أنفاسنا من تعذيبٍ مرٍّ حتّى يُدخلونا في تعذيبٍ آخر أشدّ وأمرّ . نحن المرتهنين هنا بقينا ثلاث سنوات لا نستطيع النّظر في وجوه جلاّدينا . . . نحن لا نعرف حتّى أشكالهم ، فمن أين جاء هذا الحقد الأسود الّذي يتحوّل إلى حمم براكين

مُتفجّرة، وشُواظ نيران مُستعرة، فينصبّ على أجسادنا الواهنة انصبابًا؟! لا أذكر أنّني ومن عاش معي هنا في هذه البقعة المنسيّة من جغرافية بلدي . . . . لا أذكر أنّنا قتلنا أحدًا منهم أو قريبًا لهم . . . أو حتّى آذيناه بسلوكٍ أو حتّى بكلام . . . دخلنا ونحن لا ندري لِمَ؟! وعُذّبنا ونحن لا ندري فيمَ؟! ومُرِّغتْ أجسادنا في الرّغام كلّ هذه السّنوات ولا ندري إلامَ؟! ورُفِعتْ أعناقنا على أعواد المشانق ولا ندري علامَ؟!!!

من أين يستمدّ الطّغاة جبروتهم؟! كيف تكون لهم هذه القلوب الّتي لا تعرف رأفةً ولا رحمة؟! أليس لهم من أصلابهم أبناء وحَفَدة . . .؟! ألا ينظرون إلى البراءة في عيني طفلٍ لاهٍ فترقّ لمرآه قلوبُهم . . .؟! ونحن هنا : أما من قلوبٍ تتحرّك في حجراتها دماء الرّحمة . . .؟! أم أنّ هؤلاء القتلة قد نزع الله الرّحمة من قلوبهم فعادت أقسى من الصّخر، وأصلد من الحجارة ؛ ﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ، وَإِنَّ مِنْها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماءُ، وَإِنَّ مِنْها لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾!!!

صوتُ الحقيقة لا يُغطّي عليه طنينُ الذّباب . ونور الشّمس لا تحجبه سحابات الصّيف . وشجرة الحقّ لا تنزعها هوجُ العواصف . والجبال الرّاسخة تهزأ بالنّسمات العابرة!!

قد يكون الموت قَدَرًا محتومًا . ولا يهمّه الأرض الّتي سأموت عليها، وألفظ فوقها أنفاسي الأخيرة . غير أنّني – بالضّرورة – لا أرغب في الموت على هذه الأرض الخبيثة هنا!!!

(٣٠)
الحياةُ... مُحاوَلةٌ لِلفَهم

ما الحياة؟! كيف تتبدّى هذه الحياة الّتي يُهاجمنا شعورٌ صارخٌ بأنّنا توّاقون إلى أن نحياها؟! ما شكلها؟! ما كُتلتها؟! طولها . . . عرضها . . . كثافتها . . .؟! نسبة الحموضة فيها . . . نسبة الملوحة . . . نسبة العذوبة . . .؟! كيف تتشكّل . . . وفيم نحن نتلهّف إلى وجهٍ من وجوهها . . . وهل نظرة المحرومين هنا إلى الحياة لا تشابهها نظرة الرّاتعين في نعيمها خارج هذه الأسوار؟! ما سرّها تلك الّتي تأخذنا في طرفة عينٍ إلى فضائها فنسقط صرعى متعطّشين للإحساس بمتعتها؟! وما حدّ متعتها؟! ما أوّله . . . ما أوسطه . . . وما آخره؟!!!

هناك خارج هذه الأسوار العالية . . . في السّهوب . . . في تلك التّلال المحيطة بدمشق . . . طفلةٌ تقطف زهرة . . . طِفلٌ يلهو بِكُرة . . . شاةٌ تثغو تحت شجرة . . . طيورٌ تحوم حول الهضبات الشّاهقات . . . ونهرٌ يسير وادِعًا في السّهول ، حتّى إذا اعترضتْه صخرةٌ في الوادي تخلّى عن وداعته فراح يهدُر . . . نحلةٌ تحطّ على بتلة زهرةٍ تهمّ بأن تفتح ذراعيها للنّور . . . رجلٌ يمشي لمجرّد أنّه يريد أن يمشي . . . أمّ تركض خلف طفلها الّذي تجاوز السّياج باتّجاه الشّارع . . . وذئبٌ يرتقي هضبةً في اللّيل فيرسل عواءه إلى القمر . . . وشاعرٌ يقف تحت شبّاك حبيبته لينتقي لها كلماتٍ ناعسات وهي لا تشعر بوجوده . . . وفتاة تتحسّس صدرها الّذي اكتنز . . . وفتىً يشعر للتّوّ بماء الحياة يسيل . . .

وإطارٌ في صدر البيت يسقط على الأريكة دون سابق إنذار . . . وفلاّح يهوي بفأسه على بعض الجذوع اليابسة ليتّقي زمهرير الشّتاء . . . وأغنيةٌ تُسافر في الفضاء تنثر الفرح على العابرين . . . هذه الحياة . . . محاولةٌ أولى لتعريفها!!!

نحبّ الحياة . خلقنا لمباهجها . فإذا زجّوا بنا في النّار اليوم ، فلا بأس أن تنضج أجسادنا قبل أن تتحمّم بالنّور وتغتسل بالنّدى حال خروجها . حينَ أخرج من هذا الجحيم سأعبّ من ماء الحياة ما يكفيني لكلّ الغيابات المحتملة . سأشرب من كأسها حتّى الثّمالة . سأرقص في ساحاتها حتّى أدوخ . سأعوّض الحرمان الّذي لفّ كلّ خليّة في جسدي إلى عطاءٍ دائم . سأتسلّق كلّ الأشجار الّتي لم أتسلّقْها من قبل . سأشمّ كلّ الورود الّتي مررتُ بها دون أن أعيرها التفاتي ، وأملأ برائحتها رئتيّ حتّى تَسكَرا عِطرًا . سأركض في المسافات حتّى تأكل الأرض من قدميّ . سأفتح ذراعيّ للشّمس حتّى تسقط بينهما . سأسبح في كلّ الأنهار والجداول الّتي وقفتُ على ضفافها في السّابق كأبله . سأحمل ابنتي على كتفيّ وأطوف بها كلّ حواري القرية مثل مجنون . سأقف على أبعد تلّة تقابل بيتنا وأصرخ بملء فيّ حتّى يسمعني كلّ إنسٍ وجنٍّ على التلّة المقابلة . سألوّح بيديّ لكلّ العابرين في الطّرقات حتّىً تتقطّع يداي . سآكل من كلّ ثمار الأرض حتّى ينتفخ بطني . سأبني من الحجارة منارةً وأصعد فوقها لأرى البعيد المجهول الّذي تغطّيه الجبال . ثمّ أنزل فأهدم برجي بيديّ . ثمّ أعود فأبنيه من جديد ، وأصعد لأنظر نظرةً أخرى . ثمّ أنزل عنه فأهدمه . ثمّ أبنيه ، فأهدمه ثمّ أبنيه . . . حتّى أموت . سأجمع مئة فراشة من مئة لونٍ وأصوغ منها لوحةً لم يصغها فنّان قبلي . سأنادي كلّ العصافير والبلابل والحساسين والسّنونوّات والحمامات والدّوريّ والعُقاب والنّسر

والصّقر ، وأصيح فيها بعشقٍ مُخثّر : يا طيور الشّام اتّحدي!! هذه هي الحياة . . . هذه الحياة . . .

يا الله . . . خذني ريشةً في جناح طائر . أو نسمةً في ربيع عابر . أو خطوةً في طريق سائر . أو نغمةً في غناء حائر . أو كلمةً في قصيدة شاعر . أو رصاصةً في بندقيّة ثائر . هذه هي الحياة . . . هذه هي الحياة . . .!!

يا الله اجعلني كفًا من دعاء . وصوتًا من رجاء . وهالةً من ضياء . إذا انقضّت على الأضلاع الهموم . وتكالبت في الصّدر سوداء الغيوم . ولم يبق لكلّ مظلوم . غير أن ينادي : يا حيّ يا قيّوم . هذه هي الحياة . . . هذه هي الحياة . . .

في السّجن يشتبك العقل مع الفؤاد . وتضطرم النّيران في غضّ الأجساد . ويستحيل الدّم إلى مداد . ويخطّ على الصّدر آية الصّبر في الشّداد : (إنّ هذا لرزقنا ما له من نفاد) . هذه هي الحياة . . . هذه هي الحياة . . .

الظّلال هنا الّتي تشكّلها جدران العنابر والمهاجع ليست تلك الظّلال الّتي تشكّلها هناك أشجار الحور على ضفاف الجداول . الظّلاّن مختلفان ولكنّ الحياة هي الحياة!! السّماء الّتي تبدو لُمستَرِقي النّظر من خلال الشّرّاقة هنا ليست السّماء الّتي تبدو لمستلق علَى بساط أخضر ويرسل طرفه في الأعالي . السّماءان مختلفتان ولكنّ الحياة هي الحياة!! الفارس البائس الّذي يقبع خلف القضبان يعدّ أيّامه ليس هو الفارس الّذي يحمل رمحه ويعدّ في المعركة ضحاياه . الفارسان مختلفان ولكنّ الحياة هي الحياة!! اللّقمة الّتي نأكلها هنا مغمّسةً بزيت القهر والاضطهاد ليست اللّقمة الّتي نأكلها بالعافية والهناء هناك . اللّقمتان مختلفتان ولكنّ الحياة هي الحياة!! الرّكض الّذي نضطرّ إليه هنا هاربين

من سياطٍ سوداء تلسع ظهورنا ليس ذلك الرّكض الّذي نركضه في السّهوب خلف الفراشات الملوّنة وتتبعنا من خلفنا الأيائل البيضاء . الرّكضان مُختلفان ولكنّ الحياة هي الحياة!! الّذي يوقظك هنا في الصّباح ظلفة الباب المفتوح على بطنك ؛ صرخة من ألم ليس هو الّذي يوقظك هناك يدٌ حانيةٌ من أمّ . المُوقِظان مُختلفان ولكنّ الحياة هي الحياة . . .!!

خلف الوادي انتشرت أشجارٌ هرمة إلاّ أنّها ظلّت خضراء على طول عمرها الّذي تجاوز مئات السّنين . . . وقفتُ أمام شجرة لزّاب عتيقة ، وخاطبتُ فيها الرّاحلين جميعًا من جدّي إلى جدّتي إلى عمّتي إلى حمار جارنا إلى كلب صديقي إلى قطّة جارتنا إلى ببّغاء أخي : لقد شهدتكم هذه الشّجرة العتيقة . أنتم مضيتم وظلّت هي باقية . أنتم شربتم من ماء الموت وهي ظلّت تُسقى من ماء الحياة . أنتم ذبلتم وظلّت هي مخضرّة . أنتم توقّفتم عن العطاء عند حدّ الثّواء ، وهي ظلّت تعطي كأنّها من النّهر نفسه تستمدّ البقاء . أنتم انبتتم من جذوركم فسقطتم على جبهاتكم في حُفر التّراب ، وهي ظلّت تضرب جذورها في التّراب ورؤوس أغصانها في رحب الفضاء . أنتم فانون وهي إلى الآن باقية . وأنا عمّا قريب لاحقٌ بقافلتكم . وستشهد هي أيضًا رحيلي . فلا تبعدوا كثيرًا ، فإنّ زمن بقائي قصير ، ولكنّ زمن وحشتي طويلٌ طويلٌ . . . وفي كلّ منعرج في هذه الدّروب تمدّ الشّجرة غصنًا من أغصانها لتهمس في أذنيّ : هذهً هي الحياة . . . هذه هي الحياة . . .!!

الرّاعي الّذي يسوق غنمه على خضراء التّلال ، ثمّ يوردها من النّهر الماءَ الزّلال ، لم يتحمّل خطيئة الرّاعي الّذي يسوق البشر إلى قدور الذّلّ فيرغمها على الشّرب منها قهرًا ومهانة . ولكنّ الرّاعيين يعيشان في الحياة نفسها . لم يشعر راعي الحقول بضيقٍ في صدره يومًا

ولكنّ راعي البشر يحسّ بانقباضٍ في صدره كلّ لحظةً وكلّ حين . لدى راعي الحقول أذنٌ تطربُ لنغمةٍ ضلّت طريقها إليه ، ولدى راعي البشر آلاف الآذان ولم يُرَ مرّة واحدةً في حياته طروبًا ، ظلّ يتجهّم حتّى للعطر الّذي تنثره حدائق قصره الغنّاء صباح مساء ؛ هذه هي الحياة . . . هذه هي الحياة . . .!!

الحياة ساقيةٌ تدور . . . شَرِبَ من مائها أبي ثمّ مضى . وشربتُ من مائها حتّى ارتويت ، وإذْ أرتوي سيكون عليّ الرّحيل كأبي من أجل أن أترك المكان لطفلتي المتأهّبة للتّو كي تشرب من هذا الماء المستمرّ . الأشجار الّتي تتعرّى في الخريف هي ذاتها الّتي تكتسي بالخضرة الطّافحة في الرّبيع!!

حينَ تُمدّدون جسدي في القبر : تريّثوا قليلاً قبل أن تُهيلوا عليه التّراب . اقرؤوا عليه آيةً أخيرةً لتسكن آخر نبضات قلبه ، فقلبه لم يحمل إلاّ العشق ، ولم يُترَع إلاّ بالحبّ ، ولم يشكُ ولم يضجر . ظلّ راضيًا حتّى ثوى في الرّضى . ثمّ أشيروا إلى جسدي المُسجّى وقولوا : هذه هي الحياة . . . هذه هي الحياة . . .!!!

(٣١)
الأزرقُ والأحمرُ

نودي للتّنفيذ اليومَ عددٌ من المساجين . كان من ضمنهم أحد أبناء الأب السّبعينيّ ، الابن الطّويل الّذي أنشد : (أَبَتاهُ ماذا قَدْ يَخُطُّ بَنانِي؟!) . ودّعه أبوه وأخواه بالدّموع . مدّ الأخ الأصغر له كأسًا من الماء ليشرب . قال له : لن أشرب من ماء الدّنيا . سأشرب من ماء الجنّة بإذن الله . ها هو يرتحل إلى غير أوبة . ها هو يهمّ بدخول الباب الّذي لا عودة منه . بوّابة الموت تُفتح مرّة واحدةً ، وإنْ أغلقت خلف صاحبها فلا تستطيع قوّة في الأرض أن تُعيد فتْحها من جديد!!

قام أخواه وسارا معه من آخر المهجع ، وهما يشدّان على يديه حتّى وصل إلى أوّله ، أمّا الأب فظلّ كتلةً هامدةً في الزّاوية البعيدة دافِنًا وجهه في حِجره يبكي مصير ابنه . احتضنه العميد عند الباب وطبع قبلةً على جبينه ، وابتسم فيما كانت بعض الدّموع تترقرق في عينيه . ثمّ تراجع إلى الخلف يُداري بُكاءه . أمّا أنا فأخذت بيده من الباب إلى خارج السّاحة ، وظنّوا أنّني سأصحبه إلى ساحة التّنفيذ ؛ خافوا أن يُخطئ الجلاّدون فيضمّوني إلى قائمة المُعدَمين . لكنّني أشرتُ بيدي أنّني أريد أن أخطو معه بعض الخطوات في عالَم البرزخ . أريد أن أحسّ أنّني أمشي معه في طريقٍ مُفضيةٍ إلى الجنّة . أريد أن أشمّ بعض العَبَق الّذي ينتشر في الطرقاتٍ هنا وفي السّاحات هناك!! هل يُمكن أن تتبدّل السّاحات وتتغيّر الطّرقات حين تختلف الخطوات

الذّاهبات إلى مقاصدها . خطوات هذا الابن بلا شكّ لن تضلّ طريقها ؛ لأنّه لا يوجد طريقٌ أخرى تُفضي إلى تلك السّاحات سواها!! في المنتصف تركتُها له يُكملُها وحده . كان ذاهبًا إلى الحياة الآخرة . أمّا أنا فراجعٌ إلى الحياة الأولى . هما حياتان لكنْ شتّان ما بينهما . همستُ في أذنه قبل أن أغادره : أنا موقنٌ أنّك ستدخل الجنّة بإذن الله ، وموقنٌ بأنّك ستلتقي أخي هناك ، فإذا التقيته فبلّغه سلامي ، وقبّل رأسه عنّي!!

أمّا (أبو نذير) الّذي طاف بالسّاحة وبألف من المساجين قبل عدّة أيّام يسألنا عمّا ينقصنا ، وعن حاجاتنا ، فهو الّذي أشرف هذا اليوم على تنفيذ الإعدام في هذه المجموعة من الشّباب!!

حكم (أبو نذير) هذا السّجن بالحديد والنّار لعقدٍ من الزّمان . وحين تطول فترة الجالسين على الكراسيّ ، تلتصق هذه الكراسيّ بأجسامهم فتصبح جزءاً منهم ، وحينئذٍ يُخيّل إليهم أنّهم يملكون الحقّ في التّصرّف في مملكتهم كما يشاؤون ، ومن ضمن هذه المملكة نفرٌ من البشر يُدعون في عرف الإنسانيّة (مساجين) ، وفي عرف (أبو نذير) ممتلكات يُمكن المتاجرة بها ، والمقامرة عليها ، وبيعها كما تُباع الكلاب بأنواعها ، أو الدّواب أو الحيوانات أو المواشي!!

نَهَمُ (أبو نذير) إلى المال حوّله إلى حَيَوانٍ يأكل ولا يشبع . وصنع في المساجين وأهليهم العجائب . كان يجمع ملابس السّجناء الّتي تأتيهم من ذويهم ، ويقوم بحجزها ، ثمّ يفرزها إلى نصفين وصنفين : نصف رديء يبعث به لأصحابه ، ونصف جيّد يدّخره ، ثمّ يُنادي على عدد من مساجين البلديّات ، ويطلب منهم أن يطوفوا على المهاجع ليبيعوا له هذه الثّياب والملابس بأغلى الأسعار مستغلاً حاجة هؤلاء المحابيس ، وخاصّة في فصول الشّتاء . ولقد كان يحدّد (للبلديّات) سعر

كلّ قطعة ، ويُرغمهم على التّوقيع على استلامها ، ويضطرّهم إلى دفع كامل أثمانها بعد بيعها . وهكذا كان يُمكن أن يجد الواحد سترةً له أو قميصًا أو بنطالاً يُباع في السّوق السّوداء وهو يعلم أنّ هذه القطعة له ، ويراها تذهب إلى سواه ولا يملك أمام ذلك أن يحرّك ساكِنًا . كان (أبو نذير) لصًا كبيرًا ومحترفًا!! حتّى الطّعام الّذي كان يأتي لبعض المساجين ، كان يتخيّر أطيبه ويلتهمه مالئًا به بطنه ، حتّى أصبحتْ كَرْشُه تسبقه بخطوات ، قبل أن يظهر علينا ويُلقي فينا خُطبه العصماء .

أمّا الزّيارات فكان (أبو نذير) يستغلّها أبشع استغلال . وخاصّة أنّ الزّيارات كانت ممنوعةً في الوضع الطّبيعيّ ، ولا يُمكن أن يحصّل زيارةً إلاّ من كانت له واسطة كبيرة . وهذه الواسطة الكبيرة تحتاج إلى أن يدفع الزّائر فيها مبالغ طائلة ، ولا يقتصر الأمر عند هذا الحدّ ، فقد كان (أبو نذير) يضع تسعيرةً لكلّ زيارة ، فهناك زيارة خاصّة ، وهناك زيارة من خلف الشّبك ، وحتّى هذه الزّياة الّتي من خلف الشّبك لها مُحدّدات ؛ فقد كان لكلّ دقيقة فيها سعرٌ خاصّ . فخمس دقائق مثلاً بألفَي ليرة . وعشر دقائق بأربع آلاف ليرة . ونصف ساعة بعشرة آلاف ليرة . أمّا الزّيارة الخاصّة وفيها يُمكن أن تلتقي أفراد عائلتك وجهًا لوجه فقد كانت تصل إلى خمسين ألف ليرة!! وبالطّبع لم يكن أحدٌ منّا ولا أهله يملكون هذه المبالغ ، ولا عُشرها ، خاصّةً أنّ ذروة سلطة (أبو نذير) كانت في أواسط الثّمانينيّات . بل إنّ كثيرًا من المساجين هنا كانوا طلاّب بكالوريا أو سنة أولى جامعة ، ولم يكن في أيديهم ليرة واحدة!!

أثرى الرّجل على حساب المُعذّبين ، واستغلّ حاجاتهم استغلالاً بشعًا وقذرًا . وكانت أمّهات بعض الشّباب تصنع المعجزات ، وتدفع كلّ ما ادّخرتْه أو تستدين من كلّ من تعرف من أجل أن تحظى برؤية

وجه ابنها في السّجن ولو لدقائق معدودات . وتبقى تجمع المال لسنة أو لسنوات أحيانًا من أجل هذه الزّيارة الحُلُم . وعندما يتجمّع لديها المبلَغ المطلوب مقابل هذه الزّيارة ، تشدّ الرّحال إلى ابنها ، وفي أعماقها شوقٌ حارٌ ، وتوقٌ صارخ ، ولهفةٌ عارمة ، وقلبها يخفق كلّما تقدّمت باتّجاه القلعة الّتي يقبع فيها ابنُها . ولربّما كانت تقطع مئات الكيلومترات في الصّحراء اللاّهبة والشّمس الحارقة لكي تفوز بزيارةٍ كهذه ، مُحتمِلةً كلّ أذىً وإهانةٍ وتعب في الطّريق من أجل عيون ابنها الحبيب ، وعندما تصل يقول لها الرّقيب المسؤول عن الزّيارات :

- ابنك مو هون!!

- مو هون؟!!! كيف . . . هو هون؟! بدّي شُوفُو!! دفعت إلّي فوقي وإلّي تحتي مْشان شُوفُو!!!

فيشير لها إلى الصّحراء المقابلة وهو يقول باستخفاف :

- صار تحت التّراب . . . أَعْدَمْناه من سنة .

فتنهار . وتبتلعها دموعٌ لا يعرف واحدٌ في الكون حرقتها ولا أمومتها ولا مستواها من الوله والحنان على ابنها . ثمّ تعود خائبةً تلقي اللّوم على نفسها لا على الجلاّدين ؛ لأنّها لم تجتهد أكثر في جمع المال قبل أن يُعدموا حبيبها ووحيدها ، وقبل (أن تقع الفاس بالرّاس)!!

وامتدّت مطامع (أبو نذير) أكثر من ذلك ، فصار النّاس يجدون صعوبةً في الوصول إلى مكان سكناه في اللاذقيّة من أجل مقابلته ودفع ثمن الزّيارة ، ففتح ليخفّف عن البعيدين مكتبًا له بحمص ، وراح يكوّش على المال المتدفّق عليه من كلّ اتّجاه!!

ويبدو أنّ اللّصوصيّة لم تقتصر عليه ، بل امتدّت إلى زوجته ، وخاصّة أنّ كثيرًا من المراجعين كانوا نساء ، ولا بدّ لها أن تستغلّ هذه المكانة من أجل الإثراء ، فزوجها ليس أذكى منها في جمع المال ، وهي

ليست أقلّ شطارةً منه في اكتسابه . ولهذا فقد فتحت صيوانًا في حديقة بيتها في اللاّذقيّة وراحت تستقبل المراجعات خمسة أيّام في الأسبوع ، وكانت لا تقبل ثمنًا لبطاقة الزّيارة أقلّ من سبيكةٍ من الذّهب . وحين تأتيها واحدةٌ من المسكينات بغير ذلك تأمر الحرس بأن يطردوها . أمّا ساحة البيت الأماميّة فقد تحوّلت إلى موقف للسّيّارات صار كلّ من يمرّ من أمامه يُدرك بأنّ الشّغل عند عائلة (أبو نذير) على أشدّه!!

وكانت بطاقات الزّيارة تحمل لونين : الأزرق والأحمر . أمّا الأزرق فكان يصدره (أبو نذير) ، وأمّا الأحمر فكانت تُصدره زوجته ، ولكلّ واحدٍ حساباته ، ولكلّ واحدٍ زبائنه . وفي النّهاية يضطرّ أهالي السّجين ربّما لبيع قطعة أرضٍ من أجل الحصول على بطاقةٍ من هذين اللّونين ؛ من أجل ماذا؟! من أجل زيارةٍ سجينهم!! تلك الزّيارة الّتي هي أقلّ حقوق السّجين . ولكن لم يكن مصطلح الحقوق دارِجًا على الألسن ، ولا مُعتَرَفًا به في مملكة (أبو نذير) المتوحّشة!!

(٣٢)
﴿ثُمَّ إنّكمْ بعدَ ذلكَ لمَيِّتونَ﴾

صار الرّقباء يطلبون منّا أن نرفع رؤوسنا إلى أعلى . كنّا في السّابق نُتقن الهيئة الّتي بقينا نفعلها أكثر من خمس سنين : (راسك بالأرض ، وأديك ورا ظهرك)!! صار علينا اليوم أن نرفع رؤوسنا . في البداية شيءٌ ما في داخلنا رفض ذلك ، شيءٌ ما جعلنا نرتبك أمام ذلك ونتلخبط . هل اعتدنا على الذّلّ حتّى نسينا أنّ لنا كرامة!! هل استسغنا المهانة حتّى صارت العزّة غريبةً تحتاج إلى مِرانٍ ودُربة!! أم أنّه وقر في قلوبنا أنّ رفع الرّأس ليس من حقوقنا في هذه المقبرة الجماعيّة الّتي نقضي فيها زهرة شبابنا!!!

كانت الشّرطة تريد من وراء رَفْع رؤوسنا أن تزيد في إذلالنا وسحق ذواتنا!! وكانت تبغي إلقاء مزيدٍ من كتل الإرهاب والتّرويع في أذهاننا ؛ لقد كان الصّفع والرّأس مرفوعٌ أشدَّ وأوجع . وكان يحدث أن يؤدّي اللّكم بقبضة اليد أو الضّرب بالهراوة في مثل هذه الحالة إلى كَسْر الفكّ . وكم من محبوسٍ دخل بعد حفلة التّعذيب وقد سقط حنكه وفقد القدرة على الكلام أو الأكل لشهورٍ وشهور!!

لم يتوقّف الإعدام إلاّ ليطلّ برأسه من جديد . أطول فترةٍ توقّف فيها رفع الأجساد على أعواد المشانق لا تزيد عن خمسة أشهرٍ . اثنا عشر عامًا مرّت كأنّها اثنا عشر قرنًا كان الإعدام فيها يتمّ بصورة شبه يوميّة . ومهجعنا الّذي نعيش فيه تبدّل عبر أكثر من عقد أكثر من عشر

مرّات . وحينما كانَ عدد نزلاء المهاجع يخفّ لهذا السّبب . كانوا يقومون بِفَرْط المهاجع . وفرط المهاجع يتمّ بتوزيع المهجع الّذي ينقص عدد نزلائه إلى النّصف على مهاجع أخرى . في مهجعنا فرطوا ما لا يقلّ عن خمسة عشر مهجعًا خلال كلّ هذه السّنوات . وظلّ الازدحام في مكان النّوم مسيطرًا طيلة هذه الفترة كلّها تقريبًا . وكانت مجموعة التّكبيس تزاول عملها في كبس النّائمين خلال أيّام الاكتظاظ . وكلّما وفد إلى مهجعنا سجينٌ طويل ذو بنية قويّة ، استبشر (العميد) خيرًا ، وعيّنه بلا تردّد في مجموعة التّكبيس . ولم تستقرّ هذه المجموعة ذات الهدف النّبيل على حالها شهرًا واحدًا ؛ كانت تتغيّر في الشّهر مرّة أو مرّتين بسبب نقصان أفرادها من خلال مناداتهم في السّمّاعات إلى ساحات الإعدام!!

انتظم الإعدام في (تدمر) يومي السّبت والأربعاء على الأغلب والأعمّ ، غير أنّه كان يحدث أن يتمّ الإعدام يوم الخميس ، وأحيانًا الأحد . وأيّ يوم آخر كان كذلك مرشّحًا لأن يرتقي فيه عددٌ جديدٌ من المساجين فوقَ أعواد المشانق . وكانت الأسماء غالبًا ما تُذاع من السّاعة السّابعة حتّى الثّامنة صباحًا . وحين يأتي يوم السّبت أو الأربعاء وتبدأ عقارب السّاعة تتّجه إلى السّابعة كانت القلوب تتجه مع عقارب السّاعة ولكن إلى مجاهل الغيب . تختلج . تضطرب . تخفق بسرعةٍ . تبلغ الحناجر . تجفّ الحلوق . ترتعد الفرائص . حتّى إذا استمرّت عقارب السّاعة في الدّوران ووصلت الثّامنة بلغت منازل الخوف والتّرقب ذروتها . وحين تغادر الثّامنة تبدأ النّفوس تهدأ رويدًا رويدًا . وتبدأ القلوب تتخلّى عن رجفانها إلى استقرارها . فإذا وصلت السّاعة التّاسعة ارتحنا كأنّ جبالاً من الهمّ قد أزيحت عن كواهلنا!!

ولقد كان الشّهداء يَستبِقون موتهم بإعلانه بأنفسهم . وكانت

قلوبهم تشعر بعُقدة الحبل تلتفّ على أعناقهم قبل أن تلتفّ في الحقيقة . كانت أرواحنا تسبق أجسادنا باستشعارها النّهايةَ المحتومة!!

ظلّ (قسطنطين) مواظِبًا على تسميع القرآن لمريدي الحفظ . هذا الرّجل السّبعينيّ كانت ذاكرته تفوق ذاكرة الشّباب ممّن أتمّوا حفظهم للتّوّ . ظلّ سرّه عميقًا لم يكتشفه أحدٌ ؛ حتّى نحن أولئك الّذين كنّا أقرب النّاس إليه لسنواتٍ طِوال . كانت حلقته القرآنيّة تبدأ بعد الفجر مباشرة إلى الفطور . وأخرى تبدأ من بعد التّفقّد المسائيّ في السّاعة السّادسة إلى موعد النّوم . لم تفتر عزيمته ، ولم تكلّ همّته ، ولم يفوّت فجرًا ولا غسقًا في أذكاره . وها هو (وليد) الّذي بدأ معه رحلة الحفظ منذ عشرين شهرًا ، قد وصل معه إلى الجزء الثّامن عشر . حدث ذلك أمامي في فجر أحد الأيّام المسافرة بلا زاد . قرأ (وليد) عليه من بداية سورة (الحجّ) ؛ ثمّ بدأ بسورة (المؤمنون) حتّى إذا وصل إلى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ توقّف ولم يُكمل التّسميع . فاستغرب قسطنطين . وقال : ما زلت في بداية سورة (المؤمنون) فلم لا تُكمل؟! قال له : الآية تقول لي ذلك ، والموت أصبح قريبًا منّي . فاستاء قسطنطين . مرّت بعد ذلك دقائق ثقيلة كأنّها تجرّ خلفها كراتٍ من الفولاذ . وفي السّاعة السّابعة كان اسم (وليد) أوّل اسم أذيع في الأسماء . ظلّ قسطنطين بعدها صامِتًا لا يُكلّم أحدًا ولا يُكلّمه أحد أكثر من عشرة أيّام!!

أمّا (وليد) فقام بهدوء . وشرد ببصره عبر الشّرّاقة ودعا دون أن يُسمع له صوت . ومضى إلى حتفه راضِيًا مرضيًا!!

في المساء كان عدد الّذين فقدناهم من مهجعنا ثلاثة . وأصابتْنا موجةٌ من الكآبة . وخيّمت علينا سحابة من المصائب . وظلّ وجه المهجع شاحِبًا ذابلاً كأنّ ماء الحياة اعتُصر منه .

في السّادسة خرجْنا للتّفقّد . وأشرف (أبو نذير) على تفقّد ساحتنا بمهاجعها كاملةً . ثمّ دخلنا - كالعادة - بعد حفلة تعذيب وسِباب . غير أنّ الأمر لم ينتهِ هنا . بدا أنّ مزاج (أبو نذير) مُعكّرٌ ويحتاج إلى تعديل . ولا يُمكن أن يُعدِّل هذا المزاج المُعكّر أكثر من صرخات الألم والتّوسّل الّتي يُطلقها السّجناء دون إرادة وهم يرزحون تحت وطأة السّياط . صار يأمر العساكر بفتح المهاجع مهجعًا مهجعًا . وكلّما دخل واحِدًا منها أخرج اثنين من نزلائها وأمر زبانيته بتعذيبهم دون أيّ سبب ، إلاّ سبب تعديل المزاج الّذي يحتاجه الجلاّد الأكبر . مرّ على خمسة مهاجع وهو يخرج اثنين اثنين بهذه الطّريقة حتّى إذا وصل إلى مهجعنا تراجع إلى الوراء بضعة أمتار وتوقّف بعيدًا ، ثمّ أشار لأحد مساعديه أن يذهب إلى مهجعنا ويطلب من رئيسه أن يُخرج اثنين من المشاغبين . جاء المُساعد . فتح باب الزّنزانة . صاح بالعميد :

- طلّع ولا اثنين من الشّرا . . . من المهجع . . . لزوم قتلة . . .!!

احتار العميد ، كيف يفعل ذلك؟! من يختار؟! شعر بأنّه سيكون سببًا في تعذيب اثنين لا جريرة لهما إلاّ هوس (أبو نذير) للصّرخات والدّماء . ولكنْ من هما الاثنان القادران على تحمّل العذاب . نظر في الوجوه . اتّقته النّظرات واتّقاها هو . لا أحد يُلقي بنفسه في النّار . احتار . اغتاظ . شعر بالقهر . عرف اثنان من المهجع الموقف المحرج الّذي وُضع فيه العميد . سارعا إليه ، قالا له :

- ولا يهمّك . . . نحنا بنطلع . . .!!

كان هذان الاثنان هما الطّيّار ، وقائد فرقة المُشاة . . . خرَجا . بدأت السّياط اللاهبات تنهب جلودهما وظهورهما . احتملا في البداية . ثمّ انفجرت الصّرخات تملأ الأرجاء . دخلا وهُما لا يكادان يقويان على الوقوف . كانا فِدائِيَّيْن . تنفّس المهجع كلّه الصّعداء ، وسارعا إلى

التّخفيف عنهما . أغلق باب المهجع بعد دخولهما . لم تكد تمرّ دقائق قليلة حتّى طُرِق بوحشيّة ، وفتح ثانية . وصاح العسكريّ بالعميد :

- طلّع وْلا اتْنين من الشّرا . . . من المهجع . . . لزوم قَتلة . . .!!

لم يشبع الحيوان من دماء السّابقين ودموعم . لم يرتوِ من مآسيهم . أراد مزيدًا من الدم والدّمع والصّراخ ليُشبع نهمه البشع وساديّته العفنة . حينها لم يتمالك العميد نفسه . وقف قبالة المهجع كاملاً . ورفع يديه بالشّكوى إلى السّماء . وقال :

- يا شباب . . . شو سَاوي . .؟! (وغصّ بالبكاء على قلّة ما يبكي ؛ كانت هذه المرّة الثّانية - على ما أذكر - الّتي أراه فيها باكِيًا)!!

فخرج الطّيار وقائد الفرقة مرّة ثانية ، وهما يعرجان ، ولم تهدأ لُهاثاتهم . حاول كثيرٌ من الشّباب مَنْعهما . غير أنّهما أصرّا :

- ما تخافوا نِحْنا أكلناها أكلناها . . . ما في داعي حدا جديد يطلع . . . لا تخافوا ما في مشكلة . . . بصراحة تَمْسحنا . . . الله بعين!!

استمرّ (أبو نذير) يلعب لعبته القذرة هذه أكثر من أربعة شهور . لفّ الدّور على المهجع كاملاً ، كلّ مرّة يتطوّع اثنان للضّرب بدلاً من زملائهم . في النّهاية لم يبقَ أحدٌ إلاّ وذاق كيبلات (أبو نذير) المشهورة . افتدَى كلُّنا كلَّنا!!

(٣٣)
مَنْ أرادَ أنْ يُودّعني فليَكُفَّ عن البُكاءِ...

قادرون على أن نتخلّى عن أثمن ما يخصّنا ؛ الرّوح . بسهولة . لم يكنْ ذلك لأحد إلاّ لنا . تطلّب هذا الأمر منّا سنواتٍ من الصّبر والرّضا . نجحنا في النّهاية . لكنْ يبقى سِرٌّ في أرواحنا يستجيش مشاعرنا في الانجذاب إلى . . . إلى . . . إلى الحياة!! ما أغلى الحياة ، وفي المقابل : ما أسهل الموت!!

(صبري) ذو العشرين عامًا حضر مهجعنا بعد أن فُرِط مهجعه إلينا وإلى سوانا . حضر درس الشّيخ (صفوان) في الفقه ، وواظب عليه مواظبةً دائمةً . كان مُحتاجًا إلى أن يُذهَل عن نفسه ؛ أن ينسى طاحونة الموت ولو يسيرًا . قبل أن تصير روحه في حواصل طيرٍ خضر حلّتْ عليه حالةٌ من الصّفاء عجيبة . ظلّ لأسبوعين من اليوم المشهود يمشي بخطوات رشيقة وسريعة كأنّه مُقبلٌ على لذّةٍ يعلمها هو ونجهلها نحن . وجهه فاض بالنّور حتّى شككتُ في قدرتي على الإبصار السّليم ؛ ظننتُ أنّني أتخيّله كذلك من حبّي له كما كنتُ أفعل مع (هارون) . غير أنّ (العميد) و(الزّعيم) أكّدا لي أنّهما يريان الهالة نفسها الّتي تطوف حول وجهه ، والفيض النّوراني الّذي يصدر من جبهته . عيّنه (العميد) منذ فترةٍ مسؤولاً عن توزيع البطّانيّات والعوازل الّتي تدخل المهجع للوافدين الجدد ، أو الّتي تخرج من المهاجع للرّاحلين

الجُدد . وكان نشيطًا في عمله ، قام به على أكمل وجه ٍ، ولم يُغضب في ذلك فتىً ولا كهلاً .

في إحدى اللّيالي قام ليوزّع البطّانيّات ، فنادى على أحد المساجين ، فسمعه حارس الشّرّاقة ، فالتفت إليه من السّقف ، وقال له : إنتا معلّم . فكان هذا إيذانًا برحلة جديدة من العذاب . ظلّ يخرج إلى السّاحة في الصّباح ويتلقّى الصّفعَ بالأكفّ والرّكل بالبساطير ، والرّطم على الجدران خمسين يومًا . ورفض طيلة هذه المدّة أن يخرج عنه أحد . ثمّ هيّأ الله له أن يرتاح من ذلك إلى الأبد ؛ نودي اسمه إلى ساحة الإعدام!!

الأثر الطّيّب الّذي تركه في نفوسنا أيّام كان ينشط في توزيع البطّانيّات ، زاد من فداحة خسارتنا بفقدانه ، والإشفاق الّذي كنّا نحمله له بسبب ما لقيه في الخمسين يومًا السّابقات من التّعذيب لأنّه (معلّم) زاد من شعورنا بالحزن الدّفين لرحيله .

أمّا هو فكان يحلّق في عالَم غير عالَمنا ، كان مشغولاً بغير التّفاهات الّتي انشغلنا نحن بها ، وقف في وسط المهجع ، وقال : (لقد عملتُ لهذه اللحظة طوال عمري . . . آن لي أن أفوز بما عملتُ من أجله) وابتسم . . . وكأنّ الله فجّر ينبوعًا من الدّموع في مآقينا . أبكتْنا جملةٌ واحدةٌ من جُمَله . وسارعنا إلى توديعه ، وعندما رأى دموعنا ونشيجنا قال : (من أراد أن يودّعني فليكفّ عن البكاء . . .) ، ثمّ أوصى أحد أقربائه : (إذا استطعت أن تُوصِل الخبر إلى أبي ، فقل له أن يوزّع الحلوى في بيت الأجر عن روحي ؛ لأنّ الله تقبّلني شهيدًا) . وخرج وهو يضع يديه على صدره كأنّه في صلاة!!

واستمرّ طوفان الموت في اليوم نفسه يبتلعنا . نادَوا على الابنَين المتبقّيَين للأب السّبعيني ؛ الأصغر والأكبر . أمّا الأوسط فقد استضافه

الموت منذ زمنٍ . ما إن سمع اسم ابنيه ، حتّى جاهد ليقف على قدميه ، كانت إحدى قدميه قد أصابها تمزّق لطول ما استقصدها الزّبانية ببساطيرهم . تحامل على نفسه ، وجرّ رجلَيه وهو يشهق من البكاء ، حتّى إذا صار قريبًا من ابنه الأصغر ، رمى عليه كنزةً من الصّوف قد ادّخرها ليوم كهذا ، وقال له : (الْبِسها يوب . . . كنت مْخبّيًا ليوم عرسك) ، وكان الأب يحبّ ابنه الأصغر هذا كثيرًا ، ويلتصق به كأنّه قطعةٌ منه . ثمّ سقط الأب بعدها على الأرض تكاد روحه تُزهق . فأكبّ الولدان على أبيهما يضمّانه إليهما ، ويشاركانه بُكاءً فاجعًا . ثمّ راحا يُصبّرانه . وعندما همّا بالخروج لحق بهما وهو يجرّ إحدى رجليه خلفه ، حتّى إذا وصلا إلى الباب ، تعلّق بثوب ابنه الأصغر ، وقال له : (خدوني معكُنْ يوب . . . لا تتركوني لحالي هون . . .) وانخرطوا جميعًا في البكاء من جديد . وراح كلّ من راقب المشهد يبكي معهم!!

ظلّ الأب لشهرٍ من ذلك اليوم يقوم في اللّيل ، يلتزم الجدار القريب منه ، ويبكي . . . يبكي بصمتٍ حتّى لا يُسمع صوته ، ثمّ يهمهم وشفتاه ترتعدان : (ليش يا وْلادي تركتوني لحالي . . . ما حرام عليكن تروحوا وتتركوا أبوكُنْ لحالو . . .؟! شو طعم الحياة بَعِدْكُنْ . . . مشان الله خدوني لَعِندكُنْ . . .) ثمّ يرتجّ جسده ، وتتعاظم شهقاته ، حتّى يسقط من الإعياء والتّعب . وفي اليوم التّالي يفعل ما فعل في اليوم الأوّل . ويتتابع بكاؤه المرير ، ونشيجه المحزون . بعد شهرٍ من هذه الطّقوس الفجائعيّة فقدَ الأب السّبعيني بصره ؛ ذهبتْ كلّ محاولات (العميد) لتهدئته أدراج الرّياح . لم يكفّ يومًا واحدًا عن البكاء على أبنائه الثلاثة ، لا في صبح ولا في مساء . انطفأ نور عينيه ، وانخطف بريقهما . في منتصف ليلةٍ دامسة ، قام الأب المفجوع يتلمّس الطّريق

بيديه ، نادى على ابنه الأصغر . . . ظلّ ينادي عليه حتّى مات . كان أوّل سجين يموت دون إعدام!!

على الحـــائط خلفي توشّح الجـــدار بالمزيد من الخطوط المائلة والمُتعامدة . كان عددها مئة واثنين وتسعين قمرًا . المهجع أضاء . المهجع اكتمل!!

(٣٤)
لَمْياء

كانت بهجةَ الدّنيا . أجّلتْ شقاء الحياة إلى حين . ورسمتْ على جبيني قوس قُزح في الصّيف والشّتاء . كان العيد يُطلّ إذا لثغتْ . ويُطلّ إذا حبتْ . ويُطلّ إذا ناغتْ . ويُطلّ إذا مشتْ . وضعتْها زوجتي ونحن نسكن في بيت أهلي . كنتُ قد تخرّجتُ للتوّ في كلّيّة الطّبّ ، ولم يكنْ هناك من مُعيل إلاّ أبي وشياهه وبقراته . وعندما بدأتُ العمل في المستشفى ، انتقلتُ إلى دمشق واستأجرتُ بيتًا متواضعًا ، وكان راتبي يكفيني لحياةٍ مستورةٍ ميسورة ، بعيدةٍ عن المُنغّصات . ولكنّ الحياة لا تجري على ما يشتهي المرء ، وفي المنعرجات تختبئ الأقدار . وخلف الغيوب تستتر الخطوب ، وما من شيءٍ في علم المرء إلاّ ما مضى .

عندما بدأتْ تقول : (بابا) ، اتّسعتْ آفاق الحياة ، وصارتْ أرحب ، وصرتُ أحبّها أكثر . وحينَ كنتُ أعود من عملي مساءً مُرهَقًا حدّ الإعياء كانتْ تمسح عنّي كلّ تعب الدّنيا بنظرةٍ واحدة ، أو خطوةٍ واحدةٍ باتّجاهي . ضحكتها كانت موسيقاي . ونظرتها كانت مَعيني . وبسمتها كانت انطفاء آلامي . و(بابا) وحدها كانت كفيلةً بأن تنقلني إلى جنانٍ وارفة بالسّعادة . تمحو نظرات الأطفال أوجاع الآباء ، وتُعيد إليهم شبابهم الّذي بدأ يتآكل!!

تعلّمتْ أن ترحلني ، وتعلّمتُ أن أبسط لها ظهري كي تركبه .

كانت إذ تفعل تُعيدني إلى الجزء الأحلى من طفولتي المنسيّة . طفولتي الّتي قضيتُ أكثرها في الشّقاء . وفي النّحت في الصّخر كي أحصّل مجموعًا يؤهّلني لكي أتابع تعليمي فيما أحبّ .

كم صار عمرك يا ابنتي ؛ ستّ أو سبع سنين؟! نحن هنا لا نتقن عدّ الأعوام ، هي تعدّنا ، هي تأكلنا ـ هي تجترّنا بين أسنانها بهدوء . هي تحطّم آمالنا ، هي تُيبّس ما اخضرّ منها . يا ابنتي ما مرّ من أعوام عليّ هنا كانت فوق الوصف ، وعذاباتها كانت فوق أن تحملها أيّ لغةٍ في العالَم . أيّ لغة يُمكن أن تعزّينا عن فقدنا لأنفسنا ، عن امّحائنا ، عن انصهارنا في أتون الإهانات والعمى . عن حَيْوَنَتنا . عن تَشْيِيئنا . نحن الّذين صحونا بغتةً لنجدنا خارجنا ، ونجد أنفسنا تُنكِرنا .

من يعرفني بعد كلّ هذه السّنوات؟! مَنْ يشعر بي؟! من يحمل عنّي صخرة الضّنى والأسى والحزن الّتي تتربّع فوق ظهري لا تفارقه لحظة واحدةً . إذا تنكّر العالَم لي فذلك أمرٌ بسيط ، فأنا أعيش هذا النّكران الآن ، وتعايشتُ معه . غير أنّني لن أحتمل أن تنكريني أنت . لقد ركلتُ العالَم كلّه برجليّ من أجلكِ . لقد خسرتُه من أجل أن أربحكِ . لقد فقدتُه من أجل ألاّ أفقدك . لقد أعطيته ظهري من أجل أن تُعطيني وجهكِ!!

يا ابنتي . . . كيف صار لون عينيك؟! كانتا خرّوبيّتين فهل صارتا سواداوين!! كيف هو طول شعرك؟! هل تعقده لك أمّك في جدائل؟ أم تسرّحه خلف ظهرها كسنابل؟! هل تهدّل على كتفيك في انسلالٍ باذخ؟! ما أخبار الغمّازتين اللّتين كانتا تقتلانني كلّما ضحكتِ؟! هل ما زالتا تتشكّلان على خدّيك كأنّهما حبّتا لوز سقطتا في إناءٍ من حليب؟! أم أنّك سمنتِ وانتفخ خدّاك فلم تعودا للظّهور ثانية؟!

يا ابنتي . . . أيّ ثوبٍ تلبسين؟! فإنّا ما لبسنا مُذْ دخلنا إلى هنا إلاّ

ثوب المهانة!! أيّ ماء تشربين؟! فإنّا ما شربْنا مُذْ وَقَرْنا هنا إلاّ ماء المعرّة!! أيّ طعام تأكلين؟! فإنّا ما أكلنا مُذْ قَبَعْنا في أقبيتنا إلاّ طعامًا من ضريع (لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)!! أيّ حذاء تلبسين؟! فإنّا ما لبسنا مُذْ مشينا على صفيح النّار إلاّ جلودنا تحت أرجلنا الّتي تشقّقت مئات المرّات؟! يا ابنتي . . . كلّ هذا يهون إذا كنتِ بعافية ، وإذا كانتْ أمّك تتدبّر أمر الحياة .

يا ابنتي . . . ليس في الحياة أسوأ من غيابِ أبٍ حانٍ على أبنائه عنهم؟! غير أنّ الأفدح أن تكوني موجودةً في حياتي ولا أكون موجودًا في حياتك!! أن أعدّ كلّ ثانيةٍ تمرّ عليّ هنا من ملايين الثّواني على أمل الخلاص . . . الخلاص الّذي سيجعلني أرى وجهك من جديد ، ثمّ لا يكون لي في قلبك أيّ قبول . . . وأنتهي أمام قدميك كورقةٍ يابسة!!

يا ابنتي . . . إنّني على أملٍ أنّ أمّك حدّثتْكِ عنّي . . . لا أدري كيف ساقت لك هذا الحديث ، وماذا قالتْ؟! يقولون : إنّني متّ . وإنّهم دفنوني . ليس صحيحًا . إنّني أقاوم . إنّني أقاتل من أجلكِ . لن أموت قبل أن أراكِ . ولن يدفنوني قبل أن تكتحل عيناي بك . غير أنّني سأكون ميّتًا بالفعل إذا صدّقتِ ذلك . إنّهم يمتهنون الكذب في بلادي ، إنّهم يعتاشون به . فليفعلوا ، ليأخذوا منّي حياتي ، ولكنْ لن أسمح لهم بكذبهم أن يأخذوكِ منّي!! أنتِ ما تبقّى منّي لكي أعرفني . أنتِ ما تبقّى من نبضي لكي أعيش . أنتِ ما تبقّى من نور عينيّ لكي أرى . أنتِ ما تبقّى من أنفاسي لكي أعدّها!!

يا ابنتي . . . ما لون الشّكلة الّتي تضعينها على رأسك . هل تختار أمّك الألوان الزّاهية الّتي تليق بجمالك . . .؟! بأيّ مدرسة التحقت؟! ما شكل صفّك؟! كيف تترتّب المقاعد في الصّفّ؟! مَنْ زميلتك الّتي تُشاركك المقعد؟! هل هي لطيفة أم غليظة؟! إذا كانت تُزعجك فاطلبي

من المعلّمة أن تنقلها أو تنقلك!! المهمّ أن تبقي مرتاحةً لا يكدّر صفو تعلّمك شيء. أتعرفين يا ابنتي... لقد اشتقتُ إلى أيّام المدرسة. اشتقتُ إلى رائحة الطّباشير. اشتقتُ إلى بياضها النّاصع يملأ اليدين والثّياب. اشتقتُ إلى الكرّاسات الّتي نكتب عليها بقلم الرّصاص. كان كرّاس مادّة اللغة العربيّة يرافقني ثلاث سنوات على الأقلّ. كلّما امتلأ محوتُ ما كتبتُ عليه في آخر السّنة الدّراسيّة وحافظتُ على ورقه أن يتمزّق، ثمّ أعدتُ الكتابة عليه في السّنة التّالية؛ لم يكن أبي يملك النّقود الكافية من أجل أن يشتري دفترًا في كلّ سنة!! يا ابنتي... لا أريد أن تفعلي مثلما فعلتُ. إذا انتهى الدّفتر فهاكِ قلبي دفترًا واكتبي عليه ما شئت. وإذا تمزّقت الأوراق، فهاك يدي وخُطّي عليها ما أردتِ.... آه يا ابنتي لو تعلمين حدّ الشّوق الجارح الّذي يقطّع قلبي في اليوم ألف مرّة إليك...

يا ابنتي... ماذا أقول؟! كلّما خلوتُ إلى نفسي لكي أسمعك في ليالِيّ المُظلمة هنا صرخَ الحارس اللّعين فأفسد عليّ حضورك البهيّ إلى عالَمي!! كلّما استجلبت السّكون ملأني ضجيجًا بنباحه الّذي لا ينتهي... تحضرين كأنّك ملاكٌ يحرسني من الوحوش. صورتك الّتي أحفظها حينَ غادرتُكِ وقد أكملتِ عامك الأوّل تنمو معي في وحشتي هذه كلّ يوم... أزيد على تلك الصّورة كلّ مرّة شيئًا؛ أقول: العينان الضّيّقتان اتّسعتا. اليدان الصّغيرتان كَبُرَتا. شعرك القصير طال قليلاً... فمك المُطيّب استدار أكثر... ومشيتك المُتهادية صارت أوثقَ وأسرع... أفعلُ ذلك في خيالي... وأشكّلك في عالَمي كما أشتهي... فتأتين قمرًا يُضيء عليّ العتمات... ويفرّج عنّي الكربات... وينتشلني من الوهدات... ويطير بي إلى عالَم السّماوات...!!

يا ابنتي . . . أحبّ الحياة لأنّني أحبّك . . . أعشقها من أجل أن أراكِ . . . أقاوم الموت بالحياة لكي ألتقيكِ . . . أنتِ الحياة ولستُ مستعداً لفقدها . . . وسأعدّ - يوم خروجي من هنا - كواكب الفرح لاستقبالنا!!

(٣٥)
سيبيعوننا إذا لم نَعُدْ نملكُ ما يُمكنُ أن يُباع

استمرّ (أبو نذير) في لصوصيّته . صار معروفًا عند سادته بذلك قبل أن يكون معروفًا لدينا بذلك . أفحشَ في السّرقة فأفحش في الثّراء ، فكَثُر حاسِدوه مِمّن حوله من ذوي الأيادي المتّسخة!!

للشّيطان أدوارٌ خفيّة يدّخرها من أجلنا ؛ ﴿لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ﴾ فتستفحل مظاهر الشّرّ عند البشر . غير أنّ (أبو نذير) لم يكن من صنف البشر ، كان شيطانًا يعلّم الشّياطين طُرقًا في الضّلال ، وإبليسًا يعرّف الأبالسة أساليب في الإغواء . كانت الشّياطين توحي إلى أوليائها ، أمّا هو فكان يوحي إلى الشّياطين ، فتطير بما تعلّمتْ منه فرحًا إلى النّاس ، تُوقعهم في شرك الغواية ، وتُلقي بهم في مهاوي الباطل!!

كان (أبو نذير) يترقّب يوم الزّيارات . الزّيارات الّتي كانت نادرةً جدًا ولا تتمّ إلاّ بعد أن يدفع الأهل له ثروةً كاملة جمعوها عبر سنين متعاقبة . بعد أن تنتهي الزّيارات يكون الأهل قد بعثوا لأبنائهم بعض الهدايا من ملابس أو نقود أو أيّة أشياء أخرى . في اليوم الّذي توزّع فيه مثل هذه الأشياء كان يُغير على المهاجع مشفوعًا بجلاّديه بحجّة البحث عن ممنوعات . أيّة ممنوعات هذه الّتي يُمكن أن توجد بين أيدي سجناء في معتقلٍ لا يُسمح فيه بتسرّب الهواء إليهم إلاّ بعد أن يُفتّشوه

ويَعـدّوه ويُقنّنوه ولا يُدخلوا منه إلاّ العـدد الّذي يُبـقي على حـيـاة المحابيس البائسة .

دخل مهجعنا بمسرحيّة مُرعبة . صياح وتطبيل وشتائم وتهديدات وتلويح بالسّوالين (الزّنازين الانفراديّة) . ثمّ يأمر زبانيتـه بتفتيشنا بحثًا عن الممنوعات المزعومة . وتبدأ الفوضى العارمة ؛ ينفض الجلاّدون كلّ البطّانيّات ويُلقونها في منتصف المهجع فتتكوّم كالجبل هناك ، ويُعرّوننا من ثيـابنا . ويكسـرون في طريقـهم كلّ شيء ، وينبشـون في مـلابسنا وأغطيتنا لعلّهم يعثرون على شيءٍ يستحقّ السّرقة ، ولأنّ نزلاء مهجعنا من البسطاء ، وليس لهم واسطات ، وليس أهلهم من الأغنياء فإنّهم لم يجدوا شيئًا ذال بال . غير أنّ (أبو نذير) نظر في يد أحدنا فوجد فيها ساعةً قديمةً مُعطّلة ، فسحبها منه بحجّة الممنوعات ولم يوفّرها وهي لا تعمل!! وسرقها أمام ناظرَينا جميعًا . وخرج هو وزبانيته وهم يشتمون ويتوعّدون!!

وفي الصّباح بعد يوم التّفتيش ذاك ، نودي على صاحب السّاعة الخَرِبة وعُذّب بالجلد في السّاحة حتّى سقط مغشيًا عليه . وظلّ يُنادَى صباح كلّ يوم للتّعذيب مدّة شهرٍ كامل!!!!

أين نحن؟! في أيّ جهنّم نعيش؟! على أيّ بقعةٍ من الأرض غير المباركة نحيا؟! هل نحن بشر؟! وهل سجّانونا بشر؟! لقد صرنا نشكّ في أنّ هذا العالَم الّذي يغلّفنا هو من عوالم البشـر . . . صرنا نقول : لعلّنا انتقلنا إلى حياةٍ أخرى . . . قد تكون غير مذكورة في القرآن . . . وغير معروفةٍ في حياة البشر . . . ولم يكتشفها إنسان العصر الحديث ، كلاّ . . . ولم يمرّ بها إنسان العصر الحجريّ . . . لقد صرنا نشكّك بالفعل في ماهيّة الحياة الّتي نحياها . . . هل هي نوعٌ أو مستوى من مستويات الحياة في جهنّم؟! هل هي على الأرض أم على أرضٍ أخرى

غير الأرض الّتي عرفنا قارّاتها عندما أخذنا ذلك في المدارس . . .؟!
أُقسم أنّ هذه الأسئلة ليست فلسفيّة ، ولم تكن من باب الهَذَيان . . .
بل كانت أسئلة حقيقيّة تبحث عن جواب!! وكانت أسئلةً ترد على
أذهان الكثيرين منّا!!!!!!

أغار (أبو نذير) على ملابس السّجناء في مملكته!! أخذ الجيّد
منها ، وطلب من حرّاسه أن يصنّفوها حسب نوعيّتها ، ثمّ ساوم أحد
تجّار (حلب) وباعه إيّاها!! كان يتعامل مع عدد من التّجّار في أكثر من
محافظة ، وظلّ يبيعهم ما نملك حتّى شككنا أنّه في يومٍ ما سوف
يبيعنا نحن إلى بعض تجّار الرّقيق!!

بعد كلّ سرقةٍ كان (أبو نذير) يطلب من كلّ عددٍ من المهاجع أن
تخرج إلى السّاحة ؛ لنهتف - مرغمين - بحياة الرّئيس . يسوقوننا
بالعصا ، ويُوقفوننا في الشّمس في حرّ الصّحراء ، ونبدأ بالهتاف بحياة
الرّئيس حتّى تتقطّع أوتار حبالنا الصّوتيّة ، وحتّى تأكل الشّمس من
أجسادنا ، والأرض من أقدامنا . وكان يطلب منّا أن نؤلّف الخُطب
ونلقي القصائد الّتي تمدح الرّئيس وحركته التّصحيحيّة ومشواره
النّضاليّ الطّويل!!

(٣٦)
رِجْعتِ الشّقرا يا شباب!!

ذهبت تلك الأيّام الّتي كانت تأتينا فيها جاطات كبيرة من المخلّل والفليفلة والخيار واللّفت . وفي وجبات الغداء كانوا يبعثون ببعض جاطات الحلوى من النّمّورة والهريسة والشّعيبيّات . . . كان هذا العهد هو العهد الضّوئيّ ؛ سمّيناه كذلك لأنّه مرّ بسرعة الضّوء . غير أنّنا تبرطعنا فيه أيّ تبرطُع . . . أكلنا حتّى امتلأت عروقنا بالدّماء ، واكتست أجسادنا بالحيويّة ، وقاومنا التّعذيب بكثرة ما نأكل . . . فخفّت الوطأة علينا قليلاً ، ورحنا نشعر أن جاطًا من النّمّورة يُمكن أن يحسّن صحّتنا النّفسيّة والجسديّة لأشهر قادمة!!

ثمّ غابت الجاطات ، وبدأ عهد الجوع ؛ العهد السّلحفائيّ ؛ سمّيناه كذلك لأنّه مرّ ببطءٍ شديد ، وظلّ يحزّ معدنا حتّى تقرّحت من قلّة الأكل ، وبدأتْ تأكل نفسها . . . يستمرّ مثل هذا العهد القاتل لسبعة أشهر أو ثمانية ، وقد يطول لسنةٍ أو سنتين . غير أنّه يحدث أن يقطعوا عنّا (النّمّورة) سنةً كاملة . وتبقى ذكرى حلاوتها في فمنا ، تشدّنا بالشّوق إليها ، فإذا ما عادوا وجاؤونا بها من بعد عام كامل . نرحّب بها ونستقبلها استقبالاً يليق بمقامها ، ونهتف ولعابنا يسيل : (رجعت الشّقرا يا شباب)!! كانت الشّقراء حلم كلّ المحرومين منّا هنا في مقبرتنا العتيدة!!

وتبدأ قرائح البلغاء والشّعراء منّا بوصفها والتّغزّل بمجيئها . وأذكر

أنّ أحدنا لم يتمالك نفسه ونظم قصيدة عصماء في حبّها ، لا زلتُ أذكر مطلعها الّذي يقول فيه :

عَمَّ القُلوبَ البِشْرُ والسَّرّاءُ
فَافْرَحْ فُؤادي عادَتِ الشَّقْراءُ
طَعْمٌ مِنَ الجَنّاتِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ
فَلِطِيْبِهِ كُلُّ الطُّعومِ فِداءُ

خرجت السّخرة لإحضار الطّعام ، وكان على رأسها يومذاك العميد والطّيّار وقائد فرقة المشاة . أمّا الزّعيم فظلّ هُدهدَنا الّذي يأتينا بالأخبار من خلال موقعه الاستراتيجيّ في العمل مع (البلديّات) .

(٣٧)
الجُوعُ... ولا شَيْءَ غَيْرَ الجُوعِ!!

كانت السّخرة قد خرجتْ لجَلْب طعام الفطور ، وحينَ دخلوا توقّعنا - كالعادة - ان يدخلوا ومعهم الجَاطات . لم يلفت انتباهنا صياحهم وهو يتلقّون الكيبلات على ظهورهم وأرجلهم ورؤوسهم ، صار صوتُ صراخهم اعتياديًا ، أليسوا فدائيّي المهجع ؛ إذًا فليتحمّلوا بعض الضّربات . بالطّبع لم نسمع صرخاتهم أو قل اعتيادنا على سماعها أطرشنا عنها ، كان جلّ همّنا واهتمامنا أن ننظر في أيديهم الّتي تحمل البركة والخير من خلال جاطات البلاستيك الخضراء الكبيرة وما فيها من طعام للبطون الخاوية الجائعة . دخل الثّلاثة وليست الجاطات في أيديهم . ظننّا أنّهم أخّروا وقت الفطور اليوم ، ثمّ طلعوا علينا وفي أيديهم بعض المعلّبات . كانت عبارة عن (٤) علب حمّص ، كلّ علبة حمّص بحجم علبة السّردين الصّغيرة . وكان معهم حوالي (٤٠) حبّة خبز (صمّون) . وكان عددنا في المهجع قريبًا من (٢٠٠) شخص!!

كان هذا يعني أنّ كلّ خمسة سجناء عليهم أن يقتسموا حبّة صمّون واحدة ، وأنّ كلّ خمسين سجينًا عليهم أن يقتسموا علبة حمّص صغيرة واحدة .

ماذا يفعل بنا (أبو نذير) إذًا؟!!! لقد جرّبنا الجوع من قبل . أمّا هذا المستوى من التّجويع فلم يمرّ بنا سابِقًا . إذًا ابتدأ عام الرّمادة في السّجن . وابتدأت رحلة البطون الخاوية ، والجوع المُخيف .

يومها كان من الممكن أن تحدث بعض الفوضى ، وكان من الممكن أن تنشب بعض النّزاعات ، وقد تبدأ معركة الصّراع على البقاء ، وكان من الممكن أيضًا أن نتحوّل إلى حيوانات ، وأن يتحوّل المهجع إلى غابة ، ويكون البقاء فيها للأقوى كما هي شريعة الغاب ، ويأكل القويّ فينا الضّعيف ، ويجور ذو الجدار على من لا جدار له . إلاّ أنّ (العميد) وقف موقفًا حازمًا ، واستعان بأهل المدد الطّويلة ، وبمجلس إدارة المهجع : لم يدعُ أحدًا إلى الطّعام ، بل قام هو بتقسيم الصّمونة الواحدة إلى خمسة أجزاء ، وبربع ملعقة لَحَسَها بالحمّص ، وطلب من الجميع أن يبقوا أماكنهم ولا يتقدّم أحدٌ نحو الطّعام ، قال ذلك بلهجة آمرة حازمة . ثمّ رحنا أنا والزّعيم والطّيّار وقائد فرقة المشاة نوزّع على كلّ فردٍ هذه القسمة الّتي يقوم بها العميد . ونجا المهجع يومها من اقتتالٍ كان مُحتَملاً . ولكنّنا لم ننجُ من أنياب الجوع الّتي بدأت منذ ذلك اليوم تنشب أطرافها الحادّة في معدنا الفارغة!!

ومرّت علينا أيّام لا يعلم قساوتها إلاّ الله . وصرنا نهمس فيما بيننا أنّ (أبو نذير) يفعل ذلك يريد أن يبتزّ أهالينا ليدفعوا له رشوةً مقابل أن يحسّن الطّعام . وقلنا : فليفعل أهلنا ذلك ، ما من أحدٍ فينا يرغب أن يموت جوعًا ؛ الموت من تحت قائم المشنقة أشرف!! غير أنّه عامٌ كريت بالفعل الّذي مَحقَ منّا شُحومَنا فلُحومَنا فجُلودَنا فعِظامَنا وعُدنا منه بلا شيء غير ما تبقّى من روح على جسد!!

صارت تأتينا (الحلاوة) ونصيبُ الواحد منّا ربع ملعقة منها . وصار خمس حبّة الصّمونة أو رُبعها هو طعام اليوم بأكمله ، وإذا جادوا علينا بعثوا لنا جاطًا من الشّاي يصلنا باردًا ، ويكون نصيب الواحد نصف كأس شاملاً الحصى والتّراب وربّما بعض البول كما كان يفعل بعض البلديّات بأمرٍ من الشّرطة!!

ورأيتُ أحد المجرمين المسجونين معنا على قضايا مُخدّرات ، ينكسر أمام حدّة الجوع ، رأيته يصرخ :

- يا ربّ . . . حرام . . . لقمة خبز معفّنة ليوم كامل . . . يا ربّ شو هالعذاب . .!!

وسمعتُ آخر يبكي بكاءً مريرًا ، كما لو كانت أمًّا فقدت ابنها الرّضيع . وكان خبز الصّمّون الّذي يأتينا هو من النّوع العسكريّ ، ولم يكن نظيفًا ، وبعضه كان من النّوع المخبوز قبل عدّة أيّام ، فكان يصلنا يابِسًا ، وأحيانًا معفّنًا ، وأحيانًا مُسوّسًا . وصار منظرًا اعتياديًا أن ترى أحدنا ينقّب قطعة الصّمون من السّوس ، يخرجها سوسةً سوسةً ثمّ يأكلها من شدّة الجوع ناسِيًا منظر السّوس الّذي كان يسبح خلالها منذ قليلٍ!!

وبدأ النّحول يغزو أجسامنا بشكلٍ ظاهرٍ ، دقّت البطون ، وتهدّلت الأكتاف المرتفعة ، وسقطت الأيادي على الجانبين ، وغارت العيون من الشّحوب ، وضمرت الخدود . ودمعتْ كثيرٌ من العيون ، واكتفى عدد منّا بالتّكوّر على نفسه في الزّوايا والأطراف يشكو إلى الله ما حلّ به . وراح عددٌ لا بأس به يشكو ويشتم كأنّه وحده الّذي جرى عليه ما جرى . وعمد عددٌ إلى آخر من ذوي القلوب المؤمنة والصّافية إلى تصبير السّجناء ، والرّبط على قلوبهم . وهمد عددٌ آخر فلم يعد يقوَى على النّهوض من مكانه ، ولا حتّى على الكلام ، واكتفى ثلاثة أرباع المهجع بالصّمت المُطبِق . ونامَ بعضنا مستسلمًا للقدر ، معتقدًا بأنّه سيطلع عليه الصّبح ميّتًا . . . وكان خطبًا فادِحًا ، وزمنًا عصيبًا ، وعامًا يشبه عام الرّمادة ، ومهجعًا يُشبه شعب أبي طالب!!

أمّا بالنّسبة لي ، فحاولتُ أن أُوعّي المحابيس الّذين معنا إلى بعض الأمور الطّبّيّة ، لكنّ أحدًا منهم لم يكن في مزاجٍ ليسمع ذلك . ومع

هذا الصّدود فقد حاولتُ بالإبقاء على حياتهم ما استطعت بوسائل بسيطة وبما توافر منها . كان الملح والماء أهمّ عنصرين لمقاومة الإغماء والإصابة بالتّليّف الكبدي . وكنتُ أعلم أنّ الجسم مهما كان الطّعام قليلاً فلن يموت . كان الماء هو المهمّ . وهو وإن كان شحيحًا إلاّ أنّه لم ينعدم تمامًا ، وهو ملوّث ، وبعض ملوّثاته قد تكون مفيدة لجسم بعضنا ، مع أنّ الأمراض الّتي هجمت علينا هجومًا كاسِحًا فيما بعد كان أكثر أسبابها هو الماء الملوّث .

كنتُ أعلم أنّ الجسم سيبدأ بأكل نفسه حين لا يجد شيئًا يأكله . وأنّ ذوي الأجسام الممتلئة بالعضلات وببسطة في الهيكل ستعيش أكثر ، لأنّ لديها مخزونًا عضليًا جيّدًا قابلاً لأنْ يتغذّى الجسم عليه!! وطلع عليّ صباح يوم من أيّام هذه المحنة واتّكأتُ على (العازل) فاكتشفتُ أنّ عظام يدي قَد رقّت حتّى برزتْ ، وكان كوع يدي قد صار مسمارًا . وعندما جلستُ محتبيًا ، كانت عظام قفاي قد تحوّلت إلى ما يشبه الإبر ، ولم يعد هناك من شيءٍ طريٍّ أو ليّن للجلوس عليه .

وأراد (أبو نذير) أن يغيّر في علبً الحمّص القاتلة ، فراح يبعث لنا بالبيض المسلوق ، وصارت البيضة الواحدة يتداعى على أكلها عشرة أشخاص ، وظلّ مجلس إدارة المهجع يقوم بالمهمّة الخطيرة في توزيع الطّعام بالتّساوي . وراودت أذهان عددٍ منّا أنّ توزيع الطّعام بالتّساوي وإن كان في ظاهره عدلاً فهو ليس كذلكً . وصار بعضنا يُطالب بمراعاة الأحجام في التّوزيع ، فالطّويل يجب أن يأخذ حصّة أكثر من القصير . وذو الجسم الضّخم أكثر من ذي الجسم الضّئيل (المضبوب) . ولكنّ العميد كان حازمًا هذه المرّة أكثر . وتخلّى عن كثير من وداعته ومسالمته ، وتحوّل إلى قائد صلب مرير يحكم بالقسوة . وكان الموقف يتطلّب ذلك . ولولا ذلك الحزم لأكلنا بعضنا على الحقيقة ، ولَماتَ

بعضنا تحت سِياط التّعذيب!!

وكان الجوع الشّديد والماء الملوّث هما الشّيطانَين اللّذَيْن فتحا باب جهنّم على الأمراض الخبيثة من بعد. ويا لَهناء عهد الجوع مع شقاء عهد الأمراض!!

ثمّ صاروا يعذّبوننا بالوهم والانتظار. وهو نوعٌ من العذاب اخترعه إبليس السّجن كلّه (أبو نذير). كانوا يأتوننا بالطّعام بعد شهرٍ من الجوع الشّديد السّاحق بكمّيّات كبيرة منه. فنظنّ أنّ عهد الجوع قد مضى، وأنّهم أدّبونا بما يكفي، إذاً كان الجوع نوعًا من التّأديب. ثمّ تُكوّم هذه الكمّيّات الكبيرة من الطّعام أمام باب المهجع، ويُفتح الباب بكاملة ليشاهد الطّعامَ الكثيرَ كُلُّ مَنْ في الدّاخل. ويقف على رأس الطّعام عدد من الحرّاس العسكريّين وعددٌ من البلديّات. كان المشهد سورياليًا مغرقًا في السرياليّة. يبدأ اللعاب يسيل، والقلب يخفق، والدّموع تكاد تطفر من العيون فرحةً بهذا الكمّ المُشبع من الطّعام. أمّا الأذهان فتغيّر فكرتها عن (أبو نذير)، وتبدأ تقول لنفسها: لأ... والله أبو نذير منيح... هه... اكتشف إنو كان غلطان... هَيْ رَح يصلّح غلطتو... حَسْ فينا... وبعتِنلنا ها الأكل إلي بيشبع عَشَرْ مهاجع!!!

ثمّ يطول الانتظار، ويبقى المشهد صامتًا ساكنًا لنصف ساعة دون أن يتحرّك. وتبدأ آلة الصّبر بالدّوران: لا بأس من الانتظار ما دام في النّهاية سيدخل كلّ هذا الطّعام إلى أجوافنا... غير أنّ المعادلة تبدأ بالانقلاب... يأمر العساكر البلديّات بأخذ جزءٍ من الطّعام وإلقائه على الأرض... تسيح الشّوربة.... يُداس على الخبز المرميّ في السّاحة... يكبّون الشّاي وينثرون لآلئه فتنكبّ وراء قلوبنا من اللّهفة على الدّرر المسكوبة وعلى ماء الحياة المهدور... ثمّ يقترب أحد العساكر فيفغش على الأرض خمسين بيضةً مسلوقة، ويظلّ يدوسها

بقدمه ويمرّغها في الأرض، فنحسّ أنّ قلوبنا قد ديستْ وقد سحقت تحت البساطير... ثمّ نصكّ أسناننا من الوجع، ونعضّ شفاهنا من الحسرة والألم على ما يحدث، فيسيل من شفاهنا الدّم، وطعم الشّفاه المعضوض المجروح ينسحب إلى داخلنا فيعضّنا ويجرحنا... ولا يكتفون بذلك.. يقوم بعض البلديّات بأخذ جزءٍ من الطّعام الصّالح، ويُرجِعونه إلى مطبخ السّجن... وبعد ساعةٍ من هذا المشهد السّرياليّ الّذي يتمّ تحت بصر عيوننا وقلوبنا يتبقّى نزرٌ يسيرٌ من الطّعام... فنرضى بهذا القليل الّذي هو أقلّ من القليل المعتاد كلّ يوم... ولكنّه مع ذلك لا يدخل مباشرةً، بل نظلّ نرمقه على أعصابنا أكثر من نصف ساعةٍ أخرى... ويكتمل المشهد بدخول ما تبقّى من الطّعام بعد ساعتينِ من اللّهفة والانتظار... وحينَ يدخل تكون القلوب قد انفجرت من الغيظ والقهر والحزن والجوع والانتظار واللّهفة... أمّا كبرياؤنا فقد دِيسَ تحت بساطير الشّرطة... وأمّا كرامتنا فقد سُحقتْ تحت أقدام الجَلاّدين... وأمّا نحن فلم يبقَ لنا منّا شيءٌ... ماذا يُمكن أن يظلّ من عودٍ بعد احتراقه؟! وماذا يُمكن أن يظلّ من ماءٍ بعد انسياحه في الرّمل؟! وماذا يُمكن أن يظلّ من صبرٍ في سهم الموت بعد أن اخترق الرّوح؟!!

ثمّ قالوا مزارع (تدمر) الصّحراويّة تجود بالخيرات. فجاؤونا بالخسّ. ودخل الخسّ وحده في أحد الأيّام. فقمتُ لأقول: إنّ الخسّ الّذي كان يضعه أبي أمام الحِمار ليأكله أكثر من هذا الخسّ، وأجود منه، وأنظف منه!! ثمّ أردفتُ: يبدو أنّنا نحتاج إلى زمن طويلٍ لنصل إلى مرتبة الحمير!!! ومنْ يدري؛ فقد نموت دون أن نصلها؟!!!

وخرج أحدنا إلى ساحة التّعذيب. لم يكتف الجوع بتعذيبنا، أرادوا أن يظلّ نصيبُنا في الجهتين وافرًا. وفي غمرة حفلة التّعذيب

حانت التفاتة من السّجين إلى حبّة صمّون في السّاحة يقوم شرطيٌّ آخر بركلها بقدمها كأنّها كرة . فذُهِل السّجين عن وجع الكيبلات ، وعن سيل الدّماء ، وعن مرير الصّرخات . وتوقّف كالمشدوه ، واستأذن مُعذّبه أن يتناول تلك الصّمّونة من بين أقدام الشّرطيّ ويأكلها ، فأجابه : لا . وكأنّه قال له : نعم . ولم يقل له لا . كان ذهنه كلّه يعمل من أجل نعم ؛ فلم يسمع غيرها ، فانفلت من تحت السّياط يركض كالمسعور باتّجاه تلك الصّمّونة ، وظنّ العسكريّ هناك أنّه هاجمٌ باتّجاهه فتراجع إلى الخلف واستعدّ للانقِضاض عليه . وذُهِل ذلك الشّرطيّ حين رأى السّجين كالحيوان يُمسك الصّمّونة بكلتا يديه ، ويداه ترتعشان وتضطربان فتتحرّك الصّمّونة من بين يديه وأصابعه ، ثمّ يأكلها ، ويلتهمها كأنّه إنسانٌ بدائيٌّ من العصور الحجريّة . كان منظرًا يقطّع القلب . . . غير أنّ الّذي يُقطّع القلب أكثر انقضاض الشّرطيّ والعسكريّ على جسده من الخلف يُوسعانه ضربًا وشتمًا ودعسًا ، وهو - لا يُحسّ بهما - ماض في أكل الصّمّونة إلى نهايتها ، حتّى إذا ما فرغ انقلب على ظهره كأنّه مَلكَ الدّنيا ولم يعبأ بكل أنواع العذاب المصبوبة عليه من الخلف!!

كان عام ١٩٨٦ عامَ الجوع الأبرز . ما من عام سكت فيه الجوع تمامًا . كان يطلّ برأسه بين فترةٍ وأخرى . كان بندولاً من الفولاذ ؛ يروح ويجيء ، يطرق رؤوسنا بقمعه الحديديّ ، فندوخ . ثمّ يرتفع عن تلك الرّؤوس ريثما ترتاح منه قليلاً ثمّ يهبط مرّة أخرى على رؤوسنا من جديدٍ ليُذيقنا الويل والثّبور والعذاب والشّرور .

(٣٨)
﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾

ما الّذي يجعلنا نصبر كلّ هذا الصّبر؟! ومَنْ قال إنّنا فعلنا؟! أكثرنا استسلم لقدره متذرّعًا بالصبر . وبعضنا أكلَ الصّبرُ عقلَه فجُنّ!!

وعلى إيقاع الجوع دخل رمضان ليقول للجوع : تضخّمْ وتعملَقْ!! كان جوعًا واحدًا قبل مجيئه ، فصار جوعاتٍ بعد ذلك . وانتشر بيننا الهذيان ، وعمّ الهلع ، ووقر الشّكّ في قلوب عددٍ لا بأس به منّا بوجود مَنْ ينتقم لنا ، أو يحمينا من الرّماح النّاشبة في حلوقنا ، وقال بعضنا : لو كان الله موجودًا لأطعمنا كما أطعم مريم!! ولولا الشّيخ (صفوان) لوجدتَ نصف المهجع يردّد مع هذه الفئة هذه العبارة . قام الشّيخ فوعظ فأحسن الموعظة ، ودعا فأراح النّفوس ، وأتى بقصص الأقدمين شيئًا فشيئًا ، وقصّة قصّة ما بين خوفٍ ورجاء حتّى ثبّت القلوب : (لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ) . ومع كلّ ذلك ، فقد تولّى بعضنا كبره ، وأيقن بعد زمن أنّه كان مُخطئًا!!

وشعر بعضُنا أنّ مصيبةً لا يُمكن الوقوف في وجهها ، ولا الاحتماء من عواصفها ستحلّ قريبًا من دارنا بسبب تجرّؤ بعضنا على الله بتلك العبارة!! ولاذ نفرٌ غير قليل بالزّوايا يستغفر ويدعو ، ويردّ ثوبه على رأسه كأنّما يتّقي عذابًا قادمًا ، وردّد هذا النّفر قوله تعالى :

(أتهلكنا بما فعل السّفهاء منّا) آلاف المرّات!!

لم يفعلوا ذلك في غير رمضان ، يُخرجوننا للتّنفّس ، ويبدأ العذاب . وعند العدّ المسائي ، يُخرجوننا في السّاحة خارج المهجع ، ثمّ يُنادَى لأذان المغرب ، فلا يُدخلوننا إلى المهجع ، ويأتي البلديّات بالطّعام ، ويضعونه أمام الباب ، ثمّ يطلب العساكر من العميد أن يُدخِل السّخرةُ الطّعامَ ، تطوّعتُ أنا بإشارة منّي للعميد ، وكذلك الطّيّار وقائد الفرقة ، وقمنا لإدخال الطّعام ، فنالَنا ما نالَنا من التّعفيس في الصّدر ، والتّرفيش في البطن ، والتّرفيس في الظّهر ، وأدخلنا الطّعام ، ثمّ أمرنا العساكر بالخروج ، وأوقفونا بعد أذان المغرب نصف ساعةٍ في السّاحة دون أن ندخل ، وبقينا نرمق الطّعام الموجود في الدّاخل ونحن نتحسّر ، ونبلع ريقنا ، ونشتم جلاّدينا في سرّنا . ولم يجرؤ أحدٌ على الحراك . وبعد ذلك دخلنا على إيقاع مواسير المياه الحديديّة وهي تهوي على أكتافنا من الخلف!!

ولم يخطر ببالي أنّ أساليب في التّعذيب مثل هذه الّتي تُتّبع معنا يُمكن أن تكون عفو الخاطر ، أو أن تكون وليدة لحظتها ، بل قد تيقّنْتُ أنّهم يجلسون لها اللّيالي يُخطّطون ويُفكّرون ، وربّما يتسابقون من يأتي بطريقةٍ لم يسبقه إليها أحد ، ومن تكون طريقته هي الأشنع والأكثر تأثيرًا ، وربّما دخل بينهم الشّيطان نفسه على هيئة بشر ، فراح يقترح عليهم وسائل من وسائله ، فيردّونها عليه مستهزئين : (قديمة . . . هات غيرها)!!!

كان الرّابع من رمضان ، خرجنا قبل الأذان بحوالي ساعة للعدّ ، وطلب رئيس المهجع (العميد) من الرّقيب بأدبٍ جمّ أن يسمح لأربعة من المهجع ليبقوا فيه كي يُجهّزوا طعام الإفطار . فوافق الرّقيب على الفور على غير العادة . وخرجنا للعدّ ، وصاح الرّقيب ببقيّة العساكر من

أجل أن يؤدّوا واجبهم الاعتياديّ في النّهش من أجسادنا ؛ أجسادنا الّتي لم يبقَ منها بعد شهور الجوع شيء . وبعد أن تمّ التّعذيب والعدّ دخلنا فرأينا الطّعام قد أُعدّ بطريقةٍ مرتّبة ورائعة ، فاغتاظ الرّقيب ، وصاح بالعميد :

- مين سمح لهدول الأربعة يْضلّوا بالمهجع؟!

- إنتا سيدي . . . أنا استأذنت منّك!!

- وْلا وبتكزِّبْ كمان . . . والله لورجيك يا كلب . . .

- لأ ما عَمْ كَزِّبْ يا سيدي . . . (قالها العميد بصوتٍ مجروح كمنْ أصيب في كرامته أمام زملائه من المحابيس)

- وْلا . . . بِتكزِّبْني كمان يا شَرْ . . . طْلاع لبرّا لَشوف . . . طْلاع وْلا . . . أنا بوَرْجيك . . .

أُخرج عميدنا المسكين إلى السّاحة ، وأُتي بدولابٍ على مرأى منّا جميعًا ، ووُضع فيه بعد أن قُيّدت يداه إلى الخلفً والأعلى ، وارتفعت قدماه من الجهة الأخرى ، وانهالوا عليه بالضّرب ، كتم صرخاته في البداية ، والحقيقة أنّه تحمّل أكثر من (١٠٠) كرباج قبل أن تندّ منه صرخةٌ محبوسةٌ في النّهاية ، ثمّ أشار الرّقيب على الجلاّدين بالتّوقّف ، وأمر اثنين وشحطوه على أرضيّة ساحة المهجع إلى الدّاخل وكلّ شيءٍ فيه قد تورّم ، وحين أُدخل وأُغلق خلفه الباب ، كانت أوّل كلمة له :

- ليش ما بلّشتوا يا شباب . . . كلوا . . . كلوا صَحْتين وعافية . . . تقبّل الله منّا ومنكم الصّيام . . .

عُنيتُ به ؛ غسلتُ وجهه ، وطهّرتُ جروحة بما توافر ، وأسقيته ماءً قد بردّتُهُ تحت فتحة الشرّاقة ، وتقبّلَ كلّ ذلك منّي وهو يرمقني بعينين ودودتين :

- بسيطة . . . الفرج قريب إن شاء الله . . .!!

وفي منتصف الشّهر الفضيل قرّر (أبو نذير) أن يمنع كلّ سجناء تدمر من الصّيام، وأمر جلاّديه بإرغامنا على الإفطار، فكانت الوجبات تأتينا فطورًا وغداءً وأحيانًا عشاءً، وكنّا نخبّئ الفطور والغداء للإفطار، والعشاء للتّسحّر، ووزّع علينا العميد أكياسًا من النّايلون وبعض الأواني البلاستيكيّة كان قد أتى بها الزّعيم من المهاجع الأخرى في مهمّته الاستراتيجيّة أثناء عمله مع البلديّات. فصار الواحد منّا، يضع سحوره في الكيس ويُخبّئه داخل العازل أو البطّانيّة، وقُبيل الفجر، يكون العميد والزّعيم والحارس اللّيليّ قد استيقظوا ورتّبوا أمر الدّخول إلى الحمّام من أجل التّوضّؤ والاستعداد للصّلاة، ومن ثمّ أكل ما في اللّفافة أو الكيس البلاستيكيّ من طعام السّحور، وكان بعضُنا يعود إلى عازله فيتناول سحوره مُختبِئًا تحت بطّانيّته، وكان هذا أمرًا صعبًا، ولم يكن من صعبٍ أمام الأهوال الّتي عايشناها. ونجحت الخطّة أيّامًا، حتّى جاء شرطيٌّ في اللّيل ورأى حركةً أرابتْه فطلب من السّجين أن يرفع بطّانيّته، فرفعها بطريقة أخفت اللّفافة والكيس، فشكّ بحركته أكثر، فطلب منه أن ينفض البطّانيّة نفضًا، ولم يكن أحدٌ منّا يملك غير أن يستجيب، فنفضها فتدحرجت اللّفافة منها، فقال له الشّرطيّ: وْلا . . . إنّتا معلّم . . .

وناداه في صبيحة اليوم التّالي وجلده (٥٠٠) كرباج على ظهره، كأنّما ارتكب السجين جرمًا خطيرًا، ووصل الأمر إلى (أبو نذير) فأرغى وأزبد. وجاء إلى المهاجع وأشرف بنفسه على إرغام النّزلاء على الإفطار. كان يأتي ببادونات الماء، ويطلب من كلّ سجينٍ أن يشرب أمامه من الماء، وحينَ يمتنع يصفعه صفعة تجعله يدور حول نفسه، ثمّ يُعاود منه الطّلب بغلظةٍ أشدّ فيرضخ المسكين بسرعةٍ. أمّا رؤساء

المهاجع فكان يأمرهم بأن يشربوا من البادونات ، ثمّ يأتي بقطعةٍ مشويّة من الدّجاج ، ويبدأ يحاوره بخبث وقسوةٍ وتشفٍّ :

- مو إنتا رئيس المهجع . . .؟!

- . . . . .!! (ويظلّ العميد صامتًا والرّعب بادٍ في عينيه)

- مو لازم تكون مختلف عن الكلاب التّانيين؟!

- . . . . .!!

- مو لازم نحترمك شوي زيادة؟! (يقول ذلك وهو يحرّك قطعة الدّجاج المشويّة أمام عينيه وأعيننا جميعًا بحركةٍ نصف دائريّة)

- مو لازم تاكُل مْنِيح مشان تقدر تقوم بواجبك كرئيس لهالكلاب؟!

- . . . . .!!

- مشان هيك أنا بدّياك تاكُل هالفرّوجة يا ابن . . . . (ويحشوها في فمه يُرغمه مع الصّياح والتّهديد على أكلها) .

وحينَ يُنهي مسرحيّته ، ويخرج من الباب ، يكون الذّلّ والحزن قد غشينا جميعًا ، أمّا (العميد) نفسه فتراه قد انخرط في البكاء على نحوٍ غير معهودٍ . ونُهرَع باتّجاه الشّيخ (صفوان) نستفتيه في حالنا ، فيقول بصوتٍ واثق : (أتِمّوا صيامكم . . . إلاّ من أكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان) .

وفي نهاية رمضان حدثتْ طامّة أخرى ؛ فقد فاضت علينا المجاري ظهر أحد الأيّام ، وأصبحت السّوائل وما تحمله من كتل وغائط تسبح في أرضيّة الحمّام ، وانتشرت الرّائحة الكريهة الّتي لا تُطاق ، وداخ بعضُنا منها ، ونفرٌ غير قليلٍ لم يتحمّلها فأغمي عليه ، فعالجناه برشّ الماء المتوافر في الأوعية البلاستيكيّة على وجهه . ورحنا نطرق باب المهجع نصيح على الشّرطة أن يأتونا بالمعاول أو الفؤوس لنفتح

المجاري ونصرّفها ، ولكنْ لم يكن هناك من مجيب . وجاء وقت الإفطار ، فنلنا نصيبنا قبله من التّعذيب ، وشرح العميد لرقيب الشّرطة أمر الحمّامات فلم يُلقِ للأمر بالاً . ومع حلول المساء تفاقمت المشكلة ، إذا زاد تسرّب هذه السّوائل العادمة فانتقلت من الحمّامات إلى المطبخ ثمّ تجاوزته إلى أوّل المهجع ، ولم يعد مُمكنًا دخول الحمّام ولا التّوضّؤ ولا قضاء الحاجة . وأصبحت النّجاسة والغائط تغطّي كلّ المكان . وذُهلنا عمّا نفعل ، واشتدّت حاجة الكثيرين للذّهاب إلى الحمّام . وكيف؟! والأمر مستحيل . ورحنا نطرق الباب من جديد ، فهرع الشّرطيّ إلينا فاستبشرنا خيرًا ، وصاح من الخارج :

- شو فيه . . . يا كلاب . . .

- المجاري فايضة . . .

- المجاري فايضة . . .؟! شو يعني . . .؟! إن شاء الله بِتْغَرقكُنْ كُلكُنْ . . .

- بَدنا كَمْ فاسْ مْشان نفتحها . . . نحْنا بنفتحها . . . .

- والله لإَفْتح روسكُنْ يا وْلاد الفَلْتا . . .

وفتح الباب مكفهرّ الوجه ، زافر الأنفاس ، فأيقنّا أنّه العذاب . فصاح :

- وين رئيس المهجع وْلا . . .

همّ رئيس المهجع بالتّقدّم ، غير أنّ الطّيّار دفعه من صدره ، وتقدّم هو عنه قائلاً :

- نعم سيدي . . .

- وْلا طْلاع لَبرّا لَشُوف . . .

وخرج الطّيّار ، وبدأت في الخارج تهوي على رأسه وجسده وظهره مواسير الحديد ، وبعد نصف ساعة من العذاب ، ونحن نرتجف من

الخوف والبكاء على حاله ، دخل إلى المهجع إنسانًا آخر ، تغيّر فيه كلّ شيء ، حتّى ثيابه الّتي امتلأت بالدّماء والعرق . . . واستقبلتُه أنا والعميد ، وأجلسْناه في زاوية بعيدةٍ عن المجاري ، قريبةٍ من فتحة الشّرّاقة ، وعالجْناه بما استطعنا . وقبّل العميد يده تعبيرًا عن شكره ؛ لقد فداه بنفسه ، وأكل عنه كلّ هذه المواسير المرعبة!!

واستمرّ تسرّب المجاري طوال اللّيل ، وانتفختْ مثاناتنا بما فيها تريد الإخراج ولا تستطيع ، وصار دخول الحمّام حلمًا صعب المنال ، ورحنا نعدّ أيّام كان سليمًا من النّعم الكبرى . وبكى بعضنا من شدّة الألم وهو يعتصر نفسه الّتي تطلبه لإفراغ ما في مثانته من بولٍ أو أمعائه من غائط .

ولم ينم نصف المهجع تلك اللّيلة ، إمّا لآلام الاحتباس ، وإمّا لعدم صلاحيّة المكان للنّوم . وأصاب الغثيان الجميع ، ولعت المِعَد ، وهمّ عددٌ غير قليل أن يبول على الأرض ، أو يفعلها أمام زملائه . ولم يخل أحدٌ على الأقلّ من التّفكير بذلك . وذهبتْ صرخاتنا سُدى . ومع كلّ زفرةٍ ألم تخرج من الصّدر كانت فتحات المجاري تبعث بدفقة جديدة من جوفها!! وفكّر بعضنا : إنّها نتيجة الجرأة على الله!! وقالها بعضنا الآخر علانيّة : إنّ الجوع والتّعذيب أهون مِمّا نحن فيه الآن!!

وبعد يومين من تلك الحادثة المشهودة ، استجاب لنا الزّبانية وأتونا بثلاث فؤوس . وانهمك العارفون من ذوي الحرف والمهن في عَملهم . ولم تمرّ نصف ساعة حتّى استطاع هؤلاء الزّملاء من إعادة المجاري إلى مجاريها!! وتنفّس المهجع كلّه الصّعداء ، وعرفنا نِقمَ الله ونِعَمه في هذين اليومين . وظلّت الرّائحة ترافقنا لثلاثة أيّام أخرى . وكانت أشبه برائحة العطر إنْ دخلت المقارنة بين الحالين . وانشغل الشّيخ (صفوان) بقيّة شهر رمضان ، يعقد النّدوات ويطرح الأفكار والأسئلة في فقه قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾!!

(٣٩)
﴿وَمَا أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيْكُمْ﴾

قال لنا شرطيٌّ حكيم ذات يوم من الأيّام الغابرة : (لو ما كُنتو مُجرمين ما كان الله بعتكُنْ لَهُون . . . ولو ما كُنتو بْتِسْتاهَلو ما ضلّيتو لَهلّق في السّجن . . . أكيدْ عامْلينْ شِي عَمْلِه كْبِيرة حتّى تْعِيشوا عِيشة الكلاب هَيْ)!!

في البداية دَعَونا بقلبٍ مفجوع أن يصمع الله رقبته ويجعله أمامنا آيةً من آياته الكبرى . . . بعدَ سنة بدأنا نفكّر بعبارته أو بحكمته . . . بعد سنتين صارت هذه العبارة تشتعل في اللّيل كأنّها النّاقوس . . . بعد ثلاث سنين أصبحت العبارة تنتقش في القلب كأنّها ذكرى عصيّة على النّسيان . . . بعد أربع سنين صارت مطرقةً من فولاذ تهوي فوق رؤوس الكثيرين منّا . . . . بعد خمس سنين صارت قضيبًا من الحديد المُحمّى تدخل من طرفٍ في الرّأس وتخرج من الآخر . . . بعد . . . بعد . . . بعد عشر سنين صار منظرًا مألوفًا أن يستيقظ الواحد في اللّيل العميق من نومه ويفزّ كأنّه رفّاس ويصيح : (لو ما مْنِستاهل ما صار فينا إلّي صار) . والعبارة ذاتها أصبح من المحتمل جداً أن تسمعها بعد نقاشٍ حادٍّ بين محبوسَين ، فيقول أحدهما للآخر : (لو ما كنت بتستاهل ما الله جابك لهون)!!

أيّ لعنةٍ تلك الّتي تحلّ علينا فوق العذاب ، والغربة ، والحرمان ، والقسوة ، والألم ، والشّوق ، وفقدان الإنسانيّة ، وموت الأهل ، وغياب

الأقارب والأباعد . . .؟! ما الّذي اجترحناه حتّى هبطت علينا ريح السّموم في أرض قاحلة لا تعوي فيها إلاّ الذّئاب التّائهة؟!!

ترنّح أمامي قُسطنطِين وهو يهمّ بدخول الحمّام في اللّيل . رأيتُهُ قد تغيّر في اليومين الأخيرَين ، تابعتُهُ بحدس الطّبيب ، ولا يُمكن أن أتركه دون عناية ، أو أن أعامل هذا الرّجل السّبعينيّ . . . عفوًا ربّما أصبح الثّمانينيّ مثل بقيّة الشّباب الّذين لا تتجاوز أعمار بعضهم خمسة عشر عامًا أو ستّة عشر . سألته في الصّباح :

- سلامات!! شو فيه؟!

- ما في شي؟!

- شلون . . . حْكيلي . . . المرض بأوّلو أحسن ما يكون بآخرو!!

- النّار شبّت يا دكتور!! آه . . . من يستطيع إطفاءها (قال ذلك بحزنٍ بادٍ وأتبعها تنهيدةً طويلة) .

في العدّ المسائي ، نُخرج الزّبالة مع السّخرة إلى البلديّات من أجل التّخلّص منها . الجاطات الّتي كنّا نُخرج فيها تلك الزّبالة هي الجاطات نفسها الّتي كان يأتينا فيها الطّعام!! قال الزّعيم : (ما نظّفوا الجاطات من بقايا الزّبالة لمّا حطُّوا فيها الشّوربة) . وهكذا كانت الشّوربة مرّة تأتينا بطعم البول ، ومرّة بطعم الغائط ، وحديثًا صارت تأتينا بطعم القمامة!!

كانت الوسيلة الوحيدة للإفلات من الموت هي مواجهته!! لا أحد يقدّر معنى هذه العبارة حقّ تقديرها إلاّ إذا عاش في سجن (تدمر) . كنّا نهرب من الموت بالانغماس فيه ، بِفتْح صدورنا العارية له . يقولون : الأتربة والذّباب والحشرات تتساقط في جاط الشّوربة ، فنقول : حتّى لو تساقطت فيه أشلاء الكلاب الميّتة فسنشربها ؛ يعني سنشربها!! لأنّه ما من وسيلةٍ أخرى سوى شُرْبِها ، وإلاّ فَقَدْنا كِلانا وأمعاءَنا وأكبادَنا بالامتناع عن الدّخول في هذا الطّقس الإكراهيّ الطّوعيّ معًا!! وكنّا

نردّد غير مبالين : (الموت مع الجماعة رحمة)!!

والماء؟! كانت تسبح فيه الدّيدان ، وتتراقص فيه (البراميسيوم) ، وتتمايل فيه البكتيريا ، وتنعث فيه الجراثيم المُميتة . ومع ذلك لا نفرّق بينه وبين دجلة والفرات وبردى والنّيل ؛ كلّه ماء ، وكلّنا من ماء!! وإذا لم نشرب سيظلّ مسلسل الفَقْد يُنشب كلاليبه في عيوننا!!

والهواء؟! مهجعنا أفضل من نصف المهاجع الأخرى في هذا السّجن التّدميريّ . صحيح أنّ الاكتظاظ فيه يؤدّي إلى الاختناق في أحايين كثيرة بسبب ازدياد عدد النّزلاء عن (٢٠٠) شخص ، إلاّ أنّ فيه شرّاقتَين مفتوحتَين على السّماء . بعض المهاجع الأخرى كانت بشرّاقة واحدة ، وبعضها لم تكن فيه شرّاقةٌ أبدًا ، وكانت الأبواب تُغلَق عليها لشهور دون الخروج للتّنفّس التّعذيبيّ ، والانحباس دون هواءٍ أو شمس نوعٌ آخر من العذاب والقَتْل!!

والنّظافة؟! نلحسُ أوساخنا . نلمُّ شعثَ رؤوسنا . نأكلُ ما تناثرَ من قمامتنا . يسيل ما تبقّى من زبالتنا مع الشّوربات في أجوافنا . لم يكن لنا من حظٍّ في النّظافة قطّ .

هَمَدَ (قُسطنطين) في الأرض كأنّه خرقةٌ بالية . وبدأتْ آلام البطن تمنعه من النّوم . طلبتُ من (الزّعيم) في جولاته على المهاجع أن يُقايض بطعامي ما يُمكن أن يجده عند السّجناء من أعشاب : ميرميّة ، بابونج ، ملّيسة . . . كان (الزّعيم) ذكيًا وخبيرًا ، وبسبب طول إقامته في عمل البلديّات توسّعتْ دائرة معارفه . جاءني ببعضها فوضعتُ منها لقسطنطين في شاي الإفطار لعلّه يتحسّن ، غير أنّ ذلك لم ينفعه في شيء!!

وراح (قسطنطين) يذوي ، ويضمر جسده بالكامل ، وظهر ذلك في رأسه أكثر من سائر جسده ، بدأ رأسه يتقلّص كأنّه كرةٌ من صوفٍ

أترعتْ بالماء . ثمّ عاوده الدّخول إلى الحمّام ، فصار يُخرج غائطه أحمرَ اللّون ، فتأكّدَتْ من بعدُ شكوكي . أشفقت على قُسطنطين من الأيّام القادمة ، وهتفتُ في سرّي : كيف لرجلٍ يدبّ نحو الثّمانين يُمكنه أن يحتمل القادم؟!

ولم يعد قُسطنطين يقوى على الوقوف على رجليه ، أكل الوجع ركبيته ، فذاب فيهما كلّ عزم للقيام ، ثمّ صار يُمسك رأسه بين يديه وهو يتلوّى من ألم الصُّداع ، فسارعتُ إلى شقّ طرف بطّانيّة ، وجعلتُ منها لفافةً أشدّ بها على رأسه حتّى أخفّف عنه بعض الآلام . ونحل جسده النّحيل أصلاً حتّى بانت عظام جسده كلّها ، وصار إذا نام على الأرض لا يرتفع منه شيءٌ فوقها كأنّ البطّانية الّتي تعلوه لا تغطّي تحتها بشرًا ولا روحًا!!

أمسك العميد بيدي بعيدًا عنه ، وهمس في أذني :

- ما الّذي حصل معه؟!

- التّيفوئيد . . . إنّه مُصاب بمرض التّيفوئيد . (أجبتُه)

- يا ساتر . . . هل هو مرضٌ معدٍ؟!

- نعم!!

- إذًا يجب أن نعزله!!

- أخاف إذا عزلناه أن يدبّ الرّعب في قلوب المساجين!!

- لا . سنكتم الخبر عنهم . ونقول إنّ الرّجل قد هرم . وهذا مرض الشّيخوخة .

- سنفعل .

وعزلناه في الزّاوية الواقعة وراء الباب مباشرةً ، وابتعدنا أنا والعميد عنها . كان عزله في أيّ مكانٍ آخر صعبًا ومُثيرًا للشّكوك . في الزّوايا الأخرى سيكونُ قريبًا من المساجين الّذين يَلُونه ، وإذا أبعدناهم فقدنا

مساحةً كبيرةً من المهجع نحن في أمسّ الحاجة إليها مع الاكتظاظ في الأعداد . وإذا عزلناه في زاوية الحمّام أو المطبخ ، فإنّها زاوية كثيرة الورود وخاصّة الحمّام فقد تنقل العدوى بطريقة أو أخرى . أمّا الزّاوية الّتي خلف الباب فإنّها زاوية ميّتة ، وينفذ إليها قليلٌ من الهواء الّذي يدخل عبر الشّرّاقة وعبر شقوق الباب!!

بدأتْ ضربات قلبه تتباطأ . ارتفعتْ درجة حرارته أكثر من الاحتمال لمن هم في مثل سنّه . صار يفقد الوعي بين فترةٍ وأخرى . تقيّحتْ أسنانه . صارت صفراء مع رائحة لا تُطاق . طرقنا بابَ المهجع لنطلب طبيبًا أو دواء ، فلم يردّ أحدٌ . بعد محاولات عدّة فتح الشّرطيّ نافذة الباب ، وصاح بغضب :

- شو فيه وْلا . . . شو هالخبط عَ الباب يا حمير . . .؟!

- بدنا طبيب في عنّا حالة خطرة!!

- شلون يعني خطرة؟! (بتقزّز)

- يعني رح يموت إذا ما عرضناه عَ طبيب!!

- بس يفطس ولا بِتْنادوني . . . قرود إنتو وَلاّ كلاب؟! (وأغلق النّافذة)

جفّ حلقه فلم يعد يبلع ريقه الماء ، وازرقّ ما حول عينيه ، والتصق جلد وجهه بعظمه فصار رأسه جمجمةً واضحة . وكانت قد ضمرت حتّى صارت بحجم حبّة اللّيمون . وفي فجر يومٍ حزين أسلم روحه لخالقها ، ومات دون أن ينبس بكلمةٍ واحدة .

لَفَفْنا عظامه المتبقّية منه ببطّانيّته . وصدقً الشّرطيّ في قوله ؛ فبعثناه إليه ميّتًا . ولا ندري كيف دفنوه أو أين؟! هل حفروا له أم تركوا جسده على سطح الأرض؟! أيّ مقبرةٍ تلك الّتي اتّسعت في تدمر لكلّ هؤلاء الشّهداء؟!

كان أوّل سجينٍ يموت بالمرض . ومن بعده انفتح جحيم الأمراض علينا!!!

بعد موته ، ثار الجدل حوله من جديد ؛ نصلّي على روحه أم لا؟! انقسم المهجع مِمّن عرفه من القدماء إلى فريقين ، مالت الأكثريّة إلى عدم الصّلاة عليه لأنّه غير مسلم!! والتزم الشّيخ (صفوان) الصّمت . أمّا أنا فقمتُ وأعلنتُ بوضوح أنّني سأصلّي عليه كصلاتنا على المسلمين أمام الجميع ، ومن أراد أن يصلّي معي فليفعل . لم ينتظم خلفي في الصّفّ غير أربعة . صلّينا عليه بخشوع وبمحبّةٍ وبدافع خفيّ في الدّعاء بالرّحمة . مات ومات معه سرّه . حافظً عليه عشر سنين ، ولم يَبُحْ به لأقرب النّاس إليه من البشر . ظلّ معلّقًا بين يدي ربّه الكريم!!

(٤٠)
الرّيحُ الصّفراء

ارتجّ المهجع بعد موت قسطنطين ، كأنّ ريحًا صفراء قد عبرتْه من أوّله إلى آخره . واكتسى هواؤه بالرّماد المنثور على الرّؤوس . وغرقنا في كآبةٍ لم نَدْرِ مصدرها ، وصحونا على وطنٍ من الأمراض لم نَدْرِ كيف اهتدى إلينا بعد أن ضلّتْ أوطانُنا الأمّ ذاتَ الطّريق ، فألقتْ بنا في هذه المهامه المقفرة بين أيدي هؤلاء الوحوش السّاديّة . ولم يَدُرْ في خَلَدِ واحد منّا أنّ هناك أنواعًا جديدةً من الوحوش غير المرئيّة تنتظر دورها الفتّاكَ في الانقضاض علينا!!

انتشر القمل . غزا أجسادنا بشكلٍ عجيبٍ . لم يكن السّبب خفيًا على أحد ؛ قلّة النّظافة ، وكثرة الرّطوبة ، وارتفاع درجة الحرارة ، والملابس المتّسخة ، والعرق المتصبّب ، والملامسة المستمرّة ، والاحتكاك بين الأجساد . . . وأخيرًا : السّوس ؛ السّوس الّذي يهبطُ إلى أجوافنا أكثر ممّا ينتشر في الموجودات حولنا . لقد بلغت قلّة النّظافة وخاصّة في الأكل والشّرب حدًا لا يتصوّره إنسانٌ . وكانوا إذا عاملونا كدوابّ أو حيوانات فمعنى ذلك أنّهم ارتقَوا في معاملتهم لنا إلى أحسن المستويات . ذات مرّة جاؤوا بجاط الفول في طعام الفطور ، وكان يشبه كلّ شيءٍ إلاّ الفول نفسه ، ونظر فيه الشّرطيّ ، ولا ندري ما الدّعابة الّتي هبطتْ عليه في تلك اللّحظة فمازحَ الزّعيم :

– شو يا زعيم شكلو الفول مسوّس؟!

- لأ يا سيدي . . . قصدك : السّوس مفوّل .

واختفت الدّعابة في طرفة عين من وجه الشّرطيّ ، وأمر باثنين فانهالا عليه ضربًا حتّى أنهكاه ، ولم يتقبّل الزّعيم هذا الغدر من الشّرطيّ فلم يُفطر في ذلك اليوم ، واكتفى بالجلوس شاردًا ، يتجرّع آلام الذّلّ وآلام الجسد!!

وبدا أنّ قائد الكتيبة سيكون أوّل ضحيّة تُعلن عن وجود القاتل الجديد . استدْعاني في المساء ليكشف لي عن ظهره ، ويسألني عن بعض الخطوط الرّماديّة الرّفيعة الّتي تنتشر على جذعه . ثمّ استحى قبل أن يُشير إلى منطقة أعضائه الجنسيّة بأنّ هناك لونًا قاتِمًا قد بدأ يظهر عليها . سألته :

- هل تشعر بحكّة؟!

- نعم . لكن بشكل بسيط .

- في اللّيل أم في النّهار؟

- في اللّيل والنّهار .

- أيّهما أكثر . . . يعني وأنت نائم ولا وأنت مستيقظ؟

- وأنا نائم .

- بسيطة . . . بسيطة .

طمْأنْتُهُ ، ومضيتُ إلى العميد دون أن يشعر بي ، شددتُه من يده ، وانتحيتُ به جانِبًا ، صاح بي :

- شو فيه . . . خوّفتني؟!

- قائد الفرقة . . .

- شو بُه؟!

- جربان . . .

- ما فهمت!!

- مُصاب بِالجرب يا سيدي . . . إذا ما أخدنا احتياطاتنا رَحْ يِعدي المهجع بكاملو خلال أقلّ من أسبوع . . . الأمر بّدايتو ، ما رأيك؟!

- نِعزلو مثل ما عملنا مع قُسطنيطين . . .

- ما بفيد؟!

- ليش . . . عدوى الجرب سريعة وتنتقل بالهواء والملامسة . . . حتّى ملامسة ما لامس الشّخص المُصاب . . . والجرب في ظروف مثل الّتي نعيشها لا يُعدي فقط ، بل يؤدّي إلى الموت . . .

- يا ساتر . . . شو رأيك نعمل؟!

- نحكي للإدارة يشوفولنا حلّ . . . يا بْيِعزلو المرضى . . . وِبْيعالجوهم . . . أو على الأقلّ يِبْعتولنا علاج . . .

ظلّ العميد يرجو الرّقباء في كلّ يوم سبع مرّات لكي يعرضوا المرضى على طبيب السّجن أو يأتوا بدواء ولم يُجبْه إلى طلبه أحد . وفوق ذلك سُحب أكثر من مرّة في هذه المحاولات اليائسة إلى ساحة المهجع وعُذّب حتّى دَمِي!!

بعد أسبوع كان المهجع بالكامل يتأرجح على كفّ الجرب كأنّه كرةٌ في كفّ عفريت!!

تأكّد لي بعد ذلك أنّ الإدارة أرادت انتشار الجرب بيننا كي نموت به ، فلقد ملّوا من طريقتهم في جلب الموت إلينا من خلال الإعدام!!

بدأ قائد الفرقة يحكّ منطقة العانة ، ويجرفها بأصابعه جرفًا ، ثمّ ينتقل إلى باقي جسده ، إلى بطنه ، يكشف عنه ويبدأ يحكّ وهو يصيح من الألم ، ولا أحد يملك له شيئًا فكلّ المهجع يعاني ما يعانيه ، وترتسم خطوطٌ مجروفةٌ على بطنه ، ينثعب منها الدّم ، ويسيل على الحوافّ ، ثمّ لا يلبث أن يزرقّ ، ويختلط الأحمر بالأزرق ، فتكتسي منطقة البطن باللّون البنفسجيّ ، ثمّ يقلب على بطنه ، ويمدّ يده إلى

ظهره مُحاولاً أن يُشبع نهمه الشّديد إلى الحكّ فلا يستطيع ، فيحاول وينجح بحكّ بعض الأجزاء ولكنّه يريد حكًا أشدّ من ذلك وهو غير قادر على أن يفعله لصعوبة وصول يده الممدودة إلى الخلف إلى ظهره ، فيطلبً إلى الطّيّار أن يفعل له ذلك ، فيأبى الطّيّار ، فيهوي قائد الفرقة على قدميه :

- بُوسُ إديك وإِجْريك حِكلّي ضهري . . . رَحْ أموت . .

ويسحب الطّيّار قدميه بعيدًا وهو يغرق في بكاءٍ صامت . ويبدأ في اليوم التّالي جسدُ قائد الفرقة ينتفخ من الجروح والقروح والدّمامل ، وتنظر إليه فلا تشكّ بأنّ بعض أنحاء جسده قد انتفخ حتّى صار مثل البطاطا ، ثمّ يُنتن الدّم داخلها وهي متقيّحة ، ويزداد الشّعور بالرّغبة في الحكّ ، فيحكّ الدّمّل ، ويكحطه بيديه كحطًا ، فينفجر ما فيه من قيح ودم وصديدٍ ويسيل على البطن والفخذين ، وترتفع صيحات الألم . وفيً اللّيل يمتنع النّوم ، ويستمرّ الألم الفظيع ، وفي النّهاية (هَسْتَرَ) قائد الفرقة ، وراح يهذي ، ويُحاول الرّكض في المهجع في اللّيل ، فيقع فوق الأجساد الّتي تبدأ تصبّ عليه اللّعنات ، وترشقه بالشّتائم ، ثمّ يتحامل على نفسه ويتوجّه إليّ ، أراه قادِمًا نحوي من بعيد ، يُشير إليّ بيده ، ويُتمتم بعبارات غير مفهومة ، وقبل أن يصلني بخطوتين أو ثلاثة ، يسقط على الأرض جثّة هامدةً!!

انشغلتُ مع العميد والزّعيم بتغسيل موتى الجرب والصّلاة عليهم طوال أسبوعين . كان قد قضى في هذين الأسبوعين من مهجعنا وحده ثلاثة عشر سجينًا . بعد هذين الأسبوعين اقتعنتْ إدارة السّجن أن تبعث لنا بأدوية ومعقّمات ، وسمحت بفتح الأبواب والنّوافذ طوال اللّيل والنّهار لتجديد الهواء ، واعتنتْ بنظافة الطّعام ، وعُرِض من تبقّى من الجربى على طبيب السّجن ، وبعضهم غادر السّجن إلى مستشفى

خـارجيّ لتلقّي العـلاج . ولـم تكن كلّ هذه العناية من أجل السّجناء أنفسـهم ، أو لوقوع رحمـة ٍفي قلوب السّجّانين ، كلاّ ؛ وإنّما خوفًا من هؤلاء السّجّانين على أنفسهم حينَ علموا أنّه مرضٌ مُعدٍ ، وأنّه ربّما ينتقل إليهم بأيّة وسيلة إذا لم يفعلوا ما فعلوا!!

بعد شهرين من عاصفة الجَرَب الهوجاء ، ألقت الحرب أوزارها ، وأبلَّ المُعذّبون من أسقامهم ، وأفاء الله رحمته على البؤساء ، فأُعلنَ السّجن منطقةً خاليةً من هذا المرض الخطير!!

(٤١)
الحياةُ لا تأخُذُ فحسْب... قد تُعطي!!

وكأنّ الحياة تُعطي وتأخذ ، وتهب وتمنع ، وتجمع وتُشتّت . وكأنّها يدٌ غامضةٌ خفيّة تنزل من سماء المهجع على قلوبنا ، فتُطوّحنا ذات اليمين وذات الشّمال ، وتعبث بأقدارنا . تُمسكنا أحيانًا من أعقابنا فترفعنا مَقلوبي الرّؤوس إلى الأعلى ثمّ تُؤرجِحنا فنرى ما لم نكن نرى ، وحين تختلط الحقيقة بالخيال ، ويذوب الخيط الفاصل بين الواقع والوهم تُعيد تكويننا من جديد ، فتوقفنا على أقدامنا فنحاول - جاهدين - الاتّزان والتّأقلم . ننجح؟! كثيرًا ما نفشل .

حينَ كنتُ أجلس على صخرةٍ في أعلى التّلّة المُشرفة على وادٍ يسيل في وسطه نُهيرٌ صغير كأنّه أُفعى تلتفّ في كلّ حينٍ محاولةً البحث عن الرّطوبة هل كنتُ أدرك أنّ مثل هذا المكان الّذي نقبع فيه ملفوعين بالجرب والموت والجنون موجودٌ على سطح الأرض؟! ولو اقتنعتُ أنّه موجودٌ فهل كان يخطر لي ببال أنّه سيكون مأواي وبدئي ومُختتمي وعالَمي لمدّةِ سبعة عشر عامًا؟! فكّرتُ : في جلستي الشّاعريّة تلك هل كانت الحياة ذلك النّهر الأفعى الّذي خالف قوانين الطّبيعة فانقضّ على خاصرتي ونهش عافيتي وأرداني صريعًا مترنّحًا في هذه المهاجع وتلك السّاحات؟!

أحاول أن أجد لنا تعريفًا نحن المَنسيّين هنا : هل نحن من جنس الإنسان ، أم الحيوان ، وفي الحيوان أصناف ؛ فهل نحن دوابّ أم

حشرات أم هُلاميّات؟! وهل نحن أشباح أم جمادات؟! سيقولون : مسكين ، أثّر السّجن على عقله ؛ فصار يهذي!! وليكنْ . ذلك لا يلغي حقّي في التّساؤل!! فأنا حثيثًا ودون مواربةٍ أبحث عن تصنيف لنا من أجل أن أفهم طريقة تعامل الجلاّدين معنا ، فإنّني احترت طوال هذه السّنين في الوصول إلى إجابة سؤال واحدٍ مُلحّ صارخٍ : لماذا يُعاملوننا هذه المعاملة؟!

نحبّ السّجن أم نكرهه؟! نلتصق به أم يلتصق بنا؟! يضمّنا إليه أم نضمّه إلى قلوبنا؟! أنْ تُعاشر جِدارًا سبعة عشر عامًا لا بدّ أن يخلق في داخلك نوعًا من العلاقة يصعب تفسيرها . يصعب التّكهّن بمستقبلها . يصعب الانفلات منها . يصعب الهروب من عُلوقها بالقلب!! من أحبّ فلنفسه ومن عمي فعليها!!

رأيت الموت كلّ يوم ، كلّ ساعةٍ ، كلّ دقيقة . وعايشتُه مع الآلاف الّذين بُدّلت جلودهم لطوّل ما ذاقوا من ألوان العذاب . ورأيتُه في المئات الّذين تدلّتْ أعناقهم دون السّماح لأقدامهم بأن تطأ الأرض . لم تعد فكرة الموت تُرعبني . لم تكن فكرة الموت تُخيفني . المخيف ، والمرعب والقاتل : أن يظلّ السّؤال السّرمديّ معلّقًا : متى؟! حينَ تنطفئ الأضواء البعيدة المعلّقة فوق الطّرقات الذّاهبات إلى القرية السّاكنة؟ ربّما!! حينَ تكفّ حنجرتي عن الغناء للحريّة والأحلام؟ ربّما!! حينَ يستوي في فمي طعم الماء والنّار؟ ربّما!! حينَ تكفّ ذاكرتي عن نبش الماضي؟ ربّما!!

هو القلب ضلّ حينَ لم يكفّ عن الحبّ؟! هو القلب ضلّ حينَ لم يستسلم لقطيع من البشر أدمنوا زرد السّلاسل فوق العيون والأهداب؟! هو القلب الّذيً كان عدوّي حينَ أراد أن يحتال على الموت بالعشق والتّأمّل والانتظار؟! هو القلب الّذي استطاع أن يكسب الجولات كلّها

حينَ اختلط في دمه الأمل مع الألم ، وفي أوّل معركةٍ صنعتْها سياط الجلاّدين قال : إنّ الألم ما هو إلاّ أمل إنْ غيّر مواقع حروفه ولم يظلّ جامِدًا ينتظر تساقط الرّحمات؟!

آه . . . لو كان للموت عينان لكي يرى أنّ الحياة تهزمه بأبسط الآمال!! آه لو كان له قلب ليدرك أنّ العشق ينتصر عليه بأبسط الأحلام!! آه لو كان له لسان ليقول إنّ الكلمات سبقتْه إلى الوجود ، وإنّها أتت به ، وإنّها قادرةٌ - من بعد ذلك كلّه - على أن ترحل به غير آسفة!!

ماذا لو فتح الجلاّد باب عبوديّتي وأشرعه على الحرّيّة المُطلقة ، ودعاني إلى الخروج؟! ماذا لو صار السّجن ذكرى غير قادرةٍ على الاستحضار؟! ماذا لو انتفى هذا المصطلح من القاموس البشريّ ؛ أكان سيظلّ للحياة ذلك الطّعم المُحبّب ، ذلك الخدر الّذي يُوقِظك على صفحة الحياة خضراءَ يانعة؟!

أكان السّجن تأجيلاً لزمنٍ ليس لنا؟! أكان السّجن غابةً دخلناها سهوًا فيما هي في الأساس أُعِدّت لغيرنا؟! أكان قلعةً بُنِيت على أساس الوهم ووجدنا أنفسنا فيها ذاتَ حُلم؟! أم أنّه كان لنا وكنّا له منذُ أن وُلدنا؟! ولماذا كان قَدَرنا أن نُغيّب في السّجون كلّ هذه السّنين وما اقترفنا إلاّ العشق ، وما احترفنا إلاّ الحبّ ، وما سلكنا غير طرق الهُيام؟! أكان السّجن مأوى العاشقين والمُحبّين والهائمين؟! أم أنّه اختبارٌ لقدرتهم على احتمال وهج العشق والحُبّ الهُيام الّذي يزعمونه؟!

وأبي؟! غرسَ فيّ حبّ الحياة أم انتزع منّي خوف الموت؟! صنَعَ منّي صومعةً للتّعبّد أم منارةً للشّكّ؟! كوّنني عجينةً من رماد أم صخرةً من صمود؟! إن كان ما زال موجودًا في حياتي فَلِمَ أعلقُ الآنَ في شِراك الخوف بافتقاده ، ولِمَ تصفعني رياح الحيرة باستباق غيابه؟! هل رحل

هو وأمّي من حياتي ، أم رحلتُ أنا من حياتهما؟! إنْ كانوا هم قد رحلوا طوعًا فإنّني لم أرحل إلاّ قسرًا ، وشتّانَ شتّانَ بين الأمرين!!

ولمياء؟! هل هناك في البيت غيرُها؟! ما الّذي يدعوها إلى أن تعترف ببائسٍ مثلي؟! ما الّذي يجعلها تنتظر عودة مفقودٍ مثلي؟! ما الخيط الّذي يشدّها نحوي؟! نحو رجلٍ لم تظفر منه بلمسةٍ حانية طوال حياتها من بعد؟! نحو إنسانٍ لم تعرف شكله ، ولم تر لهُ وسمًا ولا رسمًا في محابرها ولا في أدراجٍ زينتها؟! أبٍ لم يعرف أحدٌ إنْ كان قد ظلّ حيًا إلى اليوم أم مات منذ زمنٍ بمن فيهم هو نفسه؟!

تلمّستُ الجدران لأدرك أنّني حيّ!! شممتُ رائحة الرّطوبة لأوقن أنّني لم أمت بعد!! قشرتُ بإظفري عفنًا متراكمًا في زاوية المهجع لأعرف الحقيقة!! غرزتُ عظمةً في باطن ساعدي لأهتدي إلى وجودي!! من يستطيع أن يُقنعني أنّني لا أهذي بهذه التأمّلات وأنا ميّت؟! من يستطيع أن يقول لي : إنّه أنت وليس شبحك هذا الّذي يتكلّم؟! إنّه أنت وليس طيفك هذا الّذي يجول؟! من يستطيع أن يفسّر لي بقائي على الحياة إلى اليوم في هواءٍ لا يعترف بها ولا يُقرّ بوجودها وهو يملأ رئتيّ منذ سنين طويلة حتّى الثّمالة؟!!!

(٤٢)
خشّان يبدأ العلِل

تبدّل أكثر من نصف مهجعنا بالموت ، ذهبوا في طريق اللاّعودة ، ووعدونا أن نلتقي في مكانٍ آخر ، ربّما ليس على وجه هذه الأرض . وظلّت طيوفهم تُضيء عتماتٍ اللّيل من بعدهم . . . . آخر ما تبقّى منهم تبقّى عالقًا في المخيّلة . . . ذلك الّذي أبى أن يخرج قبل أن يشرب كوب اللَّبن صورته لم تَمْحُها سبعُ سنين عجافٍ من بعد ارتسامها ؛ أمسك كوب اللّبن وأفرغه في معدته كاملاً ، وقال : (الحمد لله . . . أحلى لبن بشربو بحياتي . . .!!) ثمّ خرج راضِيًا بعد أن استنفد رِزقه من الدّنيا قبل أن يصعد إلى عالَمٍ لا ندري سرّ استقطابه لكلّ هذه الأعداد من بيننا . . .!!

ورد إلينا في المهجع من كلّ صقع وملّة ودين وفِكر . . . ولم نعدم بعض اللّصوص والمجرمين الكبار . . . شاركونا هذه العلبة الّتي تضيق بنفسها عن نفسها . . . واللّوطيّون فتحوا أعيننا على قذارة الدّنيا والإنسان ، ولطّخوا طهارة قلوبنا حتّى عددناهم عذابًا شديدًا فوق العذاب . . . كان (خشّان المسلّمي) زعيم عصابةٍ في تجارة المخدّرات ، وشايعه سبعة أو ثمانية من عديمي الضّمير هنا ، وبدأ يصطنع مع جماعته المشاكل ، فمرّة يسبّ الدّين علنًا ، ومرّة يمثّل أوضاره الجنسيّة أمامنا ليكسر حاجز الحياء عندنا ، ومرّة يسرق خُبز غيره ، مستعينًا بمجموعته الآثمة ، ومعتمدًا على أن لا أحد يشكو ، فالجميع في المحنة

سـواء ، وأيّ شكوى تُحـمّل صـاحـبـهـا حفلةً من التّـعـذيب لا طاقـة له بها . . . غير أنّ الجميع احتمل هذه الحماقات إلى حينٍ . . . حتّى جاء اليـوم الّذي ادّعى فـيـه خـشّـان أنّ رئاسـة المهـجع يجبُ أن تكون له لا للعمـيـد ، وأنّ العـمـيـد قد هرم في السّنّ ولا يستطيع أن يدبّر أمر نفسه حتّى يقوم بتدبير أمر المهجع الّذي يزيد عدد قاطنيه عن (١٥٠) . . .!! أخذه (العـمـيـد) بالودّ في النّـهـاية ، ولكنّ اللّئيم إذا أكـرمته تمرّد ، فصار يسبّ ويشتم ويتوّعد ويُهدّد . . . وهنا تصدّى له عددٌ من نزلاء المهجع الّذين عاشوا فيه أكثر من عشر سنين تحت إمرة (العـمـيـد) ولم يجدوا منه إلاّ كلّ تعـاونٍ واحـتـرام ، ومن هؤلاء الشّـيخ (صـفـوان) ، فـقـد قـام العـمـيـد نفسه بتنظيم حلقته في الفقه و الفتوى ، وكان العـمـيـد تلميذاً عنده طيلة عـقـد حلقـتـه . . . وهنا اسـتـغلّ (خـشّـان) تدخّل الشّـيخ (صـفـوان) ، وهدّد بأنّه سينقل إلى الشّـرطة أمر تنظيم الحلقات السّـرّيّة وأنّ أصحابها يقومون بالتّخطيط لعمليّات إرهابيّة ، ولا يفترون عن لعن الرّئيس وشـتـمـه . . . ولم ينتظر (خـشّـان) إلى اليـوم التّـالـي فـفـي العـدّ المسـائيّ ، همس في أذن الشّـرطيّ أنّ لديه أخبـارًا خطيرة يريد توصـيلها إلى مـدير السّـجن ، وأنّهـا مُـسـتـعـجلة ، وفي مصلحـة الدّولة . جـذبه الشّرطيّ بطوله من ياقة خرقته ورفشه في بطنه ، وصاح فيه :

- طْلاع وْلا مِنّا . . . والله إنتا كزّاب ابن كزّاب . . .

وعند دخولنا إلى المهجع ارتاحت نفوسنا قليلاً ، وقلنا لـقـد نال ما يتسحقّ جرّاء وشايته ، واطمأنّ المهجع إلى أنّ العاصفة قد مرّت . ولكنْ بعد ساعتين ، فتح الشّرطيّ نافذة باب المهجع ، وصاح :

- وين (خشّان المسّلمي) وْلا يا كلاب . . .؟!

- هون سيدي . . . هون . . . أمرك!!

- تَعا يا ابن الحرام . . . المدير بدّو ياك . . .

- شو فيه سيدي . . . شو فيه . . .؟! (قال ذلك وهو ينظر في وجوهنا متشفيًا)
- طْلاع وْلا . . . طْلاع . . .

وخرج (خشّان) ، وصعدت بخروجه قلوبنا إلى حناجرنا ، وتوقّعنا مصيبة كبيرةً في أيّ لحظةٍ . وصرنا نُهيّئ أنفسنا لحفلةٍ من التّعذيب يُشرف عليها (أبو نذير) نفسه ، ومثل هذه الحفلة لا يُمكن أن يصل الخيال إلى مدى قساوتها .

دخل (خشّان) بطوله الفارع إلى غرفة المدير . صاح المدير بمعاونيه :

- قرّبوا هالجرو لقدّام . . . قرّبوه . . .
- حاضر سيديّ . . .
- شو في عندك . .؟!
- أخبار خطيرة سيدي . . .
- شو . . .؟! حْكي وْلا . . . يا حَيَوان . . . هو الحيوان عُمرو بْيفهم . . . هات لَنشوف . . .
- سيدي في تنظيمات جوّا المهجع . . .
- والله؟! شو يعني تنظيمات . . .؟! (قال ذلك وهو يُرجع ظهره على كرسيّه إلى الخلف ويسحب نفسًا عميقًا من السّيجار الّذي بين إصبعيه ، ثمّ ينفثه في الهواء)
- عاملين سيدي تنظيمات . . . بيعطوا دروس بْعمليّة الاغتيال . .!!
- يا لطيف . . . اغتيال؟! اغتيال مين ولا؟!
- اغتيال الرّئيس سيدي . . .
- الرّئيس مين . . . أنا وْلا . . .؟!
- لأ سيدي . . . الرّئيس . . . الرّئيس . . .

- اغتيـال الرّئيس . . . . (قـال ذلك وهو ينفـجـر من الضّـحك) اغتيال الرّئيس . . .؟! مين . . .؟! ولا هولي رح يموتوا قبل ما يطلعوا من هالسّجن يا حيوان . . . (وتتابعت ضحكاته الفاجرة ، ثمّ التفت إلى معاونيه) ، وقال :

- علّمولي هالحيوان سِنة . . . بدّياه كلّ يوم ياكُل قتلة حتّى ينسى حليب إِمُّو . . .

ارتجف جسد (خشّان) بالكامل ، ضغط على أسنانه من الخوف ، وشعر بماء ساخنٍ بسيل بين فخذيه . . . أخذتْه الشّرطة وقبل أن تُدخله إلى المهجع ربطوه في السّاحة ، وبدؤوا مع أولى حفلات العام الجديب . . . ظلّوا يكسّرون جسده ببساطيرهم ، وينخّلون بطنه بأعقاب بنادقهم ، ويشوّتون رأسه بأقدامهم كأنّه كرة . ونحن في الدّاخل نسمع صِياحه ، في البداية تشفّينا به ، فقد نال جزاءه ، ولكنْ بعد قليل بدأنا نُشفق عليه . . . لم يستطع الدّخول إلى المهجع وحده ، نادى الشّرطيّ علينا ، خرجتُ أنا والعميد والطّيّار والزّعيم حملناه ثمّ دخلنا به إلى المهجع . . . كانت عيناه عيني ضفدع من التورّم ، وجسده محدودبٌ كأرنب ، جاهد ليُخفي نظراته المكسورة عنّا ، وتلقّاه أنصاره مثل جِراء صغيرة . . . لم أتركه بدوري ، قمت بإسعافه والتّخفيف عنه .

صار تعذيبه - حسب تعليمات أبو نذير - يوميًا . وفي كلّ يوم يعود أسوأ من السّابق . بعد أسبوعين ألحّ (العميد) على رقيب مهجعنا أن يرفعوا عنه (التّعليم) ، ورجاه بذلك رجاءً طويلاً . استجابوا بعد أسبوعين آخرين . . . ظلّ (خشّان) شهرًا كاملاً يُداس بالبساطير ، ولكنّه تعلّم ألاّ يستعدي أحدًا بعد ذلك هو أو جماعته!!

نجا (خشّان) من الموت بوساطة (العميد) ، لكنّ الموت كان له بالمرصاد في أمرٍ ليس لأحدٍ فيه وساطة .

اهتزّ جسده كورقةٍ يابسة ، قام إلى الحمّام ، رجع ليعود إليه ؛ إنّه الإسهال ، تعوّدنا عليه ؛ كثيرًا ما يُصيب المحابيس ، لسببٍ أو لآخر . غير أنّ الإسهال رافقه جفافٌ في الحلق ، وارتخاء في الأعضاء . تسطّح (خشّان) على الأرض مثل شريطة ، وراح واحدٌ من جماعته يُديم تنقيط الماء في فمه ، ويُعينه على شرب الماء إذا استطاع ليُبعد عنه شبح الجفاف كما أمرتُه!! غير أنّ ذلك لم ينفع . صار (خشّان) يتلوّى على الأرض من الألم ، صار يُمسك يده ويشدّها على بطنه ، ويبدأ بالصّراخ ، ثمّ زاد في همّوده ارتفاع درجة حرارته ، ثمّ لحق الأمر بجماعته ، فصاروا كلّهم يعانون ما يُعاني . فطنتُ للأمر بعد فوات الأوان ، ولكنّي أردتُ أن أتأكّد . طلبتُ من (خشّان) إذا دخل الحمّام ألاّ يُنظذف وراءه ويترك برازه مكانه . استغرب من ذلك ، لكنّه استجاب لطبيبه . دخلت بعده ، أمسكتُ بعصا عظميّة وغرزتها في البراز المُخاطيّ ، ثمّ رفعتُها ، قرّبتُ البراز الّذي على العظمة من أنفي وشممتُه ؛ لقد تأكّد الأمر ؛ (خشّان) مُصاب بالكوليرا . فَزِعتُ كأنّ حيّة لسعتْني . هُرِعت إلى العميد وأخبرته :

- الكوليرا تنتقل في (٥) ساعات . العدوى بها سوف تقتلنا جميعًا!!

- والعمل؟!

- يجب أن أقابل طبيب السّجن وأشرح له الأمر . لا بُدّ من دواء وإلاّ هلكنا!!

- ولكنّه لن يقتنع . . . ولن يقتنع أحدٌ من الشّرطة!!

- سيقتنعون إذا قلت لهم إنّ هذا المرض ينتقل بالهواء وإنّه سيصيبهم قبل غيرهم!!

دقّ العميد على باب المهجع . حضر الشّرطيّ . أخبرناه . أخذني

معه وهو يشتم ويلعن ويتوعّد . دخلتُ على طبيب السّجن ، وشرحتُ له الأمر . لأوّل مرّةٍ أجد عنده بعض التّجاوب . قال لي :

- أيّ دواءٍ تريد؟!

- على الأقلّ كمّيّة كافية من (التّتراسكلين) و (الدّياسبير) .

- ماشي . . . ماشي . . . أهمّ شي تحاصر المرض .

- لو عزلنا المرضى أحسن!!

- هَيْ مُو عندي . . . أنا طبيب بَسْ . . .!!

- طيّب إذا تكرّمتوا شويّة معقّمات كمان مع الدّواء . . . أنا سأتولّى الأمر ، وسأحاصر المرض ولن ينتشر بإذن الله . . . المهمّ نعجّل بالدّواء!!

- طيّب . . . طيّب . . .

لم يصلنا إلينا الدّواء إلاّ بعد أربعة أيّام . . . كان أكثر من نصف المهجع قد أصيب بالمرض . . . (٩٠) مريضًا انساحوا على الأرض بانتظار الموت . . .

عندما وصل الدّواء متأخّرًا ، بدأتُ عمليّة العِلاج . . . استغرق ذلك أكثر من ثلاثة أشهر . . . خلالها أُعفي المهجع كلّه من الخروج إلى السّاحات أو التّنفّس أو سخرة الطّعام . وحده الزّعيم ظلّ يأتينا بالطّعام . واستطعنا أن نحصّل له موافقة ألاّ ينام معنا في المهجع بل ينام في مهجع البلديّات لكي يبقى سليمًا ويُساعدنا في مهمّتنا . . .

بعد ثلاثة أشهر كُنّا قد فقدنا (٤٢) مريضًا من الـ (٩٠) الّذين أصابهم هذا الهواء الأصفر!!!

(٤٣)
السُّلُّ يفتحُ ذراعَيه

عدنا إلى دوّامة الحياة من جديد ، رسم القمرُ من خلال الشرّاقة في إحدى اللّيالي قُرصه الفضّيّ في الخلفيّة الكحليّة ، حَمَلنا إلى عالم الأفلاك ، عالَم الحرّيّة ، عالَم الانفلات من براثن الجسد المتوحّشة!!

أرهقتْني شهور المرض ، كادت تفلّ عزيمتي . كان واجبي الإنسانيّ والأخلاقيّ يدفعني إلى أن أخوض مستنقع الموت مع عدد من زملائي الأطبّاء المُخلصين من أجل أن أنقذ ما تبقّى من أرواح البؤساء في هذا المهجع . . . لا أدري ماذا يحصل في المهاجع الأخرى ، أغلب الظّنّ أنّهم يعانون ما نُعاني ، ولكنّهم أيضًا يجدون من الأطبّاء في مهاجعهم من يُحاول - بما تيسّر من أدوات - أن يخفّف عنهم . كان لا يخلو مهجعٌ من طبيب سجين ، وأحيانًا كان يجتمع أربعةٌ أو خمسةٌ أو أكثر من ذلك من الأطبّاء في المهجع الواحد!!

استخدمتُ كبسولات (التتراسكلين) بعد موجة الكوليرا لكلّ مرض ، بما فيها وجع الأسنان ، غير أنّه بعد فترة قطعها طبيب السّجن عنّا ، متذرّعًا بأنّ طوفان المرض قد هدأ ، وأنّنا لسنا بحاجة إلى ذلك ، فصرتُ أخبّئ هذه الكبسولات وأقنّن استخدامها ، ولا أُعالجُ أحدًا بها إلاّ في الحالات الضّروريّة والمستعصية . كانت تأتينا أيّام المرض عشر علب كلّ أسبوع ، كلّ علبة فيها (عشرون كبسولة) . صارت تأتينا علبة واحدة في الأسبوع الواحد . غير أنّ عهد الكبسولات عهدٌ جديد ؛

يُمكن أن يُؤرَّخ في السّجن قبله أو بعده . ومع أنّ وجود الكبسولات كان نعمة ، إلاّ أنّه كان في المقابل أيضًا نقمة ، فقد سال لُعاب الكثيرين من الّذين يُصابون بأدنى وجع للحصول عليه ، ولأنّه في حوزتي فقد كان من الطّبيعيّ أن أُتّهم بأنّني منحاز وأنّني عنصريّ وأنّني متسلّط . وكان يدور في خلد عددٍ لا بأس به من المحابيس أن يسرقوا ما لديّ أو يأخذوه بالقوّة ، ولولا وقوف (العميد) و(الزّعيم) و(الطّيّار) وعدد آخر من الواثقين إلى جانبي لكان مصيري القتل على يد هؤلاء!!

وفكّرت : كبسولات لا تساوي شيئًا خارج السّجن ، تُباع بأبخس الأثمان ، ولا تعدو كونها مُضادًا حيويًا عاديًا ، تساوي داخل السّجن حياة كاملة ,وربّما تجد من يتقاتل من أجل الحصول عليها ؛ فأيّ سجنٍ هذا الّذي يرفع الأشياء من شيوعها إلى ندرتها ، ومن تفاهتها إلى عظمتها ، ومن إهمالها إلى التّهافت عليها!! إنّه لسجنٌ عجيبٌ نادرٌ!!

وقفتُ حارسًا ليليًا لشهر أكتوبر ، شهر الخريف . وكانت أجواء غير مبشّرة تلوح في الأفق ، كان ذلك في عام ١٩٩٢ ، وكنّا قد أكلْنا من جلودنا ما تبقّى لكي نبدّلها ، كنّا في لهفةٍ إلى قمرٍ جديدٍ يطلع في فلك وحشتنا لكي يؤنسنا ، كنّا بحاجةٍ إلى هواءٍ نظيفٍ لكي يملأ رئتينا من جديدٍ بالأمل الّذي هرم معنا هنا في السّجن ، فتخلّى عن أن يلحق برَكْبنا في كثيرٍ من المواقف ، كنّا بحاجة إلى أرضٍ جديدة تنبتُ فوقها سيقان أقدامنا ، وتورق من تحتها بواطن أرجلنا ، وتخضر فوقها أوراق ضلوعنا . . . . كانت أجسادنا ، أعني ما تبقّى منها ، بعد أكثر من اثني عشر عامًا من العذاب والغربة والحرمان والأمراض والموت والجوع والخوف والهلع والجنون والهذيان والمرارات محتاجةً إلى يدٍ حانية تمسح عنها غبار القتر الّذي غلّفها طوال هذه المدّة . لم نكن نحلم بالكثير ؛ قليلٌ من الهواء

المنعش سيعيد ترتيب خلايا الشّعور في رئاتنا ، قليلٌ من الطّعام الجيّد سيعيد نموّ خلايا العقل الّتي أصابها الاهتراء لطول الظّلام والرّطوبة ، قليلٌ من الرّاحة من العذاب ستيعد إلى أنفاسنا دورتها الطّبيعيّة ، وتمكّننا من التقاطها بعد أن حُرمنا من أن نفعل ذلك رغمًا عنّا!!

بِمَ يحلم السّجين الّذي يرى الموت يرقص أمامه في كلّ حين بأكثر من ذلك ، بأكثر من جدار يُسند إليه ظهره المُتعب بعد رحلة مضنية طويلة . بأكثر من أرض يُمدِّد فوقها جسده بعد عناءٍ أوقفه عن النّوم حتّى اشتهاه قبل أن يموت!!

غير أنّ هذه الأحلام البسيطة لم يكن بسيطًا تحقيقها في سلطة تحترف قتل كلّ شيءٍ حتّى الأشجار والحجارة . بدؤوا من جديد يتسابقون إلى تعذيبنا بالطّعام والشّراب :

- شخْ فِيّا . . . اتنين ما بيكفّي . . . لازم تعطي طَعمِة أطيب . . . (يأمر الرّقيب ثلاثةً من البلديّات بفعل ذلك في شوربة العدس)

- اعْملا هُون . . . هون . . . مانَكْ سامع!! (يأمر الرّقيب أحد البلديّات أنْ يتبرّز في شوربة الفريكة)

- نطْ هون . . . نط مْنيح وْلا . . . وإنتا لابس شحّاطْتك يا شَحّاطة . . . (يأمر الرّقيب أحد البلديّات بالقفز في جاط البطاطا المسلوقة ليهرسها برجليه ، ثمّ يفعل هو ذلك ببسطاره)

- وْلِي . . . لِيش كل هالبيض جايبنو بهالجاط . . . رجّع نُصّو للمطبخ يا حَيَوان . . . (يأمر الرّقيب أحد البلديّات بإرجاع نصف البيض المسلوق الّذي لا يَكفي عُشر المهجع إلى المطبخ!!)

هكذا كانت مشاهد الطّعام تتماثل أمام أعيننا ، وحدي الّذي كنتُ أحتكر الحقيقة من أجل ألاّ يتأبّى المحابيس عن أكل النّفايات الّتي تُقدّم لهم . . .

أمّا الماء فقد انقطع من الحمّامات ، وصار يأتينا (بالبوادين) ، وكانت إدارة السّجن تُخصّص لكلّ مهجع (بادونين) من الماء ، أي ربع كأس ماء لكلّ نزيل في اليوم الواحد . وأحيانًا كان هذان (البادونين) للشّرب وللوضوء وللاستحمام ولقضاء الحاجة ولكلّ شيء . . . وكانت عمليّة التّوزيع بعدالة تُرهق (العميد) أيّما إرهاق . . .

شَحَّ الماء . . . فشحَّتِ الحياة . ونَزَتْ أرواحُنا مع نُزُوِّه ، وقلّت مباهجنا - إن كان لنا مباهج - مع قلّته . . . ورُحنا نشكو إلى الله ما حلّ بنا ظاهرًا أو باطِنًا . وركن كثيرٌ منّا إلى الجدران يبكي أو يقرأ آياتٍ من القرآن أو يهذي . . .!!

ثمّ كان ما كان . . . كانت ليلةً قلبت كيان مهجعنا كلّه . بدأتْ بسُعال خفيف مع الطّيّار ، ثمّ استمرّ معه فجاوز الثّلاثة أسابيع . . . فبدأتُ أشكّ ، أعطيته الكبسولات إيّاها فقال لي : إليك عنّي . أرحناه من الخروج إلى التّنفّس بعد أن تعهّدنا للرّقيب بأن نُعذّب عنه لأسبوع ، محاولةً منّا لتفادي وقوعه في المرض المُحتمل الّذي بدأتُ أشكّ به . . . ثمّ تبعه عدد غير قليلٍ من المهجع ، صاروا يسعلون في اللّيل كأنّهم ذئاب تعوي في جبالٍ بعيدة . . . ثمّ صار يخرج مع السّعال بُصاق اختلط فيه اللّون . . . كان أبيض ثمّ صار نهديًا ، ثمّ صار أحمر . . . ثمّ صارت تخرج مع السّعال المميت قِطَعٌ من جوف المريض . . . صرختُ صرخةَ يائسٍ هاربٍ من الموت والموت يتبعه :

- إنّه السّلّ . . . إنّه السّلّ . . . إنّه السّلّ . . . . (وأغلقت وجهي بيدي)!!

جثم الرّعب على صدري جثوم الصّخرة في قعر السّيل . . . انتظرني الوجع في كلّ المفترقات ، وتربّص بي شبح الموت في كلّ آن . خلال عشرة أيّام كان المهجع عن بكرة أبيه قد وقع في مستنقع السّلّ ،

وشربَ من وخمه حتّى الثّمالة ، وكنتُ أنا أشدّهم ابتلاءً!!

همدتُ في الزّاوية كمن استسلم لحتفه ، وراح نَفَسي يتسارع ، وجوارحي ترتطم في لهاثٍ أبديّ ، وأعضائي يتشابك بعضها ببعضٍ في هروبها البائس من نفسها!! وأين المفرّ؟! لقد غاصتْ أنياب المرض في رقبة عافيتي حتّى شربتْ من دمها كلّ قطرة!!

المهجع كلّه؟! بلى ، كلّه . (١٦٧) سجينًا فتحنا رغمًا عنّا صدورنا للسّلّ ، وكأنّنا قلنا له بالفم المليء : أهلاً وسهلاً ومرحبًا . فما كذّب دعوة ، ولا ردّ تكرمة ، ولا استنكف عن نِداء . . . وصِرنا في مهبّ الأذى كأنّنا نُثاراتٌ من ورقٍ أصفر ذرّتْ رماده في البيداء ريحٌ سوداء!!

ارتفعتْ درجة حراراتي حتّى زادت عن الأربعين ، أعرف ذلك تمامًا حتّى ولو لم يكنْ من ميزانٍ للحرارة ، مستوى الهلوسات يقرّر درجة الحرارة . . . كنتُ أذوب في تلك الهلوسات كقطعةٍ من شحم تلقّفَتْها أفواه النّيران ، وراحت تتلوّى بين لهيبها ، ثمّ تتهاوى عن نفسها قطراتٍ من وجعٍ لا يُحتمل . . . وأفرز جسدي أطنانًا من العرق ، صرتُ أرشح به كأنّنيً نافورة من مياه تتدفّق . . . غطّى العرق ملابسي فصرتُ أعصرها اتّقاء الوقوع في دوّامةٍ أعتى من المرض . ولكي أوقف سيل التّعرّق الّذي ينسكب من مسامات جسدي انسكابًا ، وينصب فوق ملابسي انصبابًا رحتُ أُعِدّ لي ولمن استطعت كمّادات من الماء بما توافر منه ، فلقد كان مفقودًا عزيزًا هو الآخر ، غير أنّ هذه الكمّادات لم تنجح في وقف هذا النّزيف بشيءٍ!!

وفي اللّيل . . . تتجبّر الميكروبات ، وتتغطرس الجراثيم البكتيريّة فتُصبح تلهو بي بين نَفَسٍ مُختنق ، وبين صدرٍ يُعاني جيشًا من الآلام تنهال عليه بالسّكاكين تمزّقه مع كلّ سعالٍ مُرتَقَبٍ .

كان المهجع كلّه يعزف سيمفونيّةً السّعال الخالدة . . . حتّى

جدرانه صارت تسعل ، حتّى أرضه صات تسعل ، حتّى حمّاماته صارت تسعل . . . حتّى حارسا شرّاقتيه صارا يسعلان وهما يُطلقان الشّتائم البذئية على مهجع يسير نحو الفناء بخطواتٍ ثابتة . . .

صرخ العميد بآخر ما تَبقّى في صوته من قوّة :

- بدنا يشوفنا الطّبيب . . . نحنا عَم نْموت هون . . .

- الله لا يردكُنْ . . . بس تفطسوا بْحِلّا ألف حلاّل . . .!!

- يا ناس يا عالَم . . . مشان الكبار في السّنّ . . . مشان العجايز . . . شويّة رحمة . . .!!

وذهبت كلّ الصّرخات سدى . ومرّ على حالنا حوالي سبعة عشر يومًا ، تحوّل المهجع فيه إلى كتلةٍ سوداء من موتٍ مُكثّف يخيّم على الوجوه ، ويلتفّ على القلوب . . . وفَقدتُ نصفَ وزني . . . وحدث مع الآخرين ما حدث معي ، فكنّا كأنّنا أشباح تطوف ببطءٍ بين مثواها والحمّام ، لا تسلك طريقًا غيرها . وعاد الأكل على قلّتهِ إلى مطبخ السّجن لم يُؤكل منه إلاّ النّزر القليل ؛ لقد فقدنا قابليّتنا للأكل ، وصار منظره أمامنا يُصيبنا بمزيدٍ من الغثيان والقيء . . . وفي الحمّام كنّا نبول دمًا!!

ولأنّنا دوابّ ، فكان يتوجّب علينا أن نرفع وثيقة استرحام إلى جناب طبيب السّجن ، وهو بدوره يقوم برفعها إلى مدير السّجن ، والمدير بعد أن يقتنع بها يُفكّر فيما إذا كان سيرسل علاجًا أو أطبّاء او يقوم بأيّ إجراءٍ من أجل احتواء هذا المرض الخطير . . . وصل استرحام (العميد) مشفوعًا بأكثر العبارات تذلّلاً واستعطافًا . . . ومع ذلك رماها (أبو نذير) في الزّبالة ، وقال : يموتوا مِتِلْ الكلاب . . . ما عندي مشكلة . . .

وبالفعل بدأنا نموت كالكلاب . . . طرق العميد هذه المرّة باب

المهجع ، ونادى الشّرطة :

- في عَنّا تلات حالات . . . (كان يقصد ثلاثة موتى)

- لفّوا هالفطايس بالبطّانيّات . . . واشحطوُنْ لهون . . .

بعد أسبوع آخر ، كنّا قد لففنا لهم أربعين جثّة . . . قضَوا دون أن يرفّ لعسكريّ في السّجن جفن ، ودون أن تتحرّك في قلب أحدهم عاطفة ، ولو كانت عاطفة الشّفقة على كلابٍ تموت ، وقِطط تلفظ أنفاسها . . . أو حمير تتهاوى من أمامها . . .!!

ظلّ مدير السّجن على كبريائه ، حتّى انتقلت العدوى إلى المهاجع الأخرى ، وبدأ النّاس هناك يرتمون جثثًا ميّتة ، غير أنّ هذا لم يحرّك فيه شيئًا كذلك ، إلى أن أصاب المرض أحد العساكر ، فانتفض (أبو نذير) من كرسيّه حال سماعه النّبأ كأنّ كَمْأةً فقأتْ عينيه ، فاحمرّتا غضبًا وخوفًا ، ونادى مستشاريه ، وكان القرار بالعزل والتّطهير . . . أمّا العزل فعُزِل السّجناء المُصابون في مهجع خاصٍ ليتمكّن فريقٌ طبّيّ خاص من القضاء على المرض لكي لا تصل نيرانه إلى أطراف أثوابهم . وأمّا التّطهير فكان القضاء على الحالات الميؤوس منها بخنقها ووأد آخر أنفاسها!!!!

وفي غضون يومين ، كانت (تركّات) الجيش المسّماة (زيل) تحمل عشرات الجثث لِتُلقي بها في مقابر جماعيّة في الصّحراء الشّاسعة ، وعُزِل من تبقّى من المصابين ونُقِلوا إلى مهجع (١٧) ومهجع (١٨) ، وكنتُ أنا من ضمن المنقولين . . . غير أنّني نُقلت أنا والطّيّار إلى (١٧) ، ونُقِلَ العميد إلى (١٨) . . . والوحيد الّذي لم يصطده المرض هو (الزّعيم) لأنّه كان سيّاحًا بحكم عمله في البلديّات ، ولم يكنْ ينام معنا في المهجع (٢٧) الّذي كُنّا ننام فيه . . .!!

كان المهجع (١٧) مهجعًا كبيرًا تبلغ مساحته ضعفي مساحة

مهجعنا القديم، وكانت تهوئته ممتازة، إذْ كان يحوي بالإضافة إلى الشّراقتين في السقف نوافذ مستطيلة في أعلى القوائم الأربعة مفتوحة على الشّمس والهواء طوال الوقت . . . كان هذا المهجع قبل وفودنا إليه - على ما يبدو - مُخصّصًا للشّيوعيّين، الّذين ينعمون بمعاملةٍ أحسن بكثير من معاملتنا .

فُتح باب المهجع طيلة (٢٤) ساعة للهواء والرّيح والشّمس والحرّيّة، ومن أمامه امتدّت ساحة فسيحة مفتوحةً كذلك على المُطلق، وعلى السّماء الشّاسعة . وكان الماء السّاخن والبارد يُشغّل على (جيزرات) خاصّة للاستحمام، وكانت مياه الشّرب نظيفة تُعبّأ في عبوات خاصّة، ولم نعد حينها نرى (البوادين) الزّرقاء المليئة بالجراثيم تتنقّل بيننا كما كان في السّابق . وأُعطينا ملابس جديدة، وأخذوا الملابس القديمة وأحرقوها في ساحةٍ خارج السّجن من الجهة الخلفيّة ليتخلّصوا من آثار السّلّ على الإطلاق . . . وصرنا نرى وجوهًا جديدة من الأطبّاء الحكوميّين أو الأطبّاء الاختصاصيّين الّذين استقدمَتْهم الحكومة لمعالجتنا، وعرّفْتُهم على نفسي، ووضعتُ خبرتي ودراستي تحت تصرّفهم، فأعرضوا عنّي، وأشفقوا عليّ، ورماني أحدهم بنظرةٍ حانية، أنعشتْ فؤادي قليلاً!!

غير أنّ نحولي استمرّ يأكلني، ويُحيلني إلى شبح أو كيسٍ من جلد . وصار جلدي رقيقًا يكاد يشفّ عن عظام تحته باديةً لبروزها ودقّتها . واختفى الشّحم الظّاهر أوّلاً، ثمّ تبعه الشّحم المُختَزَن بين العضلات، ثمّ تبعه أخيرًا العضل نفسه فاختفى هو الآخر، ولم يعد لي من شيءٍ غير هيكلي العظميّ . وثقلتْ حركتي فلم أعد أقوم من مكاني إلاّ لقضاء الحاجة، وأحيانًا كان يُساعدني في ذلك أحد الأطبّاء .

وأقبل اللّيل . . . واستسلم مَنْ في المهجع للنّوم ، وشردتُ ببصري من خلال الشّرّاقة إلى أعالي الفضاء . . . ظللتُ مُحدقًا في الرّقعة السّوداء المُرصّعة بالنّجوم حتّى غُصتُ فيها ، ورحتُ أحلم . . . ها هي لمياء ذات الأربعة عشر ربيعًا تذرع البيت ذهابًا وإيابًا ، لقد أصبحت صبيّة ، تلبس فستانًا مُرفَّلاً ، وتخطو بدلال . . . ها هي أمّي تلتقط من حوش البيت ضمّة نعنع من أجل إبريق شاي قد هُيّئ ليغلي ، وها هي في طريق عودتها من الحوش إلى البيت تبذر بعض الحَبّ من أجل العصافير . . . ها هو أبي في الحقل يحصد ما تبقّى من القمح ، ويُكوّمه في البيدر ، والعرق يتصبّب من جبينه . . . ها هي زوجتي تعدّ اللّيالي من أجل عودتي . . . لم تصدّق أنّني متّ . . . لا بدّ أنّ أحدًا من الّذين نَجَوا من هذه المجزرة الّتي نعيشها يوميًا وخرج طليقًا أخبرها بأنّه رآني ذات صباح أخطو إلى ساحة الحلاقة . . . كان هذا أحد مرضاي الّذين عُنيت بهم قَبل أن ندخل معًا إلى هذه المعمعة الطّاحنة!!

ها هي الحياة تدور . . . لم تتوقّف في جَرْيها نحو المجهول ، نحن الّذين توقّفنا . لم تُصغ السّمع لكلّ الّذين هتفوا بها أن تنتظرهم لكي يلحقوا بها ، ظلّتْ ماضيةً غير عابئة بأحد ، وصامّةً أذنها عن كلّ نداء . . . وها نحن هنا ننطحن تمامًا كما شاء لنا حَجَراها أن ننطحن . . . وها نحن هنا نتمزّع تمامًا كما شاءت لنا أنيابها أن نتمزّع . . . وها نحن ننسحق تمامًا كما شاءت لها أخفافُها أن ننسحق . . .!!

تكوّمتُ أكثر على نفسي . . . وهزلتُ حتّى صار رمق الحياة فِيّ ، كنداء شعلة أخير في مصباح نَفِدَ زيتُه فأوشك على الانطفاء . . . كان بيني وبين الانطفاء هبّةُ ريحٍ من منخار الموت الجاثم في كلّ مكان ، وفي كلّ شبرٍ من هذا المهجع . . . كلّ العنايات بنا جاءت متأخّرة . . .

ولولا أنّهم يخافون على أنفسهم من العدوى ما حظينا بعُشر هذه العناية الّتي نحظى بها الآن!!

على مقربة منّي تكوّم بعض المساجين المرضى الّذين تحسّنت صحّتهم قليلاً ، رأيتهم ينظرون إليّ ، ويتهامسون فيما بينهم ، أملتُ أذني نحوهم ، سمعتهم يقولون :

- الدّكتور ودّع . . .

- شكلو ما رح يكفّي . . .

- خَلَصِ الدّكتور إيادِ مْوَدِّعْ يا شباب . . .

انتفضتْ شعلة الحياة في أعماقي ، لن أموت قبل أن أرى ابنتي ، لن أستسلم للموت أيّها الحمقى ، أحبّ الحياة لأنّها تتشكّل بكامل زينتها في عينَي ابنتي ، ولن تسلبوها منّي قبل أن أكحّل ناظريّ بفلذة كبدي . . . لكم ما تظنّون . . . . كلّكم ينتظر موتي قبل موتي . . . أمّا هي فتنتظر حياتي ، وتستَبْقيها ليوم تُسارع فيه إلى أحضاني فأضمّها إليّ طويلاً قبل أن تنتشر في عروقي دماء الحياة ، وتضجّ في أعماقي نداءات البعيد إلى الخلود . . . لن أموت لأنّني أملك إرادة العيش ، لن أضع جسدي ولو صار مجموعةً من العِظام المتراكمة بين يدي الموت ، ولو غطّني غطّةً لا أصحو منها إلاّ بعد قرن . . . . لكنّني في النهاية سأصحو ، وسأفيق من سباتي الطّويل ، وسأعود ، وسأعيش ، أمّا أنتم فستكونون موتى ، لأنّكم ستكونون قد استسلمتم لضعفكم ويأسكم وأوهامكم من زمن سحيق!!!

بعد خمسة أشهر من العزل الصّحّيّ ، تململَ المهجع ، استردّ بعض عافيته ، مشى الطّعام في عروقه فانتفضتْ حيّة . . . وأقبلنا نأكل بشراهةٍ كأنّنا نريد تعويض أكثر من (١٥٠) يومًا من الجوع والألم والمرض . . . وبدأتْ هياكلنا العظميّة تكتسي باللّحم ، وصار صوتنا

مسموعًا ، بعد أن كنّا قد فقدناه مدى الأيّام الفائتة كأنّه غار في أعماقنا ، ومات داخلها . . . لفّت البطّانيّات عددًا من مَهجعَي العَزل في هذه المحنة وخرجت محمولة على النّعوش إلى مثوى الأبديّة ، ونجا العدد الأكبر وخرج سليمًا مُعافَى كأنّ يدًا حانيةً انتشلتْهم من مستنقع الوخم والأوبئة ، وكنتُ من بين هؤلاء الّذين امتدّت نحوهم تلك اليد!!

(٤٤)
أفضلُ بقليلٍ!!

فَرَطُونا على المهاجع الأخرى ، لم يكنْ لنا في مهجعنا السّابق شيءٌ لنعودَ إليه ونحمله معنا إلى مهاجعنا الجديدة سوى الذّكرى . والذّكرى فاتنةٌ يستعيدها الخيال لتتجوّل بسكّين خفيٍّ داخل الفؤاد!!

لم أدرِ ماذا حدث مع (العميد) و(الزّعيم) و(الطّيّار) . أغلب الظّنّ أنّهم نجوا من هذه المحنة ثلاثتهم ، ولكنّ المؤكّد أنّهم توزّعوا على غير مهجع (٢٧) ، وعلى غير مهجعي الّذي فرطوني فيه ، وهو المهجع (٣٤) ، إنّه المحطّة الأخيرة في حياة الاعتقال ، فيه سأقضي السّنوات الأربع أو الخمس المتبقّية!!

كان هذا المهجع أفضل بقليل من مهجع (٢٧) ، ففيه نوافذ علويّة في الجدران ، ومساحته أوسع قليلاً ، وعدد ساكنيه أقلّ . لا أدري إنْ كانت قلّة العدد مقصودة لتحسين ظروف المعيشة هنا بعيدًا عن أخطبوط المرض ، أم لأنّ الّذين فقدناهم بعد الاجتياحات السّابقة ، وخصوصًا اجتياح السّلّ قد جرف معه عددًا غير قليلٍ من المحابيس ، فتقلّص العدد إلى ما هو عليه الآن؟!

لم أنتظر حتّى يتعرّف إليّ رئيس المهجع الّذي وفدتُ إليه عنصرًا جديدًا ، بل بادرتُ أنا بتقديم نفسي إليه ، وأنّ خدماتي كطبيب تحت تصرّفه . عدّ ذلك من طيبِ النّفس ، وحسن الأدب ، وقبلني في مجموعته سريعًا!!

كان (مُرتَجى) رجلاً أسمر اللّون طويلاً ، ذا صدر واسع ، ويدَين مبسوطتَين ، وجبهة عريضة ، وعينَين صغيرتَين سوداوَين غائرتَين في وجهه . وكان صوته عميقًا رفيعًا . وكان حازمًا في قيادة المهجع ، يتّخذ قراره بسرعة ، ويتحمّل تَبِعَته ، وساعده على ذلك تكتّلٌ قويٌّ يُحيط به ، ويُسانده . كان هذا التّكتّل نِصفُه من حزبه الّذي ينتمي إليه ، ونصفه الآخر من بلدته الّتي ينتمي إليها . ومع هذا وذاك كان عادلاً في القضايا الّتي تقع بين نزلاء المهجع ، ولكنّه لا يتراجع عن حُكم أو أمر قضى فيه ، وإذا اضطرّ ليفعل فإنّه يُوكل أمر الخُلوص من هذا الشّأن إلى مساعده (نظمي) .

توقّف الإعدام بعد عاصفة الأمراض مدّة ثمانية أشهر . غير أنّ الموت نفسه لم يتوقّف ، تحوّل من قَبْضِ الأرواح من تحت الأعواد بالمشانق ، إلى قَبْضها من تحت البطّانيّات بالأمراض .

- هل عندك استعداد للسّخرة؟ (قال لي مُرتجى)

- على طول . . . بس تؤمر . . . (فاجأه جوابي ، فازدادت ثقته بي) .

- ها الشّهر . . . شو رأيك؟!

- بدّك هالسّنة إِزا الله أحيانا ما في عندي مشكلة!!

- عظيم . . . عظيم . . .

كان ثلاثةٌ من جاطات البرغل تتربّع بزهوٍ أمام باب المهجع ، فُتِحَ الباب وخرجتُ مع السّخرة لتلقّي السّياط وإدخال الطّعام ، غير أنّه ما لبث أن صاح بنا الشّرطيّ :

- إترك وْلا . . . إترك الجاطات وْلا . . . فُوتْ لجَوّا بسرعة يا قرد إنتا وْياه . . .

نفضنا أيدينا ودخلنا لا ندري ما السّبب ، استأذنتُ في أن أجلس

بالقرب من الباب لأراقب ما الّذي يحدث ، فأذن لي (مُرتَجى) . من شقوق الباب لم أر شيئًا غير اعتياديّ ، ظلّتْ جاطات البرغل موجودة في أماكنها من السّاعة (١٢) ظهرًا إلى السّاعة (٥) مساءً ، لم يأتِ أحدٌ من البشر ليلمسها ، ومن بعيد كانت أقدام الشّرطيّ تروح وتجيء أو تحوم حولها كأنّما تحرسها . . . غير أنّ هناك كائنات غير البشر ظهرت على مسرح الأحداث بقوّة ؛ في السّاعة الأولى والثّانية جاءت العصافير فحطّت على حوافّ الجاطات دون أن تأتي بحركةٍ أخرى كأنّما تختبر الأجواء المحيطة ، فلمّا أمنت على نفسها ، راحت تنقر من البرغل ما شاء لها ، وتملأ حواصلها مِمّا لم يجفّ من الماء فوقها ، حتّى إذا شبعت طارت بعيدةً وهي تُزقزق جَذْلى بنصيبها الّذي كتبه الله لها . . . ثمّ في السّاعة الثّالثة والرّابعة جاء دور الجراذين والفئران ، مشت الفئران سريعةً كأنّها تهرب من شيءٍ ما ، حتّى إذا صادفت الجاطات في طريقها تسلّقتْها بخفّة وغطست بأرجلها فيها فنقرتْ منها نقرًا سريعًا وملأت بطنها . كانت الفئران في بداية الأمر ثلاثة ، وخلال ربع ساعة عددتُ على الأقلّ أربعين منها لا أدري من أين جاءتْ ، كلّ هذه الفئران أخذتْ نصيبها من طعامنا قبل أن نأخذ نحن نصيبنا منه!! وفي السّاعة الخامسة جفّ مع الهواء والنّقر والأكل سطحُ الجاطات فتكوّنت طبقةٌ سوداء . . . ثمّ صاح الشّرطيّ بعد هذه السّاعات الطّوال :

- مهجع (٣٤) ليش ولا ما دخّلت الأكل يا حيوان إنتا وْياه . . .

خرجتُ مع سخرتي ، وأدخلنا الطّعام ، لم يرَ ما حدث من ولوغ الفئران ونقر العصافير غيري ، كان المهجع بكامله يتضوّر من الجوع ، ووزّع (مرتجى) و(نظمي) على كلّ واحدٍ حصّته من البرغل ، فأكلها بتلذّذٍ شديد!!

بعد أن انتهينا من الطّعام ، طلب الشّرطة أن نعيد الجاطات قبل

العدّ المسائيّ، ونقوم بجليها، ذهبتُ أنا والسّخرة بها إلى مطبخ السّجن، وقمنا بِجَلْيها، وتكفّل بنا ثلاثة من زبانية العذاب يصبّونه علينا صبًا ريثما ننتهي من هذه العمليّة، عدنا إلى مهجعنا ونحن نتأوّه ونتوجّع!!

في فجر اليوم التّالي، أيقظونا بخبط شديد على باب المهجع، وصياح وهياج غير مسبوقَين... استيقظنا فَزِعينً، ووقف كلّ واحدٍ على رجلين من هلع، ووقف أحد الرّقباء وبرفقته عدد من العساكر على الباب، وصاح برئيس المهجع:

- رئيس المهجع... ولا قدّم الصّفّ...

- حاضر سيديّ (ردّ رئيس المهجع)، ثمّ أتبعها بصيحات الاستراحة والاستعداد: إسـ.... ترح.... إسـ.... تَعِدْ...

- كم قرد عندك يا حيوان؟!

- ١٢٩ سيدي...

- كم واحد في الحمّام وْلا؟!

- ما في حدا سيدي... (كان هناك ثلاثة. أخفى رئيس المهجع أمرهم حتّى لا يُعلّموا فتأكل الطّير من رأسهم)

- خلّي هالقرد يركب على هالحيوان (وأشار لي أنا بالقرد، ولآخر بالحيوان)

- حاضر يا سيدي...!!

أشار رئيس المهجع للحيوان بأن ينخّ كجمل، وأمرني أنا أن أركبه وأعتلي أكتافه، كان موقفًا مُحرجًا وصعبًا ومُذِلاً. ولكن لم يكن من مجال للعصيان. طامن (الحيوان) من وقوفه، وجثا على رُكبتَيه، وحولّتُ أنا (القرد) ساقيّ على عنقه، وعندها صاح فيه الرّقيب بالوقوف. فلم يستطع كان جسده أقلّ في قوّته من أن يحملني حتّى

ولو لم أكن ثقيلاً . راح رئيس المهجع ومعاونه (نظمي) يُساعدان (الحيوان) المسكين على النّهوض ؛ أمسك كلّ واحدٍ منهما بكوعه من جهة ودفعها إلى الأعلى ، وشدّ هو على ركبيته ، واستطاع أن يقف ، بعد أن ارتجّ جسده كذبيح . صاح الرّقيب به وهو يضحك :

- طوف المهجع بالقرد يا حيوان . . .

راح (الحيوان) ساعده الله يمشي على ساقين (كساقَي مالك الحزين) وهو يترنّح يكاد يسقط من طوله مُحاوِلاً تنفيذ أمر الرّقيب . دار دورةً كاملة ، وعندما وصل إلى بداية المهجع ثانية ، أهوى الرّقيب بجُمْع يده على صدره ، فسقط على الأرض بسرعة وسقطتُ أنا معه . تراجعَ الرّقيب إلى الوراء وهو يضحك وأطبق الباب خلفه!!!

كان إيقاظنا من الفجر إيهامًا لنا بأنّ هذا اليوم يوم تنفيذ إعدامات . ولم يكن الأمر كذلك بعد أن تجاوزت عقارب السّاعة التّاسعة بسلام . كانوا فقط يتسلّون ويُزجون وقت فراغهم ، وكانوا - من ناحيةٍ ثانية - يُحاولون إخافتنا وإرعابنا بتثبيت صورة الإعدام في النّفوس بعدً أن مرّ زمنٌ طويلٌ نوعًا ما على آخر مرّةٍ نُفّذ ذلك فيها!!

(٤٥)
نَعمْ... تَخطّاني الموت...

تفرّستُ في وجوه قاطني مهجعنا الجديد، كانوا جميعًا جُددًا بالنّسبة لي، لا أعرف أحدًا منهم باستثناء (العقيد) وهو أحد (العقيدَين) الّذين التقيتُهم في حفلة الاستقبال الأولى عند دخولنا إلى سجن تدمر قبل ما يقرب من أحد عشر عامًا. عرفتُه ولم يعرفني... كنّا يوم الاستقبال كثيرين فلم يتعرّف إليّ. أمّا بالنّسبة لي فصورته وهو يأكل الفئران لم تفارق مُخيّلتي طوال هذه السّنين.

عرّفتُه بنفسي بكثير من الحماسة، وذكّرتُه بأنّنا أولاد دفعة واحدة، فلم يُبدِ أيّ رغبة في التّعرّف إليّ أو التّواصل معي. رُحتُ ألاطفه في الحديث فلم يردّ عليّ بكلمة واحدة، كانت عيناه ساهِمَتَين تُحدّقان فِيّ كأنّه يراني ولا يراني... لمحني (مُرتَجى) على هيئتي هذه فاقترب منّا، ثمّ أخذني من يدي إلى أوّل المهجع، والتفتَ خلفه ليتأكّد من أنّ عينَ (العقيد) ليست مُثبّتةً علينا، وقال لي:

- ماذا تُحاول أن تفعل؟!

- أتواصل مع (العقيد)، إنّه ابن دُفعتي...

- وهل تعتقد أنّه سيفهم عليك أو يعرف ما تقول؟!

- لماذا؟!

- لقد جُنّ منذ ثلاث سنوات... فقد عقله منذ تلك اللّحظة، ولم يعُد يُحادث أحدًا فلا تُتعبْ نفسك!!

لم أتفاجأ بوجود مجانين ، أو من فَقَدوا عقولهم وسقطوا في ذهولٍ لا ينتهي ، لقد عايشتُ عددًا منهم في مهجعي القديم . غير أنّ نظرات (العقيد) المُصوّبة باتّجاهي في تلك الجلسة اليتيمة اخترقتْ فؤادي بشكلٍ غريب ، واستعصتْ على الخروج أو الفهم!!

كَثُر زُوّار الفجر من بعد!! صاروا يطرقون الأبواب ، ويصيحون كالمجانين بسببٍ أو بدونه ، وأصمّتْ آذاننا شتائم تكتسب مستوىً جديدًا من الوقاحة والبذاءة في كلّ مرّة . غير أنّ فجر هذا اليوم كان مشهودًا ، ولم أشهد مثله في كلّ سنوات الاعتقال الماضية .

انخلع الباب بأقدام العساكر . هجموا باتّجاه المهجع ، وصاح أحد الرّقباء العشرة :

- مهجع ٣٤ على الحيط ولا إنتا وياه . . .

وقفنا في أماكننا كفئران مذعورة ، دُرنا بوجوهنا جهة الجُدران ، وأيدينا معقوفةٌ خلف ظهورنا . تقدّم (أبو نذير) ، عرفتُ أنّه هو من صوته ، ومشى خلفه عدد كبيرٌ من الحرس والعساكر . كان يشتم ويُرغي ويُزبد ويتوعّد ويُهدّد :

- والله لخلّي جسمكُنْ مَصافي . . .

- . . . . .!!!

- والله لنسّيكُنْ حليب إمكُنْ . . .

- . . . . .!!!

- أنا؟!!! أتهدّد . . .

- . . . . .!!!

وفي لحظةٍ خرساء . سكت الجميع . وانقطعت الأنفاس . وجمدت حركة الكون . وتخلّى البشر عن كينونتهم لصالح الموت . طاف شبحُه بالمكان . أعرف أنّه موجود من رائحته ؛ رائحته باردة ثقيلة ونفّاذة .

ولونها الأزرق الجامد يُغطّي كلّ مساحة مرئيّة مُمكنة . انقطع الصّوت إلاّ من أقدامه الّتي استعارها (أبو نذير) منه في تلك اللّحظة . خطت هذه الأقدام باتّجاهي . كان ظهري كالبقيّة لا يزال مكشوفًا للموت ، ووجهي مُغلقًا باتّجاه الحائط . وأذناي ؛ أذناي فقط تعملان في كافّة الاتّجاهات . سمعت صوت أنفاس أبو نذير الكريهة تلفّ وجهي ، أخرج مسدّسه ، سحب (الأقسام) ، وصوّب باتّجاه الرّأس . . . أسمع ذلك تمامًا . . . حفّ أزيزها أذنيّ ولفّني بدُوارٍ كدتُ أسقط بسببه مغشيًا عليّ . ودوّت الطلقة الأولى فانفجر الدّماغ وسال مع الدّماء على الأرض كأنّه لبن مُخثّر شابتْه حُمرة . صمد الجسد ثلاث ثوانٍ ، مرّتْ كأنّها ثلاثة دهور ، ثمّ هوى الجسد دون حراك ؛ كان جسدَ الّذي يقف إلى جانبي . متّ في تلك اللحظة ألف مرّة ، وارتعشتُ مثل ذبابة ، وبكيتُ في أعماقي مثل طفل . لم يكتفِ الموت المستتر في مسدّس (أبو نذير) بجثّة واحدة . تقدّم بخطواته الثّقيلة مرّة ثانية ، تجاوزني . . . نعم . . . تخطّاني الموت . . . وهو مقبل على آخر سواي . . . أأفرح أم أحزن؟! أأطلق زفرة الخلاص أم أحبس شهقة الفناء؟! خطوات أخرى ثمّ انقطاع تامّ للصّوت مرّة أخرى ، ثمّ انفجار له في طلقة جديدة من الموت القابع في المسدّس المتحجّر ، ثمّ جثّة ثانية . . . ظلّت الخطوات تنأى والموت يقترب . . . أسقطَ في طريقه ثماني جثث وخرج كأنّ الأمر مجرّد تصويب على أهداف في مرمى عسكريّ ذات يوم تدريبيّ!!

لفَفْنا جثث زملائنا الثّمانية في بطّانيات ، وكان السّؤال الّذي اعتدْنا على سماعه منهم في مثل هذه الظّروف طيلة هذه السّنوات :

- شو فيه . . . ليش هدُول فطَسوا؟! (يسأل الرّقيبُ رئيسَ المهجع)
- ما في شي . . . إتْزَحْلقوا بِالحمّام . . . وقعوا على راسُنْ . . .
- الله لا يرحمُنْ . . . فطيس . . . !!

(٤٦)
إنّه الثّلجُ

كان شتاءً قارِسًا وقاسِيًا . شتاء الصّحراء المُخيف . لم يكنْ من شيءٍ ليقف أمامه ، كان يتسلّل عبر الشّرّاقتين والنّوافذ العلويّة في الجدارن ، يدخل كضبابٍ تتخفّى في داخله سكاكين تبدأ بحزّ جلودنا ، ثمّ تنفذ إلى عِظامنا فتُكرسِحُنا . ثمّ تبلغ ما هو أقصى وأقسى من ذلك فتدخل إلى مخّ العِظام ، ويبدأ الألم الفظيع يلهو بنا . هانت سِياط الجلاّدين في شتاء هذا العام أمام لسعات البرد . وسهلت مواسيرهم الحديديّة أمام نفثات الضّباب الّذي يبخّ في وجوهنا إكسير الموت المتربّص بنا منذ أن ولجنا إلى جهنّمنا هذه!!

الأغطية لا تكفي ، كانت لكلّ واحدٍ منّا بطّانيّتان ، يضع إحداهما تحته كفِراش ، وأخرى فوقه كِغطاء . وهاتانِ البطانيّتان لم تتبدّلا لا في صيف ولا شتاء ؛ هما هما!!

هذا الشّتاء اختلف عن كلّ الشّتاءات السّابقة . كنّا فيما مضى نحتمل المطر النّازل من الشّرّاقتين والمتسلّل - أحيانًا - من النّوافذ . . . يهبط إلينا من السّماء ويعبر نحونا من تلكم الشّرّاقتين ونتلقّاه بجاطات بلاستيكيّة كبيرة ، وأحيانًا بباضونات زرقاء ، نُجمّع فيها الماء ، ونستغلّه غالِبًا في الشّرب ، وأحيانًا في الاغتسال . وكان الاغتسال قد صار مسموحًا داخل المهجع نفسه ، بعد أن عانينا من عذابه لأكثر من عشر سنواتٍ غابراتٍ!! ولكنّ الاغتسال كان يتمّ ودرجة الحرارة دون الصّفر ،

بماء هو نفسه متجمّد، فانظر إلى أوصالنا وهي ترتجف كأعواد قصبٍ حلّ بها إعصار، ونحن نسكب الماء على جسدنا ببطءٍ وهلع، ونشهق مع كلّ سَكْبةٍ من تلكم السّكبات!!!

هذا العامَ، عام الثّلج. نعم نزل في سجن تدمر الصّحرواويّ ثلج. ولم يدرِ (مُرتجى) كيف يتعامل مع الضّيف الجديد. ووقف الجميع حائرًا إزاء الزّائر الأبيض. وحدي وجدتُ في ذلك متعةً لا توصف.

كان الجوّ - قبل نزول الثّلج - قد ابيضّ وسكن. والهواء قد توقّف عن التّحرّك. ولم نعد نسمع إلاّ صوتَ دقّات قلوبنا حين نُصيخ إليها السّمع، حتّى العساكر، والشّرطة، والحرس، و(أبو نذير) انزووا في غرف الذّاتيّة وراحوا يتحلّقون حول مدافئهم لينعموا بشيءٍ من الدّفء العزيز. أمّا نحن فأكثرنا تكوّر تحت بطّانيّة، ولفّ رأسه بخرقةٍ أو بقطعةٍ باليةٍ من القماش، وجعل من يديه وسادةً يُلقي برأسه فوقها، وراح يُحاول نومًا يفرّ من الفؤاد في كلّ حين.

في السّادسة مساءً. بدأ الثّلج يهبط من الأعالي، بدأتْ حبّاته الخفيفة تتهادى عبر طبقات الجوّ لتصل إلى بني البشر. الحمد لله أنّ الثّلج لم يستثننا؛ فقد تعوّدنا خلال إقامتنا الجبريّة هنا أنّه لا حقّ لنا مهما كان ضئيلاً في أيّ شأنٍ من شؤون الحياة. نعم لم يستطع حُرّاس السّجن أن يمنعوا الثّلج عنّا، أو يمنعونا عنه.

وقفتُ تحت الشّرّاقة، ناظِرًا إلى السّماء المُغطّاة بالضّباب، المكتسية بالغموض، المتّشحة بالبياض، وقد بدأتْ تندفُ خيرَها. نَدَفات... نَدَفات... تلقّيتُها بوجهي، تركتُها تُصافحه بمتعةٍ بالغة، ثمّ تسيل عليه قطراتٍ من ندى... ثمّ رحتُ أمسحها على وجهي كافّة لأوزّع بركتها عليه... يُوحّد الثّلج بين القلوب الّتي تتشارك معه في الكون... نعم إنّه طبّ السّماء... إنّه قلبها النّاصع... إنّه الّذي

جاء بعد جَرَبٍ وسُلٍّ وكوليرا وسرطانٍ وجوعٍ وعذابٍ ليغسل كلّ هذا، وليُعيدَ إنتاجنا من جديد... إنّه رحمةُ السَّماءِ الّتي لا تُرَدّ... يا الله ما أجمل عطاياك!! وما أعظم مِنَحك!! وما أشدّ لُطفك!! وما أحوجَنا إليك!!

نَدَفات... نَدَفات... تعال أيّها الثّلج... تعالَ أيّها الغالي... فلطالما هاجني الشّوقُ إليك، ولطالما ذبحني الحنين للقياك... كنتُ أطاردك في الحقول... في الحجارة المترامية... في الأشجار المتجرّدة من زينتها... في الأطفال التوّاقين لبياضك... في النّهر الّذي يتخلّى عن مائه لصالحك، ويرضى بك حالاً فيه حتّى ترحل باختيارك!!

إنّها الحرّيّة؛ حينَ تلوّن تلك الحرّيّة كلّ جزءٍ من الحياة في أبسط مظاهرها؛ في السّاحة الفسيحة، وفي الأفق المُمتدّ، وفي الشّمس العالية، وفي القمر المنير، وفي الآمال العريضة!!

نَدَفات... نَدَفات... هي هي الّتي تُغطّي وجه أبي الآن... هي هي الّتي تمسح بها أمّي وجهها وهي تَدخل إلى البيت بعد أن أصلحت السّياج... هي هي الّتي تُشكّل منها ابنتي رجل الثّلج وتقف إلى جانبه بافتخار... هي هي الّتي يكوّرها طفل في التّاسعة فتتدحرج من أعلى المرتفع حتّى تستقرّ في النهاية كرةً كبيرةً.... ما أقوى وشائج المودّة إذ تصلني هذه النّدفات بِمَن أحبّ... إذ تربطني بمن أشتاق إليهم خارج هذه الأسوار... أليس الثّلج هو الّذي يجمعنا الآن... أليس هو الّذي يُصافح وجهي كما يُصافح وجوه أحبّتي وأهلي وأصدقائي... أليس هو الّذي يُدخِل الأُنس والفرحة إلى قلوبهم كما يفعل بقلبي الآن...؟!! بلى. بلى.

نَدَفاتٍ... نَدَفاتٍ... كنتُ فيما مضى... أيّام المدرسة، أخرج

من البيت وأركض في السّهوب والحقول بعكس اتّجاه الثّلج، وأتركه يُعاندني مع ريحه الّتي تصفع صفحة وجهي بحبّاته الرّائعة... كانت لعبةً ممتعةً... أفتح يديّ على المطلق... وقلبي على المحبّة... ويتسلّل البياض من خلالهما فيُعلّماني أبجديّة الطّبيعة الّتي لا تُعلّم إلاّ العشق والحرّيّة!! كيفَ يُمكنني اليوم أن أركض في تلك الاتّجاهات، والثّلج نفسه يُقيّدني من خلال نافذته الّتي لا يأتيني إلاّ من خلالها!!

نَدَفات... نَدَفات... وأنا أوغل في المسير باتّجاه المجهول... يأخذني الثّلج بعيدًا... وما دام مستمرًّا في هطوله، فأنا مستمرٌّ في الإبحار باتّجاه مصدره جهة الغرب... أمشي وأمشي وأمشي.... والثّلج يحيط بي من كلّ جهة ويُغريني بمواصلة مسيري نحو المجهول... أقطع نُهيرًا صغيرًا أسفل التّلّة الّتي يقوم فوقها بيتُنا القديم... ثمّ أصعد التّلّة المُقابلة.. وأشرف على سهلٍ ممتدٍّ تحتها... فأتبعه... تُغطّيني أشجار الحور والصّفصاف العالية... أتابع المسير ما دامت النّدفات تُتابع التّهادي على وجه البسيطة... ثم تنقطع الأشجار، وتلوح من بعيد بيوتٌ في آخر المطاف تتراقص من نوافذها أضواءٌ عجوزة... لقد هبط اللّيل يا أمّي... فهل تحمينني من أبي حينَ أعود... أغلب الظّنّ أنّ أبي لن يسمح لك بذلك... سأوفر عليكما ما تنويان... سأسير حتّى أصل تلك البيوت وأنام فيها... وفي الصّباح سيكون الثّلج قد تعب من السّقوط... والشّمس قد اشتاقت إلى الصّعود... حينها فقط سأعود وليكنْ ما يكون...!!

سقط الثّلج فلم أجزع لموجة البرد الذّابحة والنّابحة مثل بقيّة زملائي. كنتُ أنتظر سقوطه، ولا بدّ أن أستغلّه في استرجاع ذاتي... إنّه المرّة الأولى الّتي يزورنا فيها، ومن يدري: قد لا نحظى

بزياة ثانية في هذا المعتقل البئيس . إنّها فرصتي في أن أستعيد ماضيّ المنفلت من بين أصابع ذاكرتي ، لكي أستعيد جزءاً من إنسانيّتي المفقودة بين هذه الجدران ؛ فالثّلج حين يمدّ جسور الذّكرى إلى زمن الحرّيّة ، يقول لك : هناك فرصةٌ من أجل أن تعرفك ، فتقول له : (ربٌّ زِدْني علْمًا)!!

إنّه الثّلج . . . رحمة الله للبشر . . . طهارته الّتي تمسح كلّ الذّنوب . . . صفاؤه الّذي يُزيل كلّ خَبَث . . . نصاعته الّتي تمحو كلّ سوادٍ في القلب . . . ودواؤه الّذي يُزيل كلّ الأوجاع . . . إنّه يقول لنا : لقد سًقيتُ بي قلوبكم فآن لكم أن تنبتوا من جديد ، وتخرجوا من آثامكم وكآباتكم لتُزهروا في ربيع العمر القادم!!

(٤٧)
﴿وَلا تَنابَزُوا بِالأَلْقابِ﴾

كنّا نختـرع ذلك . نحـاول أن نزحـزح صـخـرة الكآبة من أجل مساحة ولو قَدْر مَفحَصِ قَطاةٍ من أجل فَرَحٍ لا يزرونا من تِلقاء نفسه ، بل علينا أن نقدّم له القرابين لكي يُشرّفنا!!

نفعل . . . إراديًا أو دون إرادة ؛ والثّانية أعمّ وأغلب ؛ لأنّها صبغت حياتنا هنا ، وتَمْثلتْنا ، وجعلت منّا أشكالاً تتهيأ على وقع اللإرادة من شَعْر رأسِنا إلى باطن أقدامنا ، حتّى كِدنا ننسى أنّنا بشر!!

كان يحلو لبعضنا أن يُطلق الألقاب على جلاّدينا ، وكثيرًا ما كانت الألقاب تنشأ بعد حفلةٍ من التّعذيب ، في محاولةٍ للتّخفيف من آثار هذه الحفلة بالسّخرية المرّة القادرة - ولو بشكلٍ محدود - على مداراة الألم ، والتّهوين من جرعاته العلقميّة!!

(أبو عُمْري) ، لقبٌ أطلقه بعض الشّباب على أحد الجلاّدين ، حينَ كُنّا قد خرجنا للتّنفّس في يوم صيفيٌّ قائظٍ في السّاحة ، وكانت درجة الحرارة تقارب الخمسين ، وجلسنا على الزّجاج المكسور ، والحصى المفتّت يفعل ذلك بأجسادنا ما يفعل ، وكانت أيدينا منغرسةً في ظهورنا ، ورؤوسنا مُندفِنةً في صدورنا ، وبعض العساكر في السّاحة يتلهّون ، بصفع هذا على رقبته ، أو رفش ذلك على ظهره . . . وكان أحد الحرّاس على ظهر مهجعنا يرى ما نحن فيه من الهوان والذّلّ ، فيبدو أنّه رقّ قلبه لحالِنا ، ومرّتْ به نسمةٌ من العطف علينا ، فراح

يُسمعنا بعض أبيات (العتابا) مِمّا يُغَنّى في الأعراس كأنّه يريد أن يُصبّرنا بذلك ، ومن ضمن ما غنّاه :

أَلا يا أُمْ نادرْ بِيتْ مِنِ الصَّبْرْ عَمْرِي
قَدَرْ مَكْتُوبْ عَلَى أُمْ زِيْدِ وْأُمْ عُمْرِي

فسمّيناه منذ ذلك اليوم (أبو عُمري) . وكنّا نأخذ بعض الرّاحة في النّشيد أو الحَلَقات داخل المهجع حين نعرف أنّ (أبو عمري) هو الّذي يتولّى حراسة الشّرّاقتَيْن!!

(أبو الشّوارب) . . . لقبٌ لحارس من الحرّاس ، كان يهتمّ بتفتيل شواربه ، ويُقلّد (عنتر) في مسرحيّات وأفلام (دريد لحّام- غوّار الطّوشة) . ويُبالغ في ذلك ، فلا يفتأ بين لحظةٍ وأخرى أن يقوم بتلك الحركة ، يفعل ذلك بحركة نصف دائريّة ، من خلال تحريك إصبعه والتّمسيد على شواربه ، وكانَ له شارِبان غليظان أسودان ، ووجه أسمر مَجْدور ، وصوت أجشّ . وكان من أقسى الجلاّدين ، لا يستعمل إلاّ مواسير حديديّة ذات (٢) إنش ليهوي بها على رؤوسنا وأجسادنا ، وقد قتل بالتّعذيب أكثر من عشرةٍ من المحابيس . وكنّا إذا قلنا إنّ مسؤول السّاحة هو (أبو الشّوارب) فإنّنا نمتنع عن أن نرفع أصواتنا ، أو أن نفعل شيئًا داخل المهجع . كان مجرّد ذكر اسمه يثير الرّعب في القلوب .

ذات مرّة أمر بإخراج أحد المحابيس ، وطلب إلى ثلاثةٍ آخرين من الشّرطة أن يقوموا بالمهمّة معه ؛ أمسك كلّ واحدٍ من الأربعةٍ بيدٍ من جهةٍ أو برجلٍ من جهةٍ أخرى للسّجين ، وراح كلٌّ واحدٍ يشدّ جسد المحبوس باتّجاهٍ مُعاكسٍ للاتّجاه الآخر ، وبدأت صرخاتُ المسكين ، واستنجاداته تُصِمّ الآذان ، ولم نكن نسمع صوت سِياط أو كرابيج أو مواسير أو أكفّ تهوي ، فاستغربنا من شدّة الصّياح . . . وحينَ دخل إلى المهجع وهو يحبو على الأرض حبوًا ، قال لنا : لقد (فَسَخُونِي) .

وكان هذا الفَسْخ أحد اختراعات (أبو الشّوارب) وأحد إنجازاته!!

(أبو بُمسيَ) . . . لقبٌ أطلقه بُعضنا على جلاّدٍ كان أحد أبطال سوريّة في الكراتيه . . . لم يكن هذا الجلاّد يحمل عصا أو ماسورة أو كرباجًا أو ما شابه . . . كان يرتقي في الفضاء بحركةٍ مدروسة ، ويهوي ببسطاره على وجه السّجين ، وكانت ضرباته غالبًا ما تُفقد السّجين وعيه من المرّة الأولى ، ولم ينجُ سجينٌ واحدٌ من السّجناء من انشقاق في الشّفة حينَ يضربه ، أو انشقاقٍ في الخدّ أو الجبهة ، أو جرح بليغٍ في العين ؛ ويبدو أنّه كان يضع حديدةً حادّة في أسفل بسطاره لهذا الغرض . . . ولقد خَيّطتُ بإبرة متواضعةٍ وبخيوطٍ حصّلناها بطرق التفافيّة ، ومن دون أيّ نوعٍ من أنواع التّخديرٍ جباهَ كثيرين ، وشفاهًا وخدودًا . ولن أنسى في حياتي منظر أحدهم بعد ضربةٍ قاضيةٍ على عينه ، وقد فُقِئت ودخل يحملها بين يديه ، ولم يكنْ هناك من أيّ علاج سوى تجرّع مرارة الألم ، وانتظار انقطاع الدّم وانطفاء المحجر بعد زمنٍ ليس بالقصير!!

أمّا (أبو سَمْرة) . . . . فهو لقبٌ أطلقه السّجناء على جلاّد شديد السّمرة والسّواد ، وكان الوحيد الّذي لبشرته هذا اللّون القاتم . . . وأمّا قلبه فكان أكثر قتامةً واسودادًا . كان هذا الجلاّد ضخم الجثّة ، مفتول العضلات ، ويبدو أنّه مُصارع متمرّس . وكان متخصّصًا بضرب السّجين (بِبُكس) على أسفل ذقنه ، فيهوي السجين مباشرة على الأرض ، ويقع على مُؤخّرة رأسه فيسيل الدّم من رأسه . كان سَيَلان الدّم يعني البقاء على الحياة ، لأنّه لو لم يَسِلْ لمات السّجين مباشرة . وكان (أبو سمرة) يتسلّى بذلك ، ويبدو أنّها حركةٌ معروفةٌ في عالَم الملاكمة ومحسومة النّتيجة . كان يُنادى على أيّ سجينٍ دون أن يكون قد اقترف ذنبًا أو خالفَ أمرًا ما ، ويطلب منه أن يرفع ذقنه ، ثمّ يشدّ هو قبضة

يده ، ويصعد بضربته بزاوية عموديّة من الأسفل إلى الأعلى فتكون قاضيةً بالنّسبة للسّجين . وقد فعل ذلك معي ذات مرّة ، فضربني تلك الضّربة فلم أسقط ، ثمّ ثبّتني بكلتا يديه في مكاني ، وطلب منّي ثانيةً أن أرفع ذقني ففعلت ، ولفّ جسده في نصف دائرة إلى الخلف ، وضرب ضربته المعتادة فلم أقع كما كان يتوقّع ، فصاح بحَنَقٍ وبيأس :

- على مهجعك وْلا . . . أنا بَوَرْجِيك يا كلب . . .

(٤٨)
الشّيخ (فاروق)... بينَ عَهْدَيـن...

الشّيخ (فاروق) لطيف الظّلّ ، ضحكته الخفيفة لا تُفارقه ، ينتزع منك الابتسامة في أحلك الظّروف ، يُلقي بالنّكتة عَرَضًا كأنّه أعدّ لها الموقف والمكان والزّمان ، يزرع الألفة في قلبك حالًما تراه . أحبّه كلّ من في المهجع لأنّه ظلّ الفدائيّ الأوّل طيلة خمس سنوات هي مدّة مُصاحبتي له هنا ، ودارَى آلامه الخاصّة وأوجاعه العميقة بإخفائها في بئر النّفس دون إظهارها على صفحة الوجه . كان في (السّخرة) منذ أن عرفتُه إلى أن غادرتُ هذا المعتقل الرّهيب ، تلك (السّخرة) الّتي تتطلّب أن يُعذّب صاحبها نيابةً عن المهجع كلّه . وتنهش من جسده السّياط بدلاً من أجساد الآخرين ، لكنّه كان يتحمّل ذلك بشكل عجيب ، جعلني أشكّ في دوافعه الّتي تجاوزت مستوى الإنسانيّة والعقلانيّة إلى مستوى الملائكيّة .

يميل إلى الطّول ، في الفترة الّتي كانت تطول فيها لحِانا قبل أن يهجموا عليها في يوم الحلاقة فيجرفوها ، كانت لحيته صهباء ، داخَلها قليلٌ من السّواد ، وكان يلبس نظّارة ذات إطار أسودَ عريض ، وإذا ابتسم بانت نواجذه بيضاء ناصعة ، وكان بياضها يقع بياضًا في القلب . وإذا تحدّث سالت الكلمات على شفيته نهرًا من العسل المُصفّى ، لم أذكر - طوال هذه الفترة الّتي جمعتنا - أنّه ذكر شخصًا واحِدًا بسوء ، وإذا لمْ يجد في الشّخص ما يمدحه بما فيه ، اعتذر عن

أخطائه كأنّه هو الّذي ارتكبها . باختصار كان الشّيخ (فاروق) نقطةً مضيئة تنبتُ بالسّعادة في جوٍّ مظلم يرشح بالكآبة . وكان يجلس للتّدريس يومَي الاثنين والخميس بعد المغرب في حلقةٍ لا يكاد يختلف عليها اثنان مع كثرة الخلافات الّتي نشبت في هذا المهجع من بعدُ ، كانت دروسه في تفسيرِ القرآن بالقرآن وفي تأثير البيان في الفهم القرآني . وفَهِم على درسه كلُّ مَنْ جلس إليه ، ذلك أنّه لم يكن يعلو في البيان إلاّ إذا مهّد له تمهيدًا بسيطًا يأخذ بيد المتلقّي من البداية .

كان تفاؤله صمّام أمانٍ لمهجع يكاد يهوي في وادي اليأس ، وكان يروي قِصصًا من الواقع ذات نهاياتٍ سعيدة ، تدور حول انتقام الله من الظّالمين ، وأنّ الظّلم نارٌ تفتك بصاحبه أوّل ما تفتك ، وكان مُثقّفًا كبيرًا ، وهو بالأساس عميد كلّيّة الآداب في الجامعة . كان فيّاضًا بالمودّة ، وكان استبشارُه بالفرج القريب يُسرّي عن النّفس أطنانًا من الهموم العالقة بكلّ خليّة من خلاياها . وكان يختم درسه في المساء بأسلوبٍ مأثور لم يغيّره ، مُستشهدًا بآيتين ، وهو يقول : ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيْبٌ مِنَ الْمُحْسِنِيْنَ﴾ ، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ .

هذا الشّيخ الودود ، القريب من القلب ، الّذي لا يختار إلاّ أسهل الأمور ، ولا يتعصّب لرأي أو موقف ، والّذي ظلّ يبشّر الجميع بالخروج الوشيك من المعتقل ، بقي مُعتقلاً بعد خروجي من هذه المقبرة سبعَ سنوات ، ولم تُفرِج عنه الدّولة الكريمة إلاّ في عام ٢٠٠٤م!!

وجدتُ في رفقته السّلوى كلّها ، ووجدتُ في اشتراكي معه في عذاب (السّخرة) نوعًا آخر من العلاقة الّتي توطّدتْ فيما بيننا . ولن تصدّقوا إذا قلتُ لكم إنّني كثيرًا ما كنتُ أهمّ بتقبيل يديه لشدّة حُبّي له ، ولم يكن يكبرني بأكثر من سبعِ سنين أو ثمانٍ ، كان في أواخر

الأربعينيّات من عمره ، ومع ذلك بدا في حيويّته شابًا في العشرينيّات!!

اشتعلت السّرقات الّتي امتهنها (أبو نذير) من جديدٍ في المهاجع والعنابر كلّها ، كان نصف ما يأتي لذوي الزّيارات يذهب إلى جيبه ، أمّا النّصف الآخر فيُمهله في أيدي أصحابه أسبوعًا ثمّ يسطو عليه بطريقةٍ أو بأخرى . وقد ظلّ (أبو نذير) يبعث زبانيته إلى المهاجع بدعوى التّفتيش على الممنوعات ، ثمّ يقوم بجمع كلّ السّاعات المتوافرة في المهاجع ، ويصنّف كلّ عدد من السّاعات من أيّ مهجع أخذت ، ثمّ يقوم ببيعها مرّة أخرى إلى المساجين ، ولكن بتبديل مواقعها ؛ فيبيع - مثلاً - السّاعات المسروقة من مهجع (٢٠) لمهجع (٣٢) أو (١٧) لمهجع (٢٥) وهكذا . . . حتّى لا يكتشف أحد الّذين سُرِقت منه ساعته وجودها في يد آخر أو تُباع أمام ناظِريه . وإن كان في الملابس لا يأبه بمثل هذا التّصنيف . وكان إذا ارتفع صوت أحد المساجين بالشّكوى من هذه السّرقة ، يدّعي أنّه الصّادق الأمين ، ويقوم بسؤال السّجين عن الّذي أخذ ساعته ، فيدلّه على أحد الشّرطة مثلاً ، فيصرخ (أبو نذير) في هذا الشّرطيّ ، ويدعوه إلى غرفة الذّاتيّة بدعوى أنّه سيعاقبه ، وفي الحقيقة يكون قد أعطاه من قَبلُ نصيبه من غنائم السّرقة!!

وهكذا استمر الفساد ، وتتابعت أعمال اللّصوصيّة حتّى ضاق المسؤولون الكبار بذلك ، ويبدو أنّ بعضهم حسد (أبو نذير) على إثرائه من وراء ابتزاز المساجين وأهاليهم ، فأراد أن يكون له نصيبٌ من ذلك ، فبدأت الوشايات والمكائد تحتدم على مستوى هؤلاء الكِبار . وكانت النّتيجة المفاجِئة إنهاء عهد (أبو نذير) تحت طائلة المساءلة بسبب قتله ثمانية سجناء دون سندٍ قانونيّ ، وهي النّقطة الّتي اتكأ عليها حُسّاده ومناوِئوه من أجل إزاحته عن منصبه تحت ذريعةٍ مُقنعةٍ . وبالفعل

انتهى عهده إلى غير رجعة ، وبدأ عهد جديدٌ!!

حوكم (أبو نذير) بتهمة استغلال المنصب ، وما في سوريّة يومها أحدٌ في منصبه إلاّ وقد استغلّه أبشع استغلال ، فَلِمَ عُطّل هذا القانون عند أولئك ، وطُبّق على (أبو نذير)؟! لقد كان لسان المحكمة يقول : لقد نهشتَ فارتويت ، وأكلتَ فشبعتَ ، وجاء دورُ غيرك لينهش ويأكل ، فتنَحَّ جانِبًا!! ولم يكنْ ذلك شرفًا في المحكمة ولا رَدًّا لحقوق عشرات الآلاف من المظلومين ، فإنّ من جاء بعده سار بسيرته أو أسوأ منها . ولكنّها غنائم يجب ألاّ ينفرد بها لِصٌّ ، فإنّ اللّصوص كُثر ، والغنائم أسواق عمّا قريبٍ سوف تنفضّ ، فليُسارع كلّ ذي ظفرٍ ونابٍ إلى الولوغ في هذا المَعْمعان!!

نعم . حوكم (أبو نذير) أمام عدد من كبار الضّبّاط من الألوية والعُقداء والعمداء ، ونُزِعت عنه رُتبته العسكريّة ، وطُرِدَ طردًا من الخدمة ، فلم يُحَل إلى المعاش ، ومُنع من راتبه التّقاعديّ . ويومَ نُطق الحكم على مسمعه بكى مثل طفلٍ رضيع ، وصار يمسح (مَخطته) بطرف بدلته العسكريّة الّتي نُزِعَت من على كتفه - وهو يلبسها - كلُّ مميّزاته العسكريّة . وعاد إلى بيته أشبه بالشّريد أو الطّريد!!

ومن قصص سطوته ، أنّه أيّام جبروته العسكريّ ، كان إذا مرّ بالشّارع وفيه أحد المواطنين يهمّ برفع باب محلّه في الصّباح ليفتحه ، لم يُكمل فتحه ، وظلّ منحنيًا إلى الأسفل ممسكًا بطرف الباب حتّى يمرّ (أبو نذير) خوفًا منه وهلعًا فإذا مرّ هو وموكبه ، وانتهى الأمر بسلام ، نهض المواطن من انحناءته وأكمل فتح جارور الباب!! كان آمرًا ناهيًا ، فأصبح بلا حولٍ ولا قوّة . وكان صاحب سلطان ، فأصبح مرذولاً مخذولاً .

تردّتْ حالة (أبو نذير) النّفسيّة والاقتصاديّة ، فاضطر إلى بيع

(الفيلاّ) الّتي يملكها في اللاذقيّة ليعتاش من ثمنها . ثمّ اضطر إلى أن يبيع كلّ أملاكه مع الزّمن لينفق على الخمر والمُخدّرات . ولقد كان يأخذ نصيبًا من عائد المُخدّرات من التّجّار والمهرّبين الّذين كان يغضّ الطّرف عن تهريبهم من الحدود الشّماليّة ، ويسهّل دخول تجارتهم إلى البلاد ، فلمّا أصبح بلا سلطة رماه كلّ هؤلاء التّجّار وسحقوه بأرجلهم . وبلغ به الأمر أن يستجديهم أن يبيعوه المخدّرات بسعرٍ أقلّ من السّوق فرفضوا وبصقوا في وجهه ، فاضطرّ إلى أن يشتريه بسعره في السّوق ، وربّما بسعرٍ أعلى .

ثمّ باعً كلّ ما يملك ، وكانت نهايته فظيعة لا يتمنّاها أحدٌ لعدوّه ، ذلك أنّه كان يركب سيّارته عائدًا من حفلة خمر ، وكان مُسرِعًا في طريقٍ زراعيّة ، فقطعتْ عليه الطّريق (جرّافة) كانت تعمل في تلك المنطقةً ، فعجنته عجنًا ، واختلط لحمه وعظمه بالحديد ، فأصبحتْ لا تُعرَف أقدامه من يديه ، ولا رأسه من صدره ، وتحوّل في لحظةٍ خاطفة إلى كومة من اللّحم المعجون!!

سمع هذه القصّة غيرُ واحدٍ من سجناء تدمر عبر الزّائرين القليلين ، فذُهِلوا ، وظلّوا مُؤَرْجَحين بيْن مُصدّق ومكذّب ، ولم يستطع نفرٌ كبيرٌ منهم أن يصدّق أنّ هذا الجبّار يُمكن أنً يصيبه مكروه ، أو تحلّ به دائرة ، فهو الجلاّد الّذي احترف اصطناع المكروه لسواه . ولم يستطع هذا النّفر أن يتخلّى عن الصّورة النّمطيّة له المحفورة في ذاكرة الكثيرين من السّجناء ؛ صورة السّلطة الطّاغية ، والقوّة السّاحقة . وذهب عدد غير قليل منّا إلى الاعتقاد أنّ هذه الأخبار عنه لا تعدو شائعاتٍ يبثّها التّوّاقون إلى الانتقام منه لطول ما عذّبهم وكثرة ما آذاهم!!

اعتلى عرش الإدارة من بعده ضابطٌ من الجنوب ، عرفناه باسم (أبو هاني) ، وتفاءل بعضنا باسمه ، وقلنا لعلّ عهده يكون أخفّ سوءًا

من عهد سابقه . ولم ندرِ أو نسينا : أن الذّئاب لا تلد سوى ذئابٍ!!
جَمعَنا المدير الجديد ، كلَّ خمسة مهاجع في ساحة ، وأطلق فينا السّؤال الوجوديّ الّذي عجزنا عن الإجابة عنه : ماذا ينقصكم؟! ورفع مبدأ : عليكم واجبات ولكم حقوق فأدّوا الواجبات وخُذوا الحقوق!!

صفرَ شرطيٌّ في آخر السّاحة حين أعطانا أبو هاني ظهره عائدًا إلى مقرّ قيادته ، وصاح هذا الشّرطيّ البغيض بشتائمه المتتابعة أن ادخلوا إلى مساكنكم ، وكنّا نملاً سهل السّحق ، ولم تكنْ من نملةٍ واحدةٍ قادرةٍ على أن تُفهم الجلاّدين لغتها لكي ندخل مساكننا بأمانٍ ، ولِكيٍ نلج مقابرنا دون أن تسحقنا أقدام العابرين من ذوي الرّتبِ العسكريّة الواطِئة . . . كنّا أقلّ من ذلك . . . نقبل أن ينحطم نصفُنا في الطّريق العاثرة على أن يبقى نصفُنا الآخر دون حَطْم ، لعلّ في حياةٍ أخرى قادمة عُمُرًا ما يستحقّ أن نبقى أحياءً لكي نشهَده!!

(٤٩)
الثّقافة تحتاجُ إلى ميزانيّةٍ!!

دخل علينا الرّقيب وهو يبتسم . (منذ ثلاثة عشر عامًا لم أر رقيبًا واحِدًا مُبتسِمًا) . قال لرئيس المهجع (مُرتجى) :

- ألا تَحبّون الثّقافة؟!

تفاجأ (مُرتَجى) بالسّؤال ، ضيّق عينه ، وحكّ رأسه ، كأنّه لم يفهم . سارع الرّقيب بالقول :

- ما بِتْحبّوا تِتْثقّفوا؟! (كان السّؤال قد أعيد إنتاجه فسَهُل فهمُه ، لكنّه ظلّ - مع ذلك - مُفاجِئًا ومُباغِتًا) .

- إمْبلا (ردّ مُرتجى وهو ما يزال يَشكّ بأنّه أجاب إجابةً صحيحة)

- المدير الجديد رح يركّبلكُنْ سمّاعات عَ الزّوايا . . . ورَحْ تسمعوا الإذاعة الوطنيّة طول اليوم . . .

- يا سلام . . . شي حلو . . .!!

- بس هَيْ السّماعات حتّى نركّبها بدها (٣٠٠) ليرة من كلّ مهجع . . .

- اممم . . . بسيطة حضرة الرّقيب . . . بسيطة . . . مِنْ هونْ لَلْمسا بكونْ لَمّيتلّكْ المبلغ بإذن الله . . .!!

- ماشي . . . ماشي . . .

إذًا هي اللّصوصيّة من جديد ، ولكن بأثواب مُقنّعة . المهمّ كان التّوق إلى سماع أحدٍ منَ العالَم الخارجيّ يتكلّم أكبر من بضع ليرات

تُجمع من هنا أو هناك . أعلن (مُرتَجى) أنّ المُقتدِر من نزلاء المهجع يدفع (٥) ليرات ، والّذي لا يملك ليس مُضطرًا إلى ذلك . كان علينا أن نجد (٦٠) شخصًا من أصل حوالي (١٥٠) قادرين على دفع هذه اللّيرات الخمس . ونجحنا . في المساء قدّمها (مرتجى) للرّقيب بامتنانٍ بالغ!!

بدأت السّماعات تصدح يوم الخميس . اكتشفْنا فجأةً أنّ هناك عالمًا في الخارج . وأنّ هناك حياةً تسير خارج هذه الأسوار . وأنّ هناك بشرًا غيرنا يتشاركون معنا نسماتٍ من الهواء مع اختلاف الجغرافيا ، وانفصال الطّعوم!!!

كانت الإذاعة تبثّ برامج القوّات المسلّحة ، ومديريّات التّوجيه المعنويّ . وبعض نشرات الأخبار . وأحيانًا كانوا يبثّون بعض الأغاني لأمّ كلثوم أو لفيروز . كانت هذه الأغاني مصدر تسلية لنا أحيانًا ، وإن هاجمها بعضُ المتشدّدين مع أنّهم لم يكونوا يملكون أيّ خيارٍ!!

المدير الجديد مُصِرٌّ على المزيد من المفاجآت الصّاعقة . أنشأ في ساحة كلّ مهجع كشكًا صغيرًا . يتولّى فيها أحد البلديّات أمر بيع الشّاي والقهوة والزّهورات لِمَنْ يرغب من المساجين ، شكّل هذا الكشك العجيب مساحة من الحرّيّة في اختيار مشاريبنا لم نكن نحلم بها في السّابق . غير أنّ الأمر ظاهره فيه الرّحمة وباطنه من قِبَله الثّراء . فقد كانت كأس الشّاي الّتي تُباع في الخارج بليرة تُباع لنا بخمس ليرات ، وكانت كلّها تذهب لجيب (أبو هاني) مديرنا الفذّ الجديد ؛ إذًا هو التّسابق إلى الثّراء تحت عنوان التّوسيع على النّزلاء والتّفريج عنهم . أغلبنا كان يعرف النّوايا المُبطّنة للإثراء ولكنّه كان مستعدًا أن يدفع مزيدًا من المال من أجل مساحةٍ أكبر من الحرّيّة . غير أنّ هذه الخطوة فاقمت المسافة الوديّة بين النّزلاء ، وجلبتْ مستوىً لا يُمكن إنكاره من

العَداء . إذ نَفِسَ الفقراءُ من المساجين زملاءَهم من الأغنياء . وفي حين كان الّذين يُحصّلون أموالاً من ذويهم - عبر الزّيارات القليلة والممنوعة بالأصل إلاّ بالواسطة - قادرين على شراء ما يحلو لهم والتّمتّع به ، كان الآخرون مِمّن لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً ينظرون بحرقةٍ إلى زميلٍ يرتشف بتلذّذٍ في صباحٍ غائم كوبًا من الشّاي السّاخن . وكنتُ أنا من الفقراء الّذين لم يحظّوا بزيارة واحدة من أوّل لحظةٍ في الاعتقال إلى اليوم!!

من أجل ذلك أقرّ رئيس المهجع (مُرتجَى) نظامًا اشتراكيًا جديدًا . ووجد تعاطفًا شعبيًا من المهجع لأنّ غالبيّته سيستفيد من هذا النّظام الجديد . وأقرّه أيضًا أولئك الأغنياء الّذين يشعرون بضرورة التّكافل مع زملائهم الفقراء . كان النّظام الاشتراكيّ الجديد قائمًا على وضع نصف ما يرد إلى الزّائر من أموال على الأقلّ في صندوق المهجع ، ويُعيّن أمين صندوق لهذه الأموال ، ويتمّ شراء الشّاي أو أيّ غرضٍ آخر جماعيًا وبالاتّفاقِ ، لا أن ينفرد أحدٌ دون سواه مُستمتعًا بما يشرب!! وللأمانة فإنّ عددًا منّا وجد فيه تقييدًا للحرّيّة الّتي ننشدها ونسعى إليها ، غير أنّ الشّيخ (فاروق) الّذي أقرّ النّظام ، ودفع في الصّندوق كلّ ما يملك من مال شجّع الآخرين ، وقبلوا المشاركة في الأمر ، لأنّهم يثقون بالشّيخ (فاروق) ، ويقبلون منه لأنفسهم ، ما يقبل هو لنفسه!!

وهكذا صرتَ ترى المهجع (مُقرمِزًا) ذات صباح ، مُسنِدًا ظهره إلى الجِدار ، وبين أصابع يده المُحيطة كأسٌ من الشّاي يتصاعد منها البخار في دوائر شهيّة ، ومِنْ بعدُ شِفاهٌ تائقة تتلقّى حافّة الكأس بنهمٍ سافرٍ ، وترتشف بلذّةٍ بالغة في صباحٍ باردٍ هذا المشروب السّحريّ!!

كان مسؤولُ الكشك يُدّعى (أبو اصطيف) ، من البلديّات الّذين لم يردعهم سجن ، ولم يفتّ في جبروتهم اعتقال . كان لئيمًا خبيثًا

نمّامًا ، يسرق مثل البقيّة . ولمّا كانت تسعيرة كأس الشاي بخمس ليرات في الصّيف ، كان يبيعها في الشّتاء بستّة ، ويأخذ هذه اللّيرة لحسابه ، إذ إنّ (أبو هاني) كان يعدّ عليه كاسات الشّاي ، ويُحاسبه في كلّ يوم على ما نقص من العدد ، ولذلك كانت كأس الشّاي البلاستكيّة تساوي ثمنها حتّى وهي فارغة . ومن هنا كان مُحاصَرًا من قِبَل المدير وأعوان المدير . وأحيانًا إذا خاف أن يُكتَشف ، يقلّل كمّيّة الشّاي نفسه ، ويُطالب الزّبون بزيادة (ليرة) إذا أراد أن يأخذ الكأس ملأى أو فيها ملعقة سُكّر زيادة . . .!!

لم يكن (أبو اصطيف) على وفاق مع أحد في ساحة مهاجعنا الّتي تضمّ ما يزيد عن ألف سجين ، وأظنّه لم يكن على هذا الوفاق حتّى مع نفسه . إذ كان دائمَ الكشرة ، سريع الغضب ، لا ينطق بجملة إلاّ ويُتبعها شتيمةً من العيار الثّقيل . ولم يكن يتورّع أن يدخل في عراك مع أيّ أحد ، وكان يستغلّ حُظوته لدى المدير في ذلك ، فيبطش أحيانًا دون أن يجد من يسأله أو يُحاسبه . وكان إذا وُوجه بأيّ تهمة من التّهم الّتي يشتكيه فيها السّجناء عند الرّقباء يُنكرها بسهولة وببساطة دون أن يرفّ له جفن أو يتحرّك له شعور ، وكثيرًا ما كال التّهم الباطلة لعدد من النّزلاء فأوقعت الشّرطة بهم دون أن تتحقّق شتّى أصناف العذاب وألوانه . كان كاذبًا ولِصًا ومُدّعيًا وخائنًا بامتياز!!

في الصّباح كان يبيع القهوة والشّاي أكثر مِمّا سواهما ، وفي المساء كان يبيع الزّهورات أكثر مِمّا سواها . وكثيرًا ما كنتُ أصادفه وهو يترنّم على أغنيات فيروز في الصّباح ، ويتمايل على إيقاعها ، ثمّ يفعل الشّيء ذاته في المساء قبل التّفقّد على أغنيات أم كلثوم .

كان ضخم الجثّة ، عينه اليُسرى حولاء ضاربةٌ إلى الشّمال ، عريض المنكبين ، سمح له الشّرطة بتربية شاربيه فغَلُظا فوق شفتيته

كأنّهما حبلان غليظان قُصّا من طرفيهما ، وكان يُخيّل إلى مُحدّثه أنّه ينظر إليه بعينٍ ، ويُشيح عنه بالعين الأخرى! وهو يفتخر أنّه أدخل إلى البلاد أكثر من (٢٠٠) كغم من الحشيشة ، وأنّ زبائنه كانوا على مستوياتٍ عاليةٍ سياسيّة واقتصاديّة!!

مهجعنا الّذي يحمل الرّقم (٣٤) فيه مُميّزات لا يُمكن إغفالها ؛ كان فيه عددٌ من الّذين تأتيهم زيارات ، ومع الزّيارات أموال ، ومع المال سعةٌ ورخاء خاصّة في ظلّ النّظام الاشتراكيّ المعمول به حاليًا . وكان رئيسه (مرتَجى) وشيخه (فاروق) من المُوسِرين الكريمين . وكان في المهجع أيضًا عدد من كبار السّنّ مِمّن زادت أعمارهم عن الثّمانين ، فكنّا نستأنس ببركة وجودهم ، وأحيانًا كُنّا نُعفَى من التّنفّس بسببهم . هذا عدا عن أنّ (العازل) الواحد كان ينام فيه شخصٌ واحد ، وفي أسوأ الظّروف شخصان ، بخلاف المهجع الّذي أخرجني منه السّلّ ، كان العازل الّذي عرضه (٨٠) سم ينام فيه ثلاثة ، بحيث لا يكون للفرد الواحد أكثر من (٢٥) سم لينام على جانبه محشورًا ومضغوطًا من الجهتين . ومع كلّ هذه المميّزات الإيجابيّة النّسبيّة إلاّ أنّ التّعذيب والسّرقات لم تتوقّف يومًا واحِدًا!!

غير أنّ معرفة الحُرّاس بهذه المميّزات كانت تجلب لنا الوبال والشّرور أحيانًا . فقد كانت تحدث فيه سرقاتٌ بطرقٍ لا يصدّقها إلاّ مَنْ عاشها . فمن ذلك أنّه كان عندنا رقيبٌ يُناوب على حراسة الشّرّاقتين في اللّيل ثلاث مرّات في الأسبوع ، وكان يمدّ حبلاً رفيعًا عبر الشّرّاقة الأبعد عن الباب . ويتدلّى هذا الحبل من الأعلى حتّى يصل إلى متناول اليد في المهجع تحت ، وعلى رئيس المهجع أن يربط بهذا الحبل (١٠٠) ليرة ، ثمّ يهزّ الحبل هزّة خفيفة ، فيشعر بها الحارس المناوب فيرفع الحبل ويضع الـ (١٠٠) ليرة في جيبه . ولم يكنْ أمام رئيس

المهجع مهربٌ من دفع هذه الإتاوة ، إذ كانت النّتيجة معروفة ، وهي تعذيب بمواسير المجاري الحديديّة قد تؤدّي إلى الوفاة . ظلّ هذا الحارس يَلُصّ بهذه الطّريقة ، حتّى كشفه زميلٌ آخر له ، فساومه على نصف المبلغ أو يفضح المستور أمام (أبو هاني) . وحينَ رفض أن يُقاسم زميله ، انكشف أمره ، وانتهتْ لصوصيّته بعد أن دامت ما يقرب من السّنة!!

لم يكنْ (أبو هاني) يُعطي (أبو اصطيف) مقابل عمله في الكشك ليرةً واحدةً ، فكان الأخير حانِقًا يصبّ جام غضبه على النّزلاء ، ويتصرّف معهم كأنّه سجّان لا سجين ، وإذا حانت له فرصة سرقتهم لم يكنْ يرتدع عن ذلك أبدًا . ومرّة تظاهر بأنّه يمزح مع أحد السّجناء ، فدفعه بيديه ، وضربه بقدمه على رجليه باتّجاه مُعاكس ، فهوى السّجين على ظهره ، وأصيب بانزلاق في عموده الفِقريّ ، ولم يستطع النّهوض بعدها ، وعاش سنين وهو مُكَرسَح لا يستطيع الوقوف ، وكان يُحمَل إلى الحمّام حملاً ، وفي يوم الحلاقة كان يُلفّ ببطّانية ، ويتبرّع أحد المساجين بحمله على ظهره إلى ساحة الحلاقة!!

ومرّة اتّهَم (أبو اصطيف) أحدَ المساجين بأنّه قد بصق على صورة الرّئيس ، وكتب فيه بلاغًا إلى الإدارة ، وصدّقتْه الإدارة دون تحقيق أو مُساءلة . وأُخرِج المهجع عن بكرة أبيه في السّاحة ، وطلب إلينا أن نتحلّق حول السّاحة لنشهد حفلة التّعذيب لهذا المسكين ، ووقف الرّقيب في منتصف السّاحة بعد أن أحضروا له (المُجرم) وجرّدوه من كامل ثيابه إلاّ ما يستر عورته وهو يرتجف من الخوف ، وقال له الرّقيب : أكواع ورُكَب . . . (يعني انزل على أكواعك ورُكبِك ، أي أَقْعِ مثل الكلب!!) ، ثمّ أمره أن يزحف على الأرض الخشنة المملوءة ببعضَ كِسَر الزّجاج والأتربة ، وراح المسكين يزحف وهو يغوص في الزّجاج والبَحْصة ، ثمّ أمر عددًا من الزّبانية بأن يجلدوه على ظهره بكيبلاتٍ

معدنيّة ، وراح البائس يصرخ مفجوعًا تحت وقع السّياط ، والرّقيب يقول له : مشان تطّاول عَ أسيادك يا ابن العا . . . وهو يردّ : التّوبة يا سيدي . . . التّوبة . . . أبوس إجرك يا سيدي . . . آخر مرّة . . . ثمّ أمره الرّقيب بالفعل أن يقوم بِلَحْس بُسطاره بلسانه ، فراح يفعل مثل الكلب ، وحين كرّر ذلك أكثر من عشر مرّات ، ضربه الرّقيب بالبسطار على وجهه فانشقّتْ شفته ، وانكسرتْ بعض أسنانه ، وسقط من هول الضّربة وشدّتها . . . ثمّ أمر الرّقيب رئيس المهجع أن يُقدّم الصّفّ وأن يُنهي العدّ المسائي . ودخلنا بعد أن امتلأت قلوبنا شفقة على زميلنا المُعذّب ، وامتلأت حِقدًا على (أبو اصطيف) الواشي الكذّاب .

سارعتُ بتخييط شفته له ، وضمّدت له جروحه ، ونظّفتُ فمه ممّا علق به ، وكان أحد أسنانه قد انكسر قسمٌ منه ، وتماثل للسّقوط ، فأرحتُه منه ، وطهّرتُ جراحه بما توافر من موادّ . وجاء الشّيخ (فاروق) فقرأ عليه سورة (يس) بصوته الجميل ، ومسح على رأسه ببعض الأدعية ، حتّى هدأت نفسه ، واستقرّ بلباله ، ثمّ استسلم لنوم عميقٍ لم يُفق منه إلاّ في اليوم التّالي!!

(٥٠)
(يَلّى بتُرْقُصْ بِالعَتْمِة)

جاءت زيارة للشّيخ (فاروق) ، وكان ذا مهابةٍ ومحبّة حتّى عند الشّرطة ، فاستُقبل أخوه وأبوه في الزّيارة عند البابٍ ، وخرج هو إليهما في لقاءٍ أخويٍّ أبويٍّ حارّ . وطمأنهما على حاله ، ولم يقل لهما عن عذاباتٍ السّجن شيئًا ، وحمّلهما أمانةً إلى أمّه الّتي زاد عمرها عن السّبعين ، وحمل الوالد إلى ابنه مبلغًا جيّدًا من المال يكفي لأشهر طويلةٍ بصَدَقاته المعروفة ، وجاء الأخ ، وكان تاجر قماش ، لأخيه بأكثر من خمسين دشداشًا (جلاّبية) . وكان الشّيخ (فاروق) قد طلبها من أخيه ليكسو بها المهجع . وحينَ انتهت الزّيارة لم يأخذ (أبو هاني) من المال فلسًا واحدًا ، أو من الدّشاديش دشداشًا ، وكان هذا من بركة الشّيخ وحبّ الجميع له ، فقد كان يجود بماله حتّى لا يبقى له منه شيء . وفي المساء بعد التّفقُّد دخلت الدّشاديش ، ونادى الشّيخ بالنّاس ، وهو يرفعها بيديه ، ويعلّق جزءًا منها على كتفيه :

- جلاّبيّات . . . جلاّبيّات . . . يا شباب . . .!!

وتقاطر النّاس من أطراف المهجع عليه ، يقيسونها ، وكان منظرًا مُضحكًا ، ومُدخلاً للسّرور على النّفس ، وأنت ترى الكلّ قائمًا وقاعدًا ، هذا يُدخل يده في كمّ الدّشاديش ، وذلك يُخرج رأسه من أعلاها . وهذا يلبس الدّشداش فيغطّيه مرّتين ، وتتهدّل أطرافه عن الجانبين ، وتطول أكمامه عن الرّسغين . وذلك يحشر نفسه في الدّشداش فلا يستطيع أن

يدخل فيه ، وهو يزفر ويشهق ، ثمّ يخلعه وهو يكاد يختنق ، ثمّ يُحاول مرّة أخرى مع دشداشٍ آخر أوسع وأكبر . . . واستمرّت العمليّة ساعتين ، وبعدها كان هناك خمسون سجينًا يكتسون بالبياض جرّاء كرم الشّيخ (فاروق) وسؤاله عن إخوانه قبل سؤاله عن نفسه . وكان أحيانًا يسأله سجين بعد أن يكون قد أخذ دشداشًا أعجبه :

- كم ثمنه يا شيخ . .؟!

- دعوة صادقة بظهر الغيب . . .!! (يردّ عليه وهو يرسم بسمةً دافئة على شفتيه)

بعد يومين ، صار الحرس يُطلقون على مهجعنا اسم : مهجع الدّشاديش . وصرتُ أنا أطلق عليه : مهجع الدّراويش!!

أنشأنا في مهجعنا فرقةً مسرحيّة . واكتشفْنا أنّ عددًا منّا ذو موهبةٍ حقيقيّة في التّمثيل ، والإخراج ، والإنشاد ، وقول الشّعر ، وكتابةً السّيناريو . وكانت الفرقة المسرحيّة تضمّ على الأقلّ (١٢) ممثّلاً ، و(٨) منشدين . أمّا أنا فكنتُ من الجمهور الذي ضحك بملء شِدقيه على بعض المشاهد الكوميديّة الّتي قدّمتْها الفرقة!! ونادى (مُرتَجى) في النّاس أنّه لا بُدّ من تسمية الفرقة ، فراحت الأصوات تتعالى لتقدّم الاقتراحات . قال أحدهم نسمّيها فرقة (الأحرار) . ولم تجد هذه التّسمية قبولاً إلاّ عند عدد قليلٍ جدًا ، لأنّه اسم جامد غير حركيّ كما قال بعضُنا . وقال آخر نسمّيها فرقة : (الميادين) ، وتعدّدت الأسماء : (الفجر) و (اضحك معنا) و(الطُّرشان) و(الظّلّ الأعمى) و(على بال مين) و(الخشبة النّاطقة) و(البطّانيات المتحرّكة) و(النّور) و(أولاد اليوم) و(المرايا) و(مجانين مع وقف التّنفيذ) و . . . .

واستمرّت الأصوات تتعالى من كلّ جانب ، وزاد عدد الأسماء عن مئة اسم ، ولعلّ كثيرين منّا وجد في إطلاق الأسماء متعةً في

مساحة التّعبير عن النّفس المُحرّمة في مقبرتنا هذه . . . وبعد نصف ساعة من التّصايح والتّنادي بالأسماء ، قرّر رئيس المهجع (مُرتَجى) أن يكتب ثلاثين اسمًا على أحد جدران المهجع ، ونقوم بالتّصويت عليها ، وتولّى (نظمي) مساعد رئيس المهجع تنظيم عمليّة التّصويت . وكان كلّ سجين يحقّ له أن يصوّت لاسمَين . . . واستمرّت عمليّة التّصويت حوالي ثلاثٍ ساعات ، وفاز في النّهاية اسم : (على بال مين)؟! وقفز الّذين صوّتوا لصالح هذه الاسم وتبادلوا التّهنئات بعضهم مع بعضٍ كأنّهم فازوا في الانتخابات النّيابيّة!!!

وبعد أسبوع من حادثة التّصويت ، بدأت فرقة (على بال مين) تؤدّي أولى عُروضها . كانت أرضيّة المسرح عبارة عن تجميع لعشرات البطّانيّات المتراكمة بعضها فوق بعض ، وأخرى بجانبها ، فارتفعت تلك الخشبة المكوّنة من تلك البطّانيّات أكثر من نصف مترٍ عن الأرض . وكانوا يستعينون بجاطات البلاستيك إذا أرادوا منصّة ، أمّا السّتارة فكانت من البطّانيّات ، وأمّا الملابس فكانوا يخيطون بعضها بما توافر من خيطان وإبر ليصنعوا طواقي أو مراييل أو بدلات أو ربطات عنق أو أيّ لباسٍ آخر .

كان عنوان مسرحيّة اليوم : (الولاء الخسيس للسّيّد الرّئيس) . بدأت بعدد من الممثلين على أساس أنهم يسيرون في الشّارع ، ويقومون بمظاهرة ، وهم يرفعون لافتة : (لا دراسة ولا تدريس . . . حتّى انتخاب الرّئيس) ، ويظلّون يسيرون في الشّارع وينضمّ إليهم عدد من المتظاهرين ، ويرفعون أحدهم على الأعناق وهو يهتف للرّئيس بحماسة . . . ثمّ يتوقّفون أمام باب المُحافِظ ، ويطرقون عليه الباب ، ويخرج عليهم رجل في بدلة أنيقة ، وربطة عنقٍ فاخرة ، وهو يعدّل من وضع قميصه ، ويسألهم :

- ماذا تريدون يا أبنائي؟!

- نريد إعلان الولاء . . .

(وتنطلق صيحات من بعض الممثّلين : للأبد . . . للأبد . . .)

فيُهدّئ المُحافظ من روعهم ، فيستمرّون في شغبهم ، يصيحون :

- بِدْنا (اسْرِنْجات) . . . بِدْنا (اسْرِنْجات) . . .

(ويبدو على المُحافِظ الاستغراب الشّديد) ، فيردّ وهو يهزّ برأسه مُستنكرًا :

- وليش الاسرنجات . . .؟!

- بدنا نعلن الولاء . (يردّ المتظاهرون)

يلتفت المُحافِظ إلى مساعده ، فيأتيه بعدد من الإسرنجات البلاستيكيّة ، ويُعطيها لأحد المتظاهرين . . . يقوم المتظاهر بالانحناء وتقبيل قدم المُحافِظ . . . ثمّ يوزّع أربعةً منها على الّذين معه ، ويستلقي أربعة آخرون على ظهورهم ، ويكشفون عن سواعدهم ، وتقوم الأربعة الأخرى بالتّظاهر بسحب الدّم من هذه السّواعد ، (طبعًا يكون الممثّلون قد أعدّوا هذه الإسرنجات وملؤوها بصبغة حمراء من عصير البندورة) ، ثمّ ينهض الّذين سُحب من سواعدهم الدّم ويقفون مُعطين ظهورهم للجمهور ، ويبدأ الّذين معهم الإسرنجات بكتابة عبارة : (منحبّك) ، وعبارة : (نعم للقائد) . . . وأثناء ذلك تتعالى الضّحكات والاستهجانات من الجمهور . ثمّ يصطفّ الممثّلون وكانوا ثمانية ، ويهتفون مرّة ثانية : (للأبد . . . للأبد . . .) ، ويجلسون على الأرض ، ويهتفون :

- ما رَحْ يرْتاحِلْنا قَلْبْ . . . لَيِظْهَرْ قائدْنا الأَبْ (يكرّرونها مرّات)!!

فيشير المُحافِظ ليُهدّئهم ، ويَعدهم أنّ الرّئيس سوف يظهر عليهم ليُلقي خِطابًا بعد قليل . ويغيب المُحافِظ . . . وتبدأ الهمهمات ، ثمّ

يظهر الرّئيس من جهةٍ أخرى وأمامه منصّة من البلاستيك ، وميكرفون من ملعقة خشبيّة مربوط في آخرها عظمة . . . ويبدأ خطابه التّاريخيّ :

- يا أبناء سوريّة العظيمة . . . يا أبناء الحركة التّصحيحيّة الخالدة . . .

وفي هذه اللّحظة يكون عددٌ من الممثّلين مُختبئين بين الجمهور ، فيبدؤون برشق الرّئيس بحبّات البندورة فتسيل بلونها الأحمر على بدلته البيضاء ، ويتناول آخر بطاطا مسلوقةً فيرمي بها سيادة الرّئيس ، وثالث بيضًا مسلوقًا ، فينطرح وجه الرّئيس ، ويتكسّر شيءٌ من قشره عليه ، ويهيج المهجع ، ويدخل الجمهور الحقيقيّ في اللّعبة ، فما تكاد تُحسّ إلاّ والأحذية قد بدأت تتساقط على رأس الرّئيس . . . والرّئيس يتّقي كلّ ذلك بيديه وهو يرجوهم الهدوء . . . ثمّ يقوم أحد الممثّلين فيبصق على وجه الرّئيس ، ويقول له :

- عليك وعلى الحركة التّصحيحيّة . . .!!

وهنا تنقطع الحركة كأنّها لم تكن هائجةً قبل قليل حين يصيح شرطيٌّ من الخارج :

- شو فيه ولا . . .؟! ليش ها الصّوت يا قرود . . .؟!

ونتفرعط جميعًا مثل الفئران ، ونُسارع بما فينا الرّئيس إلى إزالة كلّ مظاهر المسرح ، وينشغل بعضنا في عجلةٍ بتنظيف المكان وإخفاء الآثار . . . ويدخل الشّرطيّ ، فيصيح برئيس المهجع :

- شو كنتو عم بتساوو يا كلاب . . .

- ولا شِي سيدي . . . ولا شِي . . . شويّة دورعَ الحمّام . . . ما رَحْ تسمعلنا صوت بعدها . . .!!

ويخرج الشّرطيّ ، يغلق الباب مُغضَبًا وشاكًا ، ومُتبِعًا كلّ ذلك سيلاً من الشّتائم المعهودة . وتنتهي المسرحيّة عند هذا الحدّ!!

(٥١)
عالطّاحُونِة شِفْتك عالطاحونِةْ

يتركون أجسادهم كأنّها لم تكن لهم ، ولم يكونوا يومًا لها!! يتركون أجسادهم لأنّها ثقيلةٌ لا تحتمل الرّوحُ خَبَبُها في تساميها إلى الأعالي!! يتركون أجسادهم خلفهم ، لأنّه لم يعد لديهم مزيدٌ من الوقت ليتأخّروا عن حبيبهم الّذي وعدهم بكلّ ما لا يُستطاع دونه الانتظار . يتركون أجسادهم لنا لأنّنا ما زلنا جُبناء عن أن نرتقي مثلهم من طينيّتنا الوَخِمة!! يتركون أجسادهم ليدعوا الحبل من فوقها يكتب على أعناقهم : نحن أسمى من أن يحبسنا الموت ، وأجلّ من ألاّ نفوز بالحياة الخالدة!! أولئك هم الشّاهدون على أنّنا ما زلنا مشدودين إلى مستنقعات عَجْزنا ، وتائهين في صحارى ضَعْفنا!!

تتراقص أجسادهم على الحبال في الصّباحات الباكرة ، كأنّها طيورٌ تهمّ بالانطلاق من أعشاشها إلى الفضاءات الرّحبة ، وتتدلّى من تحت الأعواد كأنّها قناديل معلّقة في ظلّ العرش تكاد تهوي من ثقل النّور الّذي يملؤها . وترتفع أقدامهم أعلى من قامات الجلاّدين ، لأنّهم يوشكون أن يكتبوا بأحذيتهم نهاية الطّغاة . وتظلّ أيديهم معقودةً خلف ظهورهم لأنّهم أَنِفوا أن يمدّوها فيستجدوا رحمةً لا تليق بمقاماتهم العليّة ، ومنازلهم السّنيّة . ويَدعون أرجلهم تهوي إلى ساحات الإعدام ، وهم يشعرون أنّهم في كنف الله يُغدِق عليهم من رضوانه ما يكفي لأن يُقْدِموا إلى الحِبال كأنّها غاية الآمال ، ويتسابقوا إلى الأعواد كأنّها

نهاية الآلام، ويبتسموا في وجه الموت كأنّه لا يُنهي حياتهم بل يبدؤها من جديد، في رحلة الخلود الّتي لا تنتهي!!

نُودي على ثلاثة من مهجعنا، كانوا شبابًا في كلّيّة الهندسة في جامعة حلب، حُوكِموا قبل خمس سنوات، وجاء اليوم دورهم لكي يتخلّصوا من القشرة الّتي تُحيط بروحهم، ويتركوا خلفهم تلك الجثّة الّتي طالما حلمت بأن تكبر في كنف الوطن وتُصبح إحدى مناراته في العلم والحضارة، إلاّ أنّ يد الجَبَروت امتدت إليها قبل أن تُكمل المشوار، واقتنصتْها قبل أن تبلغ المَقيل!!

ودّعونا كأنّهم ذاهبون إلى عُرْسهم الّذي أُعِدّ لهم من قِبَلِ أهاليهم، وظلّوا يبتسمون، وينظرون في وجوهنا نظرات حانية كأنّما أُفرج عنهم لا سِيقوا إلى المسالخ!! كانوا زملاء في الدّراسة، واختار لهم الله أن يكونوا رفقاء في الشّهادة. قبّلوا ثلاثتهم رأس الشّيخ (فاروق)، ورجَوه أن يدعو لهم، وألاّ ينساهم في ظهر الغيب، فوعدهم بذلك وهو ينتحب ضاغطًا بإصبعين من أصابعه على عينيه!!

أمّا أنا فأطرقتُ عندما مرّوا بقربي، ولم أقدر على النّظر في وجوههم، كانت موجةٌ من البكاء تتقاذف في أعماقي أحاول أن أمنعها من الانفجار وهي تغالبني دون أن أقدر على الصّمود أمامها طويلاً. وحينَ صاروا قُبالتي وهم يمشون في موكب زفافهم، اندفقت تلك الموجة، فانتفض صدري، وعلا وهبط، وارتجّ جسدي كلّه، وظللتُ مُطرقًا لا أجرؤ على النّظر في وجوه الذّاهبين إلى الحياة. غير أنّهم ثلاثتهم أحاطوني بأذرعهم، وراحوا يهدّئون من رَوْعي، ويسألونني الدّعاء!!

مرّ موكبهم الملائكيّ كأنّه طيفٌ من نور، وشتلةٌ من شذى، وموجةٌ من عِطر... وانطلقوا إلى معارج الرّقيّ. وهناك في السّاحة

الّتي احتضنت أجساد الآلاف من الرّاحلين ، وسُطّرت فوقها أروع البطولات من المُجاهدين ، كانت أرواحهم تستعدّ للسّمّو إلى السّماوات العُلا فتجدُ خصماً حاشِدًا من المَلَك على أرجائها ينتظر قدوم الخالدين الجُدد!!

منذ الفجر تبدأ السّماعات باختراق آذاننا بموسيقى عسكريّة ، ثمّ أخبار الدّولة ، ثمّ فيروز أو أمّ كلثوم . صباح هذا اليوم ، راحت فيروز بصوتها القادم من هناك تُغنّي :

(عَالطّاحُونة شِفْتك عالطاحونةْ وجَرَّحوني عْيُونك جَرَّحُوني
وِالعَوازِلْ مِنْ كَـاسِ المَـرارَةْ لَوَّعُوني . . . وِبْإِيْدُنْ سَقُونِي
عالطّاحُونة شِفتك عالطاحونِةْ

وبعد أن تُكرّر (فيروز) اللاّزمة (عالطاحونة شِفتك عالطاحونِةْ) تصمت الإذاعة ، ويكون فوجٌ من الإعدامات يُنادَى على أسمائهم!!

عندما تصعد الشمس إلى قبّتها قليلاً ، وبعد أن تكون برودة النّدى قد فارقت الأرض ، وبدأت تشتدّ درجة الحرارة ، كان يُنادَى على عدد من المحابيس للمثول أمام محكمة عسكريّة تتشكّل من عدد من الضّبّاط يحضرها (أبو هاني) ، وبُعَيد الظّهيرة تكون سمّاعات الإذاعة تصدح بأغنية أمّ كلثوم :

(حَسِيْبَكْ لِلزَّمَنْ لا عْتابْ ولا شَجَنْ
تقاسِي مِنِ النَّدَمْ وتعرَف الألَمْ
تَشْكِي . . .؟! مِشْ حَ اسْأَلْ عَليكْ
تِبْكِي . . . .؟! مِشْ حَ ارْحَمْ عِينيكْ)

وعندما تكرّر أمّ كلثوم (حسيبَك للزّمنْ) يكون المحكومون قد بدؤوا يعودون ، وبعضهم يحمل عبئًا جديدًا من العذاب ، بسنوات حُكمه الجائر . . .!!

وصار تقليدًا يعرفه السّجناء جميعًا، ففي اليوم الّذي تُغنّي فيه فيروز (عَالطّاحُونِة شفْتك عالطاحونِةْ) يتهيّأ السّجنُ كلّه لموجةٍ من الإعدامات، وتبدأ (الطّاحونة) تُمزّق أجسادهم، وتُزهِق أرواحهم. وفي اليوم الّذي تُغنّي فيه أمّ كلثوم (حَسِيْبَكْ لِلزَّمَنْ) تكون المُحاكمات الّتي (تسيب) السّجناء لزمنهم الّذي لا ينتهي قد بدأت. ويبقى السّجين على أملٍ ألاّ تبدأ (فيروز) سيمفونيّتها. وكم كانت الأيّام الّتي تهمّ فيها السّمّاعات بإطلاق موجاتها تحمل مستويات من الرّعب تتغلغل في الأعماق... صار صوت (فيروز) هو الموت نفسه، وصرنا نجد فرصةً للحياة وإنْ كانت في الطِّوَل المُرخَى حين نسمع صوت (أمّ كلثوم)!!

في صباح أحد الأيّام أذاعت السّمّاعة خبرًا بثّتْه الدّولة عبر محطّتها، كان الخبر يتحدّث عن عنصريّة إسرائيل، ومعاملتها الهَمَجيّة للأسرى الفلسطينيّين من حيثُ قلّة موادّ التّنظيف والصّابون والماء، وأنّه قد ظهرتْ في بعض المهاجع عندهم حالتان من الجرب، وحالة مريض بالقلب... وعلّقت الإذاعة على الخبر واصفةً إسرائيل بالوحشيّةً وانعدام الإنسانيّة، وطالبتْها باحترام حقوق الإنسان، وتطبيق معاهدة (جنيف)، وعدم المساس بكرامة السّجناء!! يومَها كِدتُ أنفجر من الضّحك والغيظ معًا، تمنّيتُ لو أنّ إسرائيل (الرّحيمة) تبثّ خبرًا في إذاعتها عند سجنائها عن حقيقة ما يجري هنا، لكي يحمد الأسرى هناك نعمة الله عليهم في هذا النّوع من الوحشيّة الإسرائيليّة!!!

خرجتُ مع السّخرة نبلع خيباتنا، ونُحاول ألاّ نعتاد انسياح الرّوح من أجسادنا كأنّه لا قيمة لها وهي تُساق بلا رحمة إلى باحات المشانق!! دخل الشّيخ فاروق، ونظمي بجاطَيهما، وحين هَمَمْتُ برَفْعِ جاط (البطاطا المسلوقة) قال لي العسكريّ: قفْ. فجمدتُ في مكاني، وأنزلتُ الجاط بعد أن رفعتُهُ عن الأرض قليلاً. تقدّم

العسكريّ ، وتناول حبّة بطاطا كبيرة وحشرها في فمي ، فسدّت فمي بأكمله ، وضيّقتْ مجرى التّنفّس فكدتُ أختنق ، ورحتُ أزدردُ جزءاً منها علّني أخفّفُ حِدّة اختناقي فنجحتُ قليلاً ، وما كدتُ أستردّ بعض نَفَسي ، حتّى سارع العسكريّ فَحَشا حبّةً أخرى في فمي ، وجاهدَ وهو يدفعها خلف الأولى ، حتّى بدأ وجهي يزرقّ ، ونَفَسي ينتهي ، والدّموع تملأ عينيّ الموشِكتَين على الانفِجار وهو غارقٌ في الضّحك يُتابع دَفْعه للحبّتين إلى حلقومي ، ثمّ أشار بيده لي أنْ أدخل ، فدخلتُ سريعًا ، ولفظتُ ما في فمي مباشرة بعد أن صرتُ في الدّاخل ، والتقطتُ أنفاسي ، ورحتُ أسعل بشدّة ، وظللتُ أشهق مرّاتٍ عديدة حتّى استعدتُ نَفَسي ، وحميتُني من الاختناق . . . كانت لحظاتٍ عصيبة قد مرّت وأنا أحاول ألاّ أفقدني بالموت أو الإغماء!!

مهجعنا الّذي أُلنا إليه بعد سنوات المرض ، يتميّز بوجود عدد من كبار السّنّ ، ولم يكن العساكر يفرّقون بيننا - نحن الشّباب - وبينهم في مستوى المعاملة المُميت . وفي أحد صباحات (الطّاحونة) ، ظلّ الموتُ فاغرًا فاه حتّى بعد ارتقاء أولئك الّذين رُفِعوا على الصُّلبان في الباحة السّادسة ، ففي العدّ المسائيّ ، خرجَ أحد المسنّين عند الاصطفاف خمسات خمسات عن الصّفّ قليلاً ، فلمّا رآه العسكريّ على هذه الحال ، شَحَطَه بمعاونةِ عسكريّ آخر ، وألقاه على أرضيّة السّاحة ، وأخذ يضربه على خُصيتَيه وهو يشتمه بأقذع الشّتائم ، والعسكريّ الآخر يُمكّنه من الضّرب بالوقوف عند رأس العجوز والإمساك برجلَيه في الاتّجاه الآخر ، ورفعهما إلى الخلف . ظلّ العسكريّ يهوي على خُصيتَي العجوز بحقد ظاهر ، والعجوز ينزّ ألمًا ، حتّى خفت صوتُه ، وبعد لحظات فارقَ الحياة!! أمرونا أن نلفّه في

بطّانيّة ، ونقول إنّه سقط على رأسه ، ثمّ ذهبوا به إلى مقابرنا المفتوحة في الصّحراء ، ودخلنا إلى المهجع وقد اكتمل عدد الّذين أضاؤوا في ذلك اليوم خمسةَ أقمار ، حلّقتْ بعيدًا عن عالَمنا المُوحِش المُتوحّش ، وسافرت في سماءٍ لا نراها!!

اتّخذتُ خلفيٍ - كما كنتُ أفعل في السّابق - حائِطًا أحفر على ظاهره خطوطًا مائلة تُؤرّخ للرّاحلين ، وتُحصي بُطولاتهم . وحدي إلى اليوم خططتُ على جدران المهاجع الثّلاثة الّتي تنقّلتُ عَبرها (٥٤٣) قمرًا!!

(٥٢)
الله يِجْعَلا أكبرِ المصايِب

شهقتُ وأنا أرى (الزّعيم) من جديد يمرّ بمهجعنا حاملاً مع بعض البلديّات الطّعام لنا ، وواضعًا إيّاه أمام الباب . كانت سلّةَ الأخبار ما تزال طازجةً لديه . ركضتُ نحوه كحصانِ سِباق ، واحتضنتُه بشوق عارم . وبادلني هو الشّوق بدمعتين طَفِرتاَ من جانب عينيه ، جاهدً بإخفائهما حينَ راح يمسحهما بطرف إصبعه الشّاهد وهو مُطرقٌ برأسه .

بدأتُه الحديث :

- وين هالغيبة يا رِجّال؟!

- أجبرونا أن نخدم السّاحة الأولى والثّانية فقط طوال هذه الفترة!!!

- شو في أخبار؟!

- متِلْ؟!

- العميد؟!

- في مهجع (١٢) المُخصّص للضّبّاط الكبار الّذين قضوا فترةً طويلة في السّجن ، يتمتّع بصحّة جيّدة والمهجع أحسنُ حالاً حتّى من مهجعكم هذا . . . وفيه كتب متوفّرة . . .

- طيّب جيبلك كم كتاب من عندو . . . مشتاااااق أقرأ شي . . و . . . سلّمْلي عليه!!

- تِكْرَمْ عِينك .

- والطّيّار؟!

- الله أعطاك عمره . . .!! مات بالسّلّ قبل أكثر من سنة . . . غريب إنّك ما بتعرف!!

- مْنين بدّي أعرف . . . الله يرحمو . . . وين يمكن يلاقي الواحد مكان ما فيه موت؟!!!!

- الصّحيح : وين مُمكِن يلاقي الواحد بِالموت مكان ما فيه موت!!

- لا تطوِّلْ علينا . . . إزا بتقدر تجيب بعض الإبر وأدوية منيح . . . المهجع هون نُصّو ختياريِّه . . . بيِحْتاجو شويّة رعاية طبّيّة . . .

- تِكْرَمْ عِينَكْ . . . رَحْ حاوِلْ . . . رَحْ حاوِلْ . . .

في الشّهرين الأخيرَين من السّنة الخامسة عشرة ، أضاف لي رئيس المهجع وظيفة جديدة هي الحراسة اللّيليّة . قبلتُ عن طيب خاطر . رأيتُ العمر يمرّ من أمامي مثل لصّ يسرق منّي كلّ شيءٍ وأنا أكتفي بالنّظر إليه . . . فقرّرتُ أن أعطي كلّ شيءٍ أملكه ما دام كلّ شيءٍ من هذا الّذي أملكه مُعَرّضًا لأن يسرقه العمر في أيّ لحظة .

كانت الحراسة اللّيلية فيها من المخاطرة والمُجازفة ما فيها . كانت تقضي بأن تقف طوال اللّيل عند الحمّامات ، تنظّم الدّاخلين إليها من المحابيس بهدوء تامّ دون أن تُصدِرَ أيّة ضجّة . وكان الأمر منوطًا بالحارس العسكريّ للشّرّاقة في أن يُحوّل كلّ ليلةٍ من ليالي حراستك إلى جحيم إذا أراد ذلك . وكثيرًا ما كان يفعل لأنّه ببساطة (زهقان) ويريد أن يتسلّى ويُرفّه عن نفسه!!

صاح هذا الحارس اللّعين من فوق الشّرّاقة الّتي تُطلّ على الجزء الأقرب إلى الحمّام :

- حارس ليليّ .

- حاضر سيدي . (وتهيّأت للأسوأ)

- تقدّم خطوتين إلى الأمام .
- حاضر سيدي .
- ثلاث خطوات إلى اليمين .
- حاضر سيدي .
- خطوة إلى اليسار .
- حاضر سيدي .
- خمس خطوات إلى الخلف .
- حاضر سيدي . (ظلّ يلعب بي بهذه الطّريقة حتّى استقرّت بي هذه الخطوات عند رأس رئيس المهجع مُرتَجى ، ثمّ أشار إليه ، وهو يقول لي) :
- صُبْ على راسو (باضون) مَيْ .
(ارتجفتُ قبل أن أفعل ذلك ، كيف سيكون موقفي وأنا أسكب هذه الكمّيّة الكبيرة من الماء البارد في هذا الصّقيع على جسد رئيس المهجع ، وأخذتْني التّوجّسات والأفكار بعيدًا ، قبل أن يقطعها الحارس العسكريّ بصياحه) :
- وْلا . . . ما سمعت يا كلب . . . صُبْ عليه (باضون) ميّ يا شَرْ . . .
قفزتُ من مكاني لحدّة الصّوت ، ورضختُ للأمر ، تناولت (باضون) ماء ، وسكبتُه كاملاً على رئيسنا ، وراح الرّئيس الّذي أيقظته البرودة الجارحة يتقلّب في مكانه ، وهو ينظر إليّ بعينين لائمتين ، وأنا أبادله نظرات الرّجاء والخوف والهلع والاضطرار . وانساح الماء المُثلّج على جسد الّذي خَدَمنا جميعًا . وكانت هذه السّياسة ، سياسة ضربِ بعضنا ببعض سياسة قديمة جديدة مُتّبعة في هذه القلعة الحصينة . ثمّ أمرني حارس الشّرّاقة بالعودة إلى مكاني . وظلّ (مُرتَجى) غارقًا في

حسرته ، يرتجف من الصّقيع الّذي يلفّه من كلّ جهة .

وفي الصّباح لم أستطع النّظر في عيني (مُرتَجى) ، وظللتُ أفحص الأرض بحيرتي ، شاعِرًا أنّني أسأت إلى من أحسنَ . ولكنّ (مُرتَجى) بادرني بالقول :

- ولا يهمّك يا دكتور . . . أنا بَعْرِف كلّ شي . . . بسيطة . . . الله يجعلها أكبر المصايب . . . . أنا لو كنت مكانك عملت نفس الشّي . . . إلّي بينّا ما رح يتغيّر . . . يلّه مدّولنا السُّفرة يا شباب خلّينا نفطر . . .

كانت كلماته قد أزاحت أطنانًا من الغيوم السّوداء الّتي غلّفت قلبي ، ونظّفتْه مِمّا علق به من ألم النّدم والخجل . وعادت المياه إلى مجاريها . وهكذا كنّا نُصفّي حُفر الشّوك الّتي يرغموننا على أن نشقّها في قلوبنا ، بشتلاتٍ من الورود الّتي نُبادر إلى زرعها في تلك الحفر لكي تُسوّى بالمحبّة والمغفرة!!

خرجنا إلى التنفّس في هذا اليوم بعد شهر كُنّا قد أُعفينا منه . وعودة التّنفّس تعني عودة العذاب . نحن أرقامٌ غيرُ ثابتة ؛ يزيدُنا ما ينقصُنا ، ونتكامل بما نفقد . يتركوننا نقلّ بالموت ونزيد بالشّهادة ؛ حينَ يخرج من هذا الباب إلى غير رجعة مَنْ صعدوا إلى الأعالي ، يدخل من هذا الباب ذاته من يُهيّئ نفسه لأنْ يفعل ما فعل سابِقوه من محاولة الخُلود . بوّابة مهجعنا تُفتح للرّاحلين من هذا العالَم الّذي لا وجه له ، تمامًا كما تُفتح للدّاخلين من ذلك العالَم الّذي ربّما لن يروه من جديد!! كُنّا - يومها - حوالي (١٢٠) سجينًا ، حينَ أُمِرنا أن نخلع كلّ ما نلبس إلاّ ما يستر عوراتنا ، وكانوا يأمرون بعضنا بأن نجلس (جاثِيًا) وبعضنا (مُستنكِحًا) . وكانت البساطير تبدأ بالتّدبيك على ظهورنا أو قلوبنا . . . وتبدأ مخالب الموت تُنشب أظافرها في رِقابنا . . . في الحفلة المشهودة كان أحدهم يجلس أمامي مكشوف الظّهر ، وكان

الشّرطيّ يحمل سوطًا من جلد مراوح الدّبابات سميكًا جِداً ، وكان قد نُقعَ في الماء المالح لثلاثة أيّام ، وراح يهوي به على ظهر المسكين الجاثي أمامي . كان السّوط يمرّ من فوق رأسي كأنّه الهلاك الحائم ، فأسمع أزيزه الحادّ ، وهو يشقّ الهواء المُتخَم بالرّعب قبل أن يشقّ جسد السّجين . يلتفّ على ظهره حتّى بطنه ، ثمّ يسحبه الشّرطيّ فأسمع من جديد صوت التصاقه بالجسد وتخليصه ثانيةً منه . . . كانت أصواتًا تُعذِّب - ربّما - أكثر من تعذيبها بالألم النّاشب في الجسد ، كان العذاب الأوّل أقسى لأنّه من النّوع الناشب في الرّوح ، وعذاب الرّوح أشدّ وأبقى من عذاب الجسد!! ظلّ الشّرطيّ طوال نصف ساعة يتفنّن في الإهواء بسوطه على الجسد النّازف بالدّم القاني ، حتّى خطر لي أن أغطّي ظهره بجسدي لأخفّف عنه بعضَ ما يجد ، وأحمل عنه بعض ما يُلاقي . . . وخاصّة أنّ جسدي لم ينل إلاّ عددًا من البساطير الّتي نقشت فَرْزاتها على ظهري . بالفعل مددتُ ظهري فوق ظهره أحميه بعض الشّيء ، فانهال عليّ الشّرطيّ يجلدني . . . غير أنّه ما كاد يفعل ذلك مرّتين أو ثلاثًا حتّى توقّف . . . ولا أدري لماذا؟! ولكنّنا نَجَوْنا أنا وذلك المسكين الّذي كان من المحتمل جِداً أن يُفارقَ الحياة .

دخلنا وكان عدد الّذين كُسرَت أضلاعهم أو أيديهم أو أرجلهم (١٩) سجينًا ، قمتُ أنا ومجلس إدارة المهجع وعددٌ من الأطبّاء بتجبير كسورهم ، دعوتُ بالماء ، وبعجين الصّمّون العسكريّ ، وببعض البيض . جمعتُ بياض البيض في وعاء ، وأضفتُ إليه لبّ الصّمّون وقليلاً من الماء ، خلطتُ كلّ ذلك وكوّنتُ من الخليط الجبيرةَ المائعة ، ثمّ دعوتُ بقطع البلاستيك المقصوصة من الجاطات التّالفة بشكلٍ مستقيم لتكون الخشبة الّتي يُسنَد بها الكسر ، ودعوتُ ببعض الملابس الدّاخليّة (الشّيّالات) لكي تكون (الشّاش) الّذي سألفّه على الجبيرة . ساعدني

في ذلك ثلاثة أطبّاء آخرين ، بعد أربع ساعات كان المكسورون التّسعة عشر قد حصلوا على جبائرهم البدائيّة . . . اثنان منهم لم ينجح معهما الأمر ؛ فقد كانت كسورهم في الأضلاع ، ظلّوا يتألّمون أكثر من شهرين قبل أن يتعايشوا مع كسورهم ، أمّا البقيّة فقد نجح معهم الأمر إلى حدٍّ بعيد ، استطاعوا بعد حوالي ثلاثة أسابيع من العناية أن تعود إليهم أيديهم وأرجلهم المنكسرة ويستخدموها بشكل شبه طبيعيّ . مَكسورا الأضلاع الصّدريّة ، انجبرت أضلاعهم وحدها ًلكن بعد أن تشوّهت ، صارت هناك قبّة صغيرة تعلو صدورهم جرّاء الإهمال الّذي لم نكن نستطيع أن نعالجه!!

تولّى الشّيخ (فاروق) العلاج النّفسيّ ، ظلّ بوجهه البَشوش ، وصوته العذب ، ويديه الدّافئتين ، وقراءته لآيات الله المُحكَمات يُهدّئ من آلام المُعذّبين ، ويخفّف من معاناتهم ، نجح ربّما مثلنا أو أكثر - نحن الأطبّاء - في أن يحمي بعضنا من الجنون!!

(٥٣)
﴿إنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيكُمْ﴾

هربْنا من الجنون المُحَقَّق حينَ وزّعناه علينا جميعًا بالتّساوي ، وبدل أن يفتك بواحد منفردًا به عمّن سواه ، تلقّيناه بعقولنا كافّة ، فأخذ من كلّ عقلٍ جزءًا بسيطًا وأبقى على ما ظلّ منه دون أن يَختِلَه . . . فسَلِمَ لنا من عقولنا ما يُعين على المضيّ في مضمار العمر المسروق!!

هربْنا من الجنون حينَ احتمينا بالجماعة ، بالقطيع ، بالمدّ البشريّ المُحَيْوَن ، بالجدار الأخير ، بالذّكريات الهاربة ، بصور الماضي المنفلتة ، بنا نحن المُنكفئين على قلوبنا نسألها أن تُخبّئ الشّوق ليوم النّجاة . . . عَدَدْنا حرائقنا الّتي تشتعل في أكبادنا كلّ يوم وسيلتَنا الأنجع للتّطهير ، التّطهير الّذي سيُفضي بنا إلى الخلاص المحتومٍ . . . حاولنا ما استطعنا ألاّ نفقد الأمل ، ألاّ تكبر تلك الهوّة الّتي تحاول التّمدّد في عقولنا كلّ يوم لتُقنعنا بالاستسلام لأقدارنا ، بالاستسلام للموت . . . لم نكن نرغَب بالموت بقدر ما كان يرغب هو بنا . . . كنّا ندفعه بزهرة الحياة المُخصِبة في قلوبنا ، والّتي نسقيها كلّ حين بماء الأمل كي لا تذبل!!

ظلّ الجنون يتحرّش بنا . قاومْناه ، حرّكْناه عنّا بعيدًا ، رَكَلْناه بأرجلنا حين داهمَنا بجثّته الثقيلة . بدأنا بالصراخ في وجهه لكي يغادرنا ، ثمّ تحوّلنا منَ الصّراخ إلى الرّجاء ؛ رجوناه ونحن نبكي ألاّ

يُنشِبُ مخالبه فينا . . . لكنّه مع كلّ ذلك لم يرحمْنا ، فسقط بعضُنا فريسةً بين يديه!!

في السّنة السّادسة عشرة لعمرنا معًا انفصم (العقيد) الّذي لم أعرف اسمه إلى اليوم . ظلّ منزوِيًا في المهجع لا يُكلّم أحدًا ، شاردَ الذّهن ، زائغ النّظرات . . . حتّى جاء اليوم الّذي تكلّم فيه ، وليته لم يتكلّم ؛ (صمتَ دهرًا ونطقَ كُفرًا)!!

كنّا قد دخلنا المهجع مع العدّ المسائيّ ذات نهارٍ صيفيّ ، وبعد أن اكتمل عِقدُ المحابيس ، وقف (العقيد) في منتصفِ الجَمْع ، وصاح بأعلى صوته : (أيّها النّاس إنّي رسولُ الله إليكم) ، فاجأنا صوتُه الّذي غاب أكثر من عشر سنين . . . انتبهنا مثل حمامةٍ ردّها هديل ابنها . . . ورفّتْ جوارحنا مثل قطاة تهمّ بالورْدِ قبل أن تبلُغه . . . في البداية عبرتْ كلماتُه آذاننا دون أن تُحدِث أثرًا يوازي هوْل ما يعنيه من وراء قولها . . . أو تلفت انتباهًا جديرًا بمستوى خطورتها ؛ بالفعل فَرِحْنا . . . ظنّناه يقرأ ، أو يرتّل آيةً . . . أو يُجرّب حروفه بعد أن صَدِئتْ . . . أو يُعيد إلى حنجرته ذلك الصّوت الّذي فقده . . . ولكنّه كرّرها بعد ذلك مرّاتٍ كثيرةً وهو يرفع في كلّ مرّة صوته بها أكثر من المرّة السّابقة . . . (إنّي رسولُ الله إليكم) ؛ قُلنا : جُنّ . . . سارع بالقول : ستقولون عنّي (مجنون) . . . هكذا قال كلّ قومٍ لنبيّهم ، ثمّ تلا وهو يبكي : (كَذَلِكَ ما أَتى الّذين مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاّ قالُوا ساحِرٌ أو مَجْنُونٌ) . . . عندها سارع الشّيخ (فاروق) بالتّوجّه نحوه يُريد أن يحضنه ، ويضمّه إلى صدره ، ويُحاول أن يغيّر من غرائبيّة المشهد . . . فتراجع (العقيد) إلى الوراء خائِفًا ، وراح يصيح : لا تقتربْ منّي . . . لا تقتربْ . . . أنتَ غيرُ طاهر . . . يجب أن تؤمن بي أوّلاً وتشهد أنّي رسول الله إليك ، ثمّ سأسمح لك بلمسي . . . تراجع الشّيخ (فاروق) مُنذهِلاً ، ولم يدرِ ماذا

يفعل . . . تقدّم نحوه رئيس المهجع (مُرتَجى) مُحاوِلاً ، فصاح العقيد به : ولا أنتَ . . . ولا أنتَ . . . آمِنْ بي قبل أن يسخطك الله . . . ثمّ تعال لتصافحني وتُبايعني . . .!!

لم يحتمل أحد المحابيس جنون العقيد ، فأراد أن يُنهي المشهد ، انقضّ كالصّقر عليه ، وشدّ عليه بذراعيه حتّى كادت أضلاعه يختلف بعضُها في بعض ، ثمّ حمله عاليًا ورَطَمَه بالأرض ، فتعالى صِياحه ، وراح يتلوّى من الألم ، فلم يُمهله ، وراح يُكيل له اللّكمات على وجهه حتّى امتلأ وجهُه بالدّم . . . سارعْنا بتدارك الموقف ، رفعْنا المحبوس الّذي ظلّ يضرب العقيد كأنّما ينتقم منه ، وفصلْنا ما بينهم ، وراح العقيد يرطن ويبرطم ويقول : تؤذون نبيّكم؟! ما من نبيّ إلاّ كذّبه قومه وآذوه . . . ولكنّني سأطلب من ربّي أن يصبّ عليكم لعناته منذ اليوم . . . كان صوت الصّياح والهِياج الّذي افتعله (نبيّنا الجديد) قد جعل عددًا من الشّرطة يفتح علينا باب المهجع . . . وانفتحتْ بعد ذلك بوّابةُ العذاب . . . . أخرجونا جميعًا بمن فينا العقيد بوجهه المُلطّخ بالدّماء . . . وفي السّاحة وقبل أن يبدأ التّحقيق المُريع . . . تقدّم العقيدُ نحو الرّقيب ، وقال له : أنا أطلب منك ومن قومك النّصرة . . . هؤلاء (وأشار نحونا) لم يؤمنوا بي . . . ما كفر بي أحد إلاّ أهلكه الله . . .

فتح الشّرطيّ عينيه ، وهو يُحاول أن يفهم شيئًا مِمّا سمع ، لكنّه لم يستطع ، رفع قبضة يده وأهوى بها على وجه العقيد ، فازداد سيل الدّماء المنثعب في وجهه . . . تراجع العقيد خطوتين إلى الوراء ، وترنّح قبل أن يقول : حتّى أنتَ لم تؤمن بي . . . حسبتُ لك عقلاً . . . لكنّها مجرّد أيّام وسترون اللعنات جميعًا . . . تبًا لكم يا كَفَرة . . . وراح يبكي بكاءً مريرًا . . . أمّا أنا فضاقت عضلة القلب في صدري ، وتقبّضَتْ شفقةً وحسرةً على ما أرى وأسمع . . . توجّه الرّقيب وخلفه

عددٌ من الحرس إلى أوّل المهجع ، وصاح :

- وين رئيس المهجع يا كلاب . . .!!

- هوني . . . هوني سيدي . . . (قال ذلك مُرتَجى وهو يرفع يده)

- شو قصة هالشّرمـ . . . وشو قصّة الدّم إلّي عَ وِشُّو؟!

- ما بعرف سيدي . . . ما بعرف . . . صار شويّة خلاف بينو وبين واحد من المحابيس سيدي . . .

- صايرين تْطّلعو أنبياء يا شياطين . . . نبيّ؟!! شو هالنُّكتة . . .؟!! يا سيدي أنا بِدّي آمِن فيه . . . بسْ بِدّي مُعجزة لَحَتّى آمِن . . . تَعا لَهُون (صاح بذلك للعقيد ، فتقدّم العقيد منه ، تابع الرّقيب)

- وْلا . . . إنتا نبيّ . . .؟!!

- أنا نبيّ ورسول . . .

- حلو . . . شو معجزاتك يا مولانا . . .

- رح تشوفوها قريبًا . . . إنّما أنا نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد . . .

- ولك أنا إلّي بِدّي وَرْجيك شو هُوَّ العذاب الشّديد . . . المهجع كِلّو جاثِيًا . . .

جثونا على رُكَبِنا وطأطأنا رُؤوسنا ، ودفنّاها بين أرجلنا . وبدأتْ حفلةٌ من العذاب تفوق في مستواها مئة حفلة سابقة . . . نادَى الرّقيب ما لا يقلّ عن ثلاثين عسكريًا ، زعق بهم وهم يُهَرولِون باتّجاهنا : لا تخلّي حَيّ . . .

وتنادَى حرّاس الشّرّاقات على وقع الهرج والمرج . . . وبدأنا نتلقّى الهراوات على الرّؤوس والصّدور والجُنُوب . . . وعلتْ في المكان هَيْعةٌ لم يسبق لها مثيل ، وارتجّ النّاس ، وماجت الأجساد ، وسقطت الأَرجُل ، وسالت دِماءٌ كثيرة غطّت السّاحة بكاملها ، وعلتْ صيحاتٌ لها رائحة

لم أشمّ مثلها من قبل ؛ رائحةٌ باردة ثقيلة جارحة ؛ رائحةٌ تخترق الجسد إلى القلب فتدور فيه كأنّها تُجرّفه تجريفًا ، رائحةٌ متراقصةٌ كمقصلة ، صامتةٌ كقنبلة ، قادمةٌ لا محالة كَقَدَر . . .!! ثمّ طلب الرّقيب عددًا جديدًا من الجلاّدين . . . وأصاب الذّعر الجميع ، وشلّ الخوف كلّ الأعصاب . . . ورمى الفزع رداءه على نفوس مُعذّبينا ، فراحوا يضربون دون رحمة ، ويصيحون كأنّهم هم المُعذّبون . . . واختلط الميّت بالمغشيّ عليه من الموت . . . وبعد أكثر من أربع ساعات من الفظائع . . . تراجع القمر الّذي شهد المجزرة عن قبّة السّماء ، ورحل وقد أخذ معه سبعة شهداء اختطفهم الموت ، وما تبقّى منّا كان على شفير الموت ينتظر أن يختطفه كما فعل مع أولئك النّفر ، غير أنّه انفجر الكلام بالبكاء فصمت . . .!!

وانجلت المجزرة عن ليلة مشهودة لم تمرّ بفظاعتها ليلةٌ من قبل . . . ودخلنا في نهاية تلك اللّيلةً دون (نبيًّنا) ؛ فقد كان أحدَ السّبعة . . .!!

في صبيحة اليوم التّالي ، ومنذ السّاعة السّادسة فجرًا ، انطلقت السّمّاعات بأغنية فيروز : (عالطّاحُونِة شُفتك عالطاحونِةْ) . . . وبدأ الهلع يجتاحنا . . . لم نكنْ قد برئنا من جراحات أمسِ . . . وعند الثّامنة كان قد خرج من مهجعنا أحد عشر محبوسًا إلى ساحة الإعدام . . . لم يستطع أكثرهم المشي إلى الموت ؛ كانتْ أرجلهم قد كُسرت . اضطرّونا إلى حَمْلِهم في بطّانيّات ، أو حَمْلهم على ظهورنا . . . عُدنا من قبضة الموت وظلّوا هم فيها حتّى حُمِلوا من جديد في تلك البطّانيّات ، ولكن هذه المرّة إلى السّيّارة العسكريّة الّتي ستُبعثرهم على رمال الصّحراء كما دأبتْ أن تفعل!!

إنّها نهاية السّنة السّادسة عشرة ، أدرتُ ظهري - الّذي انحنى منذ أن فقدنا (النّبيّ) - إلى الجدار ، وحفرتُ خطوط الرّاحلين الجُدُد . . . لم

أعد أغلق الخطوط على كلّ خمسة أو عشرة أو عشرين ، صِرتُ أغلقها على كلّ مئة . . . اليوم صار عدد الرّاحلين (٦٩٩) قمرًا!! لم تكتمل في عديدي المئة السّابعة . . . أظنّها عند عشراتٍ من الّذين يفعلون ما أفعل قد اكتملتْ منذ مدّة سحيقةٍ!!!!

(٥٤)
﴿ولا تنازَعُوا فتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾

صمت الشّيخ (فاروق) شهرَين متتابعَين بعد موت (العقيد)، لم أره قد تأثّر بموتِ أحد كما تأثّر بموت (مُسَيْلِمَتنا) . . . ظلّ يخطر بباله ليلَ نهار، لم يستطع أن يتخلّص من ذكراه . . . كثيرًا ما رأيته يهزّ رأسه غير مرّة وهو يُغطّيه بكلتا يديه . . . قال لي : كان يُمكن أن ننقذه . . . نحن دفعناه إلى الجنون بأيدينا . . . لولا إهمالنا له ما انتهى هذه النّهاية القاسية!!

كان عصر الجمعة ونحن نستقبل الخريف في سنواتٍ وشهورٍ لم نعد نعرف كيف نُحصيها، ولا ندري إنْ كان إحصاؤها سيقرّبنا من النّهاية المرجوّة في كلّ حين، ونحن نجهل إن كانت هناك نهاية على النّحو الّذي نريد أم على النّحو الّذي يريدون . . . أم على النّحو الّذي يريده الله . . . النّهايات خلاص المُرتقِبين وإنْ بشّرتْ بالموت!! والانتظار عذابُ المحكومين وإن أفضى إلى الخلاص!!

جلسْنا في تلك العصرونيّة في حلقةٍ كبيرة، وقرّر (مُرتَجى) من هذه الجلسة أن نصلّي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، على أن يفعل ذلك كلّ فردٍ ألف مرّة . كان عددنا في ذلك الخريف يزيد عن (١٥٠) حبيسًا . وطلبَ (مُرتَجى) من (نظمي) أن ينظّم الصّلاة، فيقف في وسط الحلقة، وكلّما أنهى السّجين صلاته الألف يبلّغه بذلك . . . وقُبيل أن نبدأ انسحب عددٌ من المحابيس وتظاهروا بأنّهم يقومون بغسل

ثيابهم في الحمّامات . . . ودار (نظمي) على الجالسين يتلقّف منهم صَلَواتهم ، ويُحصي أعداد المُنهين ، وكنّا نأمل أن نصلّي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في تلك الأمسية مئةً وخمسين ألف مرّة . . . كان منظرًا مهيبًا ، لبس أكثرنا (الجلاّبيات) الّتي احتفظوا بها هديّة من الشّيخ (فاروق) قبل سنتين ، واعتمروا (طاقيّات) بيضاء ، وأطرقوا برؤوسهم خشوعًا ، وهزّوا جذوعهم مع إيقاع الصّلوات يمينًا وشِمالاً ، وطاف (نظمي) عليهم وهو يُشجّعهم بهزّ رأسه وحِفظ العدد المُصلّي . . . وظللنا طيورًا عَطشى تحوم حول الورْد حتّى ارتوينا . . . كنّا توّاقين إلى ما يُعيد إلى دمائنا دورتها ، وإلى أنفاسنا حرارتها ، وإلى جوارحنا حيَويّتها . . . ووجدنا بذلك متعةً فائقةً . . . كنّا نترنّم بالصّلاة كأنّنا كواكب سائرةً في الأفلاك . كان جوعنا إلى الكلمات الخالدات جوعًا إلى الخلود نفسه ، فجرّبناه باللّجوء إلى ربّ الخلود ، بالصّلاة على حبيبه ، وبالنّهل من مورد شرابه العذب .

ظلّ أولئك الّذين انفصلوا عن الجماعة ، وانبتّوا عن الشّجرة ، وحادوا عن الرّكب ، وانفلتوا من الطّريق محشورين في الحمّامات كأنّهم ابتُلوا بالاختباء من سباع ضاريةٍ تريد أن تفتك بهم . . . وحين أنهينا وخرجوا من مخابئهم قال لهم مُرتجى :

- لِمَ فعلتم ذلك؟!

- لم يَرِدْ عن الصّحابة أن فعلوا ما فعلتم . (ردّ أحدهم)

- ولم يَرِدْ عنهم أن فعلوا ما فعلتم!! (قال مُرتَجى)

- لكم دينكم ولنا ديننا .

الأجسام الغريبة يلفظها الجسد السّليم حين ينتظم في سلوكه ويتناغم في حركته . . . كان هذا تمرينًا على الخلاف بعد أن طالت المياه في ركودها بسبب انشغالنا بالعذاب الّذي يُصبّ فوق رؤوسنا في

السّابق . . . وكأنّه لم يعد من شيءٍ يشغل بالنا إلاّ هذا التّناكف الّذي يُمكن أن يزيد الصّدع ، ويُعمّق الهوّة!!

نُبِذَ الّذين خالفونا في تلك الحفلة من بعد ، ووجدوا هم في ذلك راحتهم فتقوقعوا على أنفسهم ، وانفصلوا عن الجماعة ، وضاقت الصّدور ، واحتملتْ شيئًا من الضّغينة ، ووجد بعضُنا في نفسه شيئًا ، واختلّ ميزان العمل ، واضطرب جَرَيان النّهر ، وأصبح في الإيقاع نشازٌ واضِحٌ . . .

تأثّر توزيع الأكل بعد تلك الحادثة ، كاد بعضُنا لبعضٍ ، حاول (مُرتَجى) أن يتجاوز الأزمة فلم ينجح ، (نظمي) أخذ الأمر إلى نهايته ، حقد عليهم ، غشّ معهم في الأكل والشّراب ، فنعتوه بالخبيث ، فتفاقمت الأزمة ووصلت إلى حدّ العِراك . . . انقلب انسجام المهجع الدّاخليّ الّذي كان يُقاوِم العذاب الخارجيّ ، وتحوّل إلى عذابٍ بئيس أشدّ وإن كان دون سِياط أو بساطير أو مواسير ، ولكنّه كان بكَلمات أحدّ من السّيوف ، ونظرات أشدّ من الرّماح ، وجفاء أقسى من الحياة . . . واجتمعت العذابات معًا ، فعشنا أيّامًا سوداء لفّتْنا جميعًا باللّعنات .

وفي إحدى مرّات العراك الكلاميّ ، قال أحد المُنبتّين لأحد المحابيس :

- إنتو كان لازم تؤمنوا بنبيّكم الجديد إلّي راح فطيس ، لأنّو يبدو هالدّين المؤمنين بيه من عند هيك أنبياء!!

- ولك إنتا ابن حرام تا تِحكي ها الحكي .

واشتبكت الأيادي ، وتبادل الاثنان الشّتائم واللّكمات ، وانضمّ إلى كلّ واحدٍ منهما عددٌ من النُّصَراء ، وانقسم المهجع إلى فريقين ، وتعالى الصّياح وطارت في الجوّ شتائم لم نكن نعهدها بيننا ، وتدخّل

بعضُ الحكماء ليفضّوا النّزاع ، ولكنّ جهودهم ذهبت سُدى ، وألقى كلّ فريق باللّوم على الفريق الآخر . . . وفي نهاية الأمر تدخّلت الشّرطة وهُرعت على الأصوات ، وأخرجونا - كالعادة - من المهجع جميعًا ، وعُذّبنا عذابًا شديدًا . . . ثمّ دخلنا من بعدُ وقد ازدادت كتلة الحقد في النّفوس ، ولم يعتبر أحدٌ بما حدث بل زادهم ذلك انتظارًا للحظة الانتقام!!

نعم . . . بدا الشّرخ الّذي حدث منذ ذلك المساء واضِحًا ، كان شرخًا عصيًا على الرّتق ، وفكّرتُ : ربّما أخطأنا فيما فعلنا حقًا . . . لكنّنا لم نكن ندري أنّ عملاً مثل الّذي عملناه وقصدنا فيه الخير بِنيّة صالحة كان يُمكن أن يؤدّي إلى ما أدّى إليه!!

أدركتُ أنّنا نحن أصحاب القضايا المُتشابهة والأفكار المتماثلة إلى حدٍّ ما ، أكثر من غيرنا عُرضةً للوقوع فريسةً للوقيعة!! كان التّشابه أساسًا للاختلاف ، ولم يكنْ مُنطَلَقًا للاتّفاق . كان داعِيةً إلى الحيرة ولم يكنْ منارةً للهداية . كان نفقًا مُظلِمًا ولم يكنْ نورًا في نهاية ذلك النّفق!! فإنْ لم تكنْ حالتُنا في السّجن من تشابه الأيّام مبعثًا لاختلافنا وحيرتنا وغَرَقِنا في الظّلام ففيمَ قال الله تعالى : (إنَّ البَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا)؟! ألم يكنْ تشابهه يُمعن في إشعارِهم بسقوطهم في الحيرة المتمادية المنبثقة من ضلال في الاختيار؟! وفيمَ قال : (وأُخَرُ مُتشابِهاتٌ)؟! ألم تكن هذه الآياتُ المتشابهات عصيّاتٍ على الفهم أكثر من تلكم المُختلفات؟!!

بعد شهر من تلك الحادثة ، جاءت زيارة مليئة بالهدايا للشّيخ (فاروق) ، كانتْ عبارة عن (جاكيتات) ، وبدلات رياضة ، وجلاّبيّات ، وطواقي ، وساعات . . . وكان أهل الشّيخ فيما يبدو قد جمعوا له هذه الهدايا الكثيرة خلال سنتين ماضيتين لم يزوروه فيهما ، حتّى تمكّنا

بعد جهود مُضنية من استصدار موافقة على تلك الزّيارة ، وأرادوا أن يُفاجِئوه بهذا العدد من الهدايا لأنّهم يعلمون أنّه يحبّ ذلك ، ويعلمون كيف يُصرّفها .

وفي مساء يوم الزّيارة احتاجت الهدايا الثّمينة خمسةً من العساكر كي يحملوها إلى مهجعنا ، وظلّ (أبو هاني) على احترامه للشّيخ (فاروق) فلم يأخذ منها شيئًا . وتكوّمت الهدايا أمام شيخنا الجليل ، فوقف خطيبًا ، وذكّرَنا بالأُخوّة ، وبرِباط الدّين ، وأكّد على أعظم رابطة ، تلك الّتي تفوق رابطة الدّم والنّسب ، وتلا قوله تعالى : ﴿إِنَّما المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ، وقال : أضع رقبتي فِداءً لصلح بيننا تنجلي فيه الأحقاد ، وتستقرّ فيه النّفوس ، وتذهب فيه الأخبَاث ، وتنمحي الشّوائب . . . وها أنذا أقبّل رأس المُتخاصِمَين ، وأرجوهما بحقّ الله أن يَصْطَلِحا .

قام بالفعل فقبّل رأسيهما ، ووجدا في ذلك أمرًا عظيمًا ، فلانت قلوبهم ، وهدأت نفوسهم فاصطلحا ، وكأنّ ضغطًا هائلاً كان في القلوب فانتهى ، وكأنّ ضيقًا حابِسًا كان في الصّدور فانفرج . . . ثمّ سارع الشّيخ إلى توزيع الهدايا على جميع مَنْ في المهجع ، فلم يبقَ واحدٌ من الـ (١٥٠) سجينًا حتّى أخذ شيئًا ، إمّا جلاّبية أو طاقيّة أو (جاكيتة) أو ساعةً . . . وبعضُنا أخذ أكثر من شيءٍ واحدٍ . . . وكان يومًا مشهودًا عادت فيه الأمور إلى طبيعتها وكان الفضلُ في ذلك بعد الله إلى النّيّة الصّافية الصّادقة الّتي في قلب شيخنا الجليل!!

(٥٥)
بدأتُ بالانْفِصال عَنّي

ما الّذي انكسر فينا طوال هذه السّنوات وما الّذي انشعب؟! ما الّذي انهدم فينا، وما الّذي انبنى؟! مَاذا تبقّى منّا فينا لنا ونحن نفقد كلّ يوم من كرامتنا ما يجعل الطّريق - بَعدَ كلّ يوم ينقضي - أطول، والحرقةً أقسى، والهُوّة أوسع، والحزن أوجع، والخلاص أبعد؟!! ما الّذي أنكرتُه منّي لأعرف الجزء الّذي لم أنكره بعدُ؟! وما الّذي عرفتُه منّي لأكون قادِرًا على أن أحيا فيما تبقّى لي من عمر بِما جَهِلت؟! يا الله . . . كم كانت سنواتُنا هنا بلا لون، ووجوهُنا بلا ماء، وقلوبُنا بلا نَبض، وأصواتُنا بلا صدى، وأنفاسُنا بلا رَجْع، ووجودُنا بلا طَعم . . . ونهايتُنا أقرب إلينا من حبل الوريد . . .!! يا الله . . . ما الّذي تُبقيه لنا عندك حتّى لا يتغوّل علينا الألم فيسحق إنسانيّتنا، ويطمس تَوْقَنا إلى شعورنا بنا، وإحساسنا بأنّنا بشرٌ ممّن خلقتَ، لا دوابّ جرباء تجترّ عذاباتها وترضى بِمُدية الذّبّاح حينَ تُساق إلى مَذبَحه؟!

كان ليلاً بعد نهار ظلّت فيه فيروز تغنّي طوال عشر ساعات: (عَالطّاحُونِة شِفْتك عالطّاحونِةْ) حتّى وقف الموت مثل كرة من الشّوك في الحلق. وانغرز مثل حربةٍ من الهلع في القلب، واستقرّ مثل حِزام من اللهب في الخاصرة. وتعب كُلّ مَنْ في المهجع من طول ارتقابٍ لأملٍ عزّ على القدوم، وغالَى في الغياب.

كان ليلاً بعد ارتفاع أقدامِ أكثر من ثلاثين راحلاً فوق أكتاف

الجلاّدين . كان ليلاً توقّف فيه الدّم في العروق ، وانكفأ عن الجريان في القلوب عند كلّ شهقة أخيرةٍ يُطلقها شهيدٌ في السّاحة السّادسة ؛ السّاحة الأبرز للإعدامات ؛ الإعدامات الّتي حولتْ سجننا إلى مجزرة ، المجزرة الّتي استمرّت كأنّها الحياة ، الحياة الّتي توقّفت كأنّها الاستثناء في هذه الملاحم الّتي لا تنتهي!! مَنْ يرفع نصل السّكّين عن عنقنا؟! مَنْ يُدير وجه الموت عن وجوهنا؟! مَنْ يحمل حفرةَ القبر بعيدًا عن وجودنا؟! صارتْ هذه الحفرة بعد أكثر من ستّةَ عشر عامًا أمنيةً بعيدة المنال ، حينَ أدركْنا أنّ الجلاّدين لا يتركوننا نحظى بها ، بل ظلّوا يُلقون بأجسادنا في مجاهل الصّحراء كأنّنا جِيفٌ يجب الإسراع في التّخلّص منها!! مَنْ يقول لنا - غير الله - أنّ هناك بابًا يومًا ما سيُفتَح بعد أن ظلّت المقبرة تُغلِقه علينا دون أن تُعطينا بارقةَ أملٍ واحدة ؛ أملٍ بأنّه سيرتدّ يومًا إلى الوراء بعد أن يكون المِزلاج قد غيّر مكانه وتزحزح قليلاً من صدئه الّذي علاه كلّ هذا الزّمن البطيء القاتل؟!!!

قضيتُ زهرةَ شبابي في السّجون . يبدأ الإنسانَ الحياةَ طفلاً ثمّ يشبّ فيشتدّ عودُه حتّى إذا استوى قمرًا بعد أن كان هِلالاً ، يأذن قمره بأنْ يعود إلى هلاله مرّة أخرى ، في هذه المرحلة بالذّات ، مرحلة العودة إلى الهلال ، بدأتُ بالانفصال عنّي والانسلاخ منّي بعد أن وصلتُها . . . اكتمل بدري في السّجون بالعذابات الّتي لا توصف ، أكل السّجن منّي رُوائي ، وجفّف مائي ، وملأني بالحُفَر والأخاديد . . . ها أنذا أبدأ مرحلة الأفول ، غير أنّ الأقسى هو مرحلة الاكتمال الّتي تمّت هنا . . . لقد تمّت بين القضبان ، وتحت السّياط ، وخلف الآهات ، وأمام الأسى المُعتّق ، وعند مَفرِق الدّموع الّتي لا تتوقّف ، ووراء خيبة العمر الّتي تحزّ الرّوح من الوريد إلى الوريد . . . فعلى أيّ جنبٍ ينام المرء في هذه المَسْبَعَة؟! وفي أيّ طريقٍ يترك المذبوح رجليه لِتَمشِيا دربَ الآلام؟!

وعند أيّ واحةٍ يُلقي المسافر في الصحراء عن كاهليه ثِقل السنين الغابرات ليحظى برشفة ماء تعيد إليه ذاته المفقودة؟!

لم أنمْ في ليلةٍ من لياليَّ الحزينة ، كانت (لمياء) تذبحني ، لم يكنْ بُعدها وحده هو السّبب ، ولا السّنين الطّوال الّتي لم أرها فيها ، ولا وجودي المحطوم والمسحوق هنا ، كان السّبب الوجيع أنّني كلّما أردتُ أن أرسم لها صورةً في خيالي عجِزت . . . ظللتُ أحاول أن أتخيّل كيف تبدو بعد كلّ هذا العُمر . . . طولُها . . . مشيتها ، ضِحكتها تَشفُّ عن لئالئَ شذيّة ، لونُ عينيها ، إيقاع كلماتها ، صوتُها وهي تُنادي أمّها . . . عند صوتها توقّفتُ كثيرًا ؛ تمنّيتُ لو أنّني أستطيع أن أستعيره من طفولتها عندما كان عمرها عامًا واحِدًا ثمّ أضخّمهُ سبع عشرةَ مرّة فأرى كيف صار اليوم . . . كيفَ تحوّل من لثغاتٍ إلى نشيدٍ عذبٍ كأنّه قادمٌ من الجنّة على لسان حوريّاتها . . . كيفَ تحوّل من حروفٍ مبعثرات إلى كلماتٍ وجُملٍ ساحِرات . . . هل تعرفني؟! هل حدّثتْها أمّها عنّي؟! ماذا تعرف من أَبيها إنْ كان قيل لها إنّ أبًا مفقودًا يُمكن أن يطلع لها مثل القدر ذات ليلةٍ من ليالي القدر؟! ماذا غيّرتْ فِيَّ السّنون لتقدّمني إلى ابنةٍ من لحمي ودمي ، انفصلتُ عنهما قسرًا حتّى لم يعد لي مثلُ هذا اللّحمِ والدّم؟!!! ماذا أكلت السّياطُ من قلبي دونها ، وماذا أبقتْ لها لكي تعرفني من خلال الشّعور الأبويّ بما تبقّى لها أو لي مِنّي أو من هذا القلب المنزوي في أعماقي؟! ماذا سترى في وجهي حين تُطالعه؟! أظلّ وجهي هو هو ، أم تغيّر كثيرًا منذ لحظة الدّماء الّتي لعبتْ خطوطها بصفحته فكتبتْ عليه كلّ ما لا يُقال ولا يُحتَمل ولا يُفهم!!

كانتْ ليلةً بدريّة ، مددتُ بصري الهائم عبر الشّرّاقة أطالع صفحة السّماء ، وأهيم في الكُحليّ المتمدّد خلف الأبيض المُنسرِب من القرص الفضّيّ يصنع هالةً من الأنس والطّمأنينة لم أشعر بمثلهما من

قبل!! ارتسم وجه ابنتي ذات الرّبيع الأوّل على صفحة القمر . . . لم تكبر ابنتي في خيالي سبعة عشر عامًا ، كنتُ أعجز من أن أفعل ذلك . . . ظلّت على عمرها الّذي غادرتُها فيه كأنّه أمس!!!

من خلف قضبان الشّرّاقة بدا العالَم الخارجيّ غارِقًا في الحرّيّة ، لم تَحُلْ تلك القضبان دون هذا الشّعور ، لم تكسره ، لم تهزمه ، لم تحطّمه فِيّ . . . أنا ظللتُ حيًا إلى اليوم بما امتلكتُ من هذا الشّعور المُقاوِم لليّأس والحبّ للحياة . . . نموت حين نستسلم ، حينَ ننهزم أمام طوفان الموت . . . حين نرضى بأن يختار لنا الموت مصيرنا . . . وننجو حينَ نُقاتل ، حينَ نتمسّك بحقّنا في الهواء المبثوث لكلّ البشريّة ؛ في العيش المُقتَسم لنا جميعًا بقدرةٍ إلهيّة غلاّبة . يستطيعون أن يمنعوا عنّا النّوم لكنّهم لا يستطيعون أن يمنعوا الحلم . . .!! يستطيعون أن يُوقِفوا نبض القلب ، لكنّهم أعجز من أن يوقِفوا نبض الإرادة . . .!! يُحاولون أن يأكلوا لحمنا وينهشوا رِقابنا لكنّهم لا يمكن أن ينهشوا عزيمتنا إلاّ بمقدار ما نسمح لهم نحن بذلك تحت مطارق انهزاماتنا الصّغيرة . . . قد نتراجع قليلاً إلى الوراء أمام أعاصير الفناء ولكنّنا نعود من جديد حتّى ولو أخذت معها في طريقها شيئًا منّا . . . نعود إلى الحياة بعد أن تهدأ ثورتُها ، وتصمت زمجرتها . . .!!

من الشّرّاقة نفسها ، في الثّلث الأخير من اللّيل بدا العالَم ساكِنًا مُسالمًا وقد تخلّى عن وحشيّته لصالح إنسانيّة شفيفةٍ تغمر القلب بالدّفء والحنان . كان الهدوء سيّد الموقف ، وكانت النّسمات تعبث بهذا الهدوء أحيانًا فتُداعب ما تبقّى فينا من توق إلى الخلاص . . . عبرت النّسمات وجهي وكأنّها تُلاطفه لتقول له كلامًا ما ، مسحتْ بيد من لطف على قسماته كأنّها أمّي تفعل هذا عندما كنتُ طفلاً بريئًا أحبو بين يديها ، قالت هذه النّسمات شيئًا لم أفهمه ولكنّني أحسستُ

به ، لا أدري كيفَ أصفه ولكنّني أُدرك أنّه أخرجني من هنا ، وحلّق بي بعيدًا إلى هناك ، إلى آفاق الحرّيّة ، إلى فضاءات الانعتاق المُطلقة الفسيحة . . .

الله أكبر . . . الله أكبر . . . تعالى هذا النّداء من مآذن تدمر البعيدة القريبة . . . الشّقيّة الشّجيّة . . . الذّابحة المذبوحة . . . تعالى هذا النّداء الخالد القادم من السّماوات الرّبّانيّة السّابحة لِيصَل إلى أذنيّ فيسكب فيها فيوضًا من النّور . . . ويملأ قلبي طيوبًا من السّكينة . . .!!

الله أكبر . . . الله أكبر . . . إنّها الكلمات الّتي تملأ الرّوح بشجن التّائقين إلى السّماء ، الهائمين إلى الوِرد ، الهاربين إلى الله ، المُلقين عن كواهلهم أوزار الحياة ، الذّائبين في عشق الحبيب الأعلى والأجلّ ، النّاذرين أعمارهم لواهبها الأكرم ، العاجِلين إلى مُنعِمهم الأوّل ليرضى ، اللّاجئين إلى حبيبهم ليرقى . . .!!

الله أكبر . . . الله أكبر . . . لتطمئنّ النّفوس المُعذّبة . . . ولترتاح القلوب المتعبة ، ولتستقرّ الأرواح المضطربة ، ولتسكن الجوارح المُقلقَلة ، ولتهدأ الأعصاب المرتجفة ، ولتوقن الأجساد المُمزّعة بأنّ هناك منتقمًا ، عند بابه تخرّ الجبابرة ، وتنكسر الهامات المتكبّرة ، وتنخلع الرّقاب المتعاظِمة ، وعلى أعتابه ينال الظّالمون جزاءهم والمظلومون نعيمهم . . .

الله أكبر . . . الله أكبر . . . يتعالى شفيفًا قادِمًا من الغيوب الإلهيّة الّتي فيها البرد والسّلام ، وفيها النّعيم المقيم ، وفيها الأمل الجميل ، وفيها الرّضى الظّليل ، وفيها الرّاحة بعد التّعب ، والظّل بعد الهجير ، والفوز بعد الهلاك ، والطّمأنينة بعد الخوف ، والرّجاء بعد اليأس ، والسّعة بعد الضّيق . . .!!!

الله أكبر . . . الله أكبر . . . من كلّ جلاّدينا ، من كلّ الّذين ملؤوا وجوهنا بالدّم ، وحياتنا بالرّعب ، وأنفاسنا بالخوف ، وأعصابنا بالذّلّ ، وأيدينا بالعبوديّة ، وقلوبنا بالأسى ، وأحلامنا بالجنون ، وعقولنا بالهَذَيان . . . وجعلوا انتظارنا للموت حياة ، ووقوفنا على بوّابات السّجن عمرًا ، واعتيادنا على السّياط دهرًا . . .!!

الله أكبر . . . الله أكبر . . . رجاءٌ لا ينقطع ، واتّصال لا ينبتّ ، يحملك إلى هناك ، إلى أوّل من قالَها حينَ كتب بها الخلود لنفسه ، ومحا بها العبوديّة عن روحه ، وجعلها شريعةً لكلّ الأحرار ؛ الأحرار الّذين انتزعوا تلك الحرّيّة بالثّبات والإيمان لا بالتّفجّع والتوجّع . . . انتزعوها حينَ امتلأت أفواههم بها ، وغنّوها لتغنّيها الحياة لهم من بعدُ ، وصَدَحوا بحروفها في وجوه مُعذّبيهم ليبوء كلّ واحدٍ بما كسب ؛ أمّا أولئك فإلى زوال ، وأمّا نحن فإلى خلود!!

كان أذان الفجر إيذانًا بعهد جديد ، عهد تأخذنا فيه الحياة إلى دورة جديدة ، شعرتُ أنّ أبواب السّماء قد فُتحتً ، وأنّ قيود السّجن قد كُسِرَت ، وأنّ طيور الحرّية قد حلّقتْ . تفاءلَتُ كما لم أتفاءل بمثل هذا من قبل ؛ وهتفتُ : حَرّْرنا!!

(٥٦)
عَدُوٌّ مُحتَمَل

عاد (أبو اصطيف) ليبيع الشّاي في ساحة مهاجعنا . . . (أبو هاني) زرع النّعنع في بعض الأصص ، وعلّقها - كما لو كان قد أَلِف أن يعلّق كلّ شيء - على دربزينات السّلّم الصّاعد إلى مكتبه ، وطلب إلى عدد من مساعديه أن يهتمّوا بها ، ويبعثوا بكمّيّات منها إلى (أبو اصطيف) ليقدّم شايًا للمساجين بالنّعنع . وعقّب قائلاً لهم : راحة المساجين تهمّنا!!!!

نزل البرد علينا كاللّيل . . . أدخلت الشّرّاقتان كمّيّات كبيرة منه لا يُمكن احتمالها ، حزّتْ عظامنا المنخورة ، واستقرّت في مُخّها . . . قاومناه بالحركة ، رُحنا نتحرّك كلّنا في أماكننا ، وأحيانًا بالانتقال وإنْ لم يكنْ سهلاً تمامًا . . . وفي اللّيل تهبط درجة الحرارة دون الصّفر ، حينها نلتفّ تحت بطّانيّاتنا القليلة مثل قطط صغيرة تبحث عن الدّفء وتتهلّف إليه . . . أسوأنا حظًّا أولئك الّذين كانت عوازلهم الّتي ينامون فوقها تقع تحت فتحتي الشّرّاقتَين . . . لم يكنْ لنا من خيار . . . طلب (مُرتَجى) منّا أن نتبادل المواقع خلال شهور الشّتاء ، فنتاوب على النّوم تحت الشّرّاقتَين بحيثُ لا يبقى الواحد منّا نائمًا لأكثر من ليلتين تحتهما . . . أظنّ أنّ اللّيلة الثّالثة لو مرّتْ على محبوسٍ وهو تحتها فإنّه من الممكن أن يتحوّل في الصّباح إلى جثّة متخشّبة!!

فاجأني (الزّعيم) اليوم بمنظره ، كان قد ربّى ذقنه وشعر رأسه بعد

أن غاب فترةً من الزّمن في دوريّاته وهو يمرّ بالمهاجع حسب وظيفته ، كان شكله غريبًا فقد بدا أحد القادمين من الأدغال ، إدارة السّجن سمحت بذلك للبلديّات فقط ، وكان يلبس جاكيتةً من جاكيتات الشّيخ (فاروق) ، سألتُه كيف حصلتَ عليها؟! فأخبرني أنّه بادلها بستّين كوبًا من الشّاي على مدى شهرين مع أحد محابيس مهجعنا ، الزّعيم يتفاهم مع (أبو اصطيف) بأكواب الشّاي مُقابل خدمات أخرى من المطبخ كزيادة في الطّعام ، والمحبوس الّذي لا يملك مالاً ليشتري شايًا يُدفِئ الأعماق مستعدّ للتّضحية (بجاكيتةٍ) من أجل مذاقٍ يُساوي الحياة في بعض الأحيان!!

قال لي (الزّعيم) يومها وهو يدنو من أذنيّ هامِسًا :

- عرفتُ شيئًا خطيرًا وعجيبًا!

- ما هو؟!

- السّجن مُلغَّم!

- مُلَغّم؟! ماذا تعني؟!

- لقد وضعوا ألغامًا وقنابل حول أسوار السّجن ، وزرعوا الآلاف من تلك القنابل هناك!!

- ولماذا يفعلون ذلك؟!

- إذا داهمهم خطرٌ من عدوٍّ ما . . . يقولون : (عدوّ مُحتمَل) ، فإنّهم ينسحبون من السّجن ، وبكبسة زرّ واحدة يفجّرونه بالكامل ، فينهدم على رؤوس المساجين ، ويتهاوى فوقهم ليدفنهم تحت الأنقاض!!

- يا لطيف . . .!! وكم عدد المحابيس في هذه الأيّام؟!

- يقرب من عشرين ألفًا .

- أمعقول أنّهم يقتلون هذا العدد بروحٍ باردة؟!!

- تسألني وأنتَ أخبر بالجواب؟!!!!!

خرج الزّعيم بعد أن وضع في يديّ - خلسةً - كِتابًا سرقه من أحد مهاجع الشّيوعيّين ، كان الكتاب رواية (الشّياطين) لديستوفسكي ، تلقّفتُه كما تتلقّف الأمّ فطيمها ، خبّأتُه في زاوية (العازل) ، وانتهزتُ الفُرَص لأقرأه . . . لم أعمد إلى إخفائه عن رئيس المهجع الّذي يُبدي توجّهًا لاحترام القراءة ، وهو ذاته قد شجّعنا على إنشاء فرقة المسرح ، كنتُ فقط خائفًا من أن يقع في أيدي الوشاة أو النّمّامين ، أو الّذين لا يَملكون ألسنتهم ، غير أنّ المحذور وقع . . . ودخل الرّقيب في صبيحة اليوم الخامس ، وتوجّه نحوي بسرعة ، وتوقّف أمامي مغتاظًا وهو يقول :

- إنتا إياد الكلب؟!!

- لأ . . . أنا إياد أسعد (أجبتُه)

جرّني من عنقي بمساعدة عسكريَّيْنِ آخرين ، وانهالا عليّ بالضّرب أمام كلّ المساجين ، تدخّل (مُرتَجى) ليقول للرّقيب :

- شُو عمل هالكلب يا سيدي؟!

- عامل حالو مثقّف!!

- هادا مثقّف . . . هادا واحد حمار . . . (كانت هذه الكلمات قد هدّأت من روع الرّقيب الّذي يبدو أنّه ارتاح لها) فقال :

- وين الكتاب . . .؟!

- وْلا . . . يا حمار إنتا مدخّل كتاب عَ المهجع؟! طلعو لشوف (توجّه مُرتجى بالكلام نحوي ، ثمّ نفض عازلي وأخرج الكتاب ، وقدّمه للرّقيب)

- خَلصْ سيدي هَيْ الكتاب . . . اتْريك هاالكلب أنا بْوَرْجيه!!

- أمسك الرّقيب بالكتاب ومزّقه بأسنانه ، وداسه بأقدامه ، وخبّط عليه ببسطاره ، ثمّ أردف موجّهًا كلامه للعسكريَّيْن :

- عَ السّوالين . . . اشحطوه عَ المنفردة خلّي الكتب تنفعه .

شحطوني ككلبٍ ميّت إلى الزّنازين الانفراديّة ، كانت هذه الزّنازين تقع في السّاحة الثّانية ، على امتداد خطٍّ داخلٍ في المجهول ، لم أكتشف مثل هذا المجهول من قبل ، ولا حتّى أيّام (فرع الخطيب) في أوّل سنتين من اعتقالي!!

مُعتِمة مثل سنواتنا الغابرات ، ضيّقة مثل آمالنا الّتي تشبّثنا بها رغمًا عنها ، خانقة مثل فرحنا المُؤجّل إلى اليوم الموعود ، حزينة مثل أرواحنا الّتي لم يُتَح لها التّحليق بعدُ ، باردة مثل قلوبنا الّتي جاهدنا لإدفائها في مستنقعات الصّقيع والجوع . . . دخلتُها على أطراف تَوْقي إلى قطف الثّمرة ، لكنّ الثّمرة سقطت من يدي في الطّين!!

وحدي مع الرّعب . . . مَنْ يحمل عنّي جزءاً منه ، من يقف معي في صفّ مقاومته ، مَنْ يُساعدني على ابتلاعه؟! كان اللّيل : لا أحد!!

مترٌ في مترٍ واحدٍ فحسب . عليك أن تأكل وتشرب وتقضي حاجتك وتنام في هذه المساحة الشّاسعة!! ولا عزاء إلاّ للقادرين على قضم حديد الوقت!!

غابتْ عنّي الوجوه في العتمات الكثيفة ، بل غابت الحياةُ نفسُها هناك . ما من وجهٍ تراه حتى ولو كان وجه الحائط . الظّلمة تُغشّي كلّ شيءٍ وتغشّي نفسها فتتداخل الظّلمات في دوائر تتوسّع كصدى حجرٍ في بحيرةٍ يصنع عددًا لا نهائيًا من هذه الدّوائر ، وهي بدورها تُعملق العتمة الطّاغية . تحوّلتْ أصابعي إلى عيون ، وأقدامي إلى مآق ، وجسدي إلى مُقَلٍ مُحدّقة في الأديم الأسود . كان عليّ أن أضيف إلى حاسّة اللّمس حاسّة البصر حتّى أقتنع بوجودي في اللاّوجود!!

(٥٧)
طِقْ... طِقْ... طِقْ...

في مساء اليوم الأوّل تناهت إلى سمعي من زنازين أخرى أصوات مُعذَّبين فارتعشتُ كجناح بعوضة . . . سبعةَ عشرَ عامًا وأنا أسمع أصواتهم فلماذا في هذا المساء بالذّات ارتعشتُ بهذه الطّريقة؟! سبعة عشر عامًا وأنا أدرّب نفسي على اعتياد انفطار القلب من أجلها ، فلماذا الآن تُرعبني بهذا الحدّ الجنونيّ؟! سبعة عشر عامًا وأنا أبتلع كتلة الألم وأزدردها راضيًا ، فلماذا اليوم وقفت في حلقي عصيّة على الابتلاع؟!

لم يكنْ سهلاً أن تنام واقفًا ، وحدها الأشجار تفعل ذلك!! فلماذا لم أتحوّل إلى شجرةً كي أستطيع مثل هذا الفِعل؟! ولِماذا لم أتحوّل إلى حِصان كي أموت واقِفًا؟! ولماذا لا آكل نفسي كذئبِ عجوز من أجل أن أرتاح من هذه المسيرة الطّويلة النّاشبة في لحمي كلاليبَ من سُمٍّ ناقع؟!

طاف الشّيخ (فاروق) في ذهني أوّل ما طاف ، استعنتُ ببسمته الرّاضية لكي أعبر جهنّم اليوم الأوّل واللّيلة الأولى هنا ، تذكّرتُ كلماته الّتي كان يختتم بها دروسه ، تلك الكلمات النّاهلات من النّور : ﴿إِنَّ رَحْمَةَ الله قَرِيْبٌ مِنَ الْمُحْسِنِيْنَ﴾ فهدأتْ نفسي قليلاً ، ثمّ تذكّرتُ : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فاجتاحت روحي رشّةٌ من عطر الفَرَج فسكنتْ!! ثمّ طوّفتُ بالآخرين أسألهم العونَ في الطّريق حتّى نِمتُ مُقرفِصًا سانِدًا ظهري إلى الجدار ، ودافِعًا صدري برجليّ ، ومتكّئًا على قفاي ، وحاجِبًا وجهي بيديّ!!

ساعةٌ هنا كيوم هناك ، ويومٌ هنا كسنةٍ هناك ، وشهرٌ هنا كعقدٍ من السّنينَ هناك!! أهو التّمحيص قبل التّمحيض ، أم الفِتنة قبل الالتِماع؟! كانت الحلقة تضيق ، والصدر يتّسع ، كانت العتمة تتكثّف والأنوار تتكشّف ، كانت الآلام تخترق والآمال تحترق . تحترق؟! بلى ؛ من أجل فسحةٍ من العيش الأخضر قادمة ولو من البعيد المجهول!!

مضى أسبوع ، لم أر فيه أحدًا ، ولم تُضِئ فيه الزّنزانة خيطًا واحِدًا ، كانوا يدفعون إليّ بالطّعام من فتحةٍ ضيّقة في أسفل باب الزّنزانة ، وكانوا يأمرونني بأن أعطيها ظهري قبل أن يفتحوها . . . في تلك اللّحظات الفارقات ، كان ينفتح ظهري معها ، وكنتُ أشعر أنّ تيّارًا من هواء الحياة يدخل إليّ هناك ، يعتلي ظهري ، وينزلق من ذلك العلوّ هابِطًا إلى قلبي ، يغلّفه بالصّبر ، ويستقرّ فيه ، ثمّ تُغلَق الفتحة فأدّثّر بما دخل منها ، وأدّخره ليوم آخر مُحاوِلاً ألاّ أنتهي مثل جيفة!!

في اليومِ العاشر أَنتنتْ رائحتي ، وامتلأتْ ملابسي بالأقذار ، وفاحتْ رائحةٌ خبيثة من (الجورة) الّتي أتغوّط فيها ، وبدا أنّ جيشًا من الحشرات والكائنات الغريبة يتّخذ من ظهري وبطني ويديّ ورِجليّ ورأسي مسبحًا له ، ومكانًا للعيش الدّافئ . حككتُ ظهري بجدار الزّنزانة فطقطقتْ أعدادٌ منها وسقطتْ عابرةً ما تبقّى لها من جسدي إلى الأرض . . . رحتُ أطرق رأسي بالجدار لأتخلّص مِمّا فيه ، فزعقتُ من الألم ، لكنّ الحشراتِ لم تغادرني ، كرّرتُ رَطْمه بالجدار بقوّة أكبر ، فزعقتُ بصوتٍ أعلى وسال منه الدّم على وجهي سخينًا كأنّه قد خرج من قِدْر تغلي . مسحتُ الدّم الّذي سال على كامل وجهي فاكتسى به ، ولعقتُ بعضه فشعرتُ بطعم السّكّر المفقود منذ يوم الدّخول إلى هنا . راقتْ لي اللّعبة ، كرّرتُها ؛ طرقتُ رأسي بالجدار مرّة أخرى ، زعقتُ كالعادة . . . فعلتُ ذلك ستّ مرّات . . . في المرّة الأخيرة

سقطتُ مغشيًا عليّ!!

لم تنفعني دراسة الطّبّ، عندما صحوتُ... لا أدري كم بقيتُ فاقِدًا للوعي هنا، قدّرتُ أنّها ليلتان، حفرتُ خطّين جديدَن إلى الخطوط العشرة السّابقة، فعلتُ ذلك بأظافري... نظرتُ بأطراف أصابعي في أنحاء المكان، فاكتشفتُ أنّهم تركوا لي دلوًا من الماء، وصحنًا من الطّعام، وملابس نظيفة... شعرتُ أنّني في الجنّة، تناولتُ الطّعام بشراهة، وشربتُ نصف الدّلو. ثمّ خلعتُ ملابسي القديمة وحشرتُها قريبًا من فتحة الجورة، ثمّ غسلتُ ما تراكم على وجهي وجسدي من قاذورات بما تبقّى من ماء، ولبستُ ثيابي الجديدة... كان ميلادًا جديدًا... وكان شعورًا بهيجًا... فكرتُ: نخلع ثيابنا المتّسخة كأنّنا نخلع ماضينا المتّسخ كذلك، ونلبس أخرى نظيفةً فكأنّنا نلبس مستقبلنا النّظيف كذلك!! غطستُ بعدها في نوم عميقٍ!!

مرّ شهرٌ انقطعتُ فيه عن كلّ شيءٍ... لم يكنْ في مقدوري أن أعرف كم سأبقى في هذه الحفرة مرميًا ومُهملاً ومنسيًا!! في إحدى اللّيالي الهادئة... كان السّكون المُخيف يغلّف كلّ شيء... تناهتْ إلى سمعي قطراتُ ماءٍ تنزل من صنبورٍ وتطرق الأرض بطقطقتها الرّتيبة: طِقْ... طِقْ... طِقْ... دخلَ الصّوتُ من فمي في أوّل الأمر فابتلعته في جوفي بهدوء، ثمّ بدأ يزداد فغالبتُه بالابتلاع أسرع، ولكنّه في النّهاية غلبني... لم يكن بمقدوري أن أبتلع كلّ هذه الأصوات دفعةً واحدةً، فاضتْ بإيقاعها الرّتيب عن حدود عقلي فبدأ رأسي يترنّح على إثرها... أمسكتُه بيديّ أحميه من السّقوط، وأتداركه من الانفجار... غير أنّ: طِقْ... طِقْ... طِقْ... لم تتوقّف، ولم تسمع رجائي الصّامت أن تتوقّف... صرختُ غير أنّ صرختي لم تخرج من فمي، كنتُ أضعف

من أن يصدر عنّي أيّ شيء، كان جسدي هزيلاً لطول ما جاع، وكان عظمي واهِنًا لطول ما تقوّس في الجغرافيا المُتاحة!! بدأتُ أستسلم للجنون . . . كان الاستسلام له أسهل الطّريق، وأكثرها راحةً، هتفتُ في داخلي: مَنْ يُعينني على أن أجنّ، ومن يُشاركني هذه الدّرب اليسيرة؟! كنتُ ماضِيًا بخطًا حثيثةً نحوها كي أرتاح من وطأة التّكاليف القاسِية؟!!

ماذا ظلّ من رفقاء الدّرب؟! هنا في هذه الحفرة التّحتيّة الّتي تدكّ سقفها وحوش أسطوريّة قادمة من القرون الوسطَى: ماذا ظلّ لي كي أتذكّره؟! ومن فقدتُ لأتذكّر؟!!! الرّاحلون كثيرون فكيفَ ألتقطُهم من تلافيف الذّاكرة لأستعيد صُورهم الّتي غبّشها كرُّ السّنين ومَرّ الدّهور؟! هنا تُلغي ذاكرتك أقدام الوحوش الأسطوريّة العابرة سقف تحتيّتك، لكنّها في الوقت نفسه تُسدي إليك خدمةَ تذكيرك بأنّك ما زلتَ حيًا، وما زلتَ قادِرًا على أن تسمع الأحياء ولو كانوا وُحوشًا!!

ماذا ظلّ من (العميد)؟! هل رحل مع الرّاحلين أم بقي مع الميّتين هنا؟! أم خرج ليولَد من جديد؟! وماذا ظلّ من (نبيّنا) الّذي قتله أحد الّذين دعاهم إلى رسالته ذات لقاءٍ في خريف العمر الّذي بدأ يصيبه الخرف؟! وماذا ظلّ من أخي (أحمدً) الّذي غادرني إلى جِنان النّعيم وتركني هنا وحيدًا أجترّ الجنون والرّعب والخيبة؟! وماذا ظلّ من الصّحابة الّذين غطّوا زغبَ ريشي بجناح المودّة حينَ كنتُ أرتجف في ليالي العذاب الطّويلة والباردة؟!

نعم . . . أتذكّر لأعيش، لأزحزح الجنون قليلاً، لأحرّك قبضة الموت المُمسكة بِخناقي عن عنقي قليلاً . . . نعم . . . أتذكّر لكي لا أفقدني، أو أفقد ما تبقّى مِنّي. أتذكّر لكي أهرب من ذئاب الهلع الرّاكضة خلفي، لكي أختبئ عن أعين العدم المُحدّقة بي من كلّ جهة، والمتربّصة بي في كلّ حين. أتذكّر لكي لا أنسى بشريّتي،

ولكي أظلّ متواصلاً مع أبناء جنسي دون أن أفقدهم في دوّامات الحياة الّتي تُطّوح بهم بعيدًا عنّي وعن ذاكرتي . . .!!

غير أنّ الجواد الّذي ركض في كلّ الاتّجاهات ، وصهل في كلّ الحقول ، وشرب من كلّ الينابيع ، وحمحم في كلّ البراري لم يعد قادِرًا على احتمال المزيد ، وآن لِمَن حوله أن يُطلق عليه رصاصة الرّحمة!!

نعم . . . في الشّهر الثّالث نسيتُ الكلام . . . وفي الشّهر الرّابع نسيتُ اسمي . . . وفي الشّهر الخامس نسيتُ عقلي . . . وفي الشّهر السّادس حاولتُ أن أستعيد الكلام فرحتُ أبَقبقُ كالدّجاج . . . وفي الشّهر السّابع انفتح باب الزّنزانة بكامله على المُطلَق!!

(٥٨)
الرّئيسُ بِقلبِهِ الكبير...

أخذوني إلى غرفة مدير السّجن، بعد (٢٠٧) أيّام من الحبس الإنفراديّ، أوقفوني على الباب، كان المدير جالِسًا إلى مكتبه يُقلّب ملفًا بين يديه، ويقرأ ما فيه وهو يهزّ رأسه بين الفينة والأخرى، سألني:

- إنتَا إياد عبد القادر أسعد؟!

لم أُجِبْ. سألني مرّة أخرى السّؤال نفسه فلم أُجبْه كذلك!!

حدّق فِيّ مُستغرِبًا، وسألني بصوتٍ أعلى:

- إنتَا إياد عبد القادر أسعد، واسم إمّك (بهيجة)؟!

لم أُجِبْ للمرّة الثّالثة:

- وْلا إنتا ما بْتِسمع ولاّ خْمار؟!

كنتُ بالفعل قد فقدتُ قدرتي على الكلام إلى جانب أنّني نسيتُ اسمي أيضًا. وحده اسم أمّي هوى بمطرقة الذّاكرة على رأسي فأحسستُ أنّ هذا الاسم الّذي لم ينطقه أحدٌ أمامي قبل أكثر من سبعةَ عشرَ عامًا يخصّني، وأنّه قد أيقظني من سُباتي.

تولّى أحد العساكر الإجابة عنّي، فحفظتُ اسمي كأنّني أتعرّف إليه لأوّل مرّة. قال الشّرطيّ:

- نعم يا سيديّ هوّه... إياد عبد القادر أسعد.

- كِنتَ طبيب تعمل في مستشفى؟! (سألني من جديد)

هززتُ رأسي عشر مرّات قبل أن أحاول الكلمة الّتي استعصتْ عليّ ، ثمّ خرجتْ كأنّها حجرٌ كنتُ قد ابتعلتُه في جوفي :

- نعم . . .

- تهمتك؟!

- لا . . . لا أدري!!

- قيادي في شباب الطّليعة!!!

- . . . .!!!

- عجيب؟!!

- . . . .؟!!

- الرّئيس عفا عنكُنْ .

هبطت الجملة الأخيرة كالصّاعقة على رأسي ، حاولتُ أن أستعيدها لأفهمهما ، توقّفْتُ عندها لأعرف ما تعني . . . تابع المدير الّذي غابت صورته عن ناظريّ في غمرة انشداهي ، وصلني صوتُه وهو يقول :

- الرّئيس بقلبه الحنون ، وعطفه الأبويّ قرّر أن يعفو عنكم مع أنّكم لا تستحقّون إلاّ الموت . . .!! لكنْ هكذا قلب الرّئيس . . . ومشيئته غالبة . . .

نظرتُ في داخلي . . . بكيت . . . انهمرت دموعٌ غزيرةٌ على خدّيّ . . . لم أبكِ فرحًا ، كان شعورٌ بالمهانة يدفعني إلى ذلك!!

عفوٌ؟!!!!! عَمّ . . .؟! ومِمّن . . .؟! ولِماذا . . .؟! مَنْ قال لكم إنّني أستحقّ مثل هذا العفو اليوم؟! مَنْ قال لكم إنّني أريد أن أخرج من عالَمي هذا الّذي عشتُ فيه وعاشَ فِيّ سبعةَ عشر عامًا إلى عالَم آخر؟! مَنْ سَيُغلِق عليّ الباب بعد اليوم فإنّني أدمنتُ الغرف الضّيّقة المُغلَقة؟! مَنْ يشدّ القيد على يديّ ورجليّ فإنّني أدمنتُ إيقاع الأغلال وأنا

أرسف في زَرَدِها؟! مَنْ يفتح لي شرّاقةً في سقف البيت فإنّني تعودّتُ على مربّع السّماء الأزرق المُوشّى بالبياض المرسوم داخل حدودها؟! لا أريد أكثر من هذه القطعة الصّغيرة من السّماء الزّرقاء في النّهار أو الكحليّة في اللّيل!!

أعادوني إلى الزّنزانة أسبوعًا آخر ، ظللتُ طواله أتحسّس أطرافي لأصدّق ما حدث ، أو لأفهمَ ما سمعت . . . بدأتْ حمامات الفرج تضيء لي العتمات ، تآلفتُ شيئًا فشيئًا مع فكرة أنّني يُمكن أن أُصبحَ طليقًا . في اليوم الثّامن تلقّاني الجلاّد الأكبر (هشام) ، كان قد قَدِمَ من فرع (كفرسوسة) من أجلي ، قال لي بالحرف الواحد :

- لقد كنتَ أحد أهدافي الرّئيسيّة من بداية الثّمانينات ، وكلّ الحمير السّابقين الّذين حققوا معك كانوا قد حَمَوْكَ منّي .

- ما صار شيءٌ . . . . إذا شئت ابدأ الآن من جديد . . . (أجبتُه وأنا أهزّ كتفيّ بلا مبالاة ، وبثقةٍ أنا نفسي تعجّبْتُ منها)

- بِوُدّي . . . ولكنّ الرّئيس بقلبه الكبير عفا عنك .

- عفا عنّا؟! أيّ نوع من المجرمين كُنّا حتّى بقينا في السّجون سبعةَ عشرَ عامًا!! كنتُ أتمنّى أنْ أكون مُجرِمًا لأستحقّ كلّ ما حدث!!

- لم تتغيّر منذُ أيّام التّحقيق الأولى . . . أقسم لولا أنّه قرارٌ من الرّئيس لفصلتُ لحمك عن عظمك ورميتُه للكلاب . . . ولجعلتُ من أَلْيتيك صابونًا!!

ضغط على الجرس بعصبيّة ، دخل أحد العساكر أدّى التّحيّة ، وانتحى جانبًا . قال له :

- أعطي ها الحيوان بدلة خروج ، و(١٠٠) ليرة .

- حاضر سيدي!!

(٥٩)
لم أجرِّبْ طراوةَ مثل هذه مِن قبلُ!!

كنّا تسعة عشر سجينًا قد أُفرِجَ عنّا في صباح ذلك اليوم المشهود . لم أعرف أحدًا منهم ، مع أنّنا تقاسمنا الوطنَ نفسه لما يقرب من عقدين من الزّمن!!

أعطونا بدلات جيش مُبرقَعة ، فلبسناها ، لم يستطع شكلها البغيض أن يقتل بهجتنا الغامرة بالفرج ، وشعورنا الطّافح بالخلاص ، لبسناها كأطفال تلبس ثياب العيد ، واستلم كلّ واحدٍ منّا (١٠٠) ليرة كأنّه استلم كنوز قارون . دسسناها في إحدى الجيوب ، وانتظرنا الأوامر .

تقدّم إلينا رقيبٌ نراه لأوّل مرّة ، يبدو أنّه كان قادمًا من دمشق مع الباص . قال لنا وهو يبتسم بلهجةٍ ودودة :

- مبروك الإفراج . . . أرجو من حَضَراتكم ألاّ تُحدِثوا صوتًا حين نمرّ بالأسواق في طريق عودتنا!!

ظننّاه عندما قال (حضراتكم) أنّه يعني غيرنا ، لكنّنا تنبّهنا بعدها أنّه لا يُوجد غيرنا في الغرفة كلّها . أصلحتُ هندامي طربًا للكلمة بعد أن فهمتُ أنها لنا . كان واضِحًا جوعنا إلى الإنسانيّة!!

خرجنا من البوّابة الكبيرة ، ورمقتْنا من بعيد عيون الجلاّدين ، هممتُ بأن أرفع يدي مُودِّعًا ، شعرتُ أنّ سبعة عشر عامًا قد بنتْ في داخلي شيئًا من المودّة غير المُفسّرة تُجاههم . . . خانتني يدي ، فالتفتُّ

بجذعي إلى الوراء ، وابتسمتُ في وجوههم ، كانتْ دمعةٌ قد انحدرتْ من عيني اليُمنى القريبة منهم . . . بدوا كتماثيل من الشّمع راحتْ تذوب خجلاً . . . دفعني المحبوس الموجود في القاطرة خلفي حينَ هممنا بالخروج الكامل .

خلف البوّابة الكبيرة كان في انتظارنا باصٌ للجيش حديث الصّنع ، فكّوا قيود كلّ واحدٍ منّا حينَ صرنا على بابه ، صعدنا وجلسنا على مقاعد طريّة . حين لامس قفاي طراوة المقعد فززتُ واقفًا على الفور كأنّ أفعى قد لدغتْني ، رمقني الشّرطيّ سائق الباص وابتسم ؛ منذ سبعة عشر عامًا لم أجلس على مقعدٍ وثيرٍ كهذا ، ولم أجرّب طراوةً مثل هذه!! عدتُ إلى الجلوس مرّة أخرى ، وبدأ خيط الشّكّ ينسحب تاركًا مكانه أشجارًا من اليقين بدأتْ تتجذّر في القلب!!

مشى الباص وهالَني حجم الحياة الكثيف المكشوف من خلال زجاج النّوافذ ، بدا أنّ هناك بشرًا يمشون في الشّارع بشكلٍ طبيعيّ ، لم يكن مُمكِنًا ابتلاع مشهد الحرّيّة هذا بسهولة . تابع الباص سيره في سوق قديمة من أسواق تدمر ، كان السّوق مكتظًّا بالبشر ، نظرتُ إلى مجموعهم أتفحّصهم بعينَين واسعتَين ، ثمّ أردّ هاتين العينين لأنظر إليّ وإلى زملائي في الباص لأكتشف أنّنا مثلهم ، وأنّنا يُمكن أن نستعيد بشريّتنا بعد أن كنّا على وَشْك فُقدانها .

ها هي المحلاّت تفتح أبوابها ، بعضُها ما زال مُغلقًا ، وبعضها ابتدأ منذ الفجر رحلة البحث عن الرّزق . . . مَررْنا بمطعم شعبيّ ، هدّأ الباص من سرعته لازدحام الشّارع . . . تصاعدتْ من المَطعم رائحة البيض المقليّ بالجبنة ؛ أحلى رائحة أشمّها منذ سبعة عشر عامًا بعد أن تعوّدتُ رائحة العفن والرّطوبة والزّرنيخ والصّدأ والدّم والعرق والجرب . . . ظلّ الباص مستمراً في مشيه الوئيد ، كانت النّاس تمشي

حوله وتقفز من أمامه غير عابئةٍ وهو يُطلق بوقه من حينٍ لآخر .

انفتح قاموس الرّوائح عندي على صفحة جديدة . . . رأيتُ مطعمًا صغيرًا على زاوية شارع كان صاحبه يقلي أقراص الفلافل بطريقة ماهرة ، وبحركة سريعة . . . مَخَرتِ الرّائحة عُباب الفراغ البسيط الحاجز بيننا ودخلتْ رئتيّ بسلام فأيقظتْ فيّ جوعًا إلى طعمها الّذي لم أتذوّقه طوال سنين ، هممتُ بأن أمدّ عنقي من النّافذة وأطلبُ منه بعض الأقراص ثمّ تراجعت . أمام هذا المطعم الصّغير رأيتُ عجوزًا يجلس على مقعد من كراتين البيض المُكوَّمة فوق بعضها ، وهو يتناول كأسًا من الشّاي بالنّعنع . . . بدتْ أبخرته المتصاعدة كراقصة في حفلٍ خليع . . . شربتُ شايًا بالنّعنع أيّام (أبو اصطيف) ولكنّ هذا الشّاي مختلف ؛ شاي (أبو اصطيف) كانت تتصاعد منه أبخرة العبوديّة ، ومن شاي هذا العجوز تتصاعد أبخرة الحرّيّة ، وشتّان بين الأمرين!!

ظلّ الباص سائرًا في طريقه إلى غايته المقصودة ، وبقيتُ أنهل من منظر النّاس الّذين بدوا كأنّهم قادمون من كوكب آخر!! تركْنا تدمر وراءنا . . . . حينَ غادرها الباص شعرتُ أنّ إرثًا ثقيلاً من الحرمان قد انزاح ، وأنّ عهدًا جديدًا قد ابتدأ . . . توقّف المدّ البشريّ عن التّموّج ، صارت الطّرقات خالية ، وبعد قليلٍ صارت الصّحراء تلفّ الأفعى الوحيدة الّتي ينزلق باصنا على جلدها الأملس .

هيّجت الصّحراء حزنًا دفينًا بأعماقي ، تذكّرتُ الّذين ابتعلتْهم من رفقائي ، ورحتُ أبحث عن جسد أخي الطّاهر من بينها ، فأعياني البصر ، وانقلب وهو حسير . . . صار المنظر حولنا رتيبًا . . . تعبُ الشّهور السّبعة الأخيرة داخل الزّنزانة الانفراديّة فرّغتُه هنا . . . ركزتُ رأسي على الطّرف الأعلى للكرسيّ الوثير وغططتُ في نومٍ عميق!!

(٦٠)
طلعتْ شمسُ جديدةٌ

استيقظتُ على صوت سائق الباص وهو يصيح بنا : يلاّ شباب وصلنا . . . الحمد لله عَ السّلامة . . .

نزلْنا في ساحة العبّاسيّين ، أوقفتُ (تاكسي) ، وسألته : كم تأخذ؟! قال لي : (٢٠٠) ليرة . فاوضتُه على (١٠٠) هي كلّ ما أملك ، وهي من بركات الدّولة بعد سبعة عشر عامًا من العذاب . قال لي : شكلك غريب إنت وين عايش ، (١٠٠) ليرة ما بتوصلك للحميديّة . . . قلتُ : إذا وصلتُ إلى بيتنا ووجدتُ أحدًا سأعطيك المئة الأخرى . وافق . وركبتُ السيّارة ، وانطلقْنا . . .

وصلتُ إلى البيت ، ارتجفتْ ساقَيّ وأنا أهمّ بالنّزول ، مَنْ سيستقبلني : أمّي أم أبي أم زوجتي أم ابنتي؟! وهل سيعرفونني حينما يرونني أم لا؟! وكيف سيبدو حالُهم إذا صدّقوا أنّني متّ منذ سنين طويلة كما أشاعت الدّولة؟! هل سيتقبّلون فكرة أنّ هذا الميّت قد خرج من قبره وعاد إليهم حيًا؟! أم سيُنكرونني ويصيحون في وجهي ، ويطردونني من المكان كلّه؟!!

ظلّ السّائق ينتظر . . . توجّهتُ إلى بيت أبي وأمّي . . . أنا وزوجتي في البداية كنّا نسكن في الجزء الأسفل منه . وصلتُ الباب . . . كان قد علاه الصّدأ ، واهترأ منذ فترةً طويلة ، طرقتُ الباب فلم يفتح أحد . كانَ الباب يحكي قصّة سبعة عشر عامًا من الغياب ،

بدا حزينًا هامدًا لا أثر للحياة فيه . . . طرقتُ عليه مرّة أخرى ، فجاءني صوتٌ من أحَد البيوت المُلاصِقة : مين . . . مين؟! لم يكنْ صوتَ أمّي أنا أعرف صوتَها رغم طول الانقطاع . . . لكنّه كذلك صوتٌ مألوف . . . خرجتْ لتنظر من الطّارق ، ولمّا رأتْني صُدِمت لمنظري ، كنتُ هيكلاً عظميًا يُغطّيه جلدٌ رقيق . . . شهقتْ وهي تضع يدها على فمها ، ثمّ دقّقت النّظر ، وقالت : الدّكتور إياد . . . قلتُ (مُمازِحًا) : هو بجلده وعظمه . . . كانت هذه العجوز هي أمّ عبد القدير جارتنا القديمة وصديقة أمّي العتيقة . بادرتُها بالقول :

- وين أهلي . . .؟! ليش ما عَم يْردّوا . (أطرقت جارتنا وهي تُداري دمعةً ساحت على وجهها ، ثمّ تَشجّعتْ وقالتْ :

- إمّك الله يرحمها . . . (ثمّ نشقتْ ما تبقّى من دمع سائح من العينين) . أمّا أنا فأحسستُ أنّ طعنةً اخترقتْ قلبي وخرجتْ من الجهة الأخرى ، خارتْ قُواي ، وكدتُ أسقط على الأرض . . . تابعتْ جارتُنا :

- ضَلّتْ تِتْزَكّرك وتستنّاك لآخر يوم بْحياتَا . . .!!!

- وأبي؟!

- تزوّج وراح للسّعوديّة!!

- ومَرْتِي . . . .؟! كان سائق التّاكسي ما زال ينتظر ، انتبهتُ لذلك حين أطلق زامور سيّارته مُذكِّرًا لي بالمئة ليرة الأخرى . . .

- مَرْتَكْ هوني . . . تحت من عند هالدّرج يمكن تكون موجودة . . .

- ماشي . . . ماشي . . . خالتي هالتّاكسي باقيلو مية ليرة لإنّو جابني من الشّام ، إذا مَعِك ناوْلِيه وأنا بعطيكي . .

- حاضر خالتي . . . حاضر . . . الحمد لله عَ السّلامة . . . .

توجّهتُ أسفل الدّرج ، أمعقولٌ أنّها انتظرتْني كلّ هذه السّنين؟!

وتحمّلتْ معي كلّ هذا العذاب؟! ومَنْ كان يُنفِقُ عليها في غيابي؟! أبي أم أهلُها؟! أم لا أحد؟! كيف كانت تتدبّر أمر معيشتها هي ولمياء؟! نعم . . . و(لمياء) كيف سيكون اللّقاء بها إذا رأتْني مُقبِلاً نحوها كمومياء؟! هل سيتحرّك الدّم فتعرف أباها؟! أم أنّ هذا الدّم فقد خلاياه منذ أزمنة الحرمان العميقة؟! وأمّها هل أبقتْ على صلتي بابنتي حين ظلّتْ تُحدّثها عنّي، أم دفنتْني كما دفنني الآخرون بعد شهرٍ أو شهرين من الاعتقال الأوّل؟!

كان الخوف أكبر من أن أخطو خطوةً واحدة باتّجاه الباب . . . الشّمس في الأفق تأذن بالرّحيل، والنّهار يودّع آخر دقائقه، وإذا لم أقتنص الفرصة فقد يضيع النّهار إلى الأبد، وتنفلت الشّمس من بين أصابعي دون إياب . . . تشجّعتُ أكثر، فكّرتُ: أنا الّذي تحمّلتُ ما لم تتحمّله الجبال من أجل لحظة اللّقاء هذه أضيّعها من بين يديّ؟!! أنا الّذي قاومت الموت والمرض والجنون والرّعب من أجل هذه اللّحظة أجبن الآن من أن أعيشها؟! لا . لن أترك الموت مهزومًا هناك في مقبرة تدمر ليهزمني هنا في ساحة الحياة المُقبلة . . . انحلّتْ عُقَدُ رِجليّ، ومشيتُ وما زال بعضُ كرات الخوف الصّغيرة تعبثُ بأسفل قدميّ . . . طرقتُ الباب، وانتظرتُ قليلاً، قبل أن يأتيني صوتُها من الدّاخل:

- مين؟!

لم يكنْ صوتَ زوجتي . . . إذًا هذا صوتُ لمياء . . . ارتجفتُ على إيقاع هذه الحروف الثّلاثة، ولم أستطع أن أبلع ريقي . . . رحتُ جاهدًا أحاول ذلك، حرّكتُ رأسي ذات اليمين، وتقدّمتُ خطوةً أخرى لأطرق الباب، فانفتح الباب الأخير عنها . . . عن الفردوس المفقود . . . عن الحبيبة الغائبة . . . عن الغالية المُنتَظَرة . . . لم تعرفْني . . . غير أنّها شكّتْ بأنّه ربّما مرّ مثلي في خيالها ذات مرّة . . . نادتْ أمّها وأنا في

الخارج أرتعش كعصفور :

- إمّي . . . فِي رِجّال غريب . . .

نعم . . . غريب (قلتُ لنفسي) ، وأيّ غربةٍ أقسى من تلك الّتي عشناها؟! وأيّ غربةٍ أفظع من تلك الّتي تُحاوِل أن تنفيك من الحياة . . .

لم أجرؤ أن أتقدّم أكثر لأقول : إنّك ابنتي ، وإنّ هذا بيتي . . . بقيتُ مأخوذًا أحدّق في وجهها وهي ترجّع النّظر فِيّ مرارًا . . . جاءت أمّها وقد غطّتْ على رأسها ، وحينَ رأتْني تمايلت يمينًا ويسارًا . . . أنقذتْ نفسها من السّقوط بالاتّكاء على الجِدار ، زاد المشهد من تساؤل البنت ركضتْ إلى الدّاخل لتأتي بكأسٍ من الماء . . . تشجّعتُ هذه المرّة ، خطوتُ نحوها ضممتُها إلى ذراعيَّ ، فاستيقظ كلّ الشّوق في قلبينا ، وانفتحتْ كلّ أنهار البكاء في عينينا . . .

نعم . . . إنّه أنا . . . لم أمتْ . . . ولم أُعدَمْ . . . ولم يرموا جُثّتي إلى الكلاب في الصّحراء . . . . نعم . . . . إنّه أنا . . . أنا الّذي قاتلَ كلّ شيءٍ ليفوز بكما . . . وخَسِرَ كلّ شيءٍ ليربحكما . . .

- هادا أبوكِ . . . هادا أبوكِ . . . . أبوكِ . . . أبوكِ . . . . (خنقتْها الدّموع)

لم تستطعْ أن تقول كلمةً أخرى لها عنّي ، حضنتُها بشوقٍ تعتّق في كأسِ عمرها سبعة عشر عامًا . . . ها هي ساحرتي . . . ها هي ابنتي الفاتنة . . . ها هي حبيبتي الّتي كان أمل اللّقاء بها في مثل هذه اللّحظات قد أعاشني إلى هذه اللّحظات . . .

كان الغروب قد أزِف ، لكنّ الشّمس لم ترحل . . . ولم تغب . . . بل طلعتْ شمسٌ جديدةٌ أخرى لأعيش في فلك شمسين ظلّ نورهما - على البعد - يبعث الحياة فِيّ من جديد كلّما هاجمني الموت!!

الله أكبـر . . . الله أكبـر . . . منذ ذلك الفـجـر إلى اليـوم والفـرج يختبئ خلف هاتين الكلمتين . . . اليوم جئت لأسمعهما دون قيود . . .

الله أكبر . . . الله أكبر . . . انطلقتْ من مآذن المسجد القريب من بيتنا . . . قالتْ زوجتي :

- عَرْفان مِين عَم يأذِّنْ؟!

- لأ . . .!! كيفَ بدّي أعرف؟!

- هادا أحمد . . .؟!

- أخي؟!

- طبعًا لا . . . سميّناه عَ اسم أخوك . .

- مين لَكانْ أحمد . . .

- ابنك .

- ابني . . .؟! شو عَمْ تِحكي . . .؟!

- ابنك إلّي كِنْت حامِل فيه لمّا أخدوك . . .

كانت أمّه قد صنعتْ منه حمامةً لا تُفارق المسجد . . . عرفتُ حينها أنّ : الله أكبر . . . الله أكبر . . . الّتي انطلقتْ من مآذن مسجدٍ في (تدمر) ليلة الفجر المشهودة تلك ، كان صداها يتردّد في الكلمات نفسها الّتي يرفعها ابني من هذا المسجد القريب من بيتنا . . .!!

د . أيمن العتوم

عمّان ٢٠١٢/٩/١٥م

صدرَ للمؤلف:

عن المؤسسة العربيّة للدّراسات والنشر :

١- يا صاحبَي السّجن (رواية) :

الطبعة الأولى آذار ٢٠١٢ .

الطبعة الثانية حزيران ٢٠١٢ .

الطبعة الثالثة آذار ٢٠١٣ .

٢- نُبوءات الجائعين (ديوان شعر)

الطبعة الأولى ٢٠١٢

٣- يَسمعون حسيسها (رواية) :

الطبعة الأولى تشرين أوّل ٢٠١٢ .

الطبعة الثانية كانون ثان ٢٠١٣ .

الطبعة الثالثة أيّار ٢٠١٣ .

٤- قلبي عليك حبيبتي (ديوان شعر)

الطبعة الأولى آذار ٢٠١٣ .

H E A R I N G   I T S   H I S S I N G



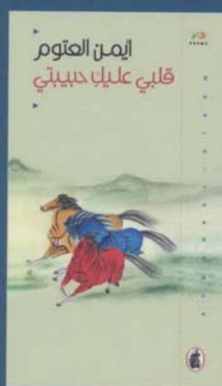
الطبعة الثالثة 3

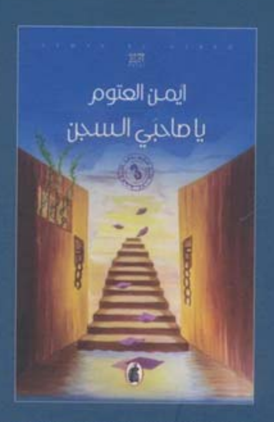
يسمعون حسيسها

خلف الوادي انتشرت أشجار هرمة، إلاّ أنها ظلّت خضراء على طول عمرها الّذي تجاوز مئات السنين .. وقفتُ أمام شجرة لزّاب عتيقة، وخاطبتُ فيها الراحلين جميعًا، من جدّي إلى جدّتي إلى عمّتي إلى حمار جارنا إلى كلب صديقي إلى قطّة جارتنا إلى ببّغاء أخي: لقد شهدتكم هذه الشجرة العتيقة. أنتم مضيتم وظلّت هي باقية. أنتم شربتم من ماء الموت، وهي ظلّت تسقى من ماء الحياة. أنتم ذبلتم وظلّت هي مخضرّة. أنتم توقفتم عن العطاء عند حدّ الثواء، وهي ظلّت تعطي كأنّها من النهر نفسه تستمدّ البقاء. أنتم أنبتّم من جذوركم فسقطتم على جبهاتكم في حفر التراب، وهي ظلّت تضرب جذورها في التراب ورؤوس أغصانها في رحب الفضاء. أنتم فانون وهي إلى الآن باقية. وأنا عمّا قريب لاحق بقافلتكم، وستشهد هي أيضًا رحيلي، فلا تبعدوا كثيرًا، فإن زمن بقائي قصير، ولكنّ زمن وحشتي طويلٌ طويل .. وفي كلّ منعرج في هذه الدروب تمدّ الشجرة غصنًا من أغصانها لتهمس في أذني: هذه هي الحياة .. هذه هي الحياة ..!!

حين تمدّدون جسدي في القبر، تريّثوا قليلاً قبل أن تهيلوا عليه التراب. اقرأوا عليه آيةً أخيرة لتسكن آخر نبضات قلبه، فقلبه لم يحمل إلاّ العشق، ولم يترع إلاّ بالحبّ، ولم يشكُ ولم يضجر. ظلّ راضيًا حتّى ثوى في الرضى؛ ثمّ أشيروا إلى جسدي المسجّى وقولوا: هذه هي الحياة .. هذه هي الحياة ..!!








9 786144 193013

